

الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

ذكرى البطل الفاتح
أبراهيم باشا
١٨٤٨ - ١٩٤٨

مجموعة أبحاث ودراسات لتاريخه
تنشرها الجمعية بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاته

البتامة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٤٨



البطل الفاتح ابراهيم باشا

المحتويات

| صفحة | |
|------|---|
| (هـ) | كلمة حضرة صاحب المعالي الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى باشا ... |
| (ح) | » » » السعادة محمد طاهر باشا |
| | مقدمة الكتاب : ابراهيم باشا وبناء النهضة المصرية لحضرة صاحب العزة |
| (ط) | الأستاذ شفيق غربال بك |

القسم الأول - التاريخ السياسى

| | |
|-----|--|
| ٣ | ابراهيم باشا فى بلاد العرب للدكتور عبد الحميد البطريق |
| ٣٣ | » » » اليونان للأستاذ محمد أحمد حسونه بك |
| | جهود ابراهيم باشا فى خدمة الزراعة والصناعة والتجارة للدكتور |
| ٧٩ | أحمد أحمد الحته |
| ١٠٧ | إدارة الشام للدكتور أسد رستم |

القسم الثانى - التاريخ الحربى

| | |
|-----|--|
| ١٣١ | الجيش الذى قاده ابراهيم باشا للبكاشى عبد الرحمن زكى |
| ٢١١ | حرب كريت والمورة للبكاشى أحمد فهم بيومى |
| ٢٨١ | حملة الشام الأولى والثانية للبكاشى عبد الرحمن زكى |

كلمة حضرة صاحب المعالي
الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهوري باشا
وزير المعارف العمومية

تهيات الجمعية الملكية للدراسات التاريخية مناسبة من أكرم المناسبات لتتقدم
بباكورة أعمالها للناس . ويشرفني ويسعدني أن أقدم لهذه الباكورة الصالحة .
ولعل الجمعية لا تجد مناسبة أكرم من ذكرى انقضاء مائة من الأعوام على وفاة
إبراهيم ، بطل مصر العظيم ، للتقدم بأول ثمرة من ثمار جهودها الموقرة المباركة .
وإني لأذكر اليوم الذي تخرج فيه مرسوم لإنشاء الجمعية بالتوقيع الملكي الكريم ،
وأذكر معه ماخالج القلوب من آماني رحبية ، وما طاف بالنفوس من آمال واسعة ،
تعلقت جميعا بهذه الجمعية الكريمة التي ضمت فيمن ضمنه الأفاضل من رجال التاريخ
في مصر ، وقد صحت عزيمتهم على أن تتألف جهودهم ، وتتكافل قواهم ، لينشروا
على الناس تاريخ مصر القومي القريب والبعيد ، مكتوبا بأقلام جمعت إلى المدقة
التاريخية ، والأمانة العلمية ، قوة التحليل ، وروعة العرض ، وحرارة الإيمان بالوطن .
وها قد بدت تبشير تؤذن بأن ما كان أمنية بالأمس أصبح اليوم حقيقة واقعة .
وها نحن نشهد عملا جليلا بدأت به الجمعية أعمالها . وقد اكتمل لها التوفيق ،
فعمدت إلى صفحة من أروع صفحات التاريخ المصري الحديث فنشرتها ،
وإلى بطل من أعظم أبطال مصر الحديثة فألقت ضوءا قويا على سيرته المحيدة ،
وهي حافلة بالعظائم ، مليئة بالمفانر ، بطل ألقت الأحداث في يديه القويتين أقدار
البلاد ، فأدار دفتها ، وسار بالسفينة بين الأمواج الصاخبة والعواصف الهوجاء ،
حتى قادها إلى بر الأمان . وها نحن نقرأ فصولا ممتعة في تاريخ إبراهيم ، ديجها يراع
طائفة من كبار المؤرخين ، وكل فصل حوى تاريخ حقبة من حياة هذا الرجل العظيم .
فاذا أنت بدأت في قراءة الفصل الأول من هذا التاريخ الزاخر بالأعجاد لا تكاد

تصبر حتى تأتى على آخر فصل فيه ، وأنت تنتقل من ناحية الى ناحية فى تاريخ رجل وسعت عظمته أن يكون القائد المظفر ، والسياسى المحنك ، والإدارى الحازم ، والمصالح الحكيم . كل هذا فى أسلوب علمى رصين ، يأخذك منه دقة التحليل ، وأمانة العرض ، وسمو المعنى ، وإشراق الديباجة ، وسلاسة اللفظ . فلا تملك إلا أن تحمد للجمعية ما قدمت ، وللكتاب الذين ساهموا فى صنع هذا الأثر الجليل ما بذلوا من جهد موفق ، وما قاموا به من عمل مشكور .



وبعد فلا يسعنى ، وأنا أقدم لكتاب تذكارى فى تاريخ إبراهيم ، إلا أن أحيى ، ولو فى كلمة موجزة ، هذا البطل العظيم . وها قد مضى على وفاته مائة من الأعوام وذكره لا تزال النفوس بها مغمورة ، والقلوب بها عامرة . بل إن ذكره لتتجدد كل يوم فى هذه الحقبة من التاريخ التى نعيش فيها الآن ، ونحن نرى الجيوش المصرية المظفرة تخوض المعارك مرفوعة الأعلام فى سبيل المجد العربى ، وفى سبيل الوحدة العربية . فنحن اليوم ، وبعد قرن كامل ، نحاول تجديد أيام إبراهيم ، وهو البطل الذى عمل للاستقلال العربى بعد أن زال هذا الاستقلال ، وللوحدة العربية بعد أن انفرط عقد هذه الوحدة . فما أشبه الليلة بالبارحة ...

بدأ إبراهيم مجده العسكرى فى الصحارى العربية . وأتم هذا المجد فى الوديان والسهول العربية . اذا لم يكن إبراهيم عربى المولد ، فإنه عربى النشأة والموطن ، عربى اللغة والعاطفة ، عربى المجد والعظمة ، "أتى مصر طفلاً فغيرت شمسها دمه بغيرى عربياً" .

جاء إبراهيم فى عصر كانت الأمة العربية فيه قد نسيت نفسها ، فانحلت روابطها ، واندكت صروح مجدها ، وعثرت ولج بها العثار . فقاد جيشاً مصرى عربياً الى مواطن العزة والمجد ، وحرر البلاد العربية من نير شديد الوطأة ، وأيقظ الوعى العربى من سبات عميق ، وأطلق الروح العربية من عقالها التى رسفت فيه

قرونا . ولولا تألب الدول الغربية بالأمس ، كما هي تتألب اليوم ، لأعاد للعرب مجدهم القديم ، ولحدّد الامبراطورية العربية شاحنة المجد ، عالية الأركان .

فاذا ذكرنا ابراهيم بعد مائة عام من وفاته ، فلائن روحه العربية الجبارة هي التي تسيطر اليوم على تفكيرنا ، وتملك علينا عقولنا ، وتوجه الأمة العربية الى طريق الوحدة ، وتقودها نحو المجد والظفر .

وقبل أن يكون ابراهيم بطلا عربيا ، كان رجلا عظيما . وقبل هذا وذاك كان إنسانا وفيما .

كان ابراهيم رجلا عظيما . فقد أثبت منذ الحملة الوهابية ، وهو في مقتبل شبابه وفي مطلع مجده الحربى ، أنه جدّ خير بسياسة الرجال ، وأن عقله الجبار أكبر بكثير من سنه الغضة ، وأن السر في عظّمته هو نفس السر في عظّمة أبطال التاريخ جميعا : إرادة قوية تدك الحصون ، وعزيمة من حديد تهّد الجبال ، وصبر على المكاره لا ينفذ ، وثبات على الشدائد لا يتزعزع .

وكان ابراهيم إنسانا وفيما . ولعل أروع صفحة في تاريخ ابراهيم هو شعوره النبيل نحو أبيه العظيم : حب قوى ، وإخلاص عميق ، ووفاء نادر . ولم يرو التاريخ سيرة رجلين عظيمين ، ربطتهما أواصر الدم ، وجمع بين قلوبهما الوفاء والحب ، ووثقت من صلاتهما الذكريات المحيطة ، واقترن مجد الواحد بالآخر دون أن يفض منه أو ينتقص من مكانته ، مثل ما روى من سيرة محمد على الكبير ومن سيرة ابراهيم العظيم . لقد سعى الخوصوم بالقطيعة بين الولد وأبيه ، ولكن حب محمد على لولده ، ووفاء ابراهيم لأبيه ، كل هذا كان عاصما للوالد والولد ، فبقى حب كل منهما للآخر خالدا على الدهر ، وبقى لإخلاص كل منهما للآخر ثابتا لا يتزعزع . وكان هذا مثلا فذا لا ينقل التاريخ له نظيرا .

فسلام على ابراهيم البطل العربى . وسلام على ابراهيم الرجل العظيم . وسلام على ابراهيم الانسان الوفى .

كلمة حضرة صاحب السعادة محمد طاهر باشا

رئيس الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

انقضت مائة عام على وفاة رجل اختاره القدر ليكون المنفذ لمشروعات والده العظيم محمد على الكبير مما كان قد يصل بالحدود المصرية وتخومها إلى ما سجله لها تاريخها المجيد في سابق الأزمان .

فوفاء لتلك الذكرى المحيطة تقبّل الجمعية الملكية للدراسات التاريخية للرأى العام المصرى والشرقى هذا الكتاب الذى يبحث فى تاريخ حياة إبراهيم وجليل أعماله ليرى القارئ فيه صورة بارزة لشخصيته الفذة التى جمعت مع قدرة القائد العظيم كفاية الإدارة والنظام .

انتهزت جمعيتنا تلك الفرصة المحيطة السانحة لتبرز أول مجهود لأعمالها وهو هذا المؤلف فأحيت فيه شخصية خالدة فى التاريخ بعظيم أعمالها الجليلة ورخاء مواهبها وبغزارة شعورها بما يوحى اليها من المعرفة بالواجب وأدائه على الوجه الأكمل حتى جعل له أبعد الأثر وأفعاله فى عصور آبائنا وعصرنا بل ولعصور أبنائنا .

فلتتخذ حياة القائد العظيم إبراهيم مثلاً تقتدى به ونيراساً نسير على هديه لنصل بعده إلى عصر الإصلاح الاجتماعى والوعى الصحيح القومى الذى نتوق إليه وتسوق ركبتنا إلى الحصول عليه .

وبما أن الأقدار التى يعجز الإنسان عن إدراك كنهها قد حرمت إبراهيم من أن يرى ثمر كفاحه فإن ذكره باقية لنا تدفعنا إلى الأمام وتثبت فىنا روح العمل بشجاعة ورجولة خليفة بذكره لمواصلة الجّد نحو المجد والنصر .

وكان إشارة يد تمثاله القائم فى عاصمة بلدنا العزيز وفى الميدان المسمى باسمه ترشد أبناء وأحفاد من قادهم إلى المجد إلى طريق الواجب والتضحية .

مُقدِّمةُ الكتابِ

ابراهيم باشا وبناء النهضة المصرية

للاستاذ مجد شفيق غربال بك

وكل وزارة المعارف ونائب رئيس الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

هذا الكتاب تحية إعجاب ووفاء وتقدير، يقدمها لمقام البطل الفاتح ابراهيم المؤرخون من مصر ولبنان . وهم بذلك يساهمون في احتفال مواطنيهم بذكراه المجيدة .

ففى مثل هذا الشهر من عام ١٨٤٨ انتقل الى مصر ابراهيم باشا الى دار البقاء ، بعد أن سجل لبلاده نصرا عظيما فى صفحة الخلود . وحقق على مصر النهضة الوفية أن تحيى ذكرى مفآخره ومآثره، وأن تشيد بها الآن وعلى مرّ السنين . وليكن رائدها فى هذا وأمثاله تلك الحكمة الرائعة المأثورة عن مليكها الراحل « فؤاد الأول » :

“ لا يفقه شعب ما سرّ مستقبله قبل أن يتنبه شعور ”

“ الاحترام فيه لما تآى أجداده ويدرك مآثر أبطاله . ”

“ فهنا وهنا فقط يستطيع أن يبلغ ذروة الرقى . ”

وكتأبنا هذا ثمرة من ثمرات غرس فؤاد الأول . فقد أمر بجمع ما بقى من وثائق عصرى محمد على الكبير والحدبو اسماعيل ، ورسم بأن تعدّ الإعداد الفنى الذى تتطلبه الدراسة العلمية ، وبث فى حفظها من روحه السمحة . وبدأت بذلك من فيضه نهضة تاريخية ، ترى آثارها فيما نشر وفيما سينشر من الدراسات التاريخية القيمة .

وكان الملك فؤاد الأول فى أحاديثه مع المؤرخين يرسم لهم الخطة المثلى للبحث التاريخى . إذ كان يؤمن بأن إظهار الحقيقة هو الغاية الأولى للمؤرخ ، كما أنه كان موقفنا بأنه كلما ازداد الباحث تعمقا فى درس الأصول التاريخية لعصر "الوالد الأكبر" — كما كانت تحلولة تسمية جدّه العظيم — كلما ازداد إعجابا بشخصية المصلح الكبير وأعماله ، إعجابا يقوم على الفهم الصحيح .

وأن هذا الفهم الصحيح لا يتسنى إلا بالرجوع للأصول .

وأن المؤرخ ليحمد الله على وفرتها ؛ وذلك أن طريقة محمد على فى الحكم والإدارة استلزمت قدرا كبيرا من المضابط والمحاضر والخلاصات واليوميات والتقارير ، يتمكن المؤرخ بواسطتها من تتبع المسألة الواحدة من العامل الصغير . للجلس الكبير ومقر السلطان ، ومن القرية النائية لمسند الولاية ، وهذه هى مادة التاريخ .

وأن كل ما فى هذه المادة لله قيمته . والمتعسف من المؤرخين هو الذى يعدّ نافها ما لا يتعلق بالسياسة العليا وما لم يصدر إلى السلاطين أو ممثلى السلاطين . فإن دفترا من دفاتر المحفوظات يدلنا على أرزاق الجند وطعامهم ولباسهم لهو وثيقة لها خطرها ، ولا يستطيع كتابة تاريخ الجيش المصرى إلا بها وبمثيلاتها . وقس على ذلك سائر الشئون .

وفصول كتابنا هذا تقوم على الوثائق الأصلية ، وبصفة خاصة على الأوراق التى استخلصها الدكتور أسد رستم — مؤرخ العلاقات بين مصر والشام فى عهد العزيز محمد على — من المحفوظات الملكية بقصر عابدين العامر ونشرها برعاية حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، أعزّه الله تعالى ، فى أربعة مجلدات ضخمة . وأن مؤلفى هذا الكتاب ليهزم الفخر أن يصدر مؤلفهم هذا فى عهد الفاروق الزاهر ، منشىء الجمعية الملكية للدراسات التاريخية وحافظها وراعيها ، حفظه الله ورعاه . وهم جميعا يؤمنون على قول أحدهم ، الدكتور أسد رستم :

”إني حين هيئت لى الأسباب لدرس المحفوظات الملكية تركت لى معها الحزبية التامة لأصل إلى ما أريد منها ، وأستقل فى وضع دراساتى فيها دون قيد أو شرط . وهذا منتهى ما بلغ اليه العلم من الحزبية على ممر العصور “ .

* * *

وأن الشهادة التى تشهد بها أوراق المحفوظات الملكية المصرية لما يستطيع القارئ أن يطمئن إليه كل الاطمئنان ، فهى أقوال المسؤولين من رجال الإدارة وقد دُوِّنت فى زمن وقوعها . ولم يقصد بها قائلوها أية مصلحة شخصية أو دعاية عمومية لأنها كانت سرية أو على الأقل غير مباحة للجمهور .

ولعل أهم ما كشفت عنه الأوراق صورة دقيقة جليلة لشخصية ابراهيم فى أدوار حياته ، منذ أيام الصبا عند قدومه لمصر بعد أن استتب الأمر فيها لأبيه فدور الشباب إلى الكهولة ؛ وهى شخصية لإنسان موهوب ، تنمو وتترعرع فى يد أب عبقري ، وفى وطن خلىق بالأبطال ، وفى ساعة من الزمان حقيقة بالبطولة .

وما كان ابراهيم إلا المثل الكامل لتلك الصفوة من الرجال التى عمل محمد على عملا متواصلا على تنشئتها وتربيتها وتكوينها . وكانوا جميعا على اختلاف أصولهم يتفقون معا فى شىء واحد ، فى أنه لهم هو ولى النعم . تعهدهم بالتعليم ، وقلدتهم المناصب ، وعهد إليهم بخططه ، ونفت فيهم من همته وآماله ، وأنعم عليهم ورفع قدرهم . وقد وضع علاقته بهم لا على أساس السيد والمسود بل على أساس آخر: علاقة الأب بأبنائه . يأخذهم باللين أحيانا وبالشدّة أحيانا أخرى ، كما يأخذ الأب أبناءه باللين والشدّة . وهذه أوامره الحكومية قل أن تجد لها شبيها فى أوامر الحكومات ، فكانت فى جمعها للنصح والترغيب والترهيب وضرب الأمثال والإشارة إلى أن منفعة الرعية أو مجد الوطن متوقف على ما نيظ بهال الحكومة أدائه صورة صادقة لشخصية هذا العاهل الكريم . وهذه أيضا طريقته الإدارية ، جعل لكل شأن من الشؤون العامة ديوانا . وكان لا يتخذ قرارا فى مسألة ما

إلا بعد أن يستمع لآراء المجلس المختص بها . ذلك لأنه لم يكن حاكماً فحسب ، بل كان طوال مدته مربياً ومكوّناً للرجال . تحدّث مرة إلى رؤسائهم في اجتماع تاريخي فقال : ”إن المناشاة والموافقة في الأمور المضرة بالمصلحة والأصول الموضوعة من أعظم الجرائم فيجب الاجتناب عن ذلك . حتى إذا كنت أمر أحدكم شفاهاً أو تحريراً بقولي له أجزأ المأذة الفلانية بهذه الصورة وحصل منه اعتراض على“ وذكرني وأفادني شفاهاً أو تحريراً بأن المأذة المذكورة مضرة فهذا يكون منه عين ممنون يلقى الزائدة“ .

وشاء سعد الطالع أن يحقق إبراهيم في نفسه وفي أعماله كل ما كان أبوه يأمله ويرجوه . كره ما كانت يكرهه أبوه ، فكان يمتق « الشعوذة والغفلة والرخاوة والغرض والضعينة والمحابة » ، ونشأ وعاش صريحاً جاداً مترفعاً عن الدنيا بمقدّسا للنظام « على أساس الانصاف والإنسانية والحياسة والعدالة والاجتهاد والغيرة » . لا يأنف من أن يتعلم ما لم يكن يعلم ، فوقف وقفة الجندي في « طابور » التعليم وجلس جلسة التأميد ، وخالط واستعلم واستمع إلى أحاديث الكتب وأقوال الرجال . يشارك في وضع الخطط ، ويقوم بالتنفيذ ، « لا يماشى ولا يوافق » على ما لا يراه غير محقق للمصلحة العامة . بل يقول ما يراه . وقد يتسك برأيه ويصر إصراراً بلغ في بعض الأحيان أنه طلب الإعفاء من الرياسة مع البقاء مؤدياً للواجب في صفوف الجنود . ترك الراحة وتحمّل المشاق ، وتجلّد لبث العدل وتشييد العمران للأعقاب والأخلاف .

لقد تجلّت عظمة إبراهيم في فن القيادة العسكرية ، ولكن فيم تختلف صفات القائد الكبير عن صفات الحاكم التقدير ؟ إن صفات العزم والحزم والتدبير والجد وسعة الأفق وحسن التصرف وإدراك العواقب ولطف الحيلة ودقة فهم الطبيعة البشرية والإحسان إلى المحسن ومؤاخذة المقصر ، كل هذه من مستلزمات النبوغ في فني الحرب والحكم . لقد تجلّت هذه الصفات في إبراهيم قائداً ، أفلا يحق لنا

أن نأسي — نحن المصريين — أن القدر لم يتح لإبراهيم أن يخلف أباه بعد أن تشرب روحه وأخلاقه ، وتعلق بخططه ومراميه وآماله ، وعاونه في بناء النهضة المصرية زهاء خمسين عاما .

ولئن كان من سعد الطالع أن كان لمحمد علي إبراهيم ، فقد كان من سعد إبراهيم القائد العسكري أن كان وراءه محمد علي . وأى قائد لم يشك تدخل الإداريين والسياسيين وتحدث الناس فيما لا يفهمون وتحكم البعيدين عن مواطن القتال في الخطط والأعمال الحربية ؟ لقد شكوا جميعا اللهم إلا أولئك الذين جمعوا بين الملك والقيادة . وكم هم ؟ لقد شكى إبراهيم أيضا ، ولكن المنتصف لا يسمع إلا أن يعضد شكواه نتيجة لوهن البدن والأعصاب من فرط ما لقي وما لاقى . فكان في الواقع حرا في وضع خططه ، طليقا في تصرفه ، تابعي حكومة أبيه كلى ما يطلب من ملأ ورجال وعتاد .

أجل . لقد كان محمد علي سعيدا حقاً بإبراهيم وكان إبراهيم سعيداً حقاً بأبيه .



في سنة ١٨٠٥ ، قيل محمد علي اجتماع كلمة الناس عليه وتولى باشوية مصر . ولكنه قبلها على أن يسير فيها على منهج من وضعه .

وقد أدرك منذ اللحظة الأولى أنه لم يتول أمر باشوية ، بل جلس على عرش مملكة عظيمة ، كل ما حوله فيها يشهد بما كان للملكها ، وأن عناية الله سامته حكم أمة واحدة يدب نيلها الغيظ العميم . كما أدرك بالفكر الناقب الذي وهبه الله أن لا بد لحكم مصر من استتاج مناهج جديدة ، وهدية مواهبه السياسية لسياسة جديدة يحقق بها رجاء الناس فيه ، فيصون أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ويرتقى بهم درجات إلى ما لم يكونوا يهتفون . ووأي أن ذلك لا يحتمل التأجيل وأن إعرار مصر والإسلام يتطلب العمل السريع : للقوة التي تصون الكرامة ، قوة الحديد والعلم والمسال .

ولقد عرف محمد على أيضا السياسة الكبرى في طور عفيف من أطوارها :
عصر الثورة الفرنسية والفتوح البابلية ، ففي حقبة قصيرة من أحقاب الزمان
تجمع الشيء الكثير من العناصر الأساسية في تشكيل العلاقات بين الأمم : تسخير
قوى الإنتاج وتنظيمها وتنسيقها وتوجيهها لتحقيق غايات قومية ، خريطة أوروبا
تطوى وتنشر ، مبادئ هدامة ، عروش تقوض وأخرى تقام ، التفوق البحري
البريطاني ، تدخل روسيا في شؤون أوروبا ، العالم العثماني تحت رحمة الأقدار .
بهزته الحركة وصادف ذلك هوى في نفس مشرئبة طموحة . فعزول على أن
تكون ديدنه . واعتزم أن يكون دائما البادئ ، لا المنتظر .

وكان مما لا بد منه في أول الأمر أن يقيم بناء الحكومة على أساس جديد .
إن مصر لا بد أن تتولى أمورها سلطة عامة واحدة . فإن تجزئة السلطان وتشتيته
السائدين قبل أيامه أدت إلى انعدام فكرة الحكومة انعداماً يكاد يكون تاماً فتتج عن
ذلك تكوين العصابات الخاصة المسلحة ، ونتج عن ذلك إهمال المرافق العامة ، ونتج
عن ذلك أن كل من يستطيع وضع يده على أموال عامة يفعل ذلك دون تردد ،
بل ونتج نوع من التفكير يعتبر أن الحكومة ما هي إلا مشاركة ومقاسمة في الأرزاق
وإن شئت قل نهبا .

وإذا شئنا أن نجمل وصف مراحل إنشاء السلطة العامة على يد محمد على وأعوانه
قلنا إن المراحل الأولى كانت مراحل الكشف والضبط والتحقيق والتصفية
وبخاصة في أمور الالتزامات ، أما المراحل الثانية فكان فيها الانتقال من الالتزام
إلى الجبر — ثم يأتي بعد ذلك دور تحويل الجبر إلى وسيلة قوية للإنتاج الجديد ،
للثورة الاقتصادية المصرية .

وقد بدأ إبراهيم حياته العامة في مرحلة الكشف والضبط والتحقيق والتصفية .
بدأها وهو لا يزال بعد فتى غض الإهاب ، فقام بالفحص في الصعيد وشارك
في العملية الكبرى : عملية فك الزمام التاريخية .

وكان إبراهيم في عمله هذا خشنا خشونة الإجراء كله . ولكن لم يكن هذا إلا وسيلة الخروج من الفوضى والفقر والضعف إلى النظام واليسر والقوة ، فإن الفساد القديم أدى إلى فقر الجميع ، حكما ومحكومين ، وإلى وجود نوع من الحكومة لا تملك مالا يمكنها من أن تنشئ قوة حربية نظامية أو تظهر ترعة أو تصون جسرا .

وقد أكسب إبراهيم عمله الأول في الإدارة المالية خبرة بشئون الفلاحة المصرية تكاد تبلغ خبرة أبيه بها . وعمل في خدمة الزراعة المصرية في ممتلكاته الخاصة وفي مداومات مجالس المشورة التي تولى رياستها فيما بين فترات الجهاد أعمالا تناوّلها الدكتور أحمد الحنّ في فصل خاص من فصول هذا الكتاب . بل وكوّن لنفسه في السياسة المالية — وبخاصة ما تعلق منها بالأموال على الأراضي الزراعية آراء تخالف ما كان عليه العمل جاريا . قال في رسالة لوالده ، تاريخها غاية جمادى الآخرة سنة ١٢٥٥ (٩ سبتمبر سنة ١٨٣٩) ، حين فكر محمد علي في تخفيض عام في المصروفات لإيجاد الموازنة بين الإيراد والمصروف : ” وتستدعي الحالة أن يعاد النظر في شؤون مصر كلها لتنظيمها من جديد فإنّي وإن كنت واقفا على أحوال المديرية من قبل إلا أنني اكتسبت معرفة تامة في شؤون الفلاح منذ أن التزمت القرى لكي أختبر الوسائل المؤدية إلى عمار مصر بنفسى ... وقد دفعت لتكاليف هذه القرى التي التزمتها ما كسبته منذ خمس وثلاثين سنة وما زال على كثير منها أي أنني دفعت لأجل أموال الأتبان الكائنة في مديرية الغربية وبقاياها لسنة ٤٥ مبلغ ثلاثين مليون قرش ونصف مليون ومع ذلك على مليون قرش ونصف مليون عن أموال هذه السنة وبقاياها وكيف إذن يطيق الفلاح هذه التكاليف الباهظة وكيف يقوم بتسديدها ... ويظهر جليا مما ذكرت ما هو عليه الفلاح من سوء الحال ، وهذا ما يجعلني أظن أن الأولى تأجيل موضوع تخفيض المصروفات إلى حين انتهاء مسألتنا [مسألة العلاقة بالدولة العثمانية] ثم نطلب الدفاتر من الدواوين كلها ديوانا ديوانا ومن المديرية مديرية فيبحث فيها بحثا شاملا وتنظم شؤون مصر كلها

على ضوء ما يؤخذ منها من المعلومات ، ومع هذا كله فالرأى الأعلى لمولانا فإنه أدرى
منى في الشئون كلها ” .

[أسدرستم : المحفوظات الملكية المصرية المجلد الرابع ، ص ٢٨٨ — ٢٨٩]

وكون إبراهيم أيضا لنفسه آراء في سياسة التعليم ، ففزع الى أن يتخذ من التعليم
أجدى الوسائل للارتقاء بالشعب ، واهتم بصفة خاصة عندما حمل عن أبيه عبء
الحكم بافتتاح مكاتب لتعليم الناس أطلقوا عليها اسم ”مكاتب الملة“ ، على نحو ما كان
موجودا في ذلك الوقت في فرنسا وإنجلترا لتعليم أبناء الشعب ”من أقرب طريق
وفي أقصر وقت“ . فلمكاتب الملة غرض جديد غير غرض المدارس الابتدائية ،
فليس الغرض منها إعداد التلاميذ للدراسة التجهيزية . بل الغرض منها توفير قسط
من الثقافة لسواد الشعب . ولكن هذه الحركة المبشرة بالخير ماتت بموت إبراهيم .
[أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم : ص ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١]



وكان قلب إبراهيم — على نحو ما رأينا — يفيض عطفًا على عامة الشعب ،
ولا بدع فقد خالط وعاشر أشرف ممثلي الشعب المصرى : الفلاح والجندى ، وخير
عن قرب ما يستطيعه الفلاح المصرى والجندى المصرى .

كتب لأبيه في أثناء حصار عكا ، عندما أذيع أن السلطان قد جيش الجيوش
لدفع الجيش المصرى عن أسوارها : ” ومهما بحثوا من القواد العظام والجيوش
الجوارة فلا يعقل أن يرسلوا أو يستحصلوا على أقوى وأشجع من عبدكم المخلص
إبراهيم ، ومهما بحثوا فلا يمكنهم أن يعثروا على مثل جنود العرب الذين أقودهم أنا “ .
[المحفوظات الملكية المصرية المجلد الأول ص ٢٠٦]

وكتب إليه أيضا أثناء الحصار عندهما أشير عليه باستعمال القنود لإغراء الحامية
بالسليم : ” لى بفضل عظمتكم وجلادتكم الخديوية أوى من العار على أن أبذل
القنود في سبيل قلعة خربة كهذه ... [وليسست من وسيلة لاستئالة الحامية] سوى

إظهار قوتكم القاهرة وعظمتكم الخديوية الباهرة بتشديد الحصار عليهم من البر والبحر وضرب القلعة بالقنايل والمدافع من كل الجهات حتى يذوقوا حرارة الموت“ .
[المحفوظات : المجلد الأول ص ١٣٦ ، ١٣٧]

وعندما توقع نشوب الحرب مع الأتراك العثمانيين من جديد كتب لابن أخيه عباس ، وقد كان محمد علي غائبا عن مصر يتقعد أحوال السودان “يا ولدى الباشا ، لو طوعت [للتترك] أنفسهم للنهوض والقيام فلن نكون دونهم ، ولن يسبقونا بإذن الله وكرمه ما دامت أرواحنا في أبداننا وحتى لا يبقى منا فرد واحد وليحفظن الله مصر كما حفظها حتى الآن“ .
[المحفوظات : المجلد الثالث ص ٤٧٧]

وهذه الثقة بالنفس ، وهذا الشعم العالى ، وهذا الاطمئنان التام مردها لأمرين : للحكومة وراء ظهره ، ولجندي الذى يقوده .

لقد حل محمد على الكبير مشكلة تكوين القوة العسكرية على الوجه الذى أوجده الديمقراطية الفرنسية وليدة الثورة الفرنسية ، أى التجنيد العام . وسوى بذلك أمرا استعصى على الحكومة الاسلامية . لقد عمدت الحكومات القديمة الى استخدام أهل المناطق الجذباء أحيانا وإلى جمع العبيد بيضا وسودا أحيانا أخرى . حاولت الحكومة الاسلامية هذا الحل أو ذاك . وكان سر اضطرابها وتزعزع كرسيا ونفاذ مواردها . وجال فكر محمد على فى المشكلة واهتدى إلى اقتباس الحل الذى يتفق مع مقتضيات العصر الجديد . واستخدم للتدريب ضباطا أوروبين ، وأنشأ معاهد الدراسات العسكرية ، وتكون بذلك الجيش المصرى . كتب محمد على إلى ناظر الجهادية : “إن مؤسسة الجهادية هذه ، أعزها الله ، لهى فى حد ذاتها نعمة جلية وأمنية بلغ من شرف قدرها أنى مازلت منذ عشر سنين متعللا برجاء إدراكها ، قائلا أكون لى أنا الآخر سعادة نيلها ! بل ما فتئت ألقى بنفسى وأولادى وعيالى وبعرضى ومالى وبذلك العدد الكبير من أتباعى وأصدقائى الذين هم غرس

يدى وثمرة تمهدى ألقى بكل أولئك فى المهالك وأعرضهم للضار والأخطار آملا
فى إحداث هذا السلك الجهادى “ . [المحفوظات . المجلد الأول ص ٩٥]

اندج إبراهيم فى هذا السلك الجهادى اندماجا تاما ، جسما وروحا ، من أول
الأمر . لحق به متعلما — وهو القائد المظفر فى الجزيرة العربية . وقاده من نصر
إلى نصر بين السهل والحزن فى المورة وفلسطين ولبنان وسوريا والأناضول .
وتفصيل هذا كله فى الفصول التى وضعها الأستاذ محمد أحمد حسونه بك والضابطان
أحمد فهم بيومى وعبد الرحمن زكى . وان الجمعية لتغبط أن جمعت المدينين
والعسكريين من المؤرخين لخدمة التاريخ القومى .

وإن ما ذاع عن حرمان المصريين من مناصب القيادة فى الجيش والأسطول
لمصريتهم لهو وهم يحتاج أمره إلى تبديد . فلم يعرف جيش من جيوش العالم
فى ذلك الوقت حتى جيوش الثورة الفرنسية شيوع خطة الترقية من تحت السلاح
(كما فى الإصطلاح) إلى رتب القيادة . ولا تعرفها الجيوش الأجنبية فى وقتنا
الحاضر إلا فى حدود ضيقة جدا نسبيا ، وهذا على الرغم من شيوع التعليم فى جنود
الزمن الحاضر . والحال أن ضباط الجيوش الأوروبية فى وقت محمد على وفى وقتنا
الحالى ينتمون للطبقة الوسطى . إذا تحققنا ذلك وعرفنا أن ذوى اليسار من أهل
مصر لم يقبلوا بعد فى عهد محمد على على اختيار العسكرية لأبنائهم بسبب ابتعادهم
عنها قرونا عديدة أدركنا لم خلت وظائف القيادة فى الجيش المصرى فى عهده من
المصريين — وأن لأساس لما زعموه من تعصبه للترك عليهم . بل أن كبار رجال
العسكرية الأوروبيين كثيرا ما عبروا له ولا إبراهيم عن رأيهم بأن أضعف ما فى جيشه
ضباطه غير المصريين ، وشاركهم فى هذا رأى مؤرخ الجيش المصرى الجنرال فيجان
ونسب ضعف الضباط إلى عدم إقبال أبناء الطبقة الوسطى إذ ذاك على احتراف
العسكرية . ولما نقرأ فى أمر من أوامر الباشا أصدره إلى محافظ دمياط “ بأنه علم
بالاحتفالات التى قوبل بها آلاى حسين بك من الأهالى والقناصل وبما تفوه به

على أغا ناظر السلاخانة وقوله في محفل الاستقبال : ”صار الفلاحون العمى عساكر ، مهما كانوا لا يكونون مثل عساكرنا الترك . وعليه فاضربوه مائة نبوت على إليته وينفى وإن عاد يصاب “ . هذا ما حدث لعلى أغا عندما أخذته النعرة القومية . وعندما تتجج الأمر بين مصر والدول الكبرى وتمسح الناس في الحاضرتين — القاهرة والاسكندرية — لدفع العدوان عن وطنهم وألغوا « حرسا وطنيا » أسند محمد على لرؤسائهم — وهم من ” أبناء البسلة “ — رتبا عسكرية نظامية . ولم يكن محمد على أو إبراهيم الرجل الذى يغمط للمصريين حقا أو يطوى لهم فضلا .



ولم تكن القوة في نظر محمد على إلا وسيلة لا غاية ، لم تكن إلا آلة العيش الكريم . فقد كان بطبعه كارها لسفك الدماء ، مؤثرا الاعتدال . استعرض الشيخ رفاة — أحد بناء النهضة المصرية — حروب محمد على وانتهى الى الملاحظة الدقيقة وهى أن تلك الحروب ” لم تكن من محض العبث ولا من ذميم تعدى الحدود . إذ كان جل مقصوده تنبيه أعضاء ملّة عظيمة تحسبهم أيقاظا وهم رقود “ .

أجل . لقد رسم محمد على لنفسه منذ الأيام الأولى مشروع إحياء العالم العثماني وسار في تنفيذه بخطى ثابتة متتدة . رأى محمد على السلامة في الوحدة لا في التجزئة ، والقوة والرفاة في إدارة عقل واحد لملك متنوع الموارد ، متنوع السكان ، يملك أقصر الطرق بين الغرب والشرق .

وفي فترة توازن القوى التي تلت معاهدة تلس (١٨٠٦ — ١٨١٢) ، وخلف سواحل البحار العربية التي كانت تكون الحدود المبهمة للعالم العثماني كانت أعمال محمد على الأولى لإحياء القوة العثمانية .

وكانت الدولة منذ أن عجزت عن إقصاء البرتغاليين ومن جاء بعدهم من رجال البحر والتجارة الأوروبيين عن البحار العربية ، ومنذ أن تخلت عن بلاد اليمن في منتصف القرن السابع عشر ، قد تركت (فيما عدا الاهتمام الذى لاغنى لها عنه

بالبحار العربية ومناطقها لأهلها والاستعمار الأوروبي . فتمت أنواع مختلفة من السلطان العربى فى مناطق الخليج القارسى وسواحل الجزيرة الجنوبية وسواحل المحيط الهندى والبحر الأحمر . وانعزلت تلك الشياخات والامارات والسلطنات عن الحياة العثمانية واضطرت الى تدبير معاشها وتسوية علاقاتها بالأمم الأوروبية والبحرية على مختلف الأوضاع .

وكان للحكومة السلطنة نوع مبهم من حقوق السيادة تباشرها من أربع قواعد، من ولاية جدة وتلحق بها ولاية الحبش الممتدة امتدادا لا يمكن تحديده على ما نعرفه الآن بسواحل السودان المصرى واريترية والصومال الفرنسى ومن مصر ودمشق وبغداد . وقد عملت الدولة من قواعدها الأربع على أن تبقى البحار العربية بركا آسنة لا على أن تكون شريانا من شرايين التجارة العالمية .

وقام محمد على أول الأمر بتأمين الحجاز . وما إن تم له ذلك حتى افتتح أمامه ميدان قسيح الأرجاء خليق ببذل الهمة وبالنظرة النافذة وبالأمل الواسع . فالبحار العربية ومناطقها أجزاء أساسية من العالم العثمانى ، أهلها السلاطين إهمالا معيبا وهى شرايين الحياة بين الشرق والغرب ، وقد تصلبت ، ولا بد من أن يجرى فيها الدم من جديد ، وخلف تلك السواحل فى أفريقية أجزاء من دار الاسلام ، مشتتة فائرة الحياة ، ولا بد من وصلها ببعض وبالعالم العثمانى ومن جعل ذلك العالم وحدة حية .

وتولى ابراهيم القيام بهذه المهمة فى إحدى مراحلها الخطيرة . وكان هذا أول عهده الحقيقى بالقيادة العسكرية المستقلة . وأذاها أداء فيه كل الدلالة على ما سيقوم به فى المستقبل . كتب القنصل الانجليزى بمصر ، (هنرى صولت) ، فى رسالة من القاهرة فى أوائل ١٨١٧ : "لقد دلت معاملة ابراهيم للقبائل البدوية على امتلاكه ثلاث ميزات تيسر بالفوز فى النهاية : حزم فى معاملة أعدائه ، سخاء فى البذل ، وفاء بالمعهد" .

وتجد تفصيل تاريخ ابراهيم في الجزيرة العربية في الفصل الذى عقده الدكتور
عبد الحميد البطريق لهذا الموضوع .

وقد تلت انتصارات ابراهيم سنوات استقرار واستعداد في مناطق النفوذ
المصرى من الجزيرة العربية ، وقف فيها التقدم نحو الشرق الى الخليج الفارسى
ونحو الجنوب الى اليمن امران : اولهما انتظار تأليف قوات عسكرية نظامية وأما
الثانى فاستخدامه قواته غير النظامية في فتوح أخرى أوحى بها سياسة البحر الأحمر
إذ هى ألصق بها . فقصده للفتوح في المناطق الممتدة خلف ما عرفناه باسم ولاية
الحبش أو ما يعرفه المحدثون باسم فتوح السودان . وكان نصيب ابراهيم فيها ضئيلا .

* * *

عمل محمد على في الأقطار العربية في الجزيرة وفي السودان طليقا من كل قيد ،
لأدخل الحكومة السلطان في خططه ومشروعاته . ثم حدث أن قام اليونان بثورتهم
وتحركت جيوش السلطنة وأساطيلها وجيوش محمد على وأساطيله لقمع تلك الثورة ،
وبدأ بذلك فصل جديد في سياسة محمد على ، فصل يمكنه من أن يتبين أمرين
أساسيين : الأول مدى إمكان التعاون بينه وبين حكومة السلطنة في إحياء القوة
العثمانية ، والثانى موقف الدول الأوروبية منه ومن حكومة السلطنة .

وجه محمد على نحو بلاد اليونان الحملة الكبرى بقيادة ابراهيم : جيشه المصرى
الحديد وأسطوله الأول . وكانت لأسطوله منازلات مع الأسطول اليونانى خرج
منها سالما واستطاع أن ينزل وجنوده بلاد المورة . وسار ابراهيم من نصر الى نصر
الى أن تم له اكتساح بلاد المورة وانتقل منها الى الأقطار اليونانية شمالها . واتهمه
المتخربصون بأنه عمل على استئصال الأمة اليونانية وتطهير أرضها قضا وقضيضا لينزل
بها عربا أو سودا مسلمين . وقد دفع عنه المؤرخون المحدثون هذه الفرية . وشرحوا
أن في مثل حرب المورة (أى في الحرب ضد ثورة قومية) يصعب على القائد
أو يستحيل عليه أن يفرق في عملياته الحربية بين أعدائه المحاربين من الجنود وأعدائه
المحاربين من غير الجنود .

ولما ظهر للأوروبيين أن هيب الحزبية اليونانية سوف ينطفئ في بحر من الدماء تحركت الدول للعمل الإيجابي الذي حاولت تجنبه زمنا . وانتهى التدخل بكارثة تحطيم الأسطولين المصري والعثماني في خليج نوارين وبتزول جيش فرنسي في المورة وإعلان روسيا الحرب على الدولة العثمانية . وأمر محمد علي ابنه بالانسحاب والعتودة .

ومضت الثورة اليونانية بعبرها . وبأن لمحمد علي أن حكومة السلطان تفهم العمل معه على وجه استغلاله الى أقصى حدود الاستغلال ، وليتها كانت تحسن ذلك فهو لا يكره إطاعة حكومة عليا رشيدة تعمل على بلوغ أهداف العزة والكرامة والرفاهية . ولكن ماذا أثبت السلطان ورجاله في أزمة نوارين وفيما قبلها وبعدها ؟ لقد أثبتوا عجزا كبيرا . وبأن له أيضا أن الدول العظمى قد تتحد ، وبأن له ثالثا . أنه لكي يساوم ينبغي أن يكون بيديه ما يساوم به . فقل وثقه بإمكان وضع سياسة مشتركة بين القاهرة والقسطنطينية ، وزاد إيمانا بأن محمودا ورجاله يسيرون قدما نحو الهاوية . فأحب أن يتخذ العدة للمستقبل ، وأن يتخذ الضمانات اللازمة .

وهذه الضمانات حسية ومعنوية : توطيد النفوذ المعنوي في العالم العثماني ولدى الحكومات الأوروبية بالمضى في سياسته العمرانية ، ونشر حكمه المباشر في أقطار أخرى من العالم العثماني يقيه ملكها شر حكومة السلطنة ، ويعطيه ملكها الموقع الآمن والموارد التي يستطيع بها أن يكون على حال من القوة تمنع عنه أطماع الطامعين .

وما هي تلك الأقطار ؟ الولايات الشامية الأربع : حلب وطرابلس ودمشق وصيدا وبعض المناطق الساحلية في الجزيرة العربية على الخليج الفارسي والبحر الأحمر . هذا أكيد . والعراق والمناطق فيما بين الشام والأناضول ، هذا مما يترك للظروف . والأقطار — كما ترى — هي في الجملة مما يكون (على حد تعبير الوثائق) عربستان أو مانسميه دار العروبة .

فهل تصوّر لها كيانا سياسيا أو ما نسميه وحدة عربية؟ سؤال كبير؛ إن أجبنا عنه سلبا عدونا الصواب ونسبنا إليه قلة إدراك لعناصر وروابط بارزة : لغة واحدة وإرث ثقافي مشترك ومصالح مشتركة وبالنسبة للحياة الاقتصادية العالمية ككلّة واحدة . وإن أجبنا عنه إيجابا عدونا الصواب أيضا بعض الشيء ونسبنا لعصر سابق ماهو ، على وجه التحقيق — من خلق العصور اللاحق . وقد لانعدو الصواب إن قلنا إن محمد على أدرك الفكرة في عمومها وأنها مما يمكن التشديد عليه في حالة الانفصال عن السلطنة وهذا ما لم يكن قد قوّزه بعد ، بل تركّ تقريره تبعا لظروف الحال . إن حتمت تلك الظروف التقسيم أمكنه أن ينقض ما حدث في القرن السادس عشر وبناء العالم العربي من جديد . ولكنه لم يكن قد يؤس بعد من مستقبل الوحدة العثمانية وإن كان قد يؤس من السلطنة .

هذا عن محمد على ، وماذا عن ابراهيم؟ تدل الوثائق على أنه استحث والده على اتخاذ خطة الهجوم على الولايات السورية في سنة ١٨٣١ . كما تدل أيضا على أنه كان أسرع منه لتصور الوحدة العربية . بل وتحدّث عنها . والثابت أيضا أن انتصاراته المتوالية على الجيوش التركية دفعته — كما هو معروف — للنصح بمواصلة الهجوم حتى مقر السلطنة .

لم يقبل محمد على أن يفعل ذلك ولا يسع الباحث المنصف إلا أن يعترف بأن رأيه كان الأصوب .

وبدأت فترة عاد فيها الاتصال التاريخي بين مصر والشام في ظل حكومة واحدة وقد عقد الدكتور أسد رستم فصلا قويا لموضوع إدارة الشام : روحها وهيكلها وآثارها . وأنه لما تغتبط له الجمعية الملكية للدراسة التاريخية أن يتولى كتابة هذا الفصل مؤرّخ لبناني ممتاز ، استطاع أن يفى الموضوع حقه ، وأن يبين ما للإدارة الإبراهيمية للشام وما عليها . أو ليس هذا في ذاته دالا على أن ما بنى ابراهيم لم يذهب هباء وأن البذرة التي بذرها نمت وترعرعت شجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء؟

وانقضت تلك الحقبة من الزمان بإرغام الجيش المصرى على الانسحاب من كل فتوحه . وهنا يستوقف قارئ الوثائق تسدّل في المواقف . محمد على يتخذ الجرأة وإبراهيم يفضل التريث ، بل ونجده يفقد (حتى بعد انتصاره الرائع في نزيب) كل أمل في إمكان اكتساب طوائف أهل الشام لحكمه . قال العزيز في كتاب لإبراهيم : ” لا تهدف الدول الى تعضيد الدولة العثمانية ولكنها ترمى الى إضعاف الطرفين كي يتسنى لها الاستيلاء على البلاد الاسلامية بسهولة ، ولذا فان قبول تدخل هذه الدول خيانة للملة ولتساق استغلالها . فبدلاً من أن نقبل هذه الخيانة فنذكر باللعنة الى يوم القيامة أجدر بنا أن نموت في سبيل الدين ، فنشيد بذلك دنينا وأحرقتنا معاً ، هذا إذا غلبونا . وأما إذا لم يغلبونا ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً فحينئذ نجد في الدنيا اللجنة التي يبحث عنها الناس في الآخرة . فيدوى في الآفاق صدى بطولتنا وسمعنا الطيبة ويذكرنا العالم بخير الى يوم القيامة . هذا لا ريب فيه والله كفيل بعباده “ . [المحفوظات المجلد الرابع ص ٢٨٦]

وقد لا يعدد المؤرخ الصواب إذا نسب موقف إبراهيم في الأيام الأخيرة في الشام لما أصابه من العلل والأمراض . كان آخرها ذلك اليرقان الحاد الذي لازمه أثناء مأساة الانسحاب نحو مصر .

والنقد سهل من بعيد ، وأجل منه أن نبعث على البعد بتحية إعجاب وإجلال للشيخين الذين صمدا للحنة مرفوعى الرأس موفورى الكرامة . ذهبت فتوحهما واختفى أسطولهما وانكش جيشهما ولكنهما بقيا مهيبى الجانب ، عاليى الصيت ، يتألق من جبينهما جلال المشيب ونور المحجد ، فمنعنا عن مصر في السنوات التي بقيت لهما أن تنزل الى ما قدره لها أصحاب تسوية سنة ١٨٤١ — الى مرتبة النيابات العثمانية الراكدة ومناطق المشروعات الاستغلالية الأوروبية ما



محمد علي باشا الكبير

القسم الأول

التاريخ السياسي

ابراهيم باشا في بلاد العرب

للدكتور عبد الحميد البطريق

كانت الدولة العثمانية تحرص كل الحرص على أن تحتفظ بسيادتها على بلاد العرب ، لما للندن المقدسة من مركز هام في العالم الإسلامي ، لذلك وجهت عنايتها إلى القضاء على الحركة الوهابية وتدمير الدولة السعودية ، تلك الدولة التي وسع سلطانها الحجاز ونجد وعسير ، ثم انساب نحو حدود اليمن والخليج الفارسي ، وهدد الشام والعراق .

وكانت خطة الدولة العثمانية التي رسمتها لنفسها عندما تقوم حركة استقلالية أو ثورة داخلية ، أن تلقى عبء القضاء عليها على كاهل الولاة في الأقطار المجاورة ، وهي في تكليفها هؤلاء الولاة بإرجاع سيادتها على بلاد العرب إنما كانت تهدف إلى غرضين : أولا القضاء على الحركة الوهابية التي رأت فيها خطرا على سيادتها وسمعتها في الأقطار الإسلامية ، وثانيا قد تكون هذه الحرب وسيلة لإضعاف هؤلاء الولاة واستنزاف مواردهم ، حتى يظلوا ضعافا خاضعين للدولة خضوعا تاما .

وقد أصابت الدولة السعودية الناشئة نجاحا سريعا في عهد عبد العزيز بن محمد ابن سعود (١٧٦٥ - ١٨٠٣ م) ، وامتد نفوذه السياسي في نجد امتدادا هدد أملاك الدولة في الجزيرة العربية ، ولكن غزواته وفتوحاته لم ترجع الباب العالي إلا عندما شرع عبد العزيز يهاجم العراق في نقط مختلفة منذ عام ١٧٩٤ ، ولم يكن في وسع رجال الدولة العثمانية أن يتنبأوا بتلك الهجمات حتى يستعدوا لها ، لأن النشاط الذي كان يصحب احتشاد السعوديين ، والسرعة الخاطفة التي يغيرون بها على

أعدائهم أدهشت الدولة العثمانية ، وكان من الطبيعي أن تنجبه أنظار الباب العالي أول الأمر إلى والى العراق ، تكلفه بصد تلك الغارات وإخماد تلك الحركات ، فبلاده أقرب الولايات العثمانية إلى الدرعية قلب الدولة السعودية الجديدة ، أضف إلى هذا أن سهولة المواصلات بينه وبين نجد عن طريق النهرين والخليج الفارسي تسهل له مهمته .

ولكن والى بغداد إذ ذاك ، كان يرى أن المهمة شاقة عويصة ، فقد كتب في أوائل عام ١٧٩٦ إلى الباب العالي يقول : "إن الطريق من بغداد إلى الدرعية يجذب صحراويّ خالٍ من الماء ، مما يساعد السعوديين على الانتصار على جيوش الدولة ، التي تختلف عملياتها الحربية عن أساليب السعوديين في الحرب" . ولكن هذه الأعذار لم ترق في أعين رجال السلطان ، فأرسل الباب العالي إلى والى بغداد الأوامر المشددة في عام ١٧٩٨ لكي يسير إلى الحسا لمحاربة عبد العزيز بن سعود ، فجمع الوالى جيشا من المرتزقة والبدو بقيادة الكتخدا على بك ، وسار هذا الجيش ميمما شبه الجزيرة ، ولقى في الطريق وأجتياز الصحراء متاعب وأهوالا ، حتى إذا ما أشرف على الحسا ، وجد نفسه في حالة لا يستطيع معها مجابهة القوّات السعودية ، فأسرع على طلب الصالح من عبد العزيز ، وقفل راجعا إلى بغداد راضيا من الغنيمة بالإياب ، وازداد السعوديون بذلك قوّة على قوّة ، وعظمت منزلتهم في أعين العرب ، ولم يعد سكان الجزيرة يعتبرون الأتراك قوّة لا تغلب .

وما بدأ القرن التاسع عشر إلا وزحف سعود بأمر أبيه إلى خارج الجزيرة ، فهاجم العراق واكتسح كربلاء ، وتسربت جموع من القوّات السعودية نحو ساحل الخليج الفارسيّ ، وضجت الدولة من تكرار اعتداءات الوهابيين ، فأخذت الأوامر تنزل على ولايتها في البصرة وبغداد أن يقوموا بحملات لصد الغزاة ، ولا سيما أن السعوديين أصبحوا في مستهل عام ١٨٠٤ على أبواب الزبير ، القرية من نهر الفرات ، وصاروا بذلك يهددون البصرة نفسها .

فشنتل سليمان باشا والى بغداد فى القيام بأى عمل حاسم ضد السعوديين على الرقم من أن لديه ٣٥٠٠٠ جندى قد درّبهـم مدرّبون أوربيون على أحدث الأساليب الحربية ، وقد حاول سليمان باشا أن يضدّ السعوديين عندما وصلوا إلى قلعة (جفير) القريبة من ساحل الفرات فلم يكن خطه بأبعد من حظ كتحذاه على بك فانهزمت جيوشه ووجد الوهابيون أمامهم ثغرة يصلون منها إلى قضاء (سراج) ، ولم يأت عام ١٨١٠ حتى وصل جزء من القوات السعودية إلى نقطة لاتبعد كثيرا عن بغداد ونشط مندوبو ابن سعود فى جمع الضرائب من الأماكن المحتلة .

أما فى ميدان الشام فقد توجهت أنظار السعوديين بعد أن سقطت المدينة المنورة فى أيديهم نحو الشمال ، فغزوا (الحوف) و (البتراء) وتقدّموا نحو (حوران) ولكنهم لم يتمكنوا من اكتساح سوريا فوقفوا عند أبوابها متربصين ، ولم يستطع والى الشام أن يحى حدود بلاده ، وهكذا فشل كل من والى بغداد ووالى دمشق فى أن يحققا أمل السلطان فى أن يستطيع أحدهما أو كلاهما أن يقضى على الحركة السعودية لأنهما فشلا حتى فى حماية حدود ولايتهما .

عندئذ تبين بجلء للسلطان محمود الثانى أن ليس هناك مناص من طلب العون من والى الذى شق طريقه إلى الولاية عن طريق الشعب الذى يحكمه و انتزع فرمان التولية من السلطان اتزاعا ، إذ ليس فى استطاعة أحد ولاية الدولة أن يقوم بتلك المهمة الخطيرة سوى محمد على الكبير .

اعتقد السلطان أنه إن استطاع أن يغرى محمد على بفتح بلاد العرب يكون ذلك كسبا للدولة على أى حال ، فإن انتصر محمد على فيها ونعمت وسيتصر باسم الدولة ، ولكنه فى الوقت ذاته لا بد أن يصاب بخسائر مادية شديدة لا يستطيع معها أن يرفع صوته مطالبا بالاستقلال ، وإذا هزم أو فشلت حملته فقد هيئته وضاعت ميزته ولن يستطيع أن يواجه السلطان الذى تعود أن يثار من ولاته الناجحين حين يقلب لهم الدهر ظهر الحن .

تناسى السلطان ما بينه وبين محمد على من خلاف ، وتطور هذا التناسى إلى التسامح والكرم ، فتوالت الرسائل السلطانية على محمد على تتلقفه وتلاطفه وتلقبه بألقاب الشرف والمجد ، فأثار هذا الإغراء وتلك الرسائل الريبة في نفس الباشا ، وأخذ يفكر في المهمة قبل أن يقدم عليها ، وفي الوقت نفسه ، أراد أن ينتهز الفرصة لتحقيق أغراضه والتخلص من بعض التزاماته ، وكان ماهرا في الرد على رسائل الباب العالي ، وهى الرسائل التى كانت تحثه على الإسراع فى السير نحو بلاد العرب ، إذ كان يردّ عليها برسائل من نوعها ، يملؤها بالفاظ الخضوع والعبودية .

واتهز محمد على هذه الفرصة لتحقيق استقلاله الداخلى بمصر ، وتطلع إلى أن يجعل لنفسه مكانا خاصا قبل أن يقوم بمثلته فى بلاد العرب ، فاقترح على الباب العالي بواسطة وكيله المقيم فى الآستانة أن تكون مصر ولاية ممتازة شأنها فى ذلك شأن ولاية الجزائر ، وأوضح له أن هذا الإجراء ضرورى حتى تنتهى الحرب فى الحجاز ، وتذرع فى طلبه هذا باضطراب الأحوال السياسية فى أوروبا واحتمال تدخل الدولة العثمانية فى بعض الحروب ، فإذا لم يكن لمصر مركزها الممتاز المستقل عن الدولة ، فقد تقع فى رسة حصار إحدى الدول المعادية لتركيا بينما تكون جيوش مصر مشغولة فى الجزيرة العربية ، وضرب لذلك مثلا باحتمال محاصرة إنجلترا للوانى المصرية وبذلك تتعرض مصالح مصر التجارية للخطر ، بل "وتتعطل أيضا مصالح الحرمين ، وحيث أن تجارة مصر مع الخارج ضرورية لها فإن امتيازها يضمن حيادها ومصالحها الاقتصادية" (١) .

أما الغرض الأكبر الذى كان يرنو إليه محمد على من وراء القيام بمثلته فى بلاد العرب والذى يلوح لى من خلال دراساته للوثائق العديدة المحفوظة فى قصر عابدين العاصر فهو طموحه إلى السيطرة على الشام قبل أن يقوم بأى حرب فى الحجاز ، وقد

(١) من محمد على الى الصدر الأعظم : دقر رقم ١ عابدين وثيقة رقم ٥٤ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٢٥
بالمحفوظات الملكية .

طلب إلى الباب العالي أن تحال إليه ولاية الشام قبل أن تتحرك جيوشه إلى بلاد العرب لكي يسوق حملتين، إحداهما تخرج من مصر والأخرى من الشام، وبذلك يضمن نجاح المهمة الشاقة التي كلفه بها السلطان . وقد كان لهذا الطلب الجريء صدى العنيف في بلاط السلطان ، واتهمه أعداؤه وحاسدوه هناك بأنه يغلب مصالحه الشخصية وأطماعه الإقليمية على مصلحة الدولة ، وقالوا إن حملة يقوم بها الباشا أو ابنه إبراهيم من مصر، كفيلة بإرجاع بلاد العرب إلى حكم السلطان ، وقد ردّ محمد علي على أولئك الحاسدين من رجال الباب العالي في كتاب بعث به إلى وكيله محمد نجيب أفندي في الآستانة يقول فيه : ” إن ردّي على هؤلاء هو قصة جمحا المشهورة عندما بعث ابنه ليلاً بالجزّة وصفعه على قفاه قبل أن يحملها منها إياه ألا يكسرها ، ولما قيل لجحا لماذا تصفعه ولم يكسر الجزّة بعد، أجاب أنه يجب أن يبنه ويصفع أولاً حتى لا يكسرها إذ ماذا يفيد الصفع بعد كسر الجزّة^(١) ... “ وكتب له في خطاب آخر أن مصلحة الحجاز فقط هي التي دفعته إلى هذا الطلب وأن ليس له مطعم في غير مصر التي وصفها بأنها (القطر الذي يتحسر وزراء الدولة دون الوصول إليه^(٢)) .

وأخيراً قرر محمد علي أن يغض الطرف مؤقتاً عن تمسكه بمنحه ولاية الشام أو منحها لصديقه الموالي له (يوسف كنج باشا) ، بعد أن فهم من مقابلة وكيله نجيب أفندي للصدر الأعظم أن جميع طلباته لا يمكن النظر إليها بعين العطف والراية إلا بعد أن تقوم الحملة المصرية إلى الحجاز ، وأدرك من رسائل وكيله أن أعداءه في الآستانة يترصبون له وأنهم يقولون (لو أعطيت الدنيا إلى وإلى مصر ما ذهب لأجل الحرمين ولا أرسل أحداً من أولاده) لذلك عزم على تسير الحملة نهائياً بقيادة ولده طوسون على أن ينتهز الفرص ليوهم الباب العالي أن نجاح الحملة يتوقف

(١) من محمد علي إلى نجيب أفندي : وثيقة رقم ٦٥ دفتر رقم ١ بتاريخ أول ربيع الأول سنة ١٢٢٦

(٢) من محمد علي إلى نجيب أفندي : وثيقة رقم ١١٨ دفتر رقم ٢ بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٢٨

على تسليير حملة أخرى من الشام يشرف عليها تمام الإشراف ، وفي الوقت الذي تحوكت فيه جيوش طوسون نحو الحجاز أرسل محمد على يلح على وكيله في الاستبانة أن يقنع الباب العالي بأن نجاح الحملة يتوقف إلى حد كبير على قيام حملة أخرى من الشام ، ثم اتخذ من الضائقة التي وقع فيها ولده طوسون عندما ارتد بجيوشه إلى ينبع ، وعندما عجز عن احتراق مضيق (الصفراء) ذريعة لمعاودة طلبه فكتب إلى الصدر الأعظم يقول إن طوسون يعزم بأن المروزم من مضيق (الصفراء) يحتاج إلى حملة تأتي من الشام ” وإلا فإن هذه الجيوش المصرية لا محالة تفقد قواها شيئا فشيئا حتى إذا ما وصلت منتهى المضيق هلكت عن آخرها “^(١) .

أثبتت الأيام صدق ما جاء في هذا الكتاب إذ عندما اضطرب طوسون إلى أن يتجه نحو (الصفراء) التي تحصنت فيها الجيوش السعودية دخلت جنوده مضيقا من الصخور الصلدة ، لا يزيد عرضه على أربعين مترا ويبلغ طوله مسيرة ساعة ونصف ، وكان الوهابيون في عشرين ألف مقاتل بقيادة عبد الله وفيصل ابن سعود ، فسدوا طريق المضيق في منتصفه وانتشر فريق منهم بأعلى الروابي الصخرية التي تحف بجانب المضيق ، فاضطر طوسون إلى التقهقر في عناء وشدة ، وقد أبدى طوسون في تلك المعركة بطولة عظيمة إذ كان يخوض بنفسه صفوف الأعداء على رأس جماعة قليلة من فرسانه صارخا في جنوده الذين فقدوا وغيهم وخارت قواهم ” أما منكم من يقتدى بقائده “ ولكن ضاعنت صرخاته الحماسية هباء وسط أصوات حوافر الخيول التي تهقرت هاربة بفرسانها وعاد طوسون إلى ينبع بعد أن فقد عددا كبيرا من خيرة جنوده .

ولسنا هنا بصدد ما تبع ذلك من حروب طوسون في الحجاز ، بل حسبنا أن نذكر أنه استولى على مكة والمدينة وغيرهما ، ولكن حملته لم يقدّر لها النجاح الذي

(١) من محمد على إلى الصدر الأعظم : وثيقة رقم ٨٠ دفتر رقم ١ (المخطوطات الملكية ببايدن)

بتاريخ (٢٧ ذى الحجة ١٢٢٧) .

كان ينبغي محمد على ، فعزم على أن يسافر إلى الحجاز وينزل إلى الميدان بنفسه ،
إذ أنه كان حريصا تمام الحرص على ألا يفشل في حملة الحجاز وهو عالم بما يترتب
على هذا الفشل من ضياع هيئته وفقد مركزه ، وتبدولنا لهفته على نجاح هذه الحملة
وأعترامه خوضها بنفسه منذ تقهقرت جيوش طوسون إلى ينبع من رسالتين
أرسلهما متتابعتين إلى كبار قواده وجنوده المرابطين في ينبع خشية أن تضعفهم
الهزيمة فيقرروا الجلاء عن قلعة ينبع نفسها . قال لهم في رسالته الأولى "عرض علينا
وكيلنا في المويلح أنكم عند وصولكم إلى مضيق الجديدة سد العدو ذلك المضيق
ثلاثة أيام وثلاث ليل وأخيرا تقهقروا ووصلتم (ينبع) فإن كان الخبر صحيحا
فالنصر والهزيمة بيد الله يؤتيها من يشاء من عباده ، فيارفاق ويا قرة عيني ،
لا تأسفوا ولا تأسوا على ما فاتكم ولا تهنوا ولا تحزنوا ، فاليأس والضعف لا يليق
بالرجال أما الشجاعة والبطولة فهما في إعادة الكرة على العدو والانتقام منه .
القد طالما شهدت الحروب معي ، فأتى جنود مصر الذين خاضوا غمار المعارك
العديدة ، فكنا نهزم العدو طورا ، ويهزمنا طورا آخر ، فلم ننكص على أعقابنا
بل أعدنا الكرة وهاجمناه حتى دمرناه تدميرا ... إن لدى من المال والعدد والذخائر
سأرسلها إليكم فضلا عن أنني ربما قتت بنفسى إليكم ...^(١) وفي رسالته الثانية يؤكد
لهم أنه سيقوم بنفسه فيقول "يا رجالى القدماء . أتم أبناءى الذين ربيتهم منذ
نعومة أظفارهم ، فعرفتم أننى شيخ المحاربين ، أهمل رأيتمونى خفت حربا ، أو
تقهقرت أمام عدو ؟ إن أتم نكصتم على أعقابكم وخشيتم الحرب فدعوا حمل
السلاح ، وكونوا طلابا فى مدرسة ، أودراو يش فى تكية ولن أتاخر عن الإنفاق عليكم .
لماذا تخشون كثرة العدد وأتم متحصنون داخل قلعة حصينة مثل ينبع ... أثبتوا
إذن كرجال واعلموا أننى بعد إتمام إرسال الجنود البرية والبحرية سأقوم بنفسى

(١) من محمد على إلى طوسون : وثيقة رقم ٢ محفوظة رقم (١) ذوات (٢١) ذى الحجة

إلى الحجاز لأرى هممتكم ، كونوا يدا واحدة وصلوا أوقاتكم الخمس فكانكم مكان
صلاح واستغفار ، ينصركم الله ويثبت أقدامكم^(١) .

وقد حقق الباشا وعده فيما بعد ، ووصل إلى جدة في سبتمبر سنة ١٨١٣ ،
وفي ٦ أكتوبر قصد إلى مكة ، وهناك أصدر الأوامر إلى جيشه في المدينة ليزحف
إلى نجد ، وإلى جيشه في الطائف ليحتل تربه ، وإلى جيشه الثالث ليذهب برا وبحرا
إلى القنفذة لتأديب الخارجين من أهل عسير . ثم أخذ يضع قواعد الحكم المصرى
في الحجاز ويدرس نفسية البدو والحضر ، ويوزع المال والأرزاق على المحتاجين ،
وعزل الشريف غالب أمير مكة لذبذبه بين السعوديين والأتراك ، وعين بدله
الشريف يحيى أحد الموالين للحكم المصرى ، ثم خفض رسوم الجمرى في جدة
ليكسب محبة التجار وثقتهم ، وألغى الضرائب التى فرضها الشريف غالب أمير مكة ،
وأصلح ما تخرّب من قبور الآل والصحابة ، وأنشأ تكيّتين ، إحداهما في مكة والأخرى
في المدينة وبالجملة فقد عني بدعم أركان الحكم المصرى في الحجاز ، ولكن بقي عليه
أن يكمل انتصاراته في الجزيرة العربية بفتح نجد ذاتها ، حتى يأمن على الحجاز من معاودة
السعوديين فتحه من جديد ، على أن هذا الغرض الأساسى كان أملا لم يستطع الباشا
أن يحققه بنفسه ، إذ وجد نفسه مضطرا إلى العودة إلى مصر على جناح السرعة ،
موطدا العزم على أن يلقي عبء هذه المهمة الخطيرة على ولده الأكبر إبراهيم : أما
أسباب عودة محمد على إلى مصر فترجع إلى أن الباشا قد أمضى ما يقرب من عامين ببلاد
العرب ، سمع أثناءها مختلف الإشاعات عما يبنيه له السلطان ، الذى حاول أكثر من مرة
أن يقصيه عن ولاية مصر^(٢) ، وسمع أخيرا "أن الاستعداد قائم على قدم وساق في تركيا
لتنظيم حملة تحت قيادة قبطان باشا لمهاجمة الاسكندرية والاستيلاء على مصر

(١) من محمد على إلى رؤساء الجيش : وثيقة رقم ٨٢ محفوظة ٢ بحرا بر بتاريخ ١٥ محرم ١٢٢٧

(٢) راجع كتاب (محمد على) من سلسلة أعلام الاسلام لصاحب العزة شفيق غربال بك .

باسم السلطان^(١)“ ، أضف إلى ذلك أنه سمع بعودة نابليون من منفاه في جزيرة إلبي مما سيجعل الموقف الدولي في خطر، وبذلك تصبح مصر مهددة بأطماع الدول ، وقد قابله إذ ذاك في مكة صديقه المستشرق المؤرخ (بوركهاردت) ووصف شعور الباشا قائلا ” لقد كان محمد علي مهتما اهتماما عميقا بالحوادث التي تجري في أوروبا وكان يعتقد أن إنجلترا سوف تسعى بعد سقوط نابليون إلى تدعيم سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط بالاستيلاء على مصر^(٢) . وقد قال الباشا لبوركاردت ” إن السمك الكبير يتلع السمك الصغير ، وأنا أعرف أن إنجلترا تطمع في مصر ، إنني صديق الانجليز ، ولكن حقيقة الواقع ، أن من بين كبار الدول من يعطيك من طرف اللسان حلاوة ، ولا يضمرك في نفسه الإخلاص . وغاية ما أتمناه ألا ينتهز الانجليز فرصة غيابي في المحاز لينقضوا على مصر ، أما لو كنت هناك ، فسيكون لي على الأقل شرف الدفاع عن ممتلكاتي “ . وفي ٢٠ مايو سنة ١٨١٥ أبحر محمد علي إلى مصر بعد أن سلم القيادة من جديد إلى ولده طوسون ، وجاءت بعد ذلك فترة ركود جنح فيها طوسون وعبد الله بن سعود إلى السلم ، إذ اتفقا على أن يتخلى الوهابيون عن كل مطالبهم في الأرض المقدسة على أن يترك المصريون لعبد الله كل ما استولوا عليه من مدن القصيم ، ولكن الفريقين كانا يعدان هذا الصلح أشبه شيء بهدنة لا يعرف أجلها ، فلا عجب إذا رأينا كلا منهما يستعد للمعارك القادمة ، وكان أول ما فعله الباشا أن اختار ابنه البطل ابراهيم وألقى على كاهله مهمة اختراق قلب الجزيرة العربية ليصل إلى الدرعية مهد الوهابيين .

كان ابراهيم إذ ذاك لا يتجاوز السادسة والعشرين من عمره ، صلب العود ، شديد البطش ، ثابتا في عزمه ، متفانيا في طاعة أبيه ، وقد ذكر المؤرخون أنه كان

(١) من ميست القنصل الانجليزي بمصر إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٥ يونيو سنة ١٨١٥ وثيقة محفوظة بوزارة الخارجية بلندن .

(٢) Burckhardt : Travels in Arabia V. I. P. 144 (٢) .

توفا إلى القيام على رأس الحملة الجديدة بعد أن استدعى محمد على ابنه طوسون^(١) لكي يعود إلى مصر، ووصلت أنباء قرب وصول إبراهيم إلى الحجاز فأخذ عبد الله يستعد استعدادا ضخما ويستنفر شيوخ نجد ومن تبعه من أرض الحجاز وعسير .

ومنذ أوائل عام ١٨١٦ كانت عيون الناظرين في مصر تقع خلال الأشهر الثمانية التالية على الجمال محملة بالأثقال من المؤن والذخائر ومهمات الجيش قاصدة السويس ، والسفن الصاعدة في النيل إلى قنا مشحونة بالمدافع والجند ، لتنتقل بعد ذلك إلى موانئ البحر الأحمر حيث تبحر إلى الجزيرة العربية ، وفي ٥ سبتمبر سنة ١٨١٦ ودّع إبراهيم باشا أسرته ورجال الحكومة وأعيان البلاد ، ولما دخل على والدته يودّعها قبلته وباركت عزيمته ، ثم ناطت برقبتة عقدا من الجواهر سألته ألا ينتزعه إلا في الحجرة النبوية الشريفة هدية منها إلى الضريح الشريف ، فوعدها بالوفاء بهذا النذر .

وفي الثالث والعشرين من شهر سبتمبر أبحر إبراهيم بجلته من ميناء القصير مستصحبا معه عددا من الأوروبيين ، نذكر منهم الضابط المهندس فيسير Vaissière الذي خدم في جيش نابليون ، وألقت به حوادث عام ١٨١٥ على ضفاف النيل باحثا عن عمل في جيش محمد علي الكبير ، ثم بعثة طبية كان قوامها أربعة من الإيطاليين هم سكوتو Scoto وجنتيلي Gentili وتودسكيني Todeschini وسوشيو Socio . وهؤلاء الأوروبيون كانوا على الأرجح أول من اخترق نجد من الأجانب ، ولكنهم للأسف لم يتركوا مؤلفات أو مذكرات عن تجاربهم ومشاهداتهم في قلب الجزيرة .

(١) وصل طوسون إلى القاهرة في ٧ نوفمبر سنة ١٨١٥ ، وكان في استقباله كبار رجال الحاشية وقزاد الجند وأعيان القاهرة وما استتب له المقام فيها حتى غادرها إلى الاسكندرية حيث كان أبوه مقبلا بها منذ ١٩ أكتوبر سنة ١٨١٥ فزاره والدته وهناك رأى لأول مرة ابنه عباس (عباس الأول فيما بعد) الذي رزق به أثناء تغيبه بالحجاز وكان يبلغ من العمر إذ ذاك عامين ، وقد مات طوسون بعد ذلك بعدة أشهر .

وفي ٣٠ سبتمبر وصلت سقن الحملة إلى ينبع ، وأقام في تلك البلدة عدة أيام .
استعرض فيها جيوشه ، واستقبل وفود القرى المجاورة والقبائل التي أقبلت تقدم له
فروض الولاء والطاعة ، ثم انتقل إلى المدينة المنورة حيث استقبله شيخ الحرم
النبوي وقاضى المدينة والأعيان والأشراف ، ثم توجه تولا إلى الحرم النبوي الشريف .
حيث صلى لله أربع ركعات ثم تقدم بتؤدة وخشوع نحو الضريح الشريف قائلا :
” السلام عليك يا محمد . السلام عليك يا رسول الله “ وطفق يدعو الله أن يجعل
النصر حليفه ، وأن يوفقه في المهمة التي أتى من أجلها .

اعتمد إبراهيم في سياسته في بلاد العرب على ولاء القبائل التي سيخترق بلادها
إلى نجد لأنه كان يعلم تمام العلم أنه في أشد الحاجة إلى معونتها لتأمين طريق الحملة ،
لذلك كان حريصا على أن يبين لهم أنه إنما جاء إليهم ليعمل كصديق على ما فيه
خيرهم ، وأنه ليس من الغزاة الفاتحين ، وأن الحكم المصرى لم يأت ليأخذ منهم بل
ليعطهم ، وقد وصف الرحالة بلجريف ما أخذ به إبراهيم نفسه من مسالمة القبائل
وتأمين الأهالى في قوله :

” كل دلو من الماء قدمها أحد إلى جيشه ، وكل ثمرة أكلها الجنود ، وكل
عود من الحطب أوقدوها ، كان إبراهيم يدفع ثمنها في الحال ، وقد حرم على الجنود
والضباط ألا يسيئوا إلى الأهالى العزل من السلاح ، وحرس كل الحرص على أن
تتفد أوامره بكل حزم ، فأخذت القرى واحدة إثر أخرى ، والقبائل قبيلة تلو قبيلة
تقدم الطاعة للحكم المصرى ، اللهم إلا أقلية ضئيلة كان دأبها الثورة والفتنة ، وحتى
هؤلاء لم يحاول إبراهيم أن يقسو عليهم بل تعتمد أن يرأف بهم ويتغاضى عن
هفواتهم “ .

أقام إبراهيم بالمدينة أسبوعين كاملين ثم اتخذ من (الحناكية) مركزا يوجه
منه هجمته ، ولبت فيها كالصياد يراقب فرائسه ، فكان تارة يغير على البدو الذين لم

تفلق معهم سياسة اللين أو المال، وتارة أخرى يفيض على شيوخهم بما حمله من هدايا وما أعدّه لهم من منح مالية، فانضم إليه عدد كبير من شيوخ القبائل الشديدة البأس كقبائل حرب وعتيبة ومطير^(١)، وفي ١٩ يناير ١٨١٧ تلقى إبراهيم من القاهرة نبأ الانعام عليه من السلطان بلقب الباشوية ذات الأذنان^(٢) فأوفدت المدينة الوفود من كبارائها لتهنئته، وذهب الباشا معهم إلى المدينة حيث أقيمت الحفلات ومعالم الزينات ابتهاجا بهذه المناسبة وألبسه المفتي شارة الترقية وبعد هذا الاحتفال الذى رفع مكانته وألقى هيئته فى النفوس عاد إلى معسكره فى الحناكية لبدء المهمة الخطيرة .

ولم يكن كل شىء هادئا فى جيشه ، إذ ظهر بين الأرثوود جماعة بدؤوا حركة عصيان وتذمر، عندما تواترت الاشاعات بانقطاع الصلات السياسية بين روسيا والباب العالى ، واعتقدوا أن مركزهم فى الجيش أصبح حرجا ، فأخذوا يطالبون بمرتباتهم ، ولم يجد إبراهيم بدا من تسكين روعهم ودفع لهم حقوقهم ، أضف الى ذلك أن حرارة الشمس نهارا والبرد الشديد ليلا وندرة الماء الصالح للشرب وتقشى الحميات والدوسنطاريا ، حمل الجند على التذمر وضعف العزيمة ، ولم يستطع الأطباء الأوربيون على الرغم مما بذلوه من جهد أن يستأصلوا هذه الأمراض الفتاكة بسرعة ، ولكن إبراهيم أبدى لإزاء هذه الكوارث جلدا وصبرا عجيبين بثا روح الطمأنينة والرجاء فى النفوس الجازعة القلقة . وجاءته الامدادات التى طلبها من أبيه فسد النقص وأعاد الأمل إلى جيشه .

(١) مما جذب العربان المواليين لعبد الله بن مسعود إلى الانحياز إلى إبراهيم ، إكرامه منوى غانم ابن مضيان شيخ قبيلة حرب وغيره من الشيوخ ووعده بإيائهم بعدم فرض الجزية وبأن يدفع لهم ثمن ما يؤدونه إلى الجيش من مؤن ، أضف الى ذلك لقاءه الناس بالبشر والترحاب وسعة الصدر والسخاء .

(٢) الباشوية ذات الأذنان الثلاثة هى أعلى رتبة يمنحها السلطان لوزراء الدولة ، وشارتها ثلاث خصل من شعر ذنب الخيل توضع فوق الرمح الذى يتقدم الباشا فى الحفلات الرسمية ، وهو تقليد عثماني قديم .

وبعد أن أقام إبراهيم ستة أشهر في الحناكيه، زحف في شتاء السنة التالية (٢٢ فبراير سنة ١٨١٧) إلى نجد، فوصل إلى (الرس) وحاصرها حتى سلمت بعد حصار طويل وقتال عنيف هلك أثناءه ثلاثة آلاف من رجاله ، وكادت تنفذ ذخائره ، لولا تذرعه بقوة الإرادة والعزم الحديدي ، حتى أن المؤرخين قد أجمعوا على أنه لو أن قائدا أقل من إبراهيم عزما وأضعف إيمانا وأكثر جزا أمام الحوادث إذا قلبت له ظهر الجحش لغادر ميدان القتال هربا ويأسا ، وانقلب على عقبيه وعاد إلى الحجاز فورا ، ولكن البكارة التي نزلت به وبحيشه زادته إصرارا على إرادته وتمسكا بتنفيذ رغبته ومضيا في عزيمته ، على الرغم من أن الطبيعة حالفت عدوه ، إذ ثارت الزوايع والعواصف بشكل غير مألوف ، فهبت الريح الشديدة تسفى التراب والرمل وتنتزع المشارب والحيام ، وتسلب الإنسان والحيوان حرية التنفس والحركة ، وبدلا من أن يقبع إبراهيم في مخبأ يتقى به هذه الأخطار، امتطى جواده في يوم من هذه الأيام العصبية وسار في ألف فارس فانقض على فريق من أعدائه ومزق شملهم وبث بذلك نشاطا وحمية في نفوس جنوده ، وكان سكان (الرس) قد سموا انتظار وصول المدد إليهم من عبد الله ولم تعد لهم طاقة برؤية الخراب الذي أخذ يسرى من بيت إلى بيت فعولوا وعلى رأسهم حاكمهم (محمد بن مزروع) على أن يطلبوا من إبراهيم هدية شريفة فكان لهم ما أرادوا ورفع عنهم الحصار على شرط قبول حامية مصرية في بلدتهم .

بعد أن سلمت (الرس) زحف إبراهيم إلى (عنيزة) حيث كان يربط بها عبد الله ، فسلمت البلدة وانسحب الزعيم السعودي إلى الدرعية حيث راح يستنفر أهل نجد كي يجتمعوا في العاصمة النجدية ليدافعوا عن مكانهم ومبادئهم ووطنهم ، أما جيش إبراهيم الظافر فقد استولى على بريده ثم شقرا وضمرا ثم سار إلى وادي حنيفة حتى أشرف على العاصمة العتيقة (الدرعية) في ٦ أبريل سنة ١٨١٨ ، أما الدرعية فتقع في الجزء الشرق من قلب جزيرة العرب على مسافة ٨٠٠ كيلو متر من

يلعب ، وتتألف تلك العاصمة من خمسة أقسام صغيرة ، لكل قسم أبواب وأسوار خاصة تخلفها الحصون والأبراج ، ومحيطها لا يقل عن اثني عشر كيلو مترا ، وهي دائرة كان من الصعب حصرها بأقل من ٢٥٠٠٠ مقاتل أى بأربعة أضعاف جيش إبراهيم ، لذلك نجده يحشد قواه كلها في نقطة واحدة للهجوم على حصن مقام على أكمة مرتفعة . وقد استمر حصار الدرعية خمسة أشهر وبضعة أيام ، تعددت أثناءها المعارك واشتدت الحملات ، وكلف الباشا المهندس الفرنسي (فسيير) بإنشاء المعاقل التي يحتجى بها الجنود المصريون ، ومع ذلك فقد لاقت الجيوش المصرية عنتا وأهوالا شديدة ، وحدثت في ٢١ يونيو نكبة كادت تقضى على كل أمل في فتح الدرعية ، فقد حدث أن اشتبك السعوديون بالمصريين في معركة قتل وجرح فيها عدد كبير من الضباط ممن امتازوا بالشجاعة والحدق ، فلما عاد الباقون إلى المعسكر لالتماس الراحة بعد يوم رهيب قاتل ، هبت ريح السموم فحملت جذوة نار من موقد كان أحد الجنود يطهى عليه طعامه ، وألقته على خيمة كبيرة منصوبة على روتين عاليتين وفيها مستودع القذائف وعدة براميل من البارود وعددا كبيرا من صناديق الخرطوش والقنابل ، فلما احترقت الخيمة اتصل اللهب بالذخائر فانفجرت كلها ، وتسبب عن الحريق احتراق مخازن القمح والشعير ، وضياح أرواح كثيرة من الجنود وأصبح إبراهيم بلا مؤن ولا ذخيرة وسط الصحراء ، بعيدا عن مخازنه ومستودعاته الأساسية ، على أن إبراهيم تلقى تلك الكارثة بالصبر والثبات وسرعة البديهة وقوة الإرادة ومضاء العزيمة ، وكان أحد القواد يقود النقط الأمامية ، فبعث يستفسر من الباشا هل استطاع أن يستخلص شيئا من الذخائر ؟ فكان جوابه : "لقد فقدنا كل شيء إلا البسالة وسيوفنا فبالبسالة والسيوف نستطيع معاودة الهجوم والانتصار" . أما الانفجار فكان له دوى هائل ، فهم منه المدافعون عن الدرعية أن كارثة ما قد حلت بالذخائر المصرية ، فخرج منهم عدد من المقاتلين يحسون النبض ، وأدرك إبراهيم جرح موقفه ووقف في وسط جنوده يأمرهم بأن يضمنوا كل الضن بما تبقى معهم

من الذخائر ، وألا يطلق أحدهم رصاصة إلا عندما يقترب العدو بحيث لا يخطئ أحد المرمى ، وأنذر كل من تحدثه نفسه بالتقهقر بالأعداد ، وكان من عادة النجديين في الحرب أنهم إذا خرجوا للقاء أعدائهم قاموا بحركات سريعة واقتربوا منهم كاللح الخاطف بدلا من القيام بمناورات تستنزف ذخائر أعدائهم ، فلما اقتربوا من المراكز المصرية التي أغفلت أمر تقدمهم في أول الأمر ، تلقتهم بمقذوفات المدافع فحصدتهم. ولم ينج منهم إلا عدد قليل .

لازم جيش الدرعية بعد ذلك خطة الدفاع ، بينما استفاد إبراهيم من الوقت تصله أثناء الإمدادات من الرجال والعتاد ، وعنى إبراهيم بحالة الجرحى والمرضى ، وعاقته عنايته بأحوال جنوده عن التماس الراحة لنفسه ، فأخذ يشرف بنفسه على معالجتهم على أيدي أطبائه الأوربيين الذين لم يألوا جهدا في هذا السبيل ، حتى أنه الطبيب (جنطيل) أصابته قنبلة في رجله أثناء ذهابه لإسعاف الجرحى ، فتولى يترها له زميله (تود سكينى) ، وقد زاره إبراهيم يصحبه فيسيروا وأظهروا له من العطف والرعاية ما أدخل السكين على قلبه .

تواردت الإمدادات على إبراهيم ، وبعث إليه والده محمد على برسول خاص (سليمان أغا الجركسى رئيس أغوات السراى) يحمل إليه بعض الارشادات ويقينه بأنه سوف يرسل إليه مددا بقيادة خليل باشا محافظ الاسكندرية ليعينه على فتح الدرعية .

وطلب إليه أبوه في رسالته التي حملها اليه الرسول ألا يداخله ريب أو تأثر بسبب إرسال خليل باشا لمعاونته ، ولكن إبراهيم باشا ، الذى كان حريصا على إرضاء أبيه ومتفانيا في طاعته ، كتب إلى محمد على يقول : "اطلعت على مضمون أمركم السامى وعلى ما تفضلتم بإشعارى فى متن هذا الأمر العالى من أنه لا يجوز أن يخطر لعبدكم شئ بسبب انتداب صاحب السعادة عبدكم خليل باشا لهذه الجهات بسبب حداثة سنى وأن يضطرب فكرى وأقول إن هذه المسألة يمكن إتمامها سواء انتدب المشار

إليه أم لم ينتدب ، وإني أجب بأن كلينا ، عبدكم و خليل باشا ، من غلمان أفندينا التي لا تعتق مما هو معلوم للجميع ، كما لا أشك في أن قدوم خليل باشا باعث على الافتخار لي ، لأنه أولا من أقاربي وثانيا فإن معاونته لي لا تقاس بمعاونة غيره ، وفضلا عن ذلك فإن صداقته لأفندينا أمر بدهي ، ومجيئه هنا يسهل المصلحة ولا يوجد لدى أي شك في أنه عند حضور المشار إليه ورؤساء العساكر تقوم بعناية الله الملك المتعال بالهجوم من خمس جهات فيتم الفتح والنصر ... وإذا كان أحد قد أنهى لأفندينا خلاف ذلك فإني أقول إن الله يعلم أني عبدكم صرت مسرورا وممنونا ، وبسطة يدي في الحال أدعو الله دعاء جزيل لأفندينا إذ أن ورود عساكر كثيرة بهذه الدرجة في أول الأمر هو نعمة عظيمة لعبدكم كما أنه لو تم بعناية الله فتح الدرعية بالسيف لكان نعمة ذلك أكثر مما إذا كان الفتح بالمحاصرة ... فإن شاء الله تعالى لدى حصول العلم لدولتكم بعبوديتي وكيفية الحال ، فإن الأمر مفوض لصاحب الدولة والمرحمة سيدي وولي نعمتي وسبب فيضي وراحتي في شأن التفضل بإبقاء حسن التوجهات السنوية التي استأنست بها وألفتها من زمن بعيد وقريب^(١) .

ذلك بجانب من رسالة إبراهيم إلى أبيه تنطق بما يفيض به قلبه من حب وإخلاص ، وتدل على ما كان يحمله إبراهيم من نكران الذات بالنسبة لأبيه ، ولكنه في الوقت ذاته كان خريصا على ثقة أبيه في كفايته ومقدرته الحربية ، وغيورا على مجده الحربي أن يهن أو يضعف أو يتخاذل بعد أن وضع أبوه كل ثقته فيه ، فعزم عزما صارما على أن يفتح الدرعية قبل أن يصل خليل باشا بإمداداته الكبيرة .

بدأ الهجوم ، وحمل إبراهيم على أهل الدرعية في متاريسهم وفي معاقلهم وفي أبراجهم وفي بيوتهم حملات شعواء استخدمت فيها المدافع الضخمة والشعل النارية والبنادق والسيوف ، ثم أحاطت جيوشه بالمدينة واحتلت حيا من أحيائها

(١) من إبراهيم باشا إلى والده : وثيقة رقم ٩٤ محفوظة رقم ٥ بتاريخ ٩ رمضان ١٢٣٣ بدار المحفوظات الملكية بعادين .

وانتشرت في الحدائق المحيطة بالأحياء الأخرى ، فوهنت عزائم المدافعين ونظر عبد الله حوله فلم يجد من رجاله وحرسه الخاص سوى نفر ضئيل ، فحضر عبد الله قومه على المقاومة ، واستفز همتهم واستثار حميتهم ، ولكنهم أشاروا له على حث الطريف ، الذي دك عن آخره ، وعلا الصياح واشتد الصخب ، فلم يسع الزعيم السعودي إلا أن يطرق برأسه إلى الأرض يأسا وحزنا ، واضطر إلى إجابته إلى ما طلبوه من الرضا بحكم القضاء والأمر الواقع ، وارتفعت راية التسليم تطالب الكف عن القتال .

وفي ٩ سبتمبر ١٨١٨ وصل رسول من طرف عبد الله إلى خيمة إبراهيم ملتجئاً بالنيابة عن أميره وقف لإطلاق النار وتعيين موعد لمقابلة عبد الله ومفاوضته ، فأجابه إبراهيم إلى طلبه ، وبعد ساعات حضر عبد الله يصحبه مائتان من حرسه ، فلتقاه إبراهيم بمظاهر الرعاية والاحترام ، وسأله لم ظل مصرا على المقاومة بينما كان جميع السكان قد أدركوا ألا فائدة من النضال ، فأجاب عبد الله : "لقد انتهت الحرب الآن وكان ما هو كائن بقضاء الله وقدره ، وما غلبتنا جنودك ، ولكن الله هو المعز المذل" وضعف صوت الأمير وهو ينطق بهذه الكلمات وانهمرت دموعه فعزاه إبراهيم وتلطف معه قائلا : "إنه ما من بطل في العالم إلا وبه نقص وضعف ، وأن الكمال المطلق لله ، والإنسان ليس معصوما من نوازل القدر" . ولما طلب عبد الله الصلح ، أجابه إبراهيم إليه ثم أضاف قائلا : "وإني لجاعلك الحكم في شروطه وإنما هناك أمر لا تصرف لي فيه ألا وهو بقاءك في الدعية فإن الأوامر الصادرة إلى تقضى بذهابك إلى مصر" إلى مصر" فأطرق عبد الله هنيئة وطلب تأجيل إجابته عن ذلك إلى الغد ، وفي الغد وفي الأمير بوعده ، وجاء موافقا على السفر إلى مصر إذا ضمن إبراهيم له النجاة ، فقال له إبراهيم : "إذا كنت لا أستطيع أن أتدخل في إرادة الوالي في مصر فإني من باب أولى أعجز عن التدخل في إرادة السلطان" .

المؤرخين إنه لم يكن يفترق في شيء عن المصريين ذوى الثقافة الأوروبية^(١). ولم اكتمل تعليمه عنده محمد على كاتبا في الديوان الخديوى بمرتبة لا بأس به^(٢)، وقد ظهر فيما بعد أن الباشا كان يعده لمهمة خطيرة لم يكن أو أنها إلا في عام ١٨٣٦، عندما عزم الباشا على أن يرسله في حملة أخرى إلى قلب الجزيرة، لتكون نواة لضم جميع البلاد العربية على الخليج الفارسي كالحسا والقطيف وجزر البحرين والكويت وغيرها. وكان محمد على يعلم علم اليقين أن من الصعوبة بمكان أن تخضع نجد لأى حكم أجنبي، فرأى بثاقب بصره أن يعين خالد بن سعود، ربيبه وصديقه، أميراً على نجد، وبذلك يكتسب رضاء الأقطار النجدية بعودة الإمارة إلى أمير نجدى من آل سعود، ويضمن لنفسه ولاء ذلك الأمير الشاب الذى أحب مصر وأحب محمد على من كل قلبه.

ولنعد إلى البطل ابراهيم، فإنه بعد أن أتم فتح الدرعية، كان عليه أن يطرح سياسة الشدة والصرامة جانباً بعد أن انتهت الحرب، ليكسب باللين والموعظة الحسنة، أولئك المشايخ ورؤساء القبائل، الذين حاربوه وانتصر عليهم وكان فى استطاعته بعد ذلك النصر الحاسم أن يذيقهم كأس الهوان. فأعلن أنه يؤمن من يطلب الأمان، وأغدق المال على من انضم إليه، ورد النخيل الذى كان قد صادره إلى أصحابه، فسارعت القرى والقبائل فى نجد والحجاز إلى طلب الأمان، بل ونجد أشد النجديين تعصباً ممن حاربوه فى (القصيم) وخاصة فى بريدة وعينزة يقدمون إليه كميات من الشعير وغيره من الحبوب للمساعدة فى تموين الجيش^(٣). أضيف إلى هذا حسن لقائه للناس، وبشاشته فى وجوههم وسعة صدره معهم، وكرمه وسخائه.

(١) D'Avril: L'Arabie Contemporaine. P. 21. Paris 1868.

(٢) المحفوظات الملكية : أمر رقم ٧٥١ دفتر رقم ٧٤ ص ١٣٠ .

(٣) المحفوظات الملكية المصرية : وثيقة رقم ٥ محفظة رقم ٥ [٣ محرم ١٢٣٧] .

المؤرخين إنه لم يكن يفترق في شيء عن المصريين ذوى الثقافة الأوروبية^(١). ولم اكتمل تعليمه عنده محمد على كاتبا في الديوان الخديوى بمرتبة لا بأس به^(٢)، وقد ظهر فيما بعد أن الباشا كان يعده لمهمة خطيرة لم يكن أو أنها إلا في عام ١٨٣٦، عندما عزم الباشا على أن يرسله في حملة أخرى إلى قلب الجزيرة، لتكون نواة لضم جميع البلاد العربية على الخليج الفارسي كالحسا والقطيف وجزر البحرين والكويت وغيرها. وكان محمد على يعلم علم اليقين أن من الصعوبة بمكان أن تخضع نجد لأى حكم أجنبي، فرأى بثاقب بصره أن يعين خالد بن سعود، ربيبه وصديقه، أميراً على نجد، وبذلك يكتسب رضاء الأقطار النجدية بعودة الإمارة إلى أمير نجدى من آل سعود، ويضمن لنفسه ولاء ذلك الأمير الشاب الذى أحب مصر وأحب محمد على من كل قلبه.

ولنعد إلى البطل ابراهيم، فإنه بعد أن أتم فتح الدرعية، كان عليه أن يطرح سياسة الشدة والصرامة جانباً بعد أن انتهت الحرب، ليكسب باللين والموعظة الحسنة، أولئك المشايخ ورؤساء القبائل، الذين حاربوه وانتصر عليهم وكان فى استطاعته بعد ذلك النصر الحاسم أن يذيقهم كأس الهوان. فأعلن أنه يؤمن من يطلب الأمان، وأغدق المال على من انضم إليه، ورد النخيل الذى كان قد صادره إلى أصحابه، فسارعت القرى والقبائل فى نجد والحجاز إلى طلب الأمان، بل ونجد أشد النجديين تعصباً ممن حاربوه فى (القصيم) وخاصة فى بريدة وعينزة يقدمون إليه كميات من الشعير وغيره من الحبوب للمساعدة فى تموين الجيش^(٣). أضف إلى هذا حسن لقائه للناس، وبشاشته فى وجوهم وسعة صدره معهم، وكرمه وسخائه.

(١) D'Avril: L'Arabie Contemporaine. P. 21. Paris 1868.

(٢) المحفوظات الملكية : أمر رقم ٧٥١ دفتر رقم ٧٤ ص ١٣٠.

(٣) المحفوظات الملكية المصرية : وثيقة رقم ٥ محفظة رقم ٥ [٣ محرم ١٢٣٧].

وقد عُنِيَ عناية خاصة بمسألتين على جانب كبير من الأهمية ؛ أولاهما تنظيم التموين في مكة والمدينة بجلب الأغنام والمسلَى والمؤن والبضائع من الأقطار الشرقية ، مما ألهم السنة السكان والمحتاج والزوّار بالثناء والتقدير ، وثانيتهما : العناية بالمحتاج وتأمين الطرق حتى يشعر المسلمون في أنحاء الأقطار الإسلامية بفضل الحكم المصرى في الحجاز وحزم الإدارة واستتباب الأمن ، هذا إلى ما اقترحه على أبيه من ضرورة توزيع مرتبات من الغلال على فقراء البلديتين المقدستين ومجاورى الحرمين ، وقد رحب الباشا بهذا الاقتراح وأمر بتحرير كشوف بأسماء الأسر الفقيرة والمجاورين ليتسلموا نصيبهم سنويا من الشونتين المنشأتين في مكة والمدينة ، ولأول مرة منذ ابتداء الحكم العثماني في الحجاز سنة ١٧١٥ يشعر السكان والمحتاج بالأمن المستتب بين مكة والمدينة حيث أصبح الطريق بين البلديتين آمنا هادئا ، وذلك بفضل السياسة الحكيمة والإدارة الحازمة التي وضع أساسها ابراهيم باشا .

كان ابراهيم حريصا على أن ينفذ سياسة والده ، فكان يفضب أشد الغضب عندما يسمع أن أحدا من ضباطه أو جنوده آعتدى على أحد من السكان أو اغتصبه شيئا ، وكان يعمد في أوامره التي يصدرها للجيش أو للوظفين المدنيين الى تحذيرهم من ظلم الأهالى وتبهيهم الى أن الجناب العالى (محمد على) لا يرضى باغتصاب الأملاك أو ابتزاز الأموال وأن الباشا (لا يرضى الجور أو إيقاع الأذى بـ ^(٢) بـحيران الرسول) .



تمت العمليات الحربية في نجد ، ووصل أمر محمد على الكبير الى ولده البطل أن يغزو بقية المناطق المجاورة لنجد ، وهى تلك التى كانت داخلية في نطاق الدولة السعودية إبّان عظمتها في عهد سعود الكبير ، أو تلك التى كانت تحت السيادة

(١) المحفوظات الملكية المصرية : وثيقة رقم ١٦ محفظة رقم ٩١ بجبراً .

(٢) المحفوظات الملكية : وثيقة رقم ٥٣ دفتر رقم ٧

السمودية . صدىع ابراهيم بالأمر وغزا الجيش المصرى منطقة (الحسا) فى أواخر عام ١٨١٩ ، وهى تلك المنطقة الممتدة على الساحل العربى من خليج فارس ، من حدود الكويت الى حدود قطر وعمان ، وبذلك أطلت جيوش ابراهيم على الخليج الفارسى واحتلت مدينة (القطيف) وميناء (العقير) . ثم استولت على (الهفوف) قاعدة منطقة الحسا وتقع فى الزاوية الجنوبية الشرقية من المناطق المنزرعة وتنقسم الهفوف الى ثلاثة أقسام (الكوت) فى الشمال الشرقى ، و (الرفعة) فى الشرق و (النعائل) فى الجنوب الغربى وقد عنى ابراهيم بالقسم الأول (الكوت) نظرا لأنه قاعدة إمارة الحسا ، ولنأعته وأهميته الحربية إذ يحيط به سور عظيم يبلغ ارتفاعه ٢٤ قدما ، وقد شيد عليه ابراهيم عدة أبراج وضع بها حاميات من جنوده .^(١)

وكان لوصول جيش ابراهيم الى سواحل الخليج الفارسى أثران سياسيان على جانب كبير من الأهمية :

أولهما أن الباب العالى قد حز فى نفسه ذلك النجاح الكبير الذى صادفه جيش محمد على ، وزاد من كده احتمال وصول الجيش المصرى الى خليج البصرة ، فكان يخفى فى قرارة نفسه خوفه من أن تصل هذه الجيوش فى وقت ما الى العراق .^(٢)

ثانيهما اهتمام الانجليز اهتماما كبيرا بوصول ابراهيم الى تلك الجهات ، حيث بدأت حكومة الهند البريطانية تنظر الى حركات الجيش المصرى فى تلك الأصقاع نظرة الشك والارتياب ، وخشيت أن يأتى يوم يتحكم فيه محمد على فى الساحل العربى من الخليج الفارسى فيضر ذلك بسيادتها فى مياه ذلك الخليج ويتعارض مع مشروعاتها التى تضمهرها هناك .

(١) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين — ص ٨٠

(٢) تاريخ جودت (باللغة التركية) ترتيب جديد — ص ١٥ جزء ١١

وكان الانجليز يعملون منذ سنين على مد سلطانهم نحو الخليج الفارسي ومحاربة القرصنة التي كانت تعترض الملاحة التجارية وتعتمد على مصائد اللؤلؤ حول جزر البحرين، لذلك فرضوا صداقتهم وأملوا إرادتهم على إمام مسقط ، ولما فتح عهد العزير بن سعود الحسا ، حاول الانجليز أن يتصلوا به في عام ١٧٩٩ لكي ينشئوا معه علاقة ود وصداقة ليضمنوا عدم الاعتداء على السفن الانجليزية في الخليج ، فأرسلوا اليه بعثة يرأسها رينود Reinaud وهو أحد الموظفين الذين أقاموا مدة طويلة في البصرة والكويت . وقد أقلت رينود سفينة انجليزية الى القطيف ، ثم ذهب الى الهفوف في حماية أحد إخوة الأمير الوهابي ، وسار بعد ذلك الى الدرعية حيث قوبل هناك بالإكرام والرعاية وعاد في سلام^(١) . ولكن لم يكن في استطاعة الحكومة السعودية أن تفرض سيطرتها على عصابات القراصنة التي عاثت فسادا في الخليج الفارسي ، ورأى الانجليز أن من العبث الاعتماد على الاتفاق مع الأمير السعودي .

وفي عام ١٨١١ حاول سعود الكبير أن ينشئ علاقة ودية مع الانجليز فأرسل رسولا الى المقيم البريطاني في (بوشير) ، ولكن حكومة الهند البريطانية لم تكن تميل إذ ذاك الى عقد معاهدة مع الأمير الوهابي انتظارا للحوادث التي كانت توشك أن تقع في بلاد العرب ، عندما بدأت الحملة المصرية بقيادة طوسون تغادر السويس ، وفي عام ١٨١٤ قيل أن بعثة سعودية أخرى قامت بحمل رسالة من الأمير ومن شيخ القواسم لعقد اتفاق دائم بعدم اعتداء القراصنة القواسم على السفن التي تحمل العلم الانجليزي ، على أن تلك البعثة ردت دون اتفاق ، انتظارا لما تتمخض عنه الحوادث ، وما يترتب على الحملة المصرية من نتائج^(٢) . وكان من نتائج هذا الموقف الذي وقفه البريطانيون أن ازدادت حوادث القرصنة ، وازداد القواسم طغيانا واعتداء ، ولم تستطع

(١) Hagarth : The Penetration of Arabia. P. 104. London 1904

(٢) Wilson : The Persian Gulf. P: 250. London 1928

الحكومة النجدية وقف الاعتداءات ، بل إن نجاح القواسم وما أصابوه من ثروة وما جمعوه من الأموال المسلوقة قد أغرى مشايخ البلاد التي تقع على سواحل الخليج على تقليدهم فافتنوا أثرهم في القرصنة .

ازدادت قوة القراصنة نموا حتى أصبح أسطولهم لا يقل عن مائة سفينة ، منها ستون اتخذت (رأس الخيمة) قاعدة لها ، والأربعون الأخرى كانت موزعة على بعض موانئ الخليج الفارسي ، ولم يكتف بعض هذه السفن بالاغارة على السفن التي تخترع عباب الخليج بل جاوزت ذلك إلى الخروج للاغارة على السفن التي تقترب من سواحل الهند .

وفي ذلك الوقت كان إبراهيم باشا يتقدم بجيشه في منطقة الحسا في طريقه إلى ساحل الخليج الفارسي ، وقد راع القواسم ما سمعوه من النجاح السريع الذي لازم إبراهيم في الحجاز ونجد فتوقعوا أن تكون الخطوة التالية للصيرين في عملياتهم الحربية بعد الاستيلاء على القطيف تدمير وكرهم في رأس الخيمة ففكروا جددا في مغادرتها إلى إحدى الجزر النائية بالخليج ، وقد وصلت معلومات كثيرة إلى حكومة الهند تدل على هذا الاتجاه فتلقى الأسطول البريطاني في الخليج الفارسي أمرا بالاستعداد لمنع القواسم القراصنة من التحرك في داخل الخليج أو تثبيت أقدامهم في أي جزيرة أو مكان آخر ، وقامت حملة قوية من بومباي تحت قيادة سيرجانت كير Grant Kier ، وتقرر في الوقت نفسه أن يقوم الكابتن سادلير Sadlier في بعثة ليقابل إبراهيم باشا وزودته حكومته بالتعليمات الكافية والأغراض التي تربي بها من ورائه بعثته ، أما الحملة التي قامت لتدمير قوة القراصنة قبل هروبهم من التقدم وراءهم المصري وتوغلهم داخل الخليج ليعششوا حول بعض الجزر ، فقد تقدمت نحو رأس الخيمة ونجحت في الاستيلاء عليها في ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ بعد حصار دام ستة أيام

وأحرقت جميع سفن القرصنة ثم عاد الأسطول إلى بمباى بعد أن قضى على أقوى معقل للقراصنة .

أما سادليز الذى كلف بالذهاب الى الحجاز لمقابلة ابراهيم باشا فكانت بعثته سياسية استطلاعية ، ظاهرها تهنئة البطل ابراهيم باسم الحكومة البريطانية بالهند بما أحرزه من نجاح في بلاد العرب وعرض اتفاق معه على التعاون مع حكومة الهند ضد القراصنة الذين كانوا معتنقين للمذهب الوهابي ، أما الغرض الخفى من بعثة سادليز فنستطيع أن نلمسه في التكليف السرى الذى أرسلته حكومة الهند الى سادليز تقول له فيه : ” إنك مكلف أثناء وجودك في المعسكر التركى (أى المصرى) أن تتحقق تماما من المقاصد التى يرمى اليها ابراهيم باشا في عملياته الحربية القادمة وغزواته نحو الخليج الفارسى دون أن يلحظ الباشا أن تلك هى مهمتك الأساسية ^(١) “ .

كان الانجليز يقدرون قوة جيش ابراهيم باشا في بلاد العرب بعد أن رأوا كيف أحرز النصر تلو النصر وكيف طوى بساط الجزيرة في زمن قليل ، وها هم يرونه يصل الى الخليج الفارسى ويضع حاميات في أهم موانئ الساحل العربى من الخليج ، فاعتقدوا أن هذه الجهات التى فتحها ابراهيم بشق النفس وبذل الأرواح ، لا يمكن أن ينسحب منها قبل أن يثبت أقدام الحكم المصرى بها ، فهو لا شك يرمى الى امتلاكها أو التسلط عليها ، وأن الحسا قد تصبح ولاية مصرية ، فرأوا من الخير أن يتفاهموا مع ابراهيم ، لعلهم يستطيعون إشراكه في الحملة التى أزمعوا لإرسالها لتدمير القراصنة ، ولعلهم أيضا يستطيعون الاشتراك معه في العمليات الحربية ضد السعوديين في نجد حيث يقاسمونه ثمرة النصر في أول الأمر ثم يزجرحونه في الوقت المناسب .

Newnham : (acting-Chief-Secretary) Secret Department, Bom- (١)
bay to Captain Sadlier, 13th April 1918. Sadlier Diary. P, 131.

لم يصل سادير في الوقت المناسب لأنه وصل بعد أن نجح ابراهيم باشا في تدمير الدرعية واحتلال الحسا والقطيف ، وفوجئ الكابتن سادير بوجود حامية مصرية في القطيف على رأسها قائد ينوب عن ابراهيم باشا، ولو أن هذا القائد المصري كان على وشك الانسحاب بحاميته لكي يترك الحسا يحكمها بنو خالد المواليون للحكم المصري طبقا للسياسة التي رسمها محمد علي لحكم هذه الجهات^(١). وقد علم سادير عندما وصل إلى القطيف أن دولة عبد الله بن سعود قد دالت ، وأن الدرعية أصبحت أثرا بعد عين ، وأن محمد علي قد أمر ابنه ابراهيم باشا بالانسحاب من نجد ومن البلاد التي فتحها على الخليج الفارسي على أن يترك في المواقع المهمة حاميات صغيرة للحفاظ عليها ومعاونة الحكام المحليين المواليين لمحمد علي هناك ، فوقع سادير في حيرة وارتباك إذ كان عليه أن يتم مهمته الرسمية والسرية ، ويتأكد بنفسه من نوايا ابراهيم أو بالأحرى من نوايا محمد علي ، وعلى ذلك قرر مواصلة بعثته حتى يقابل ابراهيم أينما كان في جزيرة العرب ليقف منه في جلاء على مقاصد محمد علي في الخليج الفارسي .

وفي ٢٨ يونيو سنة ١٨١٩ ذهب سادير إلى الهفوف قاعدة الاحساء فلم يجد ابراهيم ، فانتظر قيام قافلة حربية كانت على وشك أن تخرج إلى نجد ، وقد تحركت تلك القافلة الكبيرة في ٢١ يولييه ١٨١٩ ، وكان سادير يهتم أشد الاهتمام بدراسة كل موقع من المواقع التي يمر بها ، ويقيم ملاحظاته بعد أن يستفسر عنها بدقة من الحبيرين والأدلاء ، ثم ضمن كل ذلك تقريره الكبير الذي رفعه إلى الحكومة الإنجليزية في الهند^(٢) . وما أن وصل سادير إلى بلدة (الرس) التي كان يعتقد أنه سيقابل ابراهيم بها حتى سمع أن الباشا قد غادرها إلى المدينة .

(١) Wilson. 71.

(٢) اهتم سادير بدراسة شئون تلك النواحي من الناحية التجارية ومواطنها ومزاياها ، ووضع عدة خرائط تبين توزيع البدو والحضر في قلب الجزيرة العربية نجدها جميعا في تقريره الذي طبع بعد ذلك في بومباي سنة ١٨٦٦ بعنوان A Diary of a Journey across Arabia during the year 1819.

وأخيرا سار إلى المدينة ورأى عن بعد أشجارها ونخيلها، ولما لم يكن مصرحا
لأى مسيحي بدخول المدينة أو مكة، فقد حط رحاله في بير على حيث التقى هناك
بالطبيب الايطالى سكيتو الذى كان مرافقا للحملة المصرية^(١).

وفي ٨ سبتمبر سنة ١٨١٩ سمح له بالمشول بين يدي إبراهيم باشا الذى ذهب
تخصيصا إلى بير على لاستقباله، فسلمه سادير كتابا من حاكم ممباى يهنئه فيه باسم
حكومة الهند على نجاحه في حملته ويثنه أصدق تمنياته لعملياته الحربية القادمة،
ثم أهده باسم الحاكم سيفاً مرصعاً الغمد ومقبضه محلى باللائى الكريمة^(٢). ثم عرض
سادير على إبراهيم باشا أمر بعثته قائلاً إن حكومته قد ساءها تكرار العدوان من
القراصنة الوهابيين الذين يقيمون على ساحل الحسا على السفن التى تسير في الخليج
الفارسى، وأنها لم تكف تعلم بأنباء الحملة المصرية في نجد حتى قزرت لإرسال أسطول
حربى لتخريب أوكار القراصنة في الخليج الفارسى، وأن حكومة الهند يسرها أن
يتعاون معها إبراهيم باشا وأن تكون العمليات الحربية على سواحل الخليج مشتركة^(٣).
ثم أخذ سادير يتطرق في حديثه إلى ما ينبغى عمله ليستشف من إجابات إبراهيم باشا
شيئا عما يلتوى عمله، ولكن إبراهيم — كما قال في رسالته لأبيه العظيم — كان
منحفظا أشد التحفظ ولم يزد عن قوله بأنه لا يستطيع أن يبت في أمر العمل
المشترك لأنه إنما ينفذ أوامر أبيه في كل خطواته كما هى، وما هو إلا آلة في يده
يوجهها كما يشاء، ولذا فليس في وسعه أن يعده بشئ، ثم عرض على سادير أن
ينزل ضيفا عليه حتى يصدر أمر الجناح العالى^(٤).

(١) Musil: Northern Najd. P. 270 New York 1928.

(٢) المحفوظات الملكية المصرية: من إبراهيم باشا إلى محمد على وثيقة رقم ١١٥ محفظة رقم ٦.

(٣) Dodwell; The Founder of Modern Egypt. P. 58

(٤) المحفوظات الملكية المصرية: الوثيقة السابقة.

كان السلطان يكره اتصال محمد علي بالانجليز وينظر بارتياح إلى قيام أية علاقة ودية بينهما، خشية أن يعتمد (محمد علي) على تحالفه مع الانجليز ليفات من تبعيته للدولة العثمانية، فلم يترك رجال الباب العالي فرصة إلا انتهزوها لإثارة الفتنة وإيجاد هوة تفصل دائماً بينه وبين الانجليز.

فعندما أبلغ سفير إنجلترا في تركيا الباب العالي أن "قائد الانجليز الموجود في الهند قد عقد النية على تجهيز عدة سفن وتسييرها من بومباي إلى الخليج الفارسي وأنهم قد أرسلوا ضابطاً إلى إبراهيم باشا للاتفاق معه" أسرع الصدر الأعظم بالكتابة إلى محمد علي قائلاً: "إن من لوازم الحكمة عدم الانخداع بحيل الانجليز إذ ليس قصدهم من ذلك سوى إيجاد ذريعة للتسلط على تلك الجهات وأن مرماهم — كما هو مبين في المذكرة التي قدمها سفير فرنسا — هو الاستيلاء على بعض تلك الجهات^(١)" وختم الصدر الأعظم رسالته إلى محمد علي بالاستعداد لمثل هذه الحالة واستكمال وسائل الدفاع عن بلاد العرب.

وصلت تلك الرسالة إلى محمد علي في الوقت الذي كانت الفكرة قد اختمرت في رأسه بأن لا يتعاون إبراهيم باشا مع الانجليز في أية بقعة من بلاد العرب فكتب إلى إبراهيم يطلب إليه أن يرّد طلب سادليز في حكمة وتلطف وأن يتعلل بأنه قد وعد بأن يستريح هو وجنوده بعد فتح الدرعية لإزالة التعب واستجماعاً للراحة^(٢). وهكذا فشلت بعثة سادليز، وعاد إلى الهند ليقدم تقريره الكبير عما شاهده أثناء رحلته الطويلة التي قطع بها شبه الجزيرة العربية من الشرق والغرب.

(١) من نسيد علي باشا الصدر الأعظم إلى محمد علي : وثيقة رقم ٢٧. محفظة رقم ٢ لعام ١٢٣٥ هجرية : المحفوظات الملكية بمباين.

(٢) من محمد علي إلى إبراهيم باشا : مرفق بالوثيقة رقم ١١٥. محفظة رقم ٦ بحرياً .

أخذ إبراهيم باشا بعد ذلك في تدعيم أركان الحكم في بلاد العرب، وتأمين السكان على أموالهم وأملأهم، وعنى بتعيين أنصار الحكومة في الوظائف المحلية وخاصة ما اتصل بها برئاسة القبائل وزعامة الأشراف ولم يدخر وسعا في تنفيذ سياسة أبيه من حيث مكافأة الموالين لمصر بتعيين المرتبات ومنح العلاوات وتوزيع الغلال والكساوى، وبلغ من رغبته في استمالتهم وإظهار العطف عليهم أن عرض على بعضهم أن يرسل أولادهم في بعثات تلحق بالأزهر الشريف على أن تخصص لهم الحكومة المصرية مرتبا كافيا يعيشون به في القاهرة^(١).

وبعد أن انتهت مهمته الكبرى تقرر سفره الى مصر، فذهب في موسم الحج الى مكة المكرمة وأخذ مكانه بين الحجاج وصعد الى جبل عرفات وضحى بثلاثة آلاف رأس من الغنم وفاء بنذره إذ أوقى النصر من عند الله ووزع أثناء عودته من عرفات الى مكة الصدقات والمنح، واجتمع على أثر ذلك بجنوده الذين تقرر سفرهم الى مصر، وودع ضباطه وجنوده الذين كان من نصيبهم البقاء في مكة والمدينة وجدة وينبع والقنفذة.

وفي ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ وصل إبراهيم الى المياه المصرية وتراءت له أرض بلاده فخفق فؤاده العظيم ودمعت عيناه فرحا بتوفيق الله . وفي ١١ ديسمبر وصل الى قصر شبرا حيث استقبله كبار رجال الحاشية والجيش والأعيان، وقام في موكب نفخ نفخ توجّه به نحو القلعة وكان دخوله الى القاهرة في هذا الموكب العظيم من باب الفتوح فظل سائرا حتى صعد القلعة وكانت الحوائط والشرفات والنوافذ والسطوح مزينة بأجمل الزينات، والمصريون الفرحون يحفون بموكبه من كل جانب وتعالى أصوات الهتاف والتهايل والتكبير الى غنان السماء . وهكذا شهدت العاصمة يوما من أيام التاريخ لم تره مثيلا في ذلك العصر، ولكن شخصا واحدا كانت تبحث عنه

(١) من إبراهيم الى محمد على : وثيقة رقم ٤ محفوظة رقم ٢٦٧ عابدين .

الأنظار والأفئدة فلا ترى له أثرا ، ذلك هو الأئب البار محمد على الكبير ، إذ أثر ألا تقع عليه الأنظار في ذلك اليوم ، فالיום يوم إبراهيم ، فلا يجب عندئذ أن يؤثره أحد بالتمجيد أو الهتاف ، فولده البطل أولى اليوم منه بأن يتمتع بكل الحفاوة وكل التقدير ، وأكتفى محمد على الكبير بأن يتخذ له في مسجد السلطان الغورى مقعدا بسيطا شهد فيه الاحتفال العظيم حتى إذا مر أمامه ابنه إبراهيم طمرت دموع الفرح من عينيه وبسط يديه لله حامدا آلائه ، شاكرا نعمائه ، داعيا إلى الله أن يحفظ له إبراهيم .



ابراهيم باشا في طليعة جنوده

ابراهيم باشا في بلاد اليونان

للاستاذ محمد أحمد حسونه بك أستاذ التاريخ بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول)

حال اليونان قبل الثورة

لما كانت شبه جزيرة اليونان واقعة في ملتقى أوروبا وآسيا وأفريقية ، تطلعت اليها عيون الفاتحين من قديم الزمان ، فاضطر سكانها الى الخضوع للأجانب من مقدونيين ورومان وصقلب وصابليين وبنادقة وترك . على أن كل عنصر دخل هذه البلاد اصطبغ بالصبغة اليونانية ، اللهم إلا الترك فإنهم بقوا بمعزل عن السكان بسبب اختلاف الحكام والمحكومين في المزاج والدين ، ذلك الاختلاف الذي كان من أسباب الثورة .

ومن الطرق السهلة لمعرفة أهم هذه الأسباب ، استعراض حال كل فئة من فئات الشعب اليوناني أيام خضوعه للحكم العثماني ، والتعقيب على ذلك بوصف حركة الرقي بين أفراد الشعب في غضون ذلك الحكم الى قيام الثورة .

وأول ما نعجب له أن نرى الترك الفاتحين يعملون من أول الأمر ، وعن غير قصد ، على تنمية الشعور القومي بين المحكومين بوسائل متباينة : منها أن محمد الفاتح حين تسلم القسطنطينية طبق مبادئ الدين الإسلامي ، « فعامل اليونانيين معاملة المسلمين في كل ما يتصل بأمنهم على حياتهم وأموالهم وشرفهم ، ولم يكتف بالسماح للبطريك بكل الميزات التي كانت له أيام قياصرة الروم ، بل منحه الى جانب ذلك جزءا من نفوذ أولئك القياصرة ، حتى أصبح الرئيس الرسمي للمسيحيين من رعايا الباب العالي ، لا في أمور الدين فحسب ، بل في الأمور المدنية كذلك ، ومن ثم صار المطارنة الذين ينوبون عنه يمثلون السلطة الدينية والسلطة المدنية في آن واحد

فكانوا يفصلون في جميع قضايا المسيحيين باللغة اليونانية، وطبقا للقانون الروماني الذي ألفوه من قبل، وكان يحدث أحيانا أن يفضل أحد المسلمين الاحتكام اليهم في نزاع شجر بينه وبين أحد المسيحيين. وبمضى الزمن صار رعايا الباب العالي من المسيحيين يدينون بالطاعة للبطريرك أكثر مما يدينون بها للسلطان، وبهذا أصبحت البطريركية دولة في جوف الدولة العثمانية، على أن البطريرك — وقد صار مسئولاً عن "شعبه" أمام السلطان — كان يعمل أيام السلاطين الأقوياء على توجيه نظر الشعب — بالفعل دون اللفظ — الى العقيدة المسيحية : " أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله " .

والى جانب عطف السلطان على البطريركية كان يشمل برعايته الخاصة فئتين من اليونان هما الفناريون ورؤساء المطارنة . والفنار — أو المنارة — اسم يطلق على الحى الذى كان يقوم فيه قصر البطريرك، والذى كانت تسكنه جالية يونانية نشيطة يعمل أكثرها فى التجارة والربا، ويختار السلطان من بين أفرادها كثيرا من أعوانه فى الأعمال المالية والسياسية، وأعظم هؤلاء الأعوان شأنا التراجمة، إذ كانوا يرقون من مجرد واسطة للتفاهم الى مستشارين، يستمع الى رأيهم فى كل ما يتصل بالسياسة الخارجية، وبلغ من ذلك أن نفوذ ترجمان الباب العالي كان فى بعض الأحيان يفوق نفوذ " الرئيس أفندى " وهو وزير الخارجية عند الترك، وكانت له كذلك إصبع فى السياسة الداخلية، لأنه كان منوطا بتبليغ " الديوان " رغبات اليونان وحاجاتهم — تلك الرغبات والحاجات التى كان يرفعها اليه رؤساء المطارنة عن طريق مندوبين يسمحون " الوكلاء " .

ومنذ سنة ١٧١١ جعل السلطان يختار من الفناريين حكاما لولايتى البغدان والافلاق، وكان هؤلاء الحكام يتلقون من السلطان تقليدا، أسوة بالولاة من الباشوات، ويتسلمون من البطريرك تقليدا آخر يراد به استرضاء المسيحيين من أهل هاتين الولايتين .

وأهم خدمة أداها الفناريون لبنى جنسهم رفع مستوى التعليم بينهم بإنشاء المدارس فى أنحاء الدولة العثمانية ، ثم فتح باب الوظائف المالية والإدارية والسياسية أمام النابهين من نحرى تلك المدارس .

وأما رئيس المطارنة — ويسميه الترك ” خوجا باشى “ — فهو المندوب الذى يختاره المسيحيون لتمثيلهم فى مجلس القسم بينما يمثل المسلمين عضو يسمى ” أعيان “ . وكان خوجا باشى والأعيان منضما اليهما أمين صندوق يؤلف ثلاثتهم مجلس القسم ، ذلك المجلس الذى يعاون حاكم القسم — البك — فى عمله ، ويشترك فى مجلس حاكم المورة كلها — مجلس الباشا — الذى ينعقد فى تربولترا .

ومعنى هذا أن رؤساء المطارنة كان لهم نفوذ فى الديوان عن طريق ترجمان الباب العالى كما رأينا ، ونفوذ فى مجلس الباشا بوصفهم أعضاء فيه ، ونفوذ أكبر من هذين فى مجلس البك ، وفوق هذا كله كان بيدهم حق تقدير الضرائب التى تدفعها كل أسرة ، وحق التعهد بجمعها ، وكثيرا ما كانوا يقومون بعمل الملتزمين فى أقسامهم . وبهذا كانت فئة رؤساء المطارنة تؤلف هيئة اعتادت التضامن فى العمل واكتسبت خبرة بتفاصيل الإدارة . فلما اندلع لبيب الثورة وجد الشعب فيهم زعماء ذوى دراية مالية كما وجد فى النظم الديمقراطية التى تنتهى إليهم رياستها وسيلة لتنظيم العمل — بشكل ما — ولا سيما فى الأدوار الأولى من الثورة : ذلك بأن العثمانيين سمحوا لأهل المورة بقسط كبير من الحكم الذاتى وشجعوهم على التمسك به . إذ كانت المورة مقسمة إلى ثلاثة وعشرين قسما فى كل قسم نظام ديمقراطى أساسه المساواة وحق جميع الرجال فى أن يكونوا ناخبين بحيث تختار كل قرية ممثليها الملقبين ” شيوخ البلدية “ (demogerontes) ، وتختار كل مدينة ممثلين يلقبون ” البارزين “ (proestes) . وكان البك الحاكم فى كل قسم يدعو هؤلاء وأولئك إلى الاجتماع ليقترروا مقدار الضرائب التى يدفعها أهل القسم ، ولينتخبوا رئيس

مطارتهم السالف الذكر ، والذي يجلس مع ” الأعيان ” وأمين الصندوق في مجلس القسم .

وكان من أثر النظام الديمقراطي الذي أقتره الترك ، عن تسامح أو غفلة ، الإبقاء على فئات أخرى أشد على الحكم العثماني خطرا من سابقتها : تلك هي فئات الأرماطول والكلفت والرهبان وصغار القسوس ، وأخيرا — وليس آخر — ملاحو الأرخبيل . وتفصيل ذلك أن أرض الروملي الجبلية اقتضت صنفا من الحرس لضبط الأمن في الطرق عامة وفي المزارع بوجه خاص . وكان هذا الحرس يسمى الأرماطول^(١) . فلما دخل الترك هذه البلاد كان المعقول أن يبطل السلطان هذا الحرس ، ولكنه على العكس من ذلك زاد في عدده ، ووسع نفوذ رؤسائه ، وبهذا أتاح لفريق من رعيته فرصة مؤاتية للتمترس بحرب الكر والفر بجميع ضروبها ، حتى إذا أفاق ” الديوان ” من غفلته وشرع يقلل من عدد الأرماطول انقلب المسرحون منهم إلى كلفت وقطاع طرق وانضم إليهم كثيرون ممن هم على شاكلتهم . وعلى الرغم من أن عصابات الكلفت كانت تسلب التركي واليوناني على السواء فإن الشعب تغنى ببطولتها لأنها برهنت على أن الجرأة ومواجهة الأخطار ليستا مقصورتين على الترك . ومن ثم أصبح الانضمام إلى الكلفت مظهرا من مظاهر الوطنية ، وبالتالي أصبح عملا يكاد يكون واجبا على الشبان الأقوياء من أهل ” إيلاس ”^(٢) . حتى إذا بدأت الثورة كان الأرماطول والكلفت متأهبين لمقاتلة الترك . وكان أكثرهم يأوى إلى الأقاليم الجبلية . وأما الرهبان وصغار القسوس فقد عاملهم الترك بما يوجب الإسلام من الاحترام والتسامح الديني فعاش الرهبان في ديورتهم بمثابة جماعات جمهورية تقيم في حصون منيعة واحتفظت الديورة الكبيرة بأثارة من مصباح الثقافة القديمة ، وبقيت تنفث في الشعب إجلالا غامضا لإبطال العهد القديم وكُتَّابه ،

(١) ومعناها باليونانية ” حاملو السلاح ” .

(٢) معناها هنا بلاد اليونان بأجمعها .

والتالى توحى إليه بروح وطنية مكبوتة . فلما جاءت الحرب دافع هؤلاء الجمهوريون عن أنفسهم بشجاعة عظيمة .

وأما صغار القسوس — ويلقبون الآباء — فكانوا فقراء لا يخشون أن تسلبهم الثورة شيئا ، وكانوا بحكم زواجهم أكثر ارتباطا بالشعب يقاسمونهم آلامه وآماله . وينثون فيه روح العداوة والبغضاء لحكامه المسلمين .

على أن دورا أهم من دور القسوس كان مدمرا لسكان الجزر ، وهنا أيضا نجد سياسة الباب العالى تعاون على نشوء أشد أسلحة الثورة خطرا : ذلك بأنه — فيما عدا دفع جزية سنوية وتقديم عدد من الملاحين للأسطول العثمانى — كان سكان الجزر مستقلين استقلالاً تاماً ، ويستمتعون بكبر قسط من حسن الحال المادية . ومن الحرية فى أوروبا ، لا يستثنى من ذلك إلا أهل سويسرة . فقد نالوا نصيباً من التجارة الشاطئية فى بحر المشرق على أثر طرد البنادقة من المورة سنة ١٧١٨ ، ثم جاءت معاهدة بكك كينارجه سنة ١٧٧٤ فأتاحَت لهم التنقل بين البحرين الأبيض والأسود بكامل حريتهم مستظلين بالعلم الروسى ، ومنذ ذلك الحين بنوا سفناً أكبر حجماً ، وطافوا بها فى آفاق أوسع مدى ، ودفعهم الخوف من قرصان بلاد المغرب الى تسليح سفنهم ، فذشأ الأسطول اليونانى قطعة قطعة تحت سمع الحكومة العثمانية وبصرها ، وكان من نتائج ازدياد هذا النشاط البحرى اتصال اليونان بغرب أوروبا وتأثرهم بأفكار أهله عن الحرية والاستقلال .

وساير هذا الرق المادى نشاط فكري كان يهدف الى إحياء العصر الكلاسيكى من تاريخ اليونان عن طريق تلقين أدبه للشعب . وأبرز الأسماء فى هذا المضمار اسم أدمنديوس كورائيس (Adamantios Koraïs) (١٧٤٨ — ١٨٣٣) من أهل جزيرة خيوس . وقد وقف كورائيس حياته على خلق لغة وسط بين اليونانية التى كان أهل عصره يتخاطبون بها واللغة اليونانية الكلاسيكية . وبلغ من نجاحه فى هذا السبيل أن يسر لليونانى الحديث قراءة أدب أسلافه الأقدمين وعلومهم بلغة يونانية

حقا ، ولكنها لا ترهقه بتعلم اللغة الكلاسيكية . وبعبارة أخرى استطاع كورائيس أن يشعر أهل زمانه بأنهم سلاله أولئك الأبطال القدامى ، وأدت هذه الحركة العقلية ، والعناية باللسان القومى إلى التطلع إلى الحرية والاستقلال .

وإذ قد أئمتنا بطرف من أحوال اليونان قبل الثورة فقد حق للقارئ أن يسأل عن أسبابها . وللإجابة على سؤاله ينبغى أن نقول إن الثورة اليونانية والثورة الفرنسية تبرهنان على أن الشعوب لا تتور لمجرد ما تعانيه من البؤس والظلم مادامت لا تفتن إلى هذا الظلم وذلك البؤس وإن تفاقم أمرهما ، وإنما تندفع إلى الثورة متى أحست البؤس والظلم مهما رأتهما الشعوب الأخرى تافهين . وأول ما يشعر الناس بالبؤس والظلم حسن حالهم المادية والأدبية . وحال اليونان من أوضح الأمثلة فى ذلك فإنهم لم يثوروا لبؤس يعانونه وإنما ثاروا بسبب الرخاء الذى كانوا يستمتعون به ، ولم يشجعهم على الثورة عسف كان التركى ينزله بهم ، بل شجعهم على ذلك تسامحه فى الإبقاء على نظم وأسلحة استخدمها اليونان آخر الأمر فى مقاومته . وكان من نتائج هذا التسامح تزايد الذكاء بين اليونان وتزايد نشاطهم الأدبى وحريتهم فى اختيار نوع التعليم الذى يرتضونه لأنفسهم ، وارتقاء النابغين منهم إلى المناصب العليا فى الكنيسة والدولة ، وحريتهم كذلك فى جمع الثروة حتى كان المزارعون منهم أحسن حالا وأرفع فى نظر القانون منزلة من نظرائهم فى أكثر بقاع أوروبا .

وكان من سعد طالع اليونان أنه فى الوقت الذى أخذت فيه الدولة العثمانية تضمحل ظهرت فى الأفق الشمالى الدولة الروسية الأرثوذكسية التى يربطهم بها الدين والكراهية للترك . فنهاها منذ سنة ١٧١١ تحرض اليونان على الثورة دون انقطاع . فلم يكن عجباً أن تنشأ فى أودسا الجمعية السرية المعروفة باسم إيتريا فلكى (Hetairia Philiké) ومعناها اللفظى "شركة الأحباء" تكوّنت سنة ١٨١٤ حين اتضح للجميع أن مؤتمر فينا لن يعمل شيئا لمصلحة اليونان . وكان هدف هذه الشركة إحياء الدولة البيزنطية الأرثوذكسية . وقد بلغ خبر هذه الشركة مسامع السلطان

محمود الثاني ، ولكن حسن حال ”الرعية“ وعطفه عليهم حملة على تكذيب الخبر .
وبهذه الفكرة الخاطئة عن أسباب الثورات أتاح السلطان للشركة فرصة للنشر
دعوتها بصورة تقرب من العلنية . فلم تمض سنوات ست حتى اندمج فيها كل يوناني
ذى مكانة . فلما أقيمت سنة ١٨٢٠ كانت الفكرة قد اختمرت في أذهان الكثيرين ،
وكان عصيان على باشا حاكم يانية قد شجع الشركة على الشروع في تنفيذ غرضها .
ولما كانت تعتقد بمعاودة إسكندر الأول قيصر روسيا لها اختارت لزعامتها جنديا
يونانيا باسلا كان يعمل في الجيش الروسى برتبة اللواء : ذلك هو إسكندر إيسلندس
وكان هذا الضابط عظيم الثقة بمعاونة القيصر للحركة اليونانية . ومن أجل ذلك أقنع
الشركة بالعدول عن إعلان الثورة بالمورة إلى إعلانها في البغدان ليكون قريبا من
العون الروسى .

وتنفيدا لذلك دخل إيسلندس ولاية البغدان في عدد قليل من الضباط اليونانيين
الذين كانوا في الجيش الروسى وأعلن الثورة في ٦ مارس سنة ١٨٢١ إلا أن الموقف
العدائى الذى وقفه أهل البغدان والافلاق — وهما الآن ضمن دولة رومانيا —
منضما إلى عدم كفاية إيسلندس وغروره ، وإلى تخلى القيصر عن المعاونة — كل
ذلك جعل الإخفاق محتوما .

وفي هذه الأثناء كان ”الأحباء“ مشغولين بإثارة أهل المورة حيث تزعم
الحركة غرمانوس مطران بتراس ، ونلخص منهج الثورة في كلمات قليلة : ”السلم
للسيحيين ، والاحترام للقناصل ، والموت للترك“ . ولم يمض عام ١٨٢١ حتى
كانت المورة كلها — عدا حصونا قليلة — في يد اليونان وحتى انتشرت الثورة
شمالا إلى مقدونيا .

وكان زعماء الثورة إما مطارنة مثل غرمانوس وإما كبار أعيان مثل زيميس
وإما ارماطول مثل كاريسكاكى وإما كلفت مثل كولوكترونيديس وأما فناريون
مثل مفروكرذاتس . ولم يستطع فرد ولا هيئة أن يسيطر على جميع البلاد ويحتفظ

بالسيطرة إلى النهاية . على أنه يمكن القول بوجه عام أن الدفاع عن المورة كان بيد الكلفت وفيما يليها شمالا بيد الأرماطول ؛ وأن هؤلاء وأولئك اتبعوا في الحرب طريقة الكر والفر حتى صارت هذه الطريقة من خصائص هذه الثورة . وبمثل هذه الطريقة كان الملاحون يقاتلون الترك في البحر . وأشهر هؤلاء الملاحين ميأوليس وقد احتفظ بالزعامة طوال الثورة بفضل مقدرته وإخلاصه لبلاده ، ويليّه سخيوريس وقائد الحزاقات كاناريس .

ولما قضى الترك على أتباع أبلسنديس انقضوا على علي باشا حاكم يانيه وما زالوا به حتى قتل ، ثم التفتوا إلى المورة فإذا بهم ينهزمون في ثرموبيل ثم يفقدون تربوليترا — عاصمة المورة — حيث ذبح اليونان جميع المسلمين الذين كانوا يقيمون بها دون استثناء ودون شفقة . وانتقم الترك لذلك بالقضاء على أكثر سكان جزيرة خيوس في إبريل سنة ١٨٢٢ . ولكن لم يأت يونيه حتى تمكن اليونان من الفتك بالأسطول العثماني ، ثم فتكوا به في سبتمبر وأكتوبر من السنة نفسها ، وأعادوا الكرة سنة ١٨٢٣ فخطموا أسطولا عثمانيا آخر كان على رأسه خسرو باشا .

أما في البر فحاصر الترك مسولنجي بقيادة عمر يونس سنة ١٨٢٣ ولكنه اضطر إلى الارتداد عنها بعد أن تكبد خسائر فادحة . على أن الترك حاصروها مرة أخرى ورفع ذلك من شهرتها فانكب اليونانيون على تموينها وأقبل إليها أصدقاء اليونان من كل حذب ومن بينهم الشاعر الإنجليزي الذائع الصيت اللورد بيرون الذي دخلها بما جلبه من أسلحة وذخائر وبقى يدافع عنها إلى أن مات بها . فكان اللورد بيرون ميتا أنفع منه لليونان حيا لأن شهرته زادت حماسة أصدقاء اليونان في أنحاء أوروبا وأمريكا حيث يدين المستنيرون لأسلاف ذلك الشعب بروائع الفن والعلم والأدب . فتدفق المسدد إلى اليونان في صورة نقود ومؤن وأسلحة ومتطوعين تبعث بكل ذلك لجان نصبت نفسها في مدن القارتين لجمع الهبات والقروض ، ولنشر الدعاية عن طريق الخطابة والصحافة ، تستحث الحكومات على إنقاذ ذلك الشعب المسيحي من نير الترك المعروفين عند أصدقاء اليونان بالكفار .

إبراهيم باشا في المورة

في سنة ١٨٢٢ كان لدى محمد علي جيش محترم من الزراع والصناعات الأصحاء مفتولي العضلات وكانت الإسكندرية تعادل طولون في التحصن البحري ولم يكن الأسطول المصري يفتقر عن أى أسطول أوربي جيد النظام اللهم إلا في الملابس وكان من الطبيعي أن يستولى الحسد على السلطان محمود الثاني كلما فكر في مثل هذا الجيش وذلك الأسطول . ولعله حين استمع إلى نصيح جنتر^(١) بتكليف محمد علي القضاء على الثوار اليونانيين فكر في التخلص من خطرين بترك أحدهما يهلك الآخر . ومن ثم تلقى نجيب افندى وكيل الباشا في القسطنطينية أمرا بأن يلحق بسيدته في سرعة وتكتم . فبلغه بالقاهرة في ٢٨ فبراير سنة ١٨٢٤ . ولا يعرف على سبيل التحقيق ما تحدث به الوكيل إلى الباشا ، إلا أن الحوادث التي وقعت بعد ذلك تدل على وعد بمنح ابنه إبراهيم ولاية المورة . وبعد أن تم الاتفاق على هذا الأساس وضع تصميم حصيف لو نفذ على الفور لكان من المنتظر أن ينهى الحرب : ذلك بأنه كان قد اتضح من مدة أن القضاء على الثوار يستدعى انتزاع السيادة البحرية من أيديهم ، كما يستدعى مواجهة شجاعتهم غير النظامية بأورط منظمة . والخطوة الأولى في هذه السبيل تحطيم جزر بحر الأرخبيل بوساطة الأسطولين المصري والتركي مجتمعين . ثم يقوم إبراهيم بعد ذلك بإخضاع المورة بينما يقوم محمد رشيد المعروف عند اليونان باسم كوتا هيه لى بإخضاع بقية البلاد .

وقد عكف محمد علي بهيمته المعروفة على إنجاز نصيبه وجدّد ضباط البر والبحر الذين علمهم سيف وليتانيه Letellier في تدريب أورط من الزراع والعمال لتزويد قوة الجيش المصري من ٢٠,٠٠٠ إلى ٥٠,٠٠٠ رجل . وكانت هؤلاء الجنود أحسن من الجنود التركية في قوة الأبدان وفي النظام ، فضلا عن أنهم قد حنكهم التجارب في كريت حين عهد السلطان إلى محمد علي في إخضاع هذه الجزيرة

(١) وزير خارجية النمسا .

سنة ١٨٢٢ حيث قضى قائده حسن باشا ومن بعده صهره حسين بك الجريدلى على الثورة التى كانت يترعّمها تومبازيس Tombazes بعد معارك عنيفة وتم ذلك فى أبريل سنة ١٨٢٤ .

وكانت الاسكندرية إذ ذاك تدوى أحواض السفن فيها بينما كان الجمهور يتلهى بمراقبة تدريب المقترعين . فلما كان يوم ١٩ يوليه سنة ١٨٢٤ غادر إبراهيم الاسكندرية بأسطول جليل يضم ٥٦ سفينة حربية و ٢٠٠ نقالة ويقل ١٨,٠٠٠ جندى قاصدا ساحل الأناضول تنفيذا للخطة الموضوعة لمقابلة أسطول السلطان وعلى رأسه خسرو باشا وهو سياسى حصيف ولكنه أمير بحر كثير الخوف قليل الخبرة .

ومع هذا فقد بدأ نصيبه بهجوم ناجح على جزيرة بسارا Psara وهى مهد من أهم مهاد القرصنة اليونانية والاستقلال اليونانى . وساعده على ذلك أن أهل بسارا وضعوا ثقتهم فى بطاريات ضعيفة أقاموها على الساحل بدلا من التزام البحر وهو المجال الذى يفوقون فيه أعداءهم . وإذا بالصخور التى حسبوها منيعة قد تساقها الألبانيون الخفاف الحركة وتغلبوا بكثرة عددهم على المدافعين المتفانين فى الواجب . وبلغ من ذلك أن جماعة منهم نسفوا مخزنا من البارود ليموتوا هم وبعض مهاجميهم إيثارا منهم للوت على الاستئسار . ولم ينج من السكان وعددهم ٧,٠٠٠ إلا نصفهم . ومن حسن طالع اليونان أن كان من بين الناجين كاناريس Canaris . وعلى الرغم من صغر الجزيرة كان تحطيمها ضربة مؤلمة للثوار كما نودى به فى تركيا باعتبار كونه نصرا عظيما .

وبعد أن قضى الأمر ظهرت سفن إذرا Hydra وسفن سبيتس Spezzia وكل ما استطاعه ميأليس ومختوريس لم يزد على إفساد تصميم القبطان باشا فى القضاء على جزيرة ساموس وإجباره على الانضمام الى إبراهيم . واشتبك الأسطولان المصرى والعثمانى بسفن اليونان . وفى أثناء هذه الملاحم لاحظ إبراهيم — والمقت يملأ قلبه — أن زميله يحاول دائما أن يتخلص من واجبه كلما احتدم القتال . وكانت

نتيجة ذلك التملص أن إبراهيم حين عاد إلى كريت وجد أنه قد فقد ست سفن حربية ونحو ٥٠ نقالة كما فقد ثلث رجاله . أما اليونان فقد كانت خسائرهم كبيرة إذ فقدوا ٣٣ حراقة دون أن يقللوا من خطر الغزو المصري . مثقال ذرة : ذلك بأن السلاح الذى صهروه فى غضبون الثورة وهو سلاح الحراقات الذى خدمهم طالما كانوا يواجهون الترك وحدهم ، أصبح عديم الفائدة فى مواجهة البحارة النظاميين من المصريين ، أولئك البحارة الذين لا يكلفهم تجنب الحراقة إلا مناورة تبعدهم عنها وتركها تحترق دون خطر إلا على نفسها حتى يصل الحريق إلى مستوى سطح الماء .

وكان المتوقع من اليونان ، وقد علموا بالخطر المصرى ، أن يتهمزوا فرصة تقاعد قواد الترك عن القتال انتظارا لحضور إبراهيم وتنسيق خططهم مع خطته — كان جديرا بهم يومذاك أن يتهمزوا هذه الفرصة للاستيلاء على الحصون التى ما برحت فى يد الترك لينمعو بذلك نزول المصريين أو يعوقوا ذلك النزول . ولعل من أسباب قعودهم عن انتزاع ما بق بيد الترك من الحصون رغبتهم فى ألا تقلت منهم الغنائم التى كانوا يتوقعون استلابها من المصريين من شيلان كشميرية وخيل عربية وسيوف دمشقية ؛ فضلا عن زعمهم أن العدو الذى يوشكون أن يسلبوه هذه الغنائم يتيح لهم فرصة لإظهار بسالتهم . وإلى جانب هذا كله زعم البحارة أن عدوهم لن يبرح كريت قبل حلول فصل الربيع ؛ واضطر ميأؤليس — ذلك النبيل البعيد النظر — أن ينسحب من مياه تلك الجزيرة . وما أسرع ما أفاق اليونان من هذه الأحلام اللذيذة . فان إبراهيم باشا ذلك العبقرى الحربى الذى تمرس بالحرب كان تواقا الى الاشتباك بهم ومن أجل هذا لم يعبأ بشهر فبراير — وهو أسوأ الشهور جوا فى البحر المتوسط — وبارح كريت فى غضونه ونزل فى مودون فى ٢٣ ، ٢٤ منه ومعه ٤٠٠٠ من المشاة و ٤٠٠ من الفرسان . وبعد أن استطلع موقع نوارين^(١) بعث إلى جزيرة كريت فى طلب المدد وتسلم فى ١٧ مارس ٧٠٠٠ رجل فيهم

(١) ينطق بها اليونان « نفارينون » .

بقية فرسانه . فلما اجتمع هؤلاء الفرسان الى زملائهم الذين سبقوهم الى موزون لم يزد جمعهم على ٨٠٠ فارس .

وكان القائد المصرى فى السابعة والثلاثين من عمره فوق المتوسط فى القامة فى شىء من السمن ناعم الوجه دائم البشاشة على الرغم مما يعلو حياه من كلف . وكانت حياته فى المعسكر معتدلة منظمة : يدخن دائماً ويتناول القهوة فى كثير من الأحيان بينما كانت خيمته معروفة ببساطتها . ويعترف له أشد أعدائه حقدا عليه ببعد نظر يفوق كل من حوله فى جميع الأحوال . أما فى الميدان فكانت حياته حياة أقل جندي . وهذا العدو نفسه يقتله بالشجاعة التى شهدت له بها من قبل بلاد العرب والسودان من بعدها فيقول هذا العدو ، وهو مسيو لوفرن (Lauvergne) ”لقد رأيته يدخن غليونه فى هدوء على عشرين خطوة من ميدان القتال حيث كان من المتوقع أن تقتله رصاصة حسنة التسديد . وكان ذلك فى موليني (Molini) وهى ليست بعيدة عن أرغوس (Argos) . ويرى مسيو لوفرن أن هذه الشجاعة أكبر جرائم إبراهيم باشا ويعقب على ذلك بقوله : ”إن أوروبا تعلم الخطر الذى يتعرض له استقلال الشعوب بسبب الرجال الذين يحترمهم الرصاص“ . يشير بذلك الى نابليون .

وكان أول هم الفاتح الحديد تموين بتراس وكانت ما تزال بيد العثمانيين ثم حصار نوارين وكان يدافع عن هذا الحصن اثنان من أبناء بترو بك مشرو ميخائليس (Petro Bey Mavromichalis) وما كرياتيس (Makrijanis) والقائد البيدمونتي كولينيو . وبعثت اليها الحكومة بنجدة أكثرها من الروملى ومقدونيا .

وكان هذا الجيش يترواح بين ٦٠٠٠ و ٧٠٠٠ وفيه زهرة أبطال المحاربين من اليونان وعسكر فى كروميدى (Kromidi) على الطريق الى موزون . ”وأدرك إبراهيم خطة عدوه فلم يمكنه من اختيار نقطة الهجوم“ بل تقدم ومعه ٣٠٠ رجل و ٤٠٠ فارس و ٤ قطع من المدفعية . وهجم المصريون على قلب أعدائهم بأسنة الحراب بينما صعد الفرسان من واد عميق لم يكن أحد الى ذلك الوقت يظن

أنه يمكن تسلقه، وانقضوا على الجناحين فكانت هذه المعركة إيدانا بتفوق المصريين وسببها لمراة الضغائن بين أهل المورة وأهل الرومالي . لأن الآخرين لم ترقهم مقاتلة المصريين فانكفأوا الى بلادهم وكان رشيد إذ ذاك يهدد باختراقها .

وبذلك أصبح إبراهيم حرا في تضيق الخناق على نوارين دون مفاجأة . وخليج نوارين نصف دائرة بالتقريب تقوم على طرفه الجنوبي نوارين الحديدية وعلى طرفه الشمالى نوارين القديمة . وتكاد تغلقه من ناحية البحر جزيرة سفكتريا (Sphacteria) وكان الكولونيل رومى (Romey) ، وهو الذى وضع المدافع المصرية ، على اتصال بالثوار . ومع هذا فإن خيانتة لم تجد إلا قليلا لأن حسين بك الجريدلى صهر إبراهيم لاحظ أن جزيرة سفكتريا هى مفتاح نوارين وذلك من غير أن يقرأ ثوكيديدس (Thucydides) ^(١) . ومن ثم غيرت الخطة وصدر الأمر الى حسين بأخذ الجزيرة . ولم يدرك الثوار أهمية هذا الموقع إلا فى الساعة الحادية عشرة ، فآلحى مافروكرذاتس (Mavrokordatos) وسنتاروزا (Santa Rosa) وتسامادوس (Tsamados) بأنفسهم اليها ومعهم قبضة من الرجال لا تزيد مدافعهم على سبعة . فلما نزل بها المصريون هرب كثير من المدافعين الى قواربهم وبقى الآخرون وفيهم تسامادوس وهو شاب ظريف من نبلاء إذا كان يقود سفينته الحربية الخاصة ، وكان يميل إلى ادخال النظام الأوربى وما يرتبط به من تحسينات فى الأسطول اليونانى . فكان فقدده لطمعة قاسية على إذرا . وأما القائد البيدمونى سنتاروزا فانه بعد أن يئس من نيل الحرية فى بلاده جاء يدافع عن حماها فى اليونان .

ولم يمض ثلاثة أيام على سقوط الجزيرة حتى سلمت نوارين القديمة وخرج رجال الحامية بعد أن تخلوا عن سلاحهم . وإذ ذاك اتضح للجميع أن نوارين لن تستطيع أن تقاوم طويلا ولذا عرض عليها إبراهيم شروطا مشرفة فوافقت الحامية على التسليم وسمح لها بالخروج واحدا واحدا بين صفين قوين من الحراس المصريين

(١) من أشهر مؤرخى اليونان القدامى .

مشرعة أسنة حراهم فذهبوا إلى حيث السفن التي استأجرها إبراهيم لنقلهم إلى كالاماتا (Kalamata) . ويالهول الفرق بين هذا المنظر والمنظر الذي مثل على هذه البقعة بذاتها قبل أربع سنوات ، إذ نرى الرجال الذين اشتركوا مع مواطنهم في ذبح الترك المقيمين يومذاك بالمورة يسرون بغير سلاح على مرأى من أقارب ضحاياهم ونار الانتقام تضطرم في قلوبهم . ولم يكتف إبراهيم بذلك بل أعطاهم طعاما لم يأى من سوء حالهم .

وخليج نوارين من أحسن النغور الطبيعية في أوروبا وكان مرسى فائدا للسطول العثماني بينما كان المثلث كورون ومودون ونوارين قاعدة حسنة للعمليات في داخل البلاد . وبهذا تمكن إبراهيم من التوغل في المورة وكان توغله في بطء وحذر . ولم تكن الهيئة التنفيذية ورئيسها كندوريوتس محبوبة يوما من الدهم بين أهل المورة لاعتقادهم أنها تعمل لصالح أهل إذرا ولذا ضعف نفوذها حين فارقها جنود الروملى . وكان ضعفها الإدارى مما مكن للهيئات البلدية أن تستعيد جزأ من قوتها السالفة واستطاعت هذه الهيئات بمعاونة الشعب أن تجبر الحكومة على تخليّة سبيل زعمائها بأن أعلنت الأمان العام في ٣٠ مايو فعاد كولوكترونيس (Koloktrones) إلى قوته السابقة وعاداته القديمة . وكان كولوكترونيس — وهو أشهر زعماء التحرير — نموذجا من الكلفت — قطاع الطرق — حبيب إلى الشعب بعده عن النظام العسكرى ، وعيشه كما يعيش الأبطال المحاربون ، وتكلمه بلهجتهم وتفوقه عليهم وقيادته إياهم للقتال .

وكان إطلاق سراح كولوكترونيس مما حتم على خصمه ذكيوس (Dikaïos) المعروف باسم بابا فليساس (Pappa Phlissas) أن يبرزه في الشهرة الحربية وأن يغادر ناقليلسو (Nauplia) حيث كان الناس أدرى بنقائصه . وكان بابا فليساس ما يزال وزيرا للداخلية ، ومن أفضع من اضطهدوا زعماء المورة وتنفيذا لهذا القصد

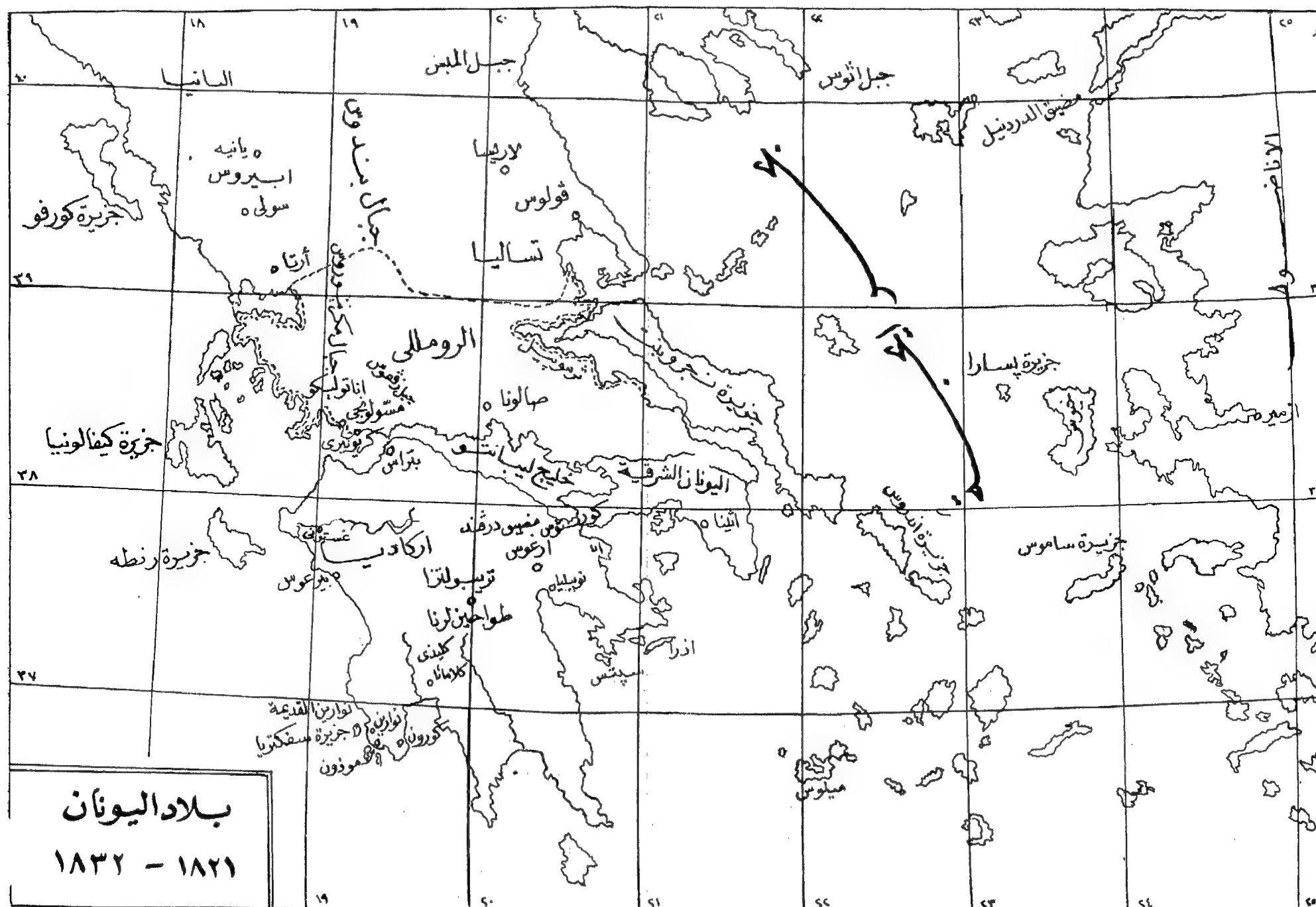
(١) شهرتها في غرب أوروبا نوبليا وتسمى أيضا نابلى دى رومانيا .

خرج من العاصمة في جماعة من قدامى المحاربين في أبهة كبيرة . وما أن وصل الى مانيا كي (Maniaki) حتى بلغ أتباعه ٣,٠٠٠ وتقدم إليه إبراهيم في أول يونيه سنة ١٨٢٤ ففتر نصف أتباع ذكيوس تحت جناح الظلام حين رأوا جيش الباشا يشتبك الباقون في معركة أبلوا فيها بلاء حسنا وسقط قائدهم وهو يقاتل قتال الأسود . وكان من أثر هذه الهزيمة أن أنعشت الروح المعنوية بين الثوار إذ قالوا: "إذا كان القسيس المتهمك ومن كان معه من الفلاحين استطاعوا أن يناضلوا العدو الجديدي بمثل هذه الشجاعة فإذا عسى أن يعجز عن تحقيقه شيوخ بلاد اليونان المدربين على القتال برامة قائدهم المحنك كولوكترونييس ؟ " .

وكان قصد كولوكترونييس حماية المميزات المؤدية الى مقاطعة أركاديا ومن أجل ذلك جعل مقر قيادته الرئيسي في ما كريبلاي (Makriplaye) وأمر رجاله وهم ٧,٠٠٠ بحفر الخندق على حافتي وادي درفند (Dervend) . ومع أن الوادي كان أوسع من أن يحمله رصاص البنادق لم يختار إبراهيم أن يهاجمهم من الأمام بل دار بمهارة حول جناح عدوه ، وصوب مدفعيته على بعض فرقته بينما أذهب الآخرين بمواجهتهم بفرسانه . فكانت هذه الهزيمة قاضية على الروح المعنوية بين المقاتلين من اليونان قضاء مبرما . وبلغ من ذلك أن تفرقوا واعتصم زعيمهم بالجبال بعد أن أئذروا أهل تربولترا بأن يتصرفوا حسب ما تقضى به ظروفهم .

وإن تفوق إبراهيم على كولوكترونييس باعتبار كونه قائداً وانحطاط الجنود غير النظاميين من اليونان عن مستوى فرق الجنود المصرية — هذا التفوق لم يتيح له أن يتجلى بصفة حاسمة كما تجلى في تلك المعركة : ذلك بأن اليونان كانوا قد اختاروا موضعهم في أرض تكاد تكون غير صالحة للقتال وكانوا يعرفونها حق المعرفة . فزقت شملهم قوة لا علم لها بتضاريس تلك البقعة ، ولا تستطيع الانتفاع بفرسانها ولا بمدفعيتها ، وفي أرض تضطر الرجالة النظامية أن تعمل بطريقة تكاد تكون غير نظامية .

وبهذا الانتصار بات الطريق إلى تربولترا مفتوحا ، وأخلى السكان المدينة حين علموا باقتراب إبراهيم بعد أن حرقوا أكثرها . على أن الجنود المصرية وجدت بها مؤثنا كثيرة حين دخلتها في ٢٢ يونيه سنة ١٨٢٤ . وبعد استراحة ثلاثة أيام ظهر إبراهيم أمام طواحين لرنا (Lerna) فعمت الفوضى في مدينة نافيليو . أما كيف نجت عاصمة اليونان فإن الشروح متعددة . وجميع التفسيرات المؤسسة على اعتزم إبراهيم أخذ العاصمة في تلك المناسبة ينقضها نقضا تاما أن إبراهيم لم يستصحب في ذلك اليوم مؤثنا إطلاقا ، ولم يستخدم إلا حرسه الأمامي . ولا يمكن قبول ما طالم كثرته بعض الأخبار من أن مقاومة إبسلندس (Hypsilanti) وما كرئيس (Makrijanis) أذهلت القائد المصري ؛ إذ لا يعقل أن مقاومتها تذهل رجلا له عزيمة إبراهيم ؛ بل أنها لا تذهل أى قائد من ذوى المقدرة العادية لم تزل قواته الأساسية رهن إشارته . وقد ابتكر بعضهم تفسيراً حسبته مستساغا هو وجود الأميرال دى رينييه (de Rigny) والكابتن هاملتون (Hamilton) في مياه نافيليو والموقف الذى وقفه هاملتون بحيث فهم اليونان والمصريون فهما واضحا أنه قد يشترك في المعركة . إلا أنه يلاحظ أن دى رينييه كان إلى ذلك الوقت وبعده بعام كامل معارضا أشد المعارضة لليونان لخطته على شحهم ونهبهم وتنافسهم فيما بينهم ، وأن إبراهيم لم يكن ليخطر بباله أن فرنسا يمكن أن تعارضه . أما التفسير الحقيقى فهو أن إبراهيم كان في ذلك الوقت أشد عناية بإتمام هزيمة كولوكتروينس ، وهو يومذاك يحوم حول تربولترا ، أكثر منه بأخذ نافيليو . وهذا المسلك يتسق اتساقا تاما والخطه التى اتبعها في غير هوادة وهى الاحتفاظ بطرق مواصلاته مفتوحة . وقد حاول الكلفت القديم عبثا أن يكرر التكتيكات التى أفادته إفادة كبرى في مواجهته لعلى باشا الدرملى وهى قطع خط مواصلات عدوه ، لكن خصمه هذه المرة كان أكثر من كفاء لإحباط خطه إذ لم تكن الحرب غير النظامية جديدة عليه بعد أن حرب مايشبها كثيرا في بلاد العرب .



ولما كان ٦ يوليو سنة ١٨٢٤ أفسد ابراهيم خطة عدوه بمهاجمة جميع مواقعه في آن واحد وإكراهه على التراجع . وعلى أثر ذلك وقعت طواحين داريا (Daria) وتسروكوفيا (Zerekovia) وبيانا (Piana) في قبضة ابراهيم ، وبذلك نال الجيش المصرى مؤثرا كثيرة . ومن تلك اللحظة لم تعد الحرب صراعا بين قوتين متكافئتين ؛ فشكا أصدقاء اليونان "أن أعداءهم يقودهم قواد ليسوا ذوى خبرة حربية نخسب ، بل لهم معرفة دقيقة بالبلاد وبالأخلاق القومية وأنه لم تتح لهم مناسبة واحدة وقفوا فيها أمام الغزاة الجسد موقفهم المحيد الذى عودونا إياه من قبل ، وأنهم تخاذلوا أمام الحراب المصرية فى جميع الأحوال تقريبا " .

ومن ثم فقد اليونان الروح المعنوية كلية وأيقنوا أنه لن ينقذهم إلا العون الأجنبى دون سواه . وهذا اليأس التام من جانبهم هو الذى حداهم على المطالبة بالحماية الانجليزية . ويتمثل فقدان الروح المعنوية فيهم فى قصة طريفة يقصها الجنرال غوردون عن ٤٠٠٠ يونانى كانوا يحتلون فرفنا (Vervena) تحت قيادة إيسلندس (Hypsilanti) ذلك الرجل الذى زعم بعضهم أنه أزجج ابراهيم فى طواحين لينا بأقل من عشرين قوته هذه قبل ذلك بشهر أو مادونه . يقول غوردون : "يجرد سماع الصوت الهائل صوت طبول فرقة مصرية اختفت القوة كلها ونجا قائدهم من الأسر بصعوبة كبيرة" . ولا صحة لما زعمه المغرضون من أن ابراهيم فكر فى استئصال سكان المورة ، بل الواقع أنه أظهر نحوهم من الرحمة والرفق مثل ماسبق أن أظهره فى بلاد العرب وما ظهر منه بعد ذلك فى سوريا والأناضول : ذلك بأن ابراهيم كان على غرار أبيه فى إجلال العدو المغلوب أو العطف عليه . ويقول فيلمين (Villmain) فى كتابه (Preface de Lascaris) : "إنه اتخذ الإنسانية باعتبار كونها من تكتيكات أوربا ، فلم يحرق القرى ولم يذبح المغلوبين ، لأن فيه نوعا من الرحمة الحديثة قد عنى أناس بنصحه بها باعتبارها وسيلة للنصر" . ولنا لنجد غوردون وهو من أشد الناس حبا لليونان يقول عن ابراهيم : "إنه لم يستأصل غياض الزيتون لمجرد

حب التخريب ولا غياض التين والليمون وأشجار التوت وهي أساس ثروة البلاد". بل إن ألد أعدائه^(١) يعتقد أن أهل نوارين أبوا أن يفتكوا به علما منهم أنهم ينالون عطفه إن سقطت القلعة في يده، وأنه سيعامل اليونان بمثل مايعامل به ملك فرنسا الروم الكاثوليك والبروتستنت من رعيته لأن هدفه ليس الحرب وإنما هو توطيد الأمن .

وما جاء سبتمبر من سنة ١٨٢٥ حتى كان إبراهيم قد أتم إخضاع المورة من الوجهة العملية . وإذ ذاك قصد الى معسكره الشتوى فى مودون حيث تسلم أوامر والده بالتقدم لمعاونة رشيد باشا الذى كان قد قضى ثمانية أشهر فى محاصرة مسولنجى (Missolonghi) على غير جدوى . وفى ذلك الوقت رتب محمد على ونخسرو الخطة الحربية والبحرية اللازمة للقضاء على ثوار اليونان سواء عاونتهم انجلترا أو لم تعاوَنهم .

حصار مسولنجى (١٨٢٥)

كان عام ١٨٢٥ أشد أعوام الثورة اليونانية حلكة لأن الثوار لم يزالوا على انقسامهم القديم وأنانيتهم المألوفة بينما كان السلطان والوالى متفقين على إخضاعهم ؛ ولأن عصا باتهم المسلحة زادت فى احتقار النظام بينما هم يواجهون المصريين النظاميين ؛ ولأن سفنهم كانت على الدوام تأبى أن تجزب التحسينات العلمية ، بينما الأسطولان العثمانى والمصرى قد انتفعا بهذه التحسينات إلى أبعد مدى ؛ وأخيرا لأن أرض اليونان لم تنجب عبقرىا حربيا عظيما قادرا على قيادة جميع جنودها بينما كان السلطان يرميهم بأعظم قائددين فى دولته : ذلك بأنه بينما كان إبراهيم يخضع المورة كان الجيش المتوغل فى إيلا^(٢)س بقيادة محمد رشيد الذى لم تنجب تركيا قائدا أقدر منه أو صدرا

(١) المراد مسيولوفرن (M. Lauvergne) السالف الذكر .

(٢) كان إذ ذاك يطلق على بلاد اليونان الواقعة شمالى المورة .

أعظم أبرع منه منذ أيام آل كبريل . وكان رشيد في ريعان الشباب دون المتوسط في القامة بهي الطلعة جم الأدب سريعاً نشيطاً ذكياً شجاع القلب . ويقال إنه مع منحه لقب القائد الأعلى ووالى الروملى قد أنذر بأنه لا بد من سقوط مسولنجى أو سقوط رأسه . وبلغ رشيد لاريسا (Larissa) في يناير وقضى على الاضطراب في أيروس باسترضاء الزعماء وبذل الوعد للآرنؤود برفع روائهم . وخالف سابقيه في الإسراع باحتلال مضيق ما كرينوروس (Makrynoros) . ثم عمداً إلى أهم الأعمال الحربية في شمال اليونان في ذلك العام وهو حصار مسولنجى . فلما نزل بها في ٢٧ من إبريل بدأ العمل من فوره واستحث جنوده أن يضيقوا عليها الخناق ليحوا عار إخفاقهم أمامها قبل ذلك بثلاث سنين . وكانت اليونان من جانبهم مصممين على الاحتفاظ بها لأنها الثغر الجيد الوحيد الباقي في أيديهم . على خليج ليبانتو . وكانت مسولنجى تسند ظهرها إلى جبال زقفوس (Zygos) وتمتد على حافة سهل مستنقع تحده برك ضخمة عظيمة الاتساع بها مسالك ملتوية تشرف عليها شطوط من الطين .

ويختلف الحصار الثانى اختلافاً كلياً عن الحصار الأول : ففي سنة ١٨٢٢ لم يكن الحصار تاماً بل مضطرباً بين المفاوضات حيناً والمناوشات حيناً آخر ، بين عدوين يفصلهما مستنقع وخندق . وفي مثل هذا الوضع استطاع جماعة من المدافعين أن يصددوا عدوهم المتردد . أما منذ ذلك الوقت فقد زادت تحصينات المكان بفضل المهندس القدير كوكينس (Kokkini) تحت إشراف اللورد بيرون . ومن هذه التحصينات إقامة برجين أطلق عليها الإسمان الفخمان فرانكلين (Franklin) و بوتساريس (Botzares) ؛ وعملت إصلاحات أخرى منها إنشاء رواق مسقف خارج الخندق ومنها تحصين بعض الجزيرات الموجودة بالبرك . وإلى جانب هذه التحصينات كان بالمدينة ٤٨ مدفعا من الحديد مختلفة العيار ومدفعان نحاسيان من نوع الهاون واثنان من الهوتزر . وبذلك صارت المدينة قادرة على مقاومة كبيرة ،

إلا أن الجنود المدافعين وهم ٤٠٠ كانوا في مواجهة عدو ذى عزيمة ونشاط مستعد للإفادة من كل ما تقدمه له الفنون الحديثة من حفر تحت الأساسات ولغم وخندق .

وقد لفتت أهمية الحصار وطول مدته نظر الشرق والغرب جميعا : أما في الغرب فكانت مسئولية تذكر بإقامة يرون فيها ونهاية حياته المحزنة بها ونشأ عن شهرتها فكرة شاعت في أوروبا هي أن مصيرها ومصير اليونان يكادان يكونان شيئا واحدا . وكان قواد الحامية أمثال نوتارى (Notari) ويوتساريس (Botzars) يلقون عونا قريبا من إدارة مدنية قوامها ثلاثة على رأسهم كبير أعيان بتراس السابق وهو البطل بابا ذيامندوبولوس (Papadiamandopoulos) . وفي غضون مايو ويونيو كان رشيد يقترب في بطء وحذر من برج فرانكلين بإقامة تل كبير من التراب .

وبعد أن تسلم مدافع من بتراس بدأ يقذفه قذفا عنيفا بينما كان اليونان يجيبون على هذه النار بمثل نشاط رشيد ويحسنون في وسائل دفاعهم ؛ وارتفعت روحهم المعنوية حين وافتهم في ١٠ يولييه سبع سفن من إذرا تحمل إليهم مؤن كثيرة وبعض المدد من المورة . وبعد شهر من ذلك التاريخ استبشر المحصورون بقدم أسطول اتضح فيما بعد أنه أسطول خسرو وأنه قد أنزل حسين بك في نوارين وجاء لرشيد بمدد مهم جدا من المدافع والرجال والذخيرة المختلفة الأنواع ؛ وبذلك مكنه من مضاعفة همته . وفي هذه الأثناء كان يوسف باشا الذى استقر في بتراس نحس سنين بعزيمة فائقة قد أعد ٣٦ قاربا مسطحة القاع قطع بها الاتصال مع أناتوليكو (Anatoliko) وحاصر هذا الحصن بحرا . وفي ٢٨ يولييه فجر المحاصرون لغنا تحت برج بوتساريس واستولوا على حطامه مرتين ولكن اليونان أخرجوهم منه في كلتا المراتين .

وخشى رشيد أن تمون المدينة من جديد ومن أجل ذلك قرر أخذها عنوة فنسف برج فرانكلين في فجر يوم ٣ أغسطس وهجم هجوما قويا بخمسة أرتال وعرز عشرين راية على أطلاله . ولكن اليونان نالوا نصرا مجيدا في ذلك اليوم بما يكاد

يكون البقية الباقية من ذخيرتهم . ولم يقل نجاح أسطولهم عن نجاح جنودهم إذ وفق مياؤليس (Miaoulis) وسختوريس (Sachtouris) أن يزعجوا خسرو ببعض المناورات التي قامت بها حرافاتهم ، وأن يهزموا مجموعة القوارب التي أعدها يوسف باشا ، وأن يرفعوا الحصار البحري ويمتدوا المحصورين بالمؤن والذخائر التي كانوا في ميسس الحاجة إليها . وبأنخذال القبطان باشا ذلك الانخذال المزرى أصبح رشيد بغير ذخيرة وبغير مال ، وليس عنده إلا قليل من المؤن . وبهذا تشجع المحصورون أن ينسقوا في الخلفاء هجومين في وقت واحد أحدهما على معسكره والآخر على قواربه وتم ذلك في ٦ أغسطس إذ انتصرت الزوارق اليونانية على قواربه وهاجمت الحامية المعسكر ، بينما كان كارايسسكاكي (Karaiskaki) يهاجم مؤخرته بخمسة رجل . على أن هذه المناوشة البارعة لم تبلغ أن تدفع كوتاهيه لى إلى اليأس ، فاستطاع بوساطة تل كبير من التراب أن يأخذ برج فرانكلين ، إلا أن المحصورين كانوا قد توقعوا ذلك فأقاموا خلف البرج منشآت دفاعية قوية عادت يومذاك بفائدة أنستهم الجهود التي بذلوها في إقامتها . وتركز الصراع في غضون سبتمبر وأكتوبر حول هذا البرج وكان القتال قتالا وحشيا حقا لأن البعد بين الخصمين لم يزد على بضعة أمتار ، وانتهى الأمر بانتصار الهمة اليونانية على العزيمة التركية فاستعيد البرجان ونسفت التلال الترابية التي كانت تهددها .

وأقبل الشتاء بما يلازمه من طاعون وملاريا ففتك بجيش رشيد بعدما أضعفه القتال والهروب . ولم يكن لقائده عزيمه رشيد مناص من أن يخندق على معسكره عند سفح جبل زقفوس . وفكر اليونان في مهاجمته بالاتفاق مع أتباع كارايسسكاكي المنتشرين في الجبال من خلف العدو إلا أن خنادقه المعقدة وذويوع الخلف بين زعماء الأرماطول — حاملي السلاح — جعل النجاح موضع شك .

ولعل المقيمين في مسولنجي كانوا راضين بما تنهيا لهم عمله وليسوا براغبين عن الاستمتاع براحة استحقوها بمجاهدهم . ومن ثم كان الحصار في نهاية ١٨٢٥ في حالة

توقف بعد أن عمل الترك آحر جهدهم تحت إشراف أحسن قائد لديهم . ومع هذا عجزوا عن تحطيم مقاومة رجال الروملى .

على أن الموقف لم يكن ليحمل أحدا من أصدقاء اليونان البعيدى النظر على الابتهاج وذلك بسبب قرب قاهر المورة . إذ كان يدور بخلداهم ماعسى أن يحدث لو أن السلطان ، على الرغم من حسده للوالى ، تنازل فطلب إلى محمد على أن يعاونه فى بقية بلاد اليونان . وهذا ما حدث فعلا لأن كراهية محمود للتوار اليونان وللعاكسات الأوروبية المرتبة على الثورة سهلتا عليه طلب العون من مصر ، فتلقى ابراهيم الأمر بالاتصال برشيد . وبظهوره بات أمام مسّولنجى عدو جديد أشد بأسا من سابقه لأن حرب المورة قد برهنت على أن شجاعة الأرماطول وحيل الكلفت لا توازيان ما للجيش المصرى من نظام وعلم وخبرة بالاستراتيجية والتكتيكات . وتجلى لليونان والترك وأصدقاء اليونان أن الحصار الذى سيجده ابراهيم أعظم شأنا من جميع العمليات الحربية الأخرى ، لعلمهم أنه إذا سقطت مسّولنجى فإن غرب بلاد اليونان سيصبح تحت رحمة العدو كما أصبحت المورة من قبل سواء بسواء . وسيتمكن الجيش العثمانى من الانتشار فى البلاد وإخماد أنفاسها . ولا غرو بعد ذلك إذا اتجهت جميع الأنظار الى ذلك المكان الذى تجلّى فيه مقاومة الأبطال .

وكان محمد على قد أمد ابنه مؤنرا بعشرة آلاف رجل فتقدم ابراهيم بسرعته المعتادة مجّدا فى السير وعبر ممر كليدى (Kleidi) المهم واستولى فى برغوس (Pyrgos) وغستونى (Gastouni) على مخازن الغلال التى كانت أعدت لمسّولنجى والتى لم يرسلها اليونان إلى تلك المدينة ، ولا هم ألقوها حين فقدوا الأمل فى إنقاذها . وما أن اجتمع القواد العثمانيون أمام مسّولنجى حتى عقدوا فى ٢٧ نوفمبر مؤتمرا فى لياننتو ومن حضروا هذا المؤتمر القبطان باشا ورشيد و ابراهيم ويوسف باشا . وتم الاتفاق فيما بينهم على أن يعاون كل منهم الآخر وأن ينفذوا الحصار بنشاط . على أن الوقت لم يكن يسمح بعمل شىء لأن المطر الغزير حال دون كل شىء حتى حفر

الحنادق . ومن ثم قضى إبراهيم شهر ديسمبر في جمع المؤن ؛ وكان الجند المصريون يعملون دون أن يكلوا وكان النظام الذي يسود معسكرهم مما أدهش رشيدا فضلا عن أنه امتنع من استقلال القائد المصري بعمله .

ونفضت الحكومة اليونانية آخر الأمر لمعاونة الحامية الباسلة وبلأت إلى جيوب الأفراد من المواطنين وبهذه الوسيلة تمكنت من إعداد ٢٠ سفينة من إذرا و٤ سفن من بسار واقطحت هذه السفن المدخل وألقت إلى الحصن بمئونة شهرين .

وبعد ضرب المدينة بالقنابل ثلاثة أيام هاجمها الألبانيون والمصريون في ٢٨ فبراير سنة ١٨٢٦ وتسلقوا الأسوار ثلاث مرات ، ولكن اليونان المستيئسين ألقوهم عنها في كل مرة . فاتفق إبراهيم أن من الضروري حصرها حصارا تاما برا وبحرا ؛ وأعد لذلك ٣٢ قاربا مسطحة القاع أنزلها إلى الماء ووجه حسين بك هجومه على فاسيلاذي (Vasiladi) وهو الحصن المشرف على مدخل البركة واستولى عليه عنوة في ٩ مارس فسلمت أنا تولىكو (Anatoliko) بعد ذلك بأربعة أيام .

واعتقد إبراهيم ورشيد أن الفرصة مؤاتية لعرض شروط مناسبة ، غير أن الحامية اكتسحت فكرة التسليم في لهجة جذيرة بأجدادها : ذلك أن الباشا كتب إليهم ” أن أبعثوا إلى رجال يعرفون لغات عدّة ليتمياً لي أن أنتهى معهم إلى تفاهم “ فكان جوابهم جواب المعتز بنفسه إذ كتبوا إليه : ” إننا شعب أمى ولا نفهم لغات كثيرة . إننا لا نعترف بالباشوات ولكننا نعرف كيف نعمل بالسيف والمدفع “ . وكان لا يزال بأيدي الثوار نقطة في البركة هي الجزيرة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من مسولنجي وكان المدافعون عنها ٢٠٠ رجل بقيادة الزعيم الباسل كيتنوس دزا فيلاس (Kitzo Djavellas) وكان يحجبهم عن المدفعية العثمانية بما تردها من منخفض من الطين ؛ وقد جعلوا من كنيسة قليلة الارتفاع أيضا مخزنا وقلعة . فلما كان يوم ٦ من أبريل حاول الألبانيون أخذها عنوة ولكن قواربهم لم تستطع

بلوغ ساحلها. فتركوها وخاضوا في الطين الأملس تحت وابل غزير من الرصاص وأتلفوا مانعا واطئا من الأشجار كان خارج القلعة . وعند ذلك أعوزتهم السلام لتساق الجدران فعادوا أدراجهم. وركب رشيد جواده ليحسم رجاله على الأقدام فأصابته رصاصة في نخذه .

وإذ ذاك أمر إبراهيم ٢٠٠٠ من رجاله أن يظهروا تفوقهم ولكن عبثا حاولوا ، وجرح حسين بك فاتح سفكتريا (Sphacteria) جرحا مميتا فأهمل هذا الهجوم . وكان قتال هذا اليوم أعنف قتال رآته مسؤولتي ذهب ضحيته ألف عثمانى وتغير لون الماء من كثرة الدم وحملت عيون أهل الأرض قاطبة إلى أولئك الأبطال إعجابا بأعمالهم التي ذكرت بأكبر أعمال البطولة الحربية في العصرين القديم والوسيط . ومن ملئوا إعجابا بنكير من أهل جنيف هو اينارد (Eynard) . ومن ثم ضاعف هباته ونشاطه لصالح اليونان . وقد تشجع بما رأى من الملك لويس (Lewis) ملك بفاريا وبمعاونة لجنة باريس له فأرسل المال والقمح والذخائر الحربية إلى نافيليو وإذرا وجزر اليونان وكررت فرنسا وألمانيا وسويسرا هباتها الجزيلة ، وجمع اليونان أنفسهم مليون قرش من التبرعات الاختيارية . ولكن ماذا عسى أن يعمل المال إذا لم يقدم الرجال ؟ وها هو كارايسكاكي أشجع زعماء الرومالي وأعظمهم مقدرة لم يستطع رغم شهرة أعماله المحيطة السابقة أن يجمع حوله أكثر من ٥٠٠ ، وهي قوة لا يحلم أحد أن يرفع بها حصارا . ومع هذا فإن أهل مسؤولتي وحاميته كانوا قد أقسموا أمام الله أن يدافعوا عن حصنهم شبرا شبرا ولا يصغوا لحديث التسليم وأن يدفنوا أنفسهم تحت أنقاضه . فلم يعد لهم مناص من اتباع إحدى خطتين : الموت جوعا أو اختراق الحصار طبقا لمشروع بوتساريس (Botzares) . وهو مشروع جيد كان نجاحه محتملا وبمقتضاه قسم الرجال ثلاثة جماعات يقودها بوتساريس وماكريس ودزا فيلاس على التعاقب. وبين صفين من الرجال يحشد النساء بعد أن يلبسن

ملابس الرجال ويعطون السلاح ومعهم الأولاد ويبيد كل منهم مسدس محشو .

ولما انتصف الليل هجمت الحامية على العدو واخترق أكثرهم صفوفها على الرغم من النار التي واجهتهم غير أنه بسبب خطأ في الفهم أو بسبب حدوث زعر ارتد السكان الى المدينة وليس معهم إلا عدد قليل من حاملي السلاح . أما الذين اخترقوا الخنادق العثمانية فانقض عليهم من فورهم فرسان أعدهم ابراهيم لهذا الغرض . ولما شرعت بقيتهم تتساقط على جبل زفوس وتحس أنها آمنة انتهالت عليها طلقات قذفت بها فرقة من الألبان كان رشيد قد جعلها كميناً . فلم ينج من ٩٠٠٠ سوى ١٥٠٠ منهم ٢٦ بين امرأة وطفل . ولما طلع الفجر أمر ابراهيم رجاله بدخول المدينة وقابلهم السكان بإطلاق النار عليهم . وعمدت ثلاث عصابات الى نسف مخازن البارود على أنفسهم إيثارا للموت على التسليم . ولذا لم يأسر العثمانيون — فيما عدا النساء والأطفال — إلا قليلاً .

وهذا الدفاع الذي أبداه أبطال مسولنجي زاد صداقة اليونان استعاراً في جميع أنحاء أوروبا . وكان الرأي العام — بقدر ما يمكن أن يوجد على القارة — متملاً من نير مترنج وسياسته الرجعية ؛ ومن أجل ذلك كان يتخيل اليونان شعبا باسلاً يناضل ضد عدو يخيف لاطاقة له به من أجل الحرية التي هي من حق كل إنسان . وقد دفع هذا الشعور الوزارة الفرنسية الى عمل شيء لصالح إخوانهم في المسيحية ولم يعد فيليل (Villèle) رئيس الوزارة الفرنسية يستطيع المقاومة بفعل يفكر في الانضمام الى روسيا وانجلترا بعد أن قررتا في مؤتمر بطرسبرج سنة ١٨٢٦ معاونة اليونان ؛ وأدى ذلك الى عقد معاهدة لندن كما سيحيى بعد .

الحرب في اليونان بأشراف أصدقاء اليونان

كان سقوط مسولنجي نذيراً بسخط الشعب على حكومة كندوريوتس لأنانيتهما وعجزها حتى اضطر أن يستقيل من الرئاسة وتكونت حكومة جديدة من ثمانية أعضاء برئاسة زاييميس (Zaimis) استبعد منها كندوريوتس وكولوكترونيس

وكانت اليونان في هذه الفوضى تنقسم الى ثلاثة أحزاب على أسس محلية فكانت
الحزب من حزب انجلترا، والمورة في جانب روسيا، والروملى يؤثر فرنسا . وقد صفى
كندو ريوتس وكولوكترونييس ما بينهما من عدااء وكؤنا حكومة ثانية برياسة سيسيني
(Sissini) فصارت البلاد مهددة بحرب أهلية لولا توسط رجال من الإنجليز أمثال
لورد كوكرين (Lord Cochrane) وسيرتشارد تشرش (Sir Richard Church)
وكابتن هاملتون (Hamilton) في إدماج الحكومتين، وانتخب تشرش قائدا أعلى للقوات
البرية كما انتخب كوكرين أميرالا أعلى للأسطول وهو القوة الوحيدة من قوى الثورة
التي ما زال بها رمق . وبذلك اتضح أن التدخل الأوروبى وحده هو الذى ينقذ
اليونان من الخضوع للسلطان .

وبعد سقوط مسئولنجى في ٢٢ من أبريل سنة ١٨٢٦ عاد ابراهيم الى المورة
وسار رشيد في شرق اليونان وظهر أمام أثينا في يوليو سنة ١٨٢٦ واستولى عليها .
وكان مسلك رشيد في هذا اليوم مما أكسبه شرفا أزليا فقد أظهر أنه أرقى من سير
رتشارد تشرش في السياسة بقدر ما هو أرقى منه في الميدان : إذ اتخذ كل احتياط
يوحى به الحزم لمنع الترك من تدنيس سمعة المسلمين بأى عمل من أعمال الانتقام
كما حدث من اليونان في مواطن كثيرة : فكان الباشا يتفقد المكان بنفسه على
رأس فريق قوى من الفرسان ليتأكد من أن جنوده الذين يرافقون اليونان الى حيث
يركبون البحر يؤدون واجبهم كاملا . وبسقوط أثينا تم إخضاع الجزء القارى من
بلاد اليونان وكتب رشيد الى السلطان بذلك وجدّد بعض زعماء الروملى خضوعهم
وانتقل الآخرون الى المورة . وعكف رشيد على توطيد سلطة الحكومة في الناحية
الإدارية .

أما في المورة فلم يوجد جيش يقاوم ابراهيم فخفضت له كلها ماعدا مدينة نافيليو
وتطوع بعض الزعماء في خدمة القائد المصرى . ولم يعد أحد يسأل غير السؤال
الآتى : هل يجد المسلمون من الوقت ما يكفى لإقرار الأمن قبل أن تقرّر الدول
القائمة بالوساطة استعمال القوة ؟

أما مقدرة المسلمين على نشر نفوذهم في البلاد بسرعة ما لم يعترضهم شيء من الخارج فلم يك يسمح بأدنى شك . ولم يبق من أساحة الثورة صالحا للعمل إلا السفن ولذا قرر محمود ومحمد على أن يقضيا على هذا السلاح فنشطت دور الصناعة بالقسطنطينية والإسكندرية في صنع أسطولين وتجهيزهما لسحق الجزيرتين المشهورتين بسفنهما وهما إذرا (Hydra) وسبتس (Spezzia) وكانا يعتقدان أنهما بهذا يطفئان آخر بريق في الثورة قبل أن تتمكن الدول الأوروبية من التدخل بأساطيلها .

وأدرك كوكرين وجود الخطر ومداه ، فاعتزم إحياء أيام دريك (Drake) بإحراق الأسطول المصري بالإسكندرية . وأقبل الأميرال الأعلى بنحو عشرين قطعة ما بين سفينة حربية وحراقة حتى وقف أمام الإسكندرية في ١٧ يونيه سنة ١٨٢٧ فغضب محمد على لهذه الإهانة غضبا شديدا فركب البحر بنفسه وتعقب المعتدين حتى جزيرة رودس ، كل ذلك وكوكرين يتجنب المعركة حتى اضطر محمد على الى العودة من هذه المخاطرة التي لم يسمع بمثلها في الجراة والإقدام . وبذلك فقد كوكرين البقية الباقية من سمعته ، وانكب اليونان على القرصنة البحتة .

وبعد ذلك بقليل وصل الى خليج نوارين أسطول طاهر باشا حيث بقى في انتظار الأسطول المصري الذي حضر في ٧ سبتمبر سنة ١٨٢٧ بعد أن تفادى سير أدوارد كدرنجتون (Sir Edward Codrington) الذي كان قد عهد اليه أن يعترض أسطول مصر وأن يرده الى الإسكندرية . وكانت رئاسة الأسطول المصري معقودة لمحرم بك ورئاسة الأسطولين المصري والعثماني لإبراهيم باشا وبذلك بلغ عدد سفن المسلمين في خليج نوارين في أوائل سبتمبر سنة ١٨٢٧ نحو مائة وتسع وعشرين على أهبة الاستعداد للانقضاض على إذرا وسبتس وهما آخر أمل بقي لليونان . وفي هذه اللحظة الحاسمة تقررت المعاونة الأوروبية التي طال انتظار اليونان لها : ذلك أنه على الرغم من تزايد أصدقاء اليونان في كل مدينة من مدن أوروبا وفي بعض أنحاء أمريكا ، وعلى الرغم من الحملات الشديدة التي وجهتها جمعياتهم الى الحكومات المختلفة بقصد دفعها لمساعدة اليونان ، بقيت هذه الحكومات تؤثر الحياد كما ظهر

ذلك في مؤتمر ليباخ سنة ١٨٢١ وفي مؤتمر فيرونا في السنة التالية إذ تقرّر « ترك اليونان لحظهم » وعدم التدخل في جانبهم . ولم يتغير موقفها عن ذلك كثيرا طيلة حكم اسكندر الأول قيصر روسيا بسبب محاولته الجمع بين مصالح روسيا ومقاومة الثورات حيثما كانت . فلما مات سنة ١٨٢٥ خلفه أخوه نقولا الثاني وكان معجبا ببطرس الأكبر وكترينا الثانية فشرع يعمل على إضعاف الدولة العثمانية تحت ستار مساعدة إخوانه في الدين — اليونان الأرثوذكس . وجزعت إنجلترا لتجدد هذه السياسة الروسية القديمة وعمدت الى التخفيض من نفوذ روسيا بالاشتراك معها في العمل لصالح اليونانيين ، وذلك بإقناع السلطان بأن يمنحهم حكما ذاتيا . وتم الاتفاق على ذلك في مؤتمر بطرسبرج — لينينجراد الحالية — سنة ١٨٢٦ ثم انضمت اليهما فرنسا وعقدت الدول الثلاث معاهدة لندن في ٦ يولييه سنة ١٨٢٧ . وأهم شروطها عقد هدنة بين المتحاربين وقيام حكم ذاتي باليونان بشرط دفع جزية سنوية للسلطان . وإذا رفض أحد الطرفين تنفيذ الهدنة فإن للدول الثلاث أن تحول دون تصادم الطرفين بدون أن تشترك في الأعمال العدائية . وخولت الدول الثلاث سفراءها بالقسطنطينية مفاوضة الباب العالي في تنفيذ شروط المعاهدة ، كما خولتهم إصدار التعليمات اللازمة لأمرء البحر المكلفين مراقبة تنفيذ الهدنة . وبهذا دخل أمرء البحر الأوروبيون الحلقة لحسم النزاع بالسيف والمدفع .

واقعة نوارين

بقي الباب العالي ممتنعا امتناعا كليا عن الإصغاء لأي اقتراح يؤدي الى توسط الدول الأوروبية بينه وبين رعاياه الثائرين . وهذا الامتناع أوجج نار الغضب في نفوس السفراء . ومن هؤلاء سفير فرنسا مسيو ريبوير (Ribeupierre) وكانت مهمته السرية أن يخلق مشكلة مع تركيا ؛ ومنهم سفير إنجلترا سترا تفورد كاننج (Stratford Canning) وكان يمقت الإقامة في مدينة لم يكن يحبها يوما من الأيام ، بين أولئك الترك الفطعاء في رأيه ؛ وكان إلى جانب ذلك قد سُم ما يعلق بمهمته من التقلقل ، فكتب أكثر من مرة الى جورج كاننج رئيس الوزارة الإنجليزية أن يعمل شيئا : إما الأخذ

في إجراءات إكراهية قدر الطاقة دون إعلان حرب ، وإما إهمال الوساطة كلية ، والقضاء على كوكرين وشركائه .

وفي أول سبتمبر سنة ١٨٢٧ أصدر إلى السير ادوارد كدرنجتن " أن منع المؤن^(١) ينفذ آخر الأمر بقنابل المدافع عند الضرورة وبعد استنفاد جميع الوسائل الأخرى " . وقد كتب ستراتفورد كاننج في ذكرياته بعد ذلك : " لو أني تسلمت أقل إشارة عن حدة طبع السير ادوارد وجراته لتجنبته التعبير (بقنابل المدافع) " .

على أن تعليقات ستراتفورد كاننج حتى في الصيغة التي بلغت إلى كدرنجتن كانت خاصة بوقف المؤن . ومن ثم كان من الخطأ أن يحتج بها كدرنجتن عن تصرفه بعد ذلك في موقعة نوارين . ولو لم يكن لدينا شيء غير شهادة كدرنجتن نفسه لكانت شهادته كافية لإثبات التهمة عليه : ذلك بأنه شعر أنه يجب عليه أن يعتذر لستراتفورد كاننج عن سوء تفسيره لتعليقاته . ثم إنه حين اقترح الأميرال الفرنسي دي رني دخول الأساطيل إلى خليج نوارين كشف كدرنجتن عن شعوره بأن مثل هذا العمل لم تصدر به تعليمات : فيقول عن دي رني : " قد نبهته إلى ما عسى أن يكون من النتائج إذا لم توافق الحكومات على هذا الإجراء " فقال : " إنه استعرض كل النتائج وأنه مع ذلك على أتم استعداد " وفي ٤ سبتمبر أصدر السفراء تعليماتهم إلى أمراء البحر بأن يحاصروا الساحل اليوناني بأجمعه من خليج أرتا (Arta) إلى خليج فولوس (Volos) . وفي اليوم التالي بلغت معاهدة لندن إلى اليونان فتلقوها بأعظم مظاهر الابتهاج و وعدوا بمراعاة شروط الهدنة المطلوبة . أما إبراهيم فلم تبلغ إليه المعاهدة إلا بعد ذلك بسبعة عشر يوما . وقد جاء في المذكرة المرافقة للمعاهدة : أن الحلفاء — مدفوعين بعوامل الإنسانية — قد جمعوا قوات بحرية كبيرة بقصد منع كل مقاومة من جانب القواد الترك — تلك المقاومة التي قد تؤدي إلى القضاء عليهم وتسبب للسلطان ضررا كبيرا يمتد أثره زمنا طويلا . وقد تسلم أمراء البحر الأوروبيون أوامر بأن ذهابهم إلى أبعد حد أولى من التقصير في بلوغ الهدف الذي ترمي إليه معاهدة لندن .

١ . (١) المراد منعها عن العثمانيين والمصريين .

ووصل أمير البحر دى رني إلى نوارين في ٢٠ سبتمبر وقابل إبراهيم في صباح اليوم التالي، وحاول في هذه المقابلة أن يقنعه بالاستجابة لرغبات الحلفاء . وكان حديث الأميرال الفرنسي بلهجة مستفزة يراد بها إثارة الروح العالية والرجولة اللذين كان يعرفهما عن إبراهيم ، حتى لقد سأله إبراهيم ”هل يلزم تسليم الحصون كذلك ؟“ فكان جواب دى رني ”هذه مسألة تقتر فيا بعد أما اليوم فإننا إنما نريد هدنة تنقذ والدك وتراثه . فكر في أنه مسنّ وقلق ومختلف عما كان عليه من قبل ، وفكر في أن مصر الغنية ستكون خيرا لك من المورة المخربة “ . وكان مما قاله إبراهيم : ”عندي كل ما يلزم لإنجاح الثورة ، ولتوقيع ضربة قاتلة على إذرا وهي الوكر الأخير للخرافات اليونانية“ فقال دى رني : ”أنه اتفق مع كدرنجتن على أن يمنعا بالقوة الأسطول التركي المصرى من السير في أى اتجاه اللهم إلا اتجاه الدردنيل والإسكندرية“ . وتم التفاهم على ألا يقوم إبراهيم بعمليات جديدة إلا بعد أن يتسلم من الباب العالى أو من الوالى أمرا رسميا بذلك ، وأنه إلى صدور ذلك الأمر سيحتفظ بأسطوله في نوارين .

وفي ٢٥ سبتمبر زار الأميرالان البريطانى والفرنسى القائد المصرى زيارة رسمية في كثير من الأبهة . ويقول كدرنجتن : ”إن إبراهيم باشا تظاهر بأن له رغبة خاصة في تنفيذ طلبنا ، ولعله كان كذلك في الواقع ونفس الأمر“ وعلى الرغم من هذا فإن دى رني لم يتمالك أن يتحدث عن تبادل الرصاص والبارود . وإذن ، فإن إبراهيم كان مستعدا لوقف القتال ، أما اليونان فإنهم بدلا من تنفيذ الهدنة التي وافقوا عليها أحسوا بأنها — فيما يخصهم — مجرد عبارة رسمية ، وأنه إن ينالهم عقاب من قبل الدول التي توسطت في إنقاذهم . وبهذا الاعتقاد أرسل الجنرال الفرنسى فابشير (Fabvier) إلى خيوس وعهد إلى بعض الزعماء بتحريك الثورة في تساليا وحوصرت كريت ، بينما حاول تشرش وكوكرين النزول إلى اليونان الغربية . وأهم من هذا كله أن القائد هاستنجس (Hastings) وهو من أصدقاء اليونان أباد قوة عثمانية أمام

صالونا (Salona) . فلا عجب إذا أعلن إبراهيم في غضب : ” أن العثمانيين مكتوفو الأيدي بينما اليونان أحرار في متابعة الأعمال العدوانية “ وأضاف إلى ذلك ” أنه ما دام اليونان لا يحترمون الهدنة التي قبلها هو على كره شديد منه ، فإنه لا يعد نفسه مقيدا بأي احتياط في جانبهم “ . وفي ذلك يقول المؤرخ الانجليزي فنلاي (Finlay) : ” تأبى علينا الصراحة أن نتجاهل أن إبراهيم وافق على وقف القتال وهو يعتقد أنه لن يسمح لليونان — أسوة بالترك — بأن يمضوا في الأعمال العدائية “ . ومن ثم كان إرسال جزء من أسطولہ لمعاقبة هاستنج ، وهو إذ ذاك في خليج كورنثوس ، عملا مبررا من كل وجه . وكذلك كان عمله في تموين بتراس التي كان كوكرين يسير قاصدا أخذها . وما أن علم كدرنجتين بخروج الأسطول المصري ، حتى أقلع من جزيرة زنطة وأنذر السفن الإسلامية بإطلاق النار على أية سفينة تتقدم في اتجاه بتراس وكان من نتيجة ذلك أن عادت السفن الى نوارين في ٦ أكتوبر سنة ١٨٢٧ . ومن المتع تخیل النتيجة لو أن إبراهيم أصر على تموين بتراس في ذلك اليوم ، ونفذ الأميرال الإنجليزي تهديده في حين لم يكن معه غير سبع سفن .

وبعد ذلك اجتمعت الأساطيل الثلاثة المتحالفة في مياه زنطة وبلغ عددها عشر سفن من خط القتال وتسع فرقاطات وثمانى سفن صغيرة . وهنا برز الى عالم الوجود ذلك التصميم الذى أدى الى معركة نوارين ، ومؤذاه : ” أن أمراء البحر اقتنعوا — كما اقتنع كل رجل مفكر ما عدا أعضاء الهيئة الدبلوماسية — بأن العقدة التي عليهم حلها لن يفصل فيها إلا السيف “ وفي هذا المضمار أخذ دى رني القيادة وتبعه كدرنجتين وهيدن (Heiden) مختارين غير مكرهين .

ولا عجب فإن دى رني كان قد غير رأيه في المسألة اليونانية وشرع ينصح لرئيس الوزارة الفرنسية باستعمال القوة لوقف العدوان لاعتقاده ” أن هذا يعد فرنسا موقفا نبیلا جدا “ . وبهذا التحمس لإرضاء التلهف القومى لئیل المجد جرف رئيس الوزارة الى وجهة نظره مؤقتا . ويؤيد رغبة دى رني في إنهاء المسألة

عن طريق القتال ما يقصده عنه كدرنجتن من أنه "لا يجب البحر ولا يستطيع أن يتخيل الحصار" وأنه من أجل ذلك كان مستعدا للتدليل على "أن استمرار الحصار طول الشتاء عمل شاق ، كثير النفقات ، ولعله عديم الجدوى : ذلك بأنه قد تهب عاصفة تشتت شمل الأساطيل الأوروبية ، فتتاح لإبراهيم فرصة نقل جيشه الى نواح متعددة من المورة والجزر" ومن ثم كان يرى "أن خير سياسة ما تنجزه المدافع" . وبناء على ذلك قرر أمراء البحر أن أقصر الطرق وأضمنها لتنفيذ معاهدة لندن هي حرمان السلطان من وسائل الاستمرار في القتال .

وكتب دى ريني خطابا الى الضباط الفرنسيين في الأسطول المصرى يحذرهم "أنه من الجائز نشوب معركة ، وأنهم إذا ضبطوا يقاتلون ضد علم دولتهم فإن النتائج بالنسبة لهم قد تكون خطيرة جدا ، وأنه لذلك ينصح لهم بالتخلي عن أعمالهم" وكذلك فعلوا . وفي ١٧ من أكتوبر سنة ١٨٢٧ كتب أمراء البحر إلى إبراهيم يعنفونه — في غير استحياء ولا نجمل من الكذب — بأنه أخل بتعهده وأنه بذلك وضع نفسه خارج نطاق القانون الدولى .

ولما كان إبراهيم غائبا أعيد الخطاب دون أن يفض خلافه . وفي اليوم التالى وقع أمراء البحر بروتوكول المفاوضات الذى نفسذ بعد يومين في نوارين . ونصت المادة الأولى منه على استبعاد الحصار أثناء الشتاء ، وتحذرت الثانية عن جمع الأساطيل في نوارين نفسها حتى تكون إقامتها الدائمة هنالك ضمانا لعدم تحرك الأسطول العثمانى .

ولو أن أمراء البحر كانوا حقا يقصدون مجرد مظاهرة — كما كانوا يجاهرون — لكانت هذه المادة وافية بغرضهم . لكنهم أوضحوا أنهم بيتوا النية على تحطيم الأسطول العثمانى حين استرسلوا في القول "بأن هذا الوضع وحده لا يؤدي الى الغاية" ، لأن الباب العالى يصر على عدم تغيير خطته " . ومعنى هذا أن وجود الأساطيل الأوروبية بصفة مستديمة في نوارين لا يكفى لتحقيق أغراضهم . وعلى

الرغم من ذلك فإنهم بالمادة الأخيرة أقنعوا أنفسهم بأن " مجرد وجود الأساطيل بأبتهما في نوارين يتولد عنه عزم يحقق الهدف المطلوب " .

والشيء الذى ما يزال بحاجة الى تفسير هو المنطق الذى سؤغوا به أن وجود الأساطيل بصفة مؤقتة يحدث أثرا أكبر من وجودها بصفة مستديمة ؛ اللهم إلا إذا كان الوجود المؤقت يفسر على طريقة دى رني " بأنه يجب إدخال الأساطيل الثلاثة الى نوارين نفسها وإنذار الأساطيل العثمانية — ويدنا على المدفع — بأن تخرج ؛ وإلا هاجمتها على الفور " ومن ثم يتجلى أن بروتوكول أمراء البحر يبرهن بذاته على أنهم لم يكونوا يقصدون شيئا أقل من تحطيم الأسطول العثماني : ذلك بأن دى رني كان يعلم حق العلم بأن روح إبراهيم العالية ورجولته تحولان دون انسحابه من نوارين ؛ حتى ولو طلب إليه أمراء البحر — ويدهم على المدفع — أن يفعل ذلك ؛ اللهم إلا إذا صدر له أمر بهذا الانسحاب من السلطان أو من والده .

وفى ٢٠ أكتوبر انتهز كدرنجتن هبوب رياح شرقية مناسبة ودخل الى الميناء . وقد وجد القائد المصرى محرم بك والقائد التركى طاهر باشا نفسيهما فى موقف حرج ؛ لأن رئيسهما الأعلى وهو ابراهيم باشا كان غائبا ، ولأنهما يعلمان جيدا أن محمود ومحمد على يكرهان الاشتباك مع أوروبا . وفى هذه الساعة المنحوسة الطالع سمحا لنفسيهما بأن تسيطر عليهما هذه الاعتبارات السياسية بدلا من أن يقوموا بواجبهما كقائدين . وبذلك عملا على نقيض ما اعتزمه خصومهما إذ أن أمراء البحر الأوروبيين كانوا قد قرروا التضحية بالدبلوماسية لإثارة لما رأوه صوابا ومنتجا ، بينما القائدان المصرى والعثمانى قد عكسا الآية فضحيا بما يوحى به عقلاهما خوفا من اعتبارات سياسية بسبب فرط حرصهما على الإبقاء على حسن العلاقات مع أوروبا ، وبسبب إصرارهما على ألا يكون العدوان من جانبهما إن كان ولا بد من قطع هذه العلاقات .

وهذه الاعتبارات بذاتها هي التي حدث محرم بك على اقتراح خطأ كان ينبغي أن يحاكم من أجله أمام مجلس عسكرى : ذلك لأن مكانه كان عند مدخل الخليج ، ولأنه كان يدرك موقف التحدى الذى يقفه خصومه ؛ فكان ينبغي عليه أن يعترض دخولهم ، فاذا هم أبوا الرجوع ، هاجمهم وهم يدخلون فرادى ، بسفينة وبطارياته المنصوبة على البر .

وبما أن ابراهيم لم يكن يسمح البتة لعدوه بأن يختار نقطة الهجوم ، فمن الجائز أنه لو كان حاضرا لنفذ هذه الخطة . واذن ، لحاز أن تكون نتيجة المعركة مخالفة لما حدث . وها هو كدرنجتن نفسه يقول : ” لو أن محرم بك عجل قليلا بضرب النار لواجهنا صعوبة كبيرة “ . لكنه بدلا من الوقوف موقف الرجولة انخدع بوعد الأدميرال البريطانى بأنه لن يطلق النار حتى يبدأ محرم بك ، ومن ثم احتفظ بحياده .

وبعد أن استغل الأدميرال البريطانى حياد الأدميرال المصرى المخدوع استغلا كاملا ، انقلب عليه دون أن يشعر ونحز الضمير ؛ وهاجمه فى الوقت الذى كان فيه قبطان مصرى يتحدث الى ياور الأدميرال البريطانى .

وبينا العثمانيون يتلفتون يمنة ويسرة لا يدرون ما يعملون كانت الأساطيل الأوروبية تأخذ أماكنها فى فسحة من الوقت : ففى منتصف الساعة الثانية دخلت السفن البريطانية حتى صارت فى وسط الهلال بالضبط فى مواجهة سفينتى أميرى البحر التركى والمصرى ، ودخلت السفن الفرنسية فأخذت مكانها عن يمين كدرنجتن فى مواجهة الفرقاطات المصرية ؛ وذلك بقصد التأكد من تخلى الضباط الفرنسيين . وأما الأسطول الروسى فوقف عن يسار زميله البريطانى .

وقد ثار الجدل حول الجانب الذى أطلق القذيفة الأولى ويقول ابراهيم : ” إن كلا الفريقين يتبرأ منها ؛ والثابت أن الفرقاطة البريطانية ” دار تموت “ بدأت أولا وبدون مبرر تستولى على حراقتنا فكان الدفاع المشروع من جانبنا سبب القذيفة

الأولى التي ألقته دار تموت“ . ولنا كيد المؤكد أطلق دى رني على الأسطول المصرى كل مدفع على سفينه يواجه ذلك الأسطول ؛ فلم يكن من قبيل المصادفة أن أول قذيفة مصرية وقعت على السفينة لاسيرين (La Sirène) التي كان الأميرال الفرنسى على ظهرها . وهذان الحادثان كانا بمثابة إشارة الاشتباك العام ، وهو اشتباك لا يترك مجالا للناورة ولا للفن البحرى بحكم ضيق الخليج فلم تكن هناك حاجة لغير الضرب الشديد . ويقول دى رني في وصفه : ” في وسط هذا التنور كانت ترى سفن بأكلها مشتعلة ، وأخرى تقفز في الهواء بانفجار مروع . ولما غطيت الميناء بالحطام بدت في صورة بحيرة من تلك البحيرات الجهنمية التي يعم فيها الكفار بين أمواج من النار والقار الملتهب“ . وكتب كدرنجتن الى زوجته في اليوم نفسه : ” إيه يا عزيزتى ، لقد حارب الترك والحق أنهم أجادوا الحرب ، وقد أعدمنا أسطولهم ، وكلفنا ذلك ثمنا غاليا“ .

ولم يكن أحد يشك في النتيجة إذ الواقع أن تفوق الأساطيل الغربية تفوقا لاشك فيه هو الذى شجع أمراء البحر على المخاطرة بهذه الخطوة : ذلك بأن الوحدات المقاتلة إنما هي سفن خط القتال . وكان نصيب العثمانيين من هذه الوحدات أقل من ثلث نصيب خصومهم من حيث العدد . وفضلا عن هذا فإنهم كانوا مقيدين بنطاق ضيق . وزاد الحال سوءا أن السفن الصغيرة والنقلات الكثيرة لما حطمها الأعداء — ولم يكن ذلك عملا شاقا — صارت خطرا على أصحابها وعائقا لهم . فاجاءت الساعة الخامسة حتى كان الأسطول العثمانى لا وجود له باعتبار كونه قوة بحرية .

هكذا حدثت موقعة نوارين تلك الموقعة التي قيل عنها بحق إنها دقت ناقوس الاستقلال اليونانى ؛ فان دم بحارة الحلفاء وقد اختلط في خليج نوارين ربط بعضهم بعض على الرغم من تباین مصالحهم . ولا ننسى أن زعماء جيش ما أو أسطول ما لا يناط بهم تفسير نص معاهدة ما ، ومط موادها مطا كثيرا بحيث تناقض معانيها الحرفية ، كما لا يجوز لهم أن يقيموا أنفسهم قضاة يفصلون في أمور السلم والحرب .

ومن ثم وجد كدرنجتن أن عمله هذا بحاجة الى التبرير فكتب الى الوزارة البريطانية يقول : ” إن أول أثر عظيم سيكون قبول السلطان للهدنة المقترحة حين يجد ، بعد فقد أسطوله ، أنه لم تعد له وسيلة للاستمرار في الحرب . وسيكون الأثر الثاني إقلاع الروس عن عزيمتهم على تسير جيوشهم نحو القسطنطينية ذلك العزم الذى أخاطر بالقول بأنه الآن موضع التنفيذ“ . على أن هذا التبرير لم يحل دون تجريده من القيادة .

وإذن فإن التدخل بالقوة بين تركيا واليونان كان من أوله الى آخره من اقتراح القيصر نقولا الأول ومن خوف إنجلترا من ازدياد النفوذ الروسى في تركيا ، وكانت موقعة نوارين النتيجة المباشرة لمعاهدة ٦ يولية سنة ١٨٢٧ كما توقعها نقولا ومترنج ومحمد على . وإنما وافقت عليها فرنسا لأن حكومة شارل العاشر كانت في ميسيس الحاجة الى شيء من المجد ينسب الشعب إدارتها المستبدة المحدودة النظر ، وبخاصة لأن الشعب كان قد سئم جمودها وكان يرى في هذا الجمود مضیعة لحسن الصيت وهو لدى الفرنسيين غذاء شهى .

وما أن وصلت أخبار المعركة إلى الحكومات الثلاث وشعوبها حتى تجلى شعور هذه وتلك : ففي لندن كان الرأى العام منقسما فالهويج قابلوها بالابتهاج بينما أحس التورى — ومعهم الحكومة — بأنها على أحسن الفروض « حادث مشؤوم » . وفى باريس أعلن ” أن الشعب هو الذى كسب المعركة ، وأنها مبدأ انتصار الرأى العام « ؛ وسر شارل العاشر بما لاحظته من حب الشعب لوزرائه كأثر حسن من آثار المعركة ، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يمتدحها دون تحفظ . أما فى بطرسبرج فإن الفرح كان غير مشوب ، وظن حزب الحرب أن نوارين تؤدى الى حرب مع الترك طالما رغبوا فيها . وكان نقولا الملك الوحيد الذى ابتهج بها فحلى صدور أمراء البحر الثلاثة بالأوسمة ، وهنا كدرنجتن ” على النصر الذى ينبغى على أوربا

المتحضرة أن تعترف لك بجمله مضاعفا“ . ولم يكن وزيره أقل منه سرورا وعبر عن ذلك بقوله : ” إن أمراء البحر يستحقون أن يكونوا رؤساء وزارات يدبرون السياسة “ .

أما ابراهيم باشا فلم تخفض موقعة نوارين البحرية من شجاعته مثقال ذرة ، فبقى ثابتا كما كان من قبل ؛ بل لعل تحطيم الأسطول جاء منقذا له بإزاحة الضباب الدبلوماسي الكثيف الذي كان يحجب الطريق عن عينيه ؛ فأصبح بعد هذا الحادث يستطيع أن يؤدى واجبه للدولة العثمانية من غير أن تعوقه عن ذلك اعتبارات السياسة الدولية . ومن ثم شرع يعمل على الفور لقضاء الشتاء في المورة . واتضح له بعد الحساب الدقيق أن ما عنده من المؤن ، مضافا إليه ما يرغب تجار اليونان في بيعه له ، يكفيهِ الى أن يظهر المحصول الحديد . ولبلوغ هذه الغاية أرسل الى مصر كل من يعوق وجودهم تنفيذ الخطة وهم ٢٤,٠٠٠ شخص حملهم على ما بقى من سفنه وهي قوة أكبر مما قدر الجمهور المصرى إذ كان فيها ٢٦ سفينة حربية و ٢١ نقالة .

ومهما يكن من أمر فإن أخبار نوارين لم تحدث في مصر حثا يذكر ، بل أظهر الولى في هذه المحنة تجلا وسمو نفس عظيمين فكان في أثناء قراءة التقرير الطويل الذى بعث به اليه ابنه يتوقف و يقول في صوت مسموع ” لقد أخبرتهم بهذه النتائج “ . ولا غرو فان الخبر لم ينجح مفاجئا لمحمد على إذ كان قبل ذلك بأشهر مشغولا بعمل الترتيب اللازم ” لإرجاع حملته سالمة “ . ولما أشار القنصل البريطانى باركر (Barker) من طرف خفى الى أن الترك هم الذين أطلقوا القنبلة الأولى قال محمد على : ” كلا كلا ! إن الموقعة كان لا بد أن تحدث “ وأصر على أننا نحن المعتدون ؛ وأكد أن تحطيم الأسطول بأجمعه لا يؤثر في حال الأوروبيين المقيمين في تركيا . واستهجن القول بأن السلطان سيأمر بذبح الأوروبيين المقيمين ببلاده مؤكدا : ” أن مثل هذا المسلك

(١) يقصد الأوروبيين عامة والبريطانيين خاصة .

يخالف مبادئ الدين الإسلامى على خط مستقيم ، وأن السلطان لو ارتكب مثل هذا العمل فإنه لا يعدّه مسلما ، بل يعتبره كافرا ” .

وتحقق ما تنبأ به محمد على من أن السلطان لن يفكر فى مذنبه عامة ، بل على العكس بقى هادئا وطلب تعويضا واعتذارا وألح على السفراء بالبقاء فى عاصمته ، إلا أنهم حين رأوا أن الباب العالى ما يزال مصرا على موقفه غادروا القسطنطينية بغير جوازات سفر .

ولما أحس السلطان بأن الحرب آتية لا ريب فيها عرض على محمد على أن يمنحه ولايات سوريا الثلاث ثمنا لمساهمته فى حالة نشوب حرب مع الفرنج . ومع أن الوالى لم يكن يخطر بباله يومذاك أن يفكر فى الاستقلال فإنه اقتنع اقتناعا تاما بأنه قد أدى واجبه نحو السلطان ، وضحى فى هذه السبيل بأسطوله وجزء من جيشه وأنفق فى ذلك أموالا طائلة ، وأدرك بثاقب فكره أن المضى فى معاونته للسلطان لم يعد من المستطاع أن يؤدى إلى إخضاع اليونان ، ولا أن ينجى الدولة العثمانية من الإذعان لأمر أوروبا . وعلى أساس هذا التفكير السليم استقرّ عزيمته على استنقاذ مصر من شرك السياسة الأوروبية وتجنّبها التورط فى خطة العناد التى اندفع فيها محمود الثانى على غير بصيرة بعاقبة الأمور .

ومن ثم شرع يتقرب أنسب الظروف وأشرف الوسائل التى تمكن لابنه وجيشه وبقية أسطوله من العودة إلى مصر . وحانت له الفرصة حين قزرت إنجلترا وفرنسا والروسيا فى يولييه سنة ١٨٢٨ إبعاد إبراهيم عن المورة وتكليف فرنسا تنفيذ هذا القرار ، فعمد إلى الاتفاق مع الأدميرال كدرنجتن فى أغسطس من تلك السنة على إخلاء المورة وأصدر أمره إلى ابنه بالعودة إلى بلاده .

وبلما إبراهيم بعد العدة لتنفيذ أمر والده إذا بجيش فرنسى قوامه ١٥٠٠٠ جندي ينزل بالمورة بقيادة الجنرال ميزون « Maison » بعد أن أصبح الموقف فى غنى عن تجريد الجيوش ، ولم يبق إلا أن يتآخى القائدان والجيشان . وأبدى زعماء الجيش

الفرنسى فى هذه المناسبة نهاية التعظيم والمجاملة لابراهيم باشا: ومن ذلك أن الجنرال « ميزون » أمر بإجراء عرض حاشد إكراما له ودعاه فى اليوم التالى إلى طعام العشاء . وتتابع حفلات التكريم والولائم للقائد المصرى إلى أن جلا عن المورة فى أكتوبر سنة ١٨٢٨ ؛ وعاد البطل المفدى إلى وطنه . وما أن وقع بصره على والده بين رجال دولته حتى انكب يقبل أطراف الأريكة التى كان محمد على جالسا عليها . فكان هذا اللقاء من أسعد اللحظات فى حياة ذلك المصالح الفذ .

وبعد ، فإن الحملة المصرية إلى بلاد اليونان كانت — على الرغم من الظروف السيئة التى أحاطت بها — مليئة بالأعمال المحيدة التى سجلت لإبراهيم ومحمد على ومصر فخرا أبديا : فقد كان عامة الأوروبيين لا يعرفون هذه الأسماء الثلاثة إلا مقرونة بالتوحش والجهل والتأخر . بغاأت الحملة من أولها إلى آخرها عرضا شائقا لبطولة ابراهيم وعظمة محمد على ونهوض مصر : فإن الأسطول المصرى ما كاد يتصل بالأسطول العثمانى فى بحر الأرخبيل سنة ١٨٢٤ حتى أعجب الناس بحسن سفينه وسرعة سيره وبراعة مناوراته وقرنوا ذلك بارتباك الأساطيل العثمانية وبطء حركتها ، مما مكن اليونان من تحطيم ثلاثة منها ، واضطرار خسرو باشا إلى الفرار أمامهم إلى الدردنيل حتى لم يحمد السلطان بدًا من أن يترك لمحمد على التصرف فى الأسطولين العثمانى والمصرى ، وبينما كان ابراهيم فى مياه جزيرة ساموس ، أطلقت عليه إحدى السفن اليونانية رصاصها فبقى فى مكان الرمان ينظر باسم الثغر إلى الرصاص وهو يقع حوالى قدميه . ولم يمض كثير على نزوله بالمورة حتى كان صوت نفير جيشه يملأ قلوب اليونانيين فرضا ويفترق جموعهم فى أنحاء شتى ، وذلك بعد أن مزقوا أربعة جيوش تركية ، منها جيش من خمسين ألف مقاتل كانت قيادته إلى خورشيد باشا الذى كان يوما من الدهر ينازع محمد على ولاية مصر .

وما أن استولى ابراهيم باشا على المورة حتى أقر بفضل خصمه فى المستقبل محمد رشيد باشا فكاتب إليه : "لقد أفنيت هذا الجنس المحبوت جنس المورالية —

سكان المورة — فسارع بالحضور لتشكل بأولئك الصيادين سكان مدينة مسولونجي ، فانهم أصبحوا من الشياطين بما هم مكبون عليه من عمل السحر . ومن آيات سحرهم أني أقمت أمامهم جبلا يتجاوز علوه ارتفاع أسوارهم فدمروه تدميرا بسحر رجل عندهم اسمه « كوكينس » . ويشغل هؤلاء الكفار كل يوم بترميم أبنيتهم كلما سقطت جدرانها ، ويجرءون على شتمى من أعلى الأبراج . فهل يرضيك أن تركنى هكنا هزأة لهؤلاء الملاحين ولعبة فى أيديهم ؟ إن امتلاك بلاد اليونان كلها يتوقف على أخذ أسوار مسولونجي ، فهل لآليها من غير تأخير” .

وأهم من هذا فى تقدير ابراهيم باشا أن السلطان كان قد كتب إليه خطابا بخط يده يوليه المورة ، ومعه كتاب آخر يطلب إليه فيه المسير الى مسولونجي إذا استنجد به رشيد .

ومن مواقف البطولة التى وقفها ابراهيم أنه حين بلغت إليه معاهدة لندن سنة ١٨٢٧ كان جوابه لأمرء البحر الأوربيين : ” ليس لى أن أعمل إلا بأمر الوالى أو السلطان ؛ ومهما يكن الخطر الذى أصبحت به مهتدا فلن أحيى عن الخطة التى رسمت لى قيد شعرة” . وبقى ابراهيم على هذا التصميم فى أقسى الظروف وأشدّها هولاً الى أن تسلم من والده أمرا بإخلاء المورة .

ولم تكن الشجاعة وثبات الجنان كل ما عرفه الأوربيون من فضائل ابراهيم بل لقد أدركوا منه جانبا آخر ما كانوا يتوقعونه من أهل الشرق فى ذلك العصر ، ذلك هو الجانب الإنسانى ، الذى تجلّى فى مناسبات تفوق الحصر ، نكتفى بذكر بعضها على سبيل المثال ، منها أن أسقف مودون الذى حرّض مواطنيه سنة ١٨٢١ على ذبح جميع مسلمى نوارين بعد أن استسلموا إليهم وقع سنة ١٨٢٥ أسيرا فى يد ابراهيم فاكتفى بإبقائه فى الأسر حقيرا مهينا وأبى أن يأمر بقتله . ولم يكن هذا الحادث فريدا فى بابهِ ، بل كان ابراهيم يعامل اليونانيين عامة بالرفق والإحسان ، وترفّع عن سفك الدماء خارج ميادين القتال ، مقتديا فى ذلك بوالده العظيم فإن محمد على كان فى أثناء حرب اليونان وبعدها يستبق الموظفين

اليونانيين في خدمته ويتجاوز ذلك الى استخدام بعض مهاجريهم ولا يتعترض بسوء للتجار منهم حتى فضل كثير من أسراهم البقاء في مصر على العودة الى وطنهم . ولم يقف إبراهيم في رفقه عند هذا الحد بل تخطاه الى درجة تجعل كثيرا من متحضرى أوربا في عصرنا الخالى ، إذ كان يعنى بالمرضى والجرحى من أعدائه عناية فائقة ويكلف طبيبه الخاص علاج بعضهم . وبلغ من ذلك أنه أحى تقاليد صلاح الدين الأيوبي حين شكت إليه عجوز يونانية فقيرة أن ضابطا مصريا أسر ابنها الوحيد فأعطاهها إبراهيم من المال ما يكفي لاقتداء ابنها وردّ حريته إليه .

وتأصل تقدير البطولة في قلب إبراهيم حتى كان يكبرها في أعدائه : جاءه وهو يحاصر مسئولنجى ضابطان يونانيان ومعهما قسيس يرجونه السماح لهم بمغادرة المدينة بحجة وثوقهم من قرب سقوطها فكان جوابه : ” عودوا بسلاحكم إلى مرا كركم لتخبروا مواطنكم بأنى أحترم من يحمون ذمارهم إلى النهاية “ . ومن هذا القبيل أنه بصر يوما ببعض جنوده يطلقون الرصاص ، في غير معركة ، على ألد خصومه « كولوكترونيس » فزجرهم وناداه : ” سلم نفسك أيها القائد “ . فكان جواب « كولوكترونيس » أن أطلق الرصاص يريد قتل إبراهيم ، ولكنه أخطأ الهدف فأصاب أحد أتباعه .

ولم يغرو بعد هذا أن يشهد له جميع من اتصلوا به من الأوربيين بالشجاعة التي لا يرقى إليها ضرب من ضروب الخوف ، أقزوا له بالعقريّة الحربية وسعة العلم بالسياسة الأوربية ، إلى جانب التفكير العميق والتدبير الحصيف ، والرفق بالخصم المغلوب والعطف على المحتاجين من أعدائه وأسراهم ومساواتهم في توزيع المؤن بجنوده ؛ فكان بذلك مثالا حيا لمحمد على الكبير وعنوانا لما نالته مصر على يديه من النهوض من كبوتها والخروج من ظلمات الفوضى والارتباك إلى نور الاطمئنان والنظام . وهكذا كانت الحملة اليونانية وسيلة لتعريف أهل أوربا بما بلغته مصر يومذاك من رقى مادي ومعنوي وتنبيه أذهانهم الى ما يرجى لها من مستقبل باهر .

فهرس بأهم الأسماء والألفاظ اليونانية الواردة في هذا الفصل
ورسمها بالحروف العربية كما ينطق بها اليونان

| | |
|----------------------|--|
| Adamantios Koraïs | أذمندبوس كورائيس |
| Anatoliko | أناتوليكو ومن معانيها الشرق |
| Argos | أرغوس |
| Armatole | أرماطول ومعناها حامل السلاح |
| Arta | أرتا |
| Botzares | بوتساريس |
| Capodistrias | كاپوذسترياس |
| Condurotti | كندوريوتس |
| Corinth | كورنثوس |
| Daria | ذاريا |
| Demogerontes | ديموجيرنتس ومعناها شيوخ البلدية |
| Dervend | درفند |
| Dikaïos | ديكيوس |
| Gastouni | غستوني |
| George Mavromichalis | غيورغيوس مافروميخاليس |
| Germanos | غرمانوس |
| Hellas | إلاس |
| Hetairia Philiké | إتيريا فيليكي ومعناها "شركة الاحياء" |
| Hospodar | هوسبودار ومعناها حاكم البغدان أو الافلاق |
| Hydra | إذرا |
| Hypsilanti | إبسيلانتس |

| | |
|------------------|-----------------|
| Kalamata | کالاماتا |
| Kanaris | کاناریس |
| Karaiskaki | کارایسکا کس |
| Casos | کاسوس |
| Kleidi | کلیدی |
| Klepht | کلفت |
| Krioneri | کریونیری |
| Kromidi | کرومیدی |
| Kitsos Djavellas | کتسوس دزافیللاس |
| Larissa | لازیسا |
| Maitra | ماینا |
| Maniaki | مانیاکی |
| Makrijanis | ماکریانیس |
| Makriplaye | ماکریپلای |
| Makris | ماکرینس |
| Makrynoros | ماکرینوروس |
| Mavrocordatos | مافروکورداتس |
| Movromichalis | مافرومیخالیس |
| Miaouli | میاولیس |
| Missolonghi | مسولنجی |
| Modon | مودون |
| Nauplia | نافیلیو |
| Navarin | نافارینون |

| | |
|----------------------|----------------------------------|
| Olympus | أوليمپوس |
| Pallicar | باليكار ومعناها بطل |
| Pappadiamandopoulos | پاپاڊيامندوبولوس |
| Pappa Phlessas | پاپافليساس |
| Peta | پيتا |
| Philhellenes | فيلهيلينس ومعناها أصدقاء اليونان |
| Piana | پيانا |
| Pindus | پندوس |
| Proestes | بروستس ومعناها رجال بارزون |
| Psara | پسارا |
| Pyrgos | برغوس |
| Rhegas | ريغاس |
| Sachtouris | سختوريس |
| Skourtis | سكورتس |
| Souli | سولى |
| Spezzia | سپتس |
| Sphacteria | سفكتريا |
| Theodore Koloktrones | ثيوذوروس كولوكوترونيس |
| Thucydides | ثوكيڊيڊس |
| Tombazes | تومبازيس |
| Tricoupi | تريكوپس |
| Tsamados | تسامادوس |
| Vasiladi | فاسيلاڊى |

| | |
|-----------|------------|
| Vervena | ۋرۋېنا |
| Volo | ۋولوس |
| Zaimis | زاييميس |
| Zerekovia | تسېروكوۋيا |
| Zygos | زېفوس |

جهود ابراهيم باشا في خدمة الزراعة والصناعة والتجارة

للدكتور أحمد أحمد الختة

اشتهر ابراهيم باشا ببطولته وكفايته الحربية في ميادين القتال ببلاد العرب والسودان واليونان والشام والأناضول ، فذاع صيته في الشرق والغرب حتى أن شهرته الحربية حجت لدرجة ما النواحي الأخرى من مواهبه، فلم يعرفه بعض الناس إلا قائدا ماهرا وبطلا فذا، قاد الجيش المصرى في ميادين النصر .

حقيقة كان ابراهيم باشا قائدا مظفرا، امتاز بالشجاعة وحب النظام، ولكن عظمته لم تقتصر على الناحية الحربية فقط، إذ تجلت جهوده الاقتصادية في مصر والشام وبلاد العرب، وظهرت كفايته الإدارية في حكم الشام، وفي المهام الإدارية^(١) التي تولاهها في مصر .

(١) في سنة ١٨٠٧ عين ابراهيم دفتردارا أى مفتشا عاما للحسابات فأدى عمله بمجدارة خليقة بالإعجاب ، وفي سنة ١٨٠٩ عين حاكما على الصعيد علاوة على منصبه الأول فنجح في إدارته ، وفي سنة ١٨٢٩ تألف مجلس المشورة برئاسة ابراهيم باشا للبحث في مسائل الادارة والتعليم والأشغال العمومية والقضاء ، وفي نفس السنة كان ابراهيم باشا على رأس الادارة المدنية والعسكرية ، لا يمل من التفتيش على أعمال تلك الادارة ، وقد اضطلع بقسط وافر من إصلاح الحالة الإدارية بمديرية الشرقية مما جعل والده يصرح بأن ابراهيم قد حمل عنه عبئا ثقيلا ، وفي يناير سنة ١٨٤٧ تألف المجلس الخصوصى برئاسة ابراهيم باشا للاظر في شؤون الحكومة الكبرى وسنّ اللوائح والقوانين وإصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة ، وفي ابريل سنة ١٨٤٨ تولى ابراهيم باشا حكم مصر ، واستمر واليا حتى وفاته في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨

Cattaui: Le Règne de Mohamed Ali, T. I, p. 355. — Crabitès
Ibrahim of Egypt , pp. 5-7, 122-123.

عبد الرحمن الرافى : تاريخ الحركة القومية (الطبعة الأولى) ج ٣ ص ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦ ،

وجهود ابراهيم باشا الاقتصادية في مصر معظمها في الزراعة ، فقد كان شديد العناية بها شعاره فيها كلمة مأثورة عن مراد بك زعيم المماليك وهى : ” إذا طلبت الذهب في مصر فانبش أرضها“ ^(١) ، ويقترها مون أن ” ابراهيم باشا ينكب على الاقتصاد الزراعى ، ويعكف عليه بسرور ، ويمكن القول قطعا بأنه يحب الزراعة“ ^(٢) ولا غرابة في ذلك ، فقد لمس ابراهيم باشا بنفسه — وهو لا يزال في مقتبل العمر — أهمية الزراعة المصرية في الحياة الاقتصادية عندما كان .«دفتدارا» ثم حاكما على الصعيد .

وقد اهتم ابراهيم باشا بعوامل الإنتاج الزراعى : وهى الأرض والعمل ورأس المال ، والمقصود بالأرض تلك العناصر التى يقدمها الينا الوسط الذى نعيش فيه من أرض وماء وهواء وضوء وحرارة ، ويقصد بالعمل كل مجهود اقتصادى للانسان سواء كان باليد أو العقل ، أما رأس المال فهو كل ثروة سابقة ما عدا الأرض يعتمد عليها الانسان فى إنتاج ثروة أخرى .

ففى العامل الأول ساهم ابراهيم باشا فى الانقلاب الذى أحدثه والده فى حياة الأراضى الزراعية ، إذ قام بتنفيذه فى الصعيد ، وذلك أن محمد على أخذ فى تغيير نظام الحياة حتى أصبحت الأراضى الزراعية فى يده ، واستطاع بذلك تنفيذ نظامه الاقتصادى ، ولا شك فى أن رغبته فى زيادة موارده المالية وفى بسط نفوذ الحكومة كانت من أهم أسباب ذلك الانقلاب إذ كان فى احتياج دائم الى المال منذ توليته ، فلما وجد أن نظام الالتزام حجر عثرة فى طريقه ، وأن أراضى الرزق معفاة من الضرائب صمم على فك الالتزام ووضع يده على الرزق حتى

(١) ادوارد جوان : مصر فى القرن التاسع عشر (ترجمة) ص ٧٩٠

(٢) Hamont: L'Egypte sous Méhémet Ali (Paris, 1843), T. I, p.186.

تزداد موارده المالية ويتمكن من تنفيذ إصلاحاته وتقوية نفوذه وبسط سلطته
ومحاربة أعدائه^(١).

ساهم إبراهيم باشا في ذلك الانقلاب باستيلائه في سنة ١٨١٢ — بناء على
أمر والده — على معظم أراضى الالتزام في الصعيد ، وبخاصة حصص الالتزام
التي كانت في حوزة الممالك والتي استولوا على بعضها بعد نزوحهم الى الصعيد ،
وبذلك لم يبق من أراضى الالتزام بالوجه القبلى إلا التزر اليسير^(٢).

وفي نفس السنة أمر محمد علي ابنه إبراهيم بالاستيلاء على أطيان الرزق المرصدة
على المساجد والخيرات بالصعيد فنفذ الأمر ومسح الأراضى ، ولم تنته السنة التالية
إلا وكان إبراهيم قد أخذ للحكومة معظم أطيان الرزق بالصعيد المرصدة على المساجد
وعلى الأهالى والخيرات وعلى البر والصدقة^(٣).

كذلك استولى إبراهيم باشا على ما فى الصعيد من الأطيان الأميرية المعروفة
باسم اطلاق ، والتي كانت معدة لتموين خيل البكوات الممالك بالعلف ، وذلك
بعد القضاء على سلطة الممالك في سنة ١٨١١^(٤).

(١) الجبرق : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ٤ ص ١٩٦ (حوادث سنة ١٢٢٨)
نظام الالتزام هو أن يلتزم شخص ما للحكومة بدفع ضرائب الأطيان على أن يترك أرض الفلاحة
للفلاحين يزعمونها نظير دفع الضرائب عنها له ويستولى على أرض الوسية يستغلها لحسابه الخاص .
أطيان الرزق بعضها ملك ينتقل بالميراث ويتصرف فيه أصحابه كيفما شاءوا وأكثرها أوقاف أهلية
وأوقاف على مكة والمدينة وعلى المساجد والأضرحة ، وعلى أعمال البر والصدقة والإحسان من مستشفيات
وأربطة (تكايا) وسبل لسقى الناس وأحواض لسقى الدواب ومقارئ لتلاوة القرآن وبعض طلبة العلم والفقراء .
(٢) الجبرق ج ٤ ص ١٦٤ (حوادث سنة ١٢٢٧) Reybaud et autres : Histoire
de l'Expédition Française. Vol. 9. p. 407.

(٣) الجبرق ج ٤ ص ١٦٤ و ١٩٦ (حوادث سنة ١٢٢٧ وسنة ١٢٢٨) .

(٤) الجبرق ج ٤ ص ١٩٦ (حوادث سنة ١٢٢٨) Estève : Mémoire sur les
Finances de l'Egypte. (Description de l'Egypte, T. 12. p. 51) —
Reybaud et autres : Op. cit. Vol. 9. p. 407.

وفي سنة ١٨١٣ عين ابراهيم مأمورا لمساحة القطر المصري وشرع المساحون في العمل بمباشرة محمود بك الدويدار والمعلم غالى وفي مايو سنة ١٨١٤ ظهرت نتيجة المساحة بعد صدور الأمر في فبراير من تلك السنة بفك الالتزام^(١) فكانت تلك المساحة ناسخة لنظام حيازة الأقطان الذى كان قائما في مصر من قبل ونهاية لذلك الانقلاب الذى قام به محمد على منذ سنة ١٨٠٨ .

وتبعا لتلك المساحة التى كانت تحت إمرة ابراهيم أخذت الحكومة ما زاد في قياس أقطان الالتزام سواء كان من أرض الفلاحة أو أرض الوسية وأعطت الملتزمين إيرادا سنويا يعرف باسم الفايز يستمر طول حياتهم تعويضا لهم عن أخذ حصص التزامهم كما منحتهم أقطان الوسية طول حياتهم إن شاءوا زرعوها وإن شاءوا أبحروها وأعفت تلك الأقطان من الضرائب ومنحت أصحابها حق التنازل والهبة وصرحت لهم ببيعها للحكومة فقط^(٢) .

وبذلك تم استيلاء محمد على على أراضى الالتزام ولم يخرج عمله هذا عن الأشياء المشروعة حيث كانت ملكية الأرض للحاكم ولم يكن الملتزمون مالكيين الأرض بل وساطة بين الحكومة والفلاح لجمع الضرائب وكان رفع أيديهم عن التصرف مدعاة إلى تحصيل الضرائب على الوجه الأكمل وإخراجا للفلاح مما كان فيه من ظلم بعض الملتزمين الأقوياء وجشعهم ولقد شعر الفلاحون أنفسهم بهذا

(١) أمين سائى : تقويم النيل ج ٢ ص ٢٤٤ — الجبرقى ج ٤ ص ٢١٧ و ٢١٩ و ٢٢٢ و ٢٢٥ (حوادث صفر و ربيع الأول و ربيع الثانى و جمادى الأولى و رجب سنة ١٢٢٩) .

(٢) دفتر مجموع ترتيبات ووظائف ص ٢٥٣ (إفادة من الروزنامة الى مجلس الأحكام فى ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٨٠) — الجبرقى ج ٤ ص ٢٢٣ (حوادث جمادى الأولى سنة ١٢٢٩) .

الانقلاب فبعد أن كانوا مع الملتزمين أذل من العبيد صاروا يواجهونهم بقولهم: "أتم إيش بقالكم في البلاد قد انقضت أيامكم إحنا صرنا فلاحين الباشا".

هذا هو موقف الفلاحين الذين لم يقوموا بأية حركة ضد الانقلاب بل قبلوه بقبول حسن نظرا لخروجهم من حالة الذل والظلم فقد "كانوا مع الملتزمين أذل من العبيد المشتري فربما أن العبد يهرب من سيده إذا كلفه فوق طاقته أو أهانه بالضرب وأما الفلاح فلا يمكنه ولا يسهل به أن يترك وطنه وأولاده وعياله ويهرب وإذا هرب إلى بلدة أخرى واستعلم أستاذه مكانه أحضره قهرا وازداد ذلا ومقتا وإهانة وكان من طرائفهم أنه إذا آن وقت الحصاد والتخضير طلب الملتزم أوقائم مقامه الفلاحين فينادى عليهم الغفير أمس اليوم المطلوبين في صبحه بالتبكير إلى شغل الملتزم فن تخلف لعذر أحضره الغفير أو المشد وصحبه من شنبه وأشبعه سببا وشتما وضربا وهو المسمى عندهم بالعونة والسخرة واعتادوا على ذلك بل يرونه من اللازم الواجب وهذا خلاف ما يلقونه من الإذلال والتحكم من مشايخهم والشاهد والنصراني الصراف وهو العمدة والعهدة بخصوصا عند قبض المال فيغالطهم وينتاكرهم ويهم له أطوع من أستاذهم وأمره نافذ فيهم فبأمر قائم مقام بحس من شاء أو ضربه محتجا عليهم ببواق لا يدفعها وإذا خلق أحدهم ما عليه من المال الذي وجب عليه في قائمة المصروف وطلب من المعلم ورده وهي ورقة الغلاق وعده لوقت آخر حتى يحتر حساباه فلا يقدر الفلاح على مرادته خوفا منه فإذا سأله من بعد ذلك قال له بقى عليك حبتان من فدان أو خربتان أو نحو ذلك ولا يعطيه ورقة الغلاق حتى يستوفى منه قدر المال أو يصانعه بالهدية والرشوة وغير ذلك أمور وأحكام خارجة عن إدراك البهيمة فضلا عن البشرية كالشكاوى ونحوها وذلك كما إذا تشاجر أحدهم مع آخر على أمر جزئى بادر أحدهم بالحضور إلى الملتزم وتمثل بين يديه قائلا أشكو اليك فلانا بمائة ريال مثلا فبمجرد قوله ذلك

يأمر بكتابة ورقة خطابا إلى قائممقام أو المشايخ باحضار ذلك الرجل المشتكى واستخلاص القدر الذى ذكره الشاكي قليلا أو كثيرا أو حبسه وضربه حتى يدفع ذلك القدر ويرسل الورقة مع بعض أتباعه ويكتب بها مشها كراء طريقه قليلا أو كثيرا ويسمونه حق الطريق فعند وصوله أول شيء يطالب به الرجل حق الطريق ثم الشكوى فان بادر ودفعها وإلا حبس أو حضر به المعين الى بيت أستاذه فيوعده الحبس ويعاقبه بالضرب حتى يوفى القدر الذى تلفظ به الشاكي وإن تأخر عن حضوره أو حضور المعين أردفه بأخر وحق طريق الآخر كذلك ويسمونها الاستعجاله وغير ذلك أحكام وأمور غير معقولة المعنى قد ربوا عليها واعتادوها لا يرون فيها بأسا ولا عيبا ... وكذلك أشياخهم إذا لم يكن الملتزم ظالما يتمكنون هم أيضا من ظلم فلاحهم لأنهم لم يحصل لهم رواج إلا بطلب الملتزم الزيادة والمغارم فيأخذون لأنفسهم فى ضمنها ما أحبوا وربما وزعوا خراج أطيانهم وزراعاتهم على الفلاحين . وقد انخرم هذا الترتيب بما حدث فى هذه الدولة من قياس الأراضى والقدن^(١) .

وقد أخذت الحكومة أيضا فى مساحة ١٨١٣ ما ظهر من الزيادة فى أطيان الرزق وقيدت ما بقى منها بعد ذلك باسم واضع اليد على الرزقة وواقفها وزارعها وقررت عليها المال مثل ضريبة البلدة فإن أثبتها صاحبها وكان عنده سند بها تقيده له فى الروزنامة معاشا سنويا يعرف باسم الفايض ومقداره يساوى نصف أجرة رزقه ولا يضاف للحكومة عند وفاة صاحبه وقد أخذ محمد على فى عاتقه الاتفاق على المساجد والخيرات التى من أجلها أرصدت أطيان الرزق^(٢) .

وعلى هذا كان محمد على بمثابة ناظر على أطيان الرزق الموقوفة وهذا مشروع كما أنه نظم أحوال الوقف بما يتفق مع مصلحة الوقف ومصلحة الدولة فأعطى معاشا

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٢١ — ٢٢٢

(٢) دفتر مجموع ترتيبات ووظائف ص ٢٥٢ (إفادة من الروزنامة إلى مجلس الأحكام فى ٢٦

ربيع الأول سنة ١٢٨٠) — الجبرتي ج ٤ ص ٢٢٣ (حوادث جمادى الأول سنة ١٢٢٩) .

من كانت تلك الأقطيان في حوزتهم وأخذ على عاتقه الإتفاق على المساجد والخيريات تنفيذاً لأغراض الوقف وأفاد الحكومة بفرض الأموال الأميرية على تلك الأقطيان وإدارتها من الوجهة الزراعية كبقية أراض القطر وعلى هذا فإن محمد على لم يبلغ أقطيان الأوقاف بل أدخل عليها تعديلات تتفق مع نظامه الاقتصادي .

وتبعاً لمساحة ١٨١٣ وزعت أقطيان كل ناحية بين أهلها القادرين على الزراعة وفرضت عليها الضريبة على حسب جودتها وأعطى مشايخ البلاد جزءاً من الأراضي بنسبة خمسة أفدنة من كل مائة فدان معفى من الضرائب مقابل خدمتهم للحكومة وضيافة الواردين على القرية وعرفت تلك الأقطيان باسم مسموح المشايخ والمصاطب^(١) .

هكذا تم الانقلاب في حياة الأقطيان ذلك الانقلاب الذي ساهم فيه إبراهيم باشا فنفذه في الصعيد حيث كان حاكماً وأشرف على مرحلته الأساسية إذ كان مأموراً لمساحة ١٨١٣

هذا وقد أنعم محمد على على نفسه وعلى أفراد أسرته بأقطيان واسعة من الأبعادية والمعمور رزقة بلا مال صارت ملكاً مطلقاً لهم في فبراير سنة ١٨٤٢ يتصرفون فيها كيف يشاءون على الوجه الشرعى بدون قيد ولا شرط وعرفت تلك الأقطيان باسم الخفالك ونتج عن ذلك إصلاح مقدار كبير من أقطيان الأبعادية وزراعته فزادت بذلك الثروة الزراعية وقد اتسعت مساحة الخفالك بضم مقدار كبير من الأقطيان

(١) دقتر ١٨٨٩ أوامر رقم ١ (أمر في ٢٤ المحرم سنة ١٢٧٤) — دقتر مجموع نظام زراعة ص ١٥٨ (لأخوة ٧ ربيع الأول سنة ١٢٥٣) — دقتر ٧٣٦ ديوان خديوى تركى رقم ١٠٨ (قرار المجلس في ٤ ذى الحجة سنة ١١٤٢) — الجبى ج ٤ ص ٢٢٢ و ٣٣٢ (حوادث جمادى الأولى سنة ١٢٢٩ وحوادث سنة ١٢٣٥) — أرتين : الأحكام المرعية فى شأن الأراضى المصرية (ترجمة)، ص ٤٧

إليها وذلك أن محمد علي أضاف إليها أطيان بعض القرى العاجزة عن دفع ما عليها من الضرائب المتأخرة والمسال وأعفاها من المسال وكانت الروزنامة تعطى صاحب الحقل تقسيطا باسمه يثبت إعطاء الأطيان له رزقة بلا مال^(١).

وتبعاً لذلك امتلك إبراهيم باشا أطيانا واسعة فكانت جفالكة كثيرة العدد^(٢) وبذا ساهم في زيادة الإنتاج الزراعى والثروة القومية.

وقد اعتنى إبراهيم باشا بالري في جفالكة لما له من أهمية كبرى في الإنتاج فأدخل وابور المياه في مصر لرفع الماء اللازم لزراعته ويدار ذلك الوابور بالبخار وقد اقتدى به في ذلك بعض الأغنياء حتى أن كبار الزارعين في الوجه القبلى ممن في حوزتهم أطيان كثيرة استعملوا وابور المياه في زراعتهم حوالى سنة ١٨٥٢^(٤).

هذا ما عمله إبراهيم باشا في العامل الأول للإنتاج وهو الأرض أما في العامل الثانى وهو العمل فقد اهتم منذ البدء بالقائمين به وهم الفلاحون إذ وضع حدا لاستبداد المشايخ في الوجه القبلى عندما كان حاكما عليه وكان هؤلاء المشايخ يسبغون بين الناس بالظلم قضاء لمطامعهم وغاياتهم كما دافع عن حقوق الفلاحين في الصعيد بما أوجب شكرهم له وحبهم إياه^(٥).

(١) تقاسيط الحفالك باسم محمد على وأفراد أسرته بدار المحفوظات العمومية — دفتر ٥٦ معية تركى رقم ٢٨ و ٢٠٠ (أمر فى ٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٤٩ وأمر فى ٢٩ ربيع الأول سنة ١٢٥٠) — دفتر جفالكة نبروه والتجارية وبشيش وطنبارة وبسنديلة بدار المحفوظات العمومية (أمر فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١٢٥٧) — دفتر مجموع ترتيبات ووظائف نص ٢٤٥ و ٢٤٦ (فرمان على فى ٥ المحرم سنة ١٢٥٨).

أطيان الأبعادية هى التى لم تدخل فى مساحة ١٨١٣ لكونها بورا خالية من الزرع إذ ذلك بخلاف المعمور.

Hamont: Op. Cit. T. I, p. 82. (٢)

St. John: Village life in Egypt. Vol. I, p. 62. (٣)

Bellefonds: Mémoires sur les Principaux Travaux D'Utilité (٤)

Publique, p. 548.

(٥) أدوار جوان : مصر فى القرن التاسع عشر (ترجمة) ص ٥٩٣

وعندما كان إبراهيم باشا يزور أوروبا في سنة ١٨٤٥ كتب إلى والده يقول : إن أفضلية الحضارة الأفريقية راجعة إلى أن الطبقات الفقيرة أحسن حالاً ويدل قوله هذا على موقفه من الفلاحين ورغبته في إصلاح حالهم وهم يكتونون معظم الطبقة الفقيرة في مصر .

وفي عهد ولايته على مصر من إبريل سنة ١٨٤٨ إلى ١٠ نوفمبر من نفس السنة قامت الحكومة بحماية الفلاحين من ظلم المتعهدين وذلك أن محمد علي كان قد أنشأ من قبل نظام العهد في بعض القرى التي عليها ضرائب متأخرة تعرف باسم البقايا وبها أطيان متروكة بدون زراعة وتبعاً لذلك النظام كان المتعهد يلتزم للحكومة بدفع ما على القرية من الأموال الأميرية والبقايا ويترك للأهالي أطياناً على حسب قدرتهم يزرعونها ويدفعون له ما يخصها من الأموال والبقايا أما هو فيزرع ما بقي من الأطيان لحسابه الخاص بواسطة الفلاحين غير المقتدرين مقابل إعطائهم أجراً على العمل في زراعته بشرط أن تترك للأهالي أطيانهم تدريجياً كلما تحسنت حالتهم المالية حتى إذا عم التحسن جميع الأهالي أعيدت إليهم أطيانهم نهائياً ، وعلى حسب تقسيم الأطيان بين المتعهد والأهالي في أول الأمر كان كل من الطرفين يزرع أطيانه ويدفع أموالها الأميرية وما يخصها من البقايا فإذا عجز بعض الأهالي عن زراعة أطيانه أو عن دفع ما عليها من ضرائب وبقايا ترك بعضها أو جميعها للمتعهد وكذلك إذا أصبح بعض الأهالي مقتدراً وطلب أطياناً من المتعهد أعطاها له وفي الحالتين يضاف على من يأخذ الأطيان بعد التقسيم الأول ما يخصها من البقايا التي دفعها الطرف الآخر .^(٣)

(١) Paton : A History of the Egyptian Revolution, Vo. II, p. 239.

(٢) دفتر ٨٥ معية تركي رقم ١٧٢ (إرادة إلى مفتش عموم الحسابات المصرية في ٢٢ ذى الحجة

سنة ١٢٥٢) — دفتر ٦ رقم ٧١ (أمر إلى حسن بك مدير القليوبية في ٥ ذى القعدة سنة ١٢٥١) .

(٣) الوقائع المصرية عدد ٢٦ ذى القعدة سنة ١٢٦٤

ولكن بعض المتعهدين ظلم الفلاحين فأعطاهم القمح وغيره من الحبوب مقابل أجرتهم بثن أعلى من سعر السوق وألزمهم شراء القمح التالف بسعر الأردب خمسين أو ستين قرشا مع أنه لا يساوى عشرين قرشا فما كان من حكومة ابراهيم باشا إلا أن أجبرت هؤلاء المتعهدين على دفع الفرق بين السعر الذى أخذ به الفلاح الحبوب والسعر المتداول فى الأسواق عند صرفها له كما قررت أن يكون سعر الحبوب التى تعطى فيما بعد الفلاح نظير أجره موافقا للسعر المتداول فى السوق وقت الصرف^(١).

كذلك وزع بعض المتعهدين البقايا على أطيان الفلاحين ولم يفرضوا على الأطيان التى زرعوها لحسابهم الخاص نصيبها من تلك البقايا فصار الفلاحون بذلك مكلفين بمال أطيانهم وجميع البقايا التى على القرية وفى هذا ظلم للفلاحين ونقض صريح لشروط العهد ولذا تدخلت حكومة ابراهيم باشا لحماية الفلاحين فأمرت المديرين بمراجعة دفاتر هؤلاء المتعهدين وإضافة نصيب أطيانهم من البقايا عليهم مع خصمه مما على الأهالى كما أوجبت على المتعهدين التدقيق فى توزيع البقايا بالتساوى على أطيانهم وأطيان الأهالى على أساس الفدان وحذرتهم من مخالفة ذلك وقررت عقاب من يقترب منهم فيما بعد مثل تلك المظالم فى توزيع البقايا على أطيان القرية^(٢).

كذلك حذى ابراهيم باشا الفلاحين من أنفسهم وذلك أنهم لجأوا إلى تشويه أعضاء أولادهم منعاً لذهابهم إلى الخدمة العسكرية فى الجيش والأسطول وقد سرت تلك الروح فى الشبان حتى تحملوا عن طيب خاطر إتلاف أعضاءهم ما دام ذلك موجبا لبقائهم بين أسرهم بعيدين عن شبح الجنديّة التى لم يتعودوها من قبل ولا شك فى أن إتلاف الأعضاء من سمل الأعين وبتر أصابع الأيدي والأرجل

(١) دفتر مجموع أمور إدارة وإجراءات ص ٨٧ (قرار عليه أمر فى غاية جمادى الآخرة سنة ١٢٦٤)

(٢) الوقائع المصرية عدد ٢٦ ذى القعدة سنة ١٢٦٤ — دفتر مجموع إدارة وإجراءات

ص ٨٧ — ٨٨ (قرار المجلس العمومى وعليه إرادة فى ١٤ ذى القعدة سنة ١٢٦٤).

وإسقاط الأسنان أنقص من كفايتهم في العمل^(١) فأثر ذلك أثرا سيئا في الزراعة ولذا اتخذ محمد على عدة إجراءات ضد إلتلاف الأعضاء حتى أن ذلك العمل قلّ ولكنه لم ينقطع فلما تولى ابراهيم باشا حكم مصر ورأى استمرار قطع أصابع الأيدي قزّر في يونيه سنة ١٨٤٨ نفي من يقطعون أصابع أيديهم مؤبدا الى جبل ددل بالسودان للعمل في أشغال المعدن إن كانوا بالغين فان كانوا دون البلوغ ينفي بدلهم من تسبب من أهاليهم في قطع أصابعهم^(٢).

ورغبة في المحافظة على صحة الفلاحين وغيرهم من المصريين حرّم محمد على زراعة الحشيش في مصر منذ أوائل سنة ١٨٣٨ تبعا لمنع استعماله لما له من آثار سيئة في صحة الأهليين وعلى الرغم من ذلك ومن معاقبة من يتجاسر على زراعته عاود الناس زراعته خفية بعد مدة يسيرة وأخذوا يستعملونه من جديد ولذا اتخذ ابراهيم باشا في يونيه سنة ١٨٤٨ تدابير حاسمة لمنع زراعته وبيعه منعاً باتا وذلك بتشديد الرقابة على زراعته وفرض غرامة على من يزرعه مقدارها خمسمائة قرش تعطى من يخبر عنه فضلا عن قلعها من الأرض^(٣).

هذا وكان الفلاحون في جفالك ابراهيم باشا أحسن حالا من زملائهم في المزارع الأخرى إذ كانت أجرة الواحد منهم ٤٠ بارة يوميا يأخذ منها خبزا كل يوم بمقدار ٣٠ بارة والباقي يأخذه نقدا من وقت لآخر وفي مقدوره تربية بعض الحيوانات.

(١) Bowring: Report on Egypt and Candia, pp. 13, 52, 196.
Lane: An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, p. 177.—Combes: Voyage en Egypte, En Nubie, Vol. I, p. 133.
(٢) دفتر مجموع أوامر جنائية ص ١٩٦ و ٢٠٢ (أمر في ١٣ رجب سنة ١٢٦٤ وإفادة

في ١٨ رجب سنة ١٢٦٤).

(٣) دفتر مجموع نظام زراعة ص ١٦٤ (الى مديري الوجهين البحرى والقبلى في ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٥٣ — قرار المجلس العمومى في ٥ رجب سنة ١٢٦٤) — دفتر ٤٥٢ ج ٤ مائة تركى رقم ٦٦ (الى جيم الجهات في ٢٢ رجب سنة ١٢٦٤).

والدجاج في الوقت الذي كانت فيه أجرة الرجل القوي الماهر في الزراعة تتراوح بين ٢٠ بارة و ٣٠ بارة في الصعيد وبين ٣٠ بارة و ٤٠ بارة في الوجه البحري^(١). وإليك ما جاء في أمر محمد علي إلى مدير النصف الثاني للوجه القبلي : " اطلعت على التقرير المؤرخ في ٩ شوال سنة ١٢٥١ الذي أرسلته ورأيت فيه أنك بحثت مع نظار الأقسام موضوع جلب العمال اللازمين لزراع قصب السكر المرتب زرعهم في أراضي نجلنا باشا السر عسكر الكائنة في مديريتك وأنهم تعهدوا بتقديمهم ورأوا من المناسب ترتيب عشرة قروش شهريا لكل منهم يا محرم أغا إن نجلنا السر عسكر رتب لكل من العمال المستخدمين في أعماله الكائنة في هذه الجهات أجرا يوميا قدره قرش واحد (أربعون بارة) وهذا يدل على أنه لم يطلب إليك أن ترتب لكل منهم عشرة قروش شهريا ويخيّل إلى أن النظار هم الذين ظلموا الأهليين هذا الظلم وأنت أقررتهم عليه لازلفى والتظاهر بالإخلاص"^(٢)

هكذا اهتم ابراهيم باشا بالأرض والعمل أما العامل الثالث للانتاج وهو رأس المال ويشتمل المباني المقامة على الأراضي وما تحتويه من الآلات الزراعية المستعملة في الخدمة والحصاد وآلات الري وحيوانات الزراعة والبذور والسماذ^(٣) فقد اهتم به أيضا ابراهيم باشا إذ أدخل في جفالكه كثيرا من الآلات الزراعية

(١) Gliddon : A Memoir on the Cotton of Egypt, P. 26. —

Hamont : Op. cit., T. I., p. 77.

القرش = ٤٠ بارة .

(٢) دفتر ٦٣ معية تركي رقم ٣٢٦ (من إيجناب العالي إلى مدير النصف الثاني للوجه القبلي في ١٨ شوال سنة ١٢٥١) — تمتد مديرية النصف الثاني للوجه القبلي من وادي حلفا إلى فرشوط .

(٣) جيد : مبادئ الاقتصاد السياسي ص ١٠٥ — ١١٢ ، ١٠٨

Carver: Principles of Rural Economics, pp. 204 — 207, 211 — Rew:
A Prime of Agricultural Economics, pp. 64, 66, 73.

الحديثة التي كان الأهليون يجهلون حتى ذلك الوقت وأدخل من آلات الري وابور المياه الذي يدار بالبخار كما كانت الحيوانات الزراعية في جبالكة قوية معتنى بها^(٢). هذه هي جهود ابراهيم باشا في عوامل الإنتاج الزراعي أما في الثروة النباتية فقد بذل جهودا مجسدة أفادت الزراعة المصرية فائدة جليلة فقد ساهم مساهمة قيمة في أقلمة النباتات إذ أنشأ بجزيرة الروضة حديقة من قسمين أحدهما على النسق الإنجليزي والآخر على النمط الفرنسي ووكّل أمرهما إلى اثنين من مهرة الإخصائين في فلاحه البساتين هما: (تريل) الإنجليزي و(نقولا بوفيه) البلجيكي وجمع في الحديقة أغلب النباتات الأوربية والأمريكية والهندية وبذلك أصبحت الحديقة بقعة لأقلمة النباتات وإجراء التجارب الزراعية وإليك ما قاله هامون في صدد ذلك : ”أشار بعض المؤلفين إلى النباتات الأجنبية التي جلبها ابن محمد على إلى أرضه بجزيرة الروضة فهذه النباتات عددها كبير جدا وحديقة الأقلمة يمكن ذكرها كواحدة من أحسن الحدائق الموجودة ... وقد جلب ابراهيم باشا إلى مصر النباتات الثمينة في العالم المعروف وفي الهند خاصة“ ويقتر بورنج أن ”حديقة ابراهيم باشا بجزيرة الروضة إحدى الحدائق المغربية ... وقد أجريت في هذه الحديقة تجارب كثيرة مفيدة جدا ومهمة“^(٦).

وقد تقدّمت فلاحه البساتين في مصر في ذلك العهد ودخلت في الحدائق المصرية أشجار ونباتات أجنبية كثيرة من جهات مختلفة وكان لإبراهيم باشا يد طولى

(١) Hamont: Op. cit. T. II, p. 305.

(٢) راجع ما ذكره أثناء الكلام على الأرض .

(٣) Hamont: Op. cit., T. I, p. 77.

(٤) كلوت : لمحة عامة إلى مصر (ترجمة) ج ١ ص ٢٤٣ — دلشيفارلى : حدائق القاهرة

ومتنزهاتها (ترجمة) ص ص ٦٦ و ٥٩ و ٩٥ . Bowring: Op. cit. p. 26.

(٥) Hamont: Op. cit., T. I, p. 186.

(٦) Bowring: Op. cit., p. 26.

(٧) تريل (Traill) — نقولا بوفيه (Nicolas Bové) .

في هذا التقدّم فقد طلب من حديقة النباتات بباريس أن ترسل إليه إخصائيا في فلاحه البساتين فأرسلت إليه (نقولاً بوفيه) البلجيكي سنة ١٨٢٥ فأنشأ لإبراهيم باشا حديقة عظيمة لأقلمة النباتات الأجنبية في جزيرة الروضة وأدخل في أطيان إبراهيم باشا بجزيرة الروضة عددا كبيرا من الأشجار النافعة من الهند وبلاد العرب وقد سافر في ديسمبر سنة ١٨٣٠ إلى بلاد العرب لحلب نباتي الكاد (الشاي) والبن ورجع من رحلته هذه في يونيو سنة ١٨٣١ ثم سافر ثانية في أبريل من السنة نفسها إلى بلاد العرب والشام للبحث عن نباتات جديدة لإدخالها في حدائق إبراهيم باشا ورجع إلى القاهرة سنة ١٨٣٢^(١)

وأیضا أرسل إبراهيم باشا بستانيه إلى بلاد الهند للبحث عن نباتات نافعة للزخرفة والزينة وقد زرع معظمها في حدائق إبراهيم باشا بالمنيل وجزيرة الروضة ومصر القديمة وبحديقة الوالی بشبرا وحديقة القبة وحديقة سليمان باشا وحدائق أخرى كثيرة بالقاهرة والإسكندرية^(٢).

وكذلك أرسل إبراهيم باشا إلى جزيرة جميعا عمر أفندي الإخصائي في صناعة السكر بعد رجوعه من بعثته في أوروبا فأحضر منها نوعا من القصب الأحمر^(٣).

ومن أهم النباتات الأجنبية العظيمة القيمة التي أدخلها إبراهيم باشا في حدائقه الجوافة والبن وشجرة التيك والبياز والقشطة وشجرة الصمغ المرن وشجرة كف مريم

(١) دلشيفالي : حدائق القاهرة ومتنزهاتها ص ٥٨ — ٦٠ ، ٦٦ ، ٩٥

Delchevalerie : Calendrier Egyptien, p. 33.

Delchevalerie : Flore Exotique de Jardin d'acclimatation de (٢)

Ghézireh et des Domaines de S. A. le Khédive, pp.14—15.

(٣) محفظة ٧٧٩ ديوان خديوي تركي (من الديوان الخديوي إلى سامي بك في ٢٩ ربيع الأول

سنة ١٢٤٨) — Mazuel : Le Sucre en Egypte, p. 33.

وأم ألف ورقة والزنجبيل والصنوبر الهندى وشجرة كايوت والخيزران والمانجو وجوز الهند والفلل الأسود والقرفة والشاى^(١) وشجرة الأبنوس وشجر البقم الهندى^(٢) .

وقد ذكر دلتشيفالزى النباتات الأجنبية التى أدخلها ابراهيم باشا فى حديقته بجزيرة الروضة فنجحت زراعتها واستمرت نامية حتى رآها بنفسه عند ما كان فى خدمة الخديو اسماعيل فيما بين سنتى ١٨٦٨ و ١٨٧٨ وها نحن نلخصها فيما يلى :

١ — أشجار الأخشاب :

أبنوس الحبش وأبنوس الهند وخشب السرسوع من الهند وخشب المهجنو من سان دمنج وخشب الصندل الأبيض من الهند الشرقية والخشب الأملس من جزيرة موريس وخشب بليساندر من الهند والخشب الوردى من أمريكا الجنوبية وخشب التونة من الينبول بالهند وخشب سندروس من أمريكا الجنوبية وخشب الكايل من أمريكا الجنوبية وخشب مورايا ايكزوتيك من الصين وخشب الامايريس جونا نسيس من الجويانة وخشب الزيتون من جزيرة موريس وخشب الصندل من جزيرة بوربون وخشب البقم من الهند الشرقية وشجرة تين الوثنيين المعروفة بين العامة بالجيزالافرنكى من الهند وشجرة التيك الهندية من الهند .

٢ — أشجار الفاكهة :

المانجو من الهند واللوز الهندى من الهند الشرقية والبكان من أمريكا والتمر الهندى من الهند والكوكا من السنغال والتبلدى من السودان والكاكى من اليابان والجوافة والقشطة والجمبوزا .

(١) أدخلت هذه النباتات الأجنبية فى حدائق ابراهيم باشا منذ نشأتها سنة ١٨٣٠ الى أوائل

سنة ١٨٣٨ Delchevalerie : Calendrier — 26 — 27 — Bowring : Op. cit, pp.

Egyptien, P. 33.

(٢) فيجرى : حسن البراعة فى علم الزراعة ج ٢ ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٣

٣ - أشجار الزينة :

(١) من الهند : شجرة تفاح الفيل والازاد رخت وميليا سمنر فيرنس واليسار
وشجرة الجناجل وخف الجمل وشجرة المرجان الهندية .

(ب) من أمريكا الجنوبية : بيجونيا سيسيزوزا والجهنمية وودن الفيل
ودورانتا بلوميراى وبنت القنصل الحمراء والبيضاء وفلفل
أبو ورق رفيع .

(ج) من اليابان والصين : الباسقة والغاب الافرنجى والرابع .

(د) من بلاد أخرى : نخل الرخام الهافانى من جزيرة كوبا واللاتانيا
العادية من جزيرة بوربون والكادى من مدغشقر .

٤ - أشجار أخرى :

الكاد (الشاى) والبن من بلاد العرب ونخلة الدقيق من جزيرة سيلان وشجرة
الدهن اليابانية والبوسيانوس من مدغشقر وشجرة الفيكوس تسيلان من الهند الشرقية
وجزائر الفلبين وشجرة الصمغ المرن والفيكوس أبو لسان من جزيرة جاوه
والفيكوس بوبوليفوليوم من الحبشة والفيكوس لوريفوليوم من أمريكا
الجنوبية^(١) .

هذا ويبين فيجورى فضل ابراهيم باشا ووالده فى أقلمة الأشجار الخشبية الأجنبية
فى مصر حيث يقول : " إن أقليم وادى النيل والدلتا مناسبان لتعود عدّة أشجار
أجنبية يحصل منها الخشب الذى يثبت ذلك ويحققه التجارب التى فعلت فى شأن
ذلك جملة سنوات ببستان شبرا والمنيل ومصر العتيقة وأثرالنبي وكاف الاسكندرية
أيام جنتمكان الحاج محمد على باشا ونجمله جنتمكان ابراهيم باشا والى الآن يوجد

(١) دلشيقالى : حدائق القاهرة ومنزهاتها ص ٥٣ - ٦٩

باليساتين المذكورة عدّة أشجار منها نجحت وتكاثرت بالزور أو العقل المتحصلة منها وهذا يؤيد أنها تعودت على أهوية هذا القطر^(١) .

ومن سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٨ غرس ابراهيم باشا في الحدائق والحقول كثيرا من الأشجار الأجنبية من توت وزيتون وبرتقال وأنواع أخرى فنجحت زراعتها وتأقلمت ومن بين تلك الأشجار التوت الأبيض المجلوب من الصين والتوت المنسوب الى الفلين وكذلك البرتقال الدموي وهو نوع نادر إذ ذاك لون لحمه في حمرة الدم وكان في حدائق ابراهيم باشا مثل نظيره في مالطة والبرتغال^(٢) .

وقد أدخل ابراهيم باشا ووالده في مصر زراعة أنواع العنب المعروفة في أوربا وبلاد اليونان فنجحت بأجمعها تقريبا نجاحا باهرا واستخرج منها الأوربيون نبيذا جيد النوع فالنبيذ الأبيض كان مشابها لنبيذ مرسالا يجزيرة صقلية والنبيذ الأحمر كان مماثلا لنبيذ اسبانيا^(٣)، وقد زرع ابراهيم باشا أصنافا كثيرة أجنبية من العنب في بساتين المطرية والقبة فتحصل منها عنب جيد استخرج منه نبيذ كالذي يستخرج من هذه الأصناف في بلادها الأصلية^(٤) .

كذلك أدخل ابراهيم باشا زراعة الخضر الأجنبية مثل الهليون والشليك والبطاطا والبطاطس^(٥) .

(١) فيجري ج ٢ ص ٩٦ — جاء فيجري الى مصر حوالي سنة ١٨٢٧ وكان أستاذ علم النبات بمدرسة الطب في عهد محمد علي ثم رئيس الصيادلة في عهد اسماعيل وألف كتابه هذا في أوائل عهد اسماعيل .
(٢) فيجري ج ٢ ص ١٦ ، ١٧ ، ١٤٤ — كلوت ج ١ ص ٢٧٠ Delchevalerie :
Aperçu Général sur les Vegetaux, Exotiques Naturalisés en Egypte, pp. 2, 13, 14, 53.

(٣) كلوت ج ١ ص ٢٧٢. Bowring : Op. cit. p. 25.

١٥ (٤) فيجري ج ٢ ص ١٢٢

(٥) كرتوا جبرار : الروضة البهية في زراعة الخضراوات المصرية (ترجمة) ص ٥

وبالاختصار أدخل إبراهيم باشا في الزراعة المصرية جميع النباتات الأجنبية التي اعتقد أنه من المستطاع نجاحها في مصر من فاكهة وخضر وأشجار نافعة وأشجار للزينة^(١) .

وفضلا عن أقلمة النباتات الأجنبية اهتم إبراهيم باشا بزراعة الحاصلات المصرية حيث كان مزارعا عمليا من الدرجة الأولى فعنى عناية خاصة بزراعة القطن وحسن صفاته كثيرا^(٢) .

كذلك أولى إبراهيم باشا زراعة القصب كثيرا من رعايته فكانت له مزارع من القصب في الصعيد وبخاصة في بلدة الروضة بلغ إنتاج الفدان منها سبعا وعشرين قنطارا ونصف قنطار من السكر فضلا عن العسل والمكسب الصافي من الفدان ٣٣ جنيها استرلينيا^(٣) .

ويلغ من رغبة إبراهيم باشا في توسيع مزارعه من القصب أن طلب من والده أن يمنحه ألف فدان من أطيان الابعادية في مديرية النصف الأول من الوجه القبلي (جرجا وأسيوط) لزراعتها قصبيا لحسابه الخاص فوافق والده على ذلك وأمر بإعطائه ذلك المقدار من الأطيان من أحسن أطيان الابعادية بالبلاد التي عينها في طلبه^(٤) .

كذلك أرسل إبراهيم باشا بعض الأشخاص إلى الوجه القبلي للبحث له — بدلالة أناس من أصحاب الخبرة — عن أطيان تصلح لزراعة القصب^(٥) .

(١) دلشيفالري : حقائق القاهرة ومنتزهاتها ص ٦٧

(٢) Charles — Roux ; La Production du Coton en Egypte, p. 82.

. Crabitès : Ibrahim of Egypt, p. 124.

(٣) Bowring : Op. cit., pp. 21 — 23 — Taylor : Journey to Central

Africa., p. 104.

(٤) دفتر أوامر عربي أمر رقم ٨٣ (أمر إلى مدير نصف أول قبلي حسين أغا في ١٩ شوال سنة ١٢٥٠) .

(٥) دفتر ٦٢ معية تركي رقم ٥٠٩ (من المعية السنية إلى باقي بك في ٩ ذى الحجة سنة ١٢٥٠) .

وقد عمل إبراهيم باشا على تكثير أشجار الزيتون بغرس أشجارا كثيرة منها نجحت نجاحا حسنا وأثمرت ثمارا جيدة^(١) حتى أن فيجى قزر أن "تكاثر شجر الزيتون بالقطر المصرى أحدث فى ولاية جتتمكان الحاج محمد على باشا ونجمله جتتمكان إبراهيم باشا"^(٢).

كذلك أمر إبراهيم باشا بغرس مئات من أشجار خيار شنبر كما زرع آلافا من أشجار اللبخ فى مصر السفلى وغرس^(٤) أشجار التوت فى مئات كثيرة من الأقدنة^(٥).

وقد اهتم إبراهيم باشا بغرس الأشجار سواء كانت من أشجار الغابات أو أشجار الفاكهة وأنفق الأموال الكثيرة على إنشاء المزارع والمغارس فى أرجاء البلاد المصرية بغرس حتى سنة ١٨٣٥ لحسابه الخاص ٥,٠٠١,٥٣٤ شجرة من ٢٥ نوعا من أنواع أشجار الغابات و ٥٨٦,٢١٤ شجرة من ٤١ نوعا من أنواع الفاكهة تنقسم إلى ٧٣٤ صنفا مختلفا^(٦). وكان عدد أنواع الأشجار الخاصة بالقطر المصرى قبل ذلك لا يتجاوز ١٢ نوعا كما كان لا يوجد من الشجيرات التى لا يتجاوز ارتفاعها القدمين سوى ١٨ نوعا وكانت هذه الأشجار والشجيرات بأنواعها المذكورة متفردة على ضفاف النيل أو مبعثرة هنا وهناك حول السواقي^(٧).

وفضلا عن أقلمة النباتات الأجنبية والعناية بزراعة الحاصلات المصرية اهتم إبراهيم باشا بالدعاية الزراعية فى مدة ولايته على مصر فقد رأى أن ينشئ صحيفة

(١) Bowring: Op. cit., p. 24.

(٢) فيجى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٣) Crabitès: Op. cit., p. 124. — شجرة خيار شنبر من النباتات الطبية وتستعمل

ثمارها فى الشئون الطبية .

(٤) دلشيفارى : حدائق القاهرة ومتنزهاتها ص ٩٣ .

(٥) Bowring: Op. cit., p. 21.

(٦) Marmont: Voyage du Maréchal duc de Raguse, T. 3. p. 349.

(٧) كلوت ج ١ ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

أسبوعية باللغة العربية تشتمل على أخبار التجارة والزراعة والإعلانات الملكية تنشر على جميع البلاد والقرى زيادة على الوقائع المصرية ليعلم أرباب التجارة والزراعة منها رواجها وبحسنتها وقد عملت لأئحة ببيان الإفادات والكشوف والإعلانات الواجب إرسالها في كل أسبوع إلى ديوان المدارس بالأخبار المذكورة وحررت أول نسخة من هذه الصحيفة وطبعت ونشرت على المديرية في الأسبوع الأول من ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٤٨ م)^(١) ولا نعلم من أمر تلك الصحيفة شيئا بعد ذلك ولعلها ألغيت بعد وفاة منشئها في الأسبوع التالي لصودورها ولا شك في أن تلك الصحيفة لو قيص لها الاستمرار لأدت خدمات جليلة للزراعة والتجارة .

هكذا كانت جهود إبراهيم باشا في الثروة النباتية أما في الثروة الحيوانية فقد ساهم أيضا في تقدمها وزيادتها وذلك أنه عندما فتح بلاد العرب أخذت مصر تجلب منها الخيل النجدية وهي أولى أنواع الخيل وأجملها وأسرعها فاتخذ منها المصريون والأتراك في مصر فحولا للزور على أفراسهم إذ أن الفحل النجدى ينجب نتاجا ممتازا كما استخدمها الوجهاء والأعيان للركوب أو للإنتاج والتناسل^(٢) .

كذلك عندما فتح إبراهيم باشا الشام أرسل منها بعض مئات من الأفراس إلى قرى الوجهين البحرى والقبلى فأعطيت للأتراك لتربيتها من أجل التناسل وتكاثر النوع^(٣)، والخيل الشامية عدة أنواع أحسنها العنيزى نسبة إلى قبيلة عنيزة وله مكانة عظيمة ويعتبره الشرقيون والأوربيون أول خيول العالم بعد النجدى ولذا استخدم في مصر لركوب العظاء أو للإنتاج وفى كلتا الحالتين كان مفيدا جدا وقد تفوق الحصان العنيزى على الحصان المصرى تفوقا عظيما كما أن نتاجه كانت له قيمة كبيرة^(٤) .

(١) الوقائع المصرية عدد ١٢ ذى القعدة سنة ١٢٦٤ وعدد ٣ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ .

(٢) Hamont: Op. cit., T. I, pp. 529, 531 — 536. (٢)

(٣) Hamont: Op. cit. T. II. p. 237. (٣)

(٤) Hamont: Op. cit. T. I, pp. 529 — 531. (٤)

وقد أنشأ إبراهيم باشا اصطبلًا لتربية الخيل لحسابه الخاص يقع على ضفاف النيل بالقرب من قصره عند القصر العيني وكان به ٤٠٠ رأس من الخيول منها بعض الأفراس والفحول المصرية وكثير من الفحول العنيزية التي تلى النجدية في المرتبة أما أكثر الأفراس والفحول فنجدية أخذها إبراهيم باشا من بلاد العرب عندما فتحها، وكان الاصطبل في أول الأمر على النظام المتبع إذ ذاك في مصر فلما وقف إبراهيم باشا على حالة اصطبل شبرا الحديد الذي أنشأه والده حوالى سنة ١٨٣٧ بإشراف (هامون) ناظر مدرسة الطب البيطرى استشار (هامون) فقدم هذا إليه تقريرًا بالإصلاحات اللازمة غير أن إبراهيم باشا ترك له الحرية في العمل كما يرى فقام بالإصلاحات بمساعدة رجل فرنسى في خدمة إبراهيم باشا فعدلت أحوال الاصطبل ونظامه وأنشئت حظائر يطلق فيها سراح الأمهار أثناء النهار وأعطيت إدارة الاصطبل لطبيب بيطرى مصرى يراقبه (هامون) ^(١).

وقد اعتنى إبراهيم باشا بالحيوانات الزراعية في جفالكة فكانت قوية كما خصص بعض الأبقار والجاموس في عزبه للذبح لاستهلاك الأوربيين في القاهرة. ^(٢)

كذلك ساهم إبراهيم باشا في تربية دود القز فغرس أشجار التوت في مئات كثيرة من الأفدنة لتوفير الطعام اللازم للدود ^(٣) وكانت مصر تزرع التوت البلدى والشامى من قبل بخلبت نوعين آخرين هما التوت الأبيض من الصين والتوت المنسوب إلى الفلپين والنوع الأخير أوراقه كبيرة محدبة مدورة تنبت قبل أوراق التوت المعتاد وتستعمل غذاء لدود القز الصغير الذى يخرج من بيضه قبل الأوان وفيما بعد تصير هذه الأوراق يابسة فتستعمل غذاء للحيوانات الكبيرة وبخاصة الخيل والضأن والمعز

Hamont: Op. cit., T. I, 530, T. II, pp. 234, 236. (١)

Hamont: Op. cit., T. I, pp. 77, 336. (٢)

Bowring: Op. cit., p. 21. (٣)

وقد عرف هذا النوع من التوت في مصر باسم البكيروقد زرعه إبراهيم باشا كما زرع التوت المحبوب من الصين فضلا عن التوت البلدى والتوت الشامى^(١) .

كذلك حاول إبراهيم باشا أقلمة دودة الصباغة فزرع في بستان المنيل النبات الذى تعيش عليه وهو نوع أجنبي من التين الشوكى وجلب حشرات تلك الدودة فتكاثرت تكاثرا عظيما على نحو أربعة أشجار من التين الشوكى الخاص بتربية هذه الحشرات لكن هذه الأشجار اختنقت وماتت بسبب تراكم هذه الحشرات عليها وبذا لم تأت التجربة بنتيجة جيدة غير أن هذا ليس ناشئا عن عدم تعود هذه الحشرة على أهوية مصر بل عن نفاد الطعام وعدم تعود النبات الذى تعيش عليه^(٢) .

هذه هى جهود إبراهيم باشا في الزراعة أما في الصناعة فقد اهتم بصناعة السكر تبعا لعايته بزراعة القصب فأنشأ مصنعا يدار بالبخار لتكرير السكر بالقرب من فرشوط^(٣) .

كذلك أدخل إبراهيم باشا صناعة الروم في مناطق القصب التابعة له ولكن نوع الروم كان متوسطا فأرسل إلى جزيرة جمیکا عمر أفندى للوقوف على صناعة الروم هناك وإدخال أحسن أساليب إنتاجه في مصر وقد رجع هذا المبعوث بمعلومات أتاحته للبasha إقامة معمل لصناعة الروم يعمل على أحدث الأصول^(٤) .

(١) فيجرى ج ٢ ص ١٦ — ١٧ ، ١٢٧ ، ١٢٨ — كاوت ج ١ ص ٢٥٤ — ٢٥٥ — دفتر ٧٣١ ديوان خديوى تركى رقم ٧٧ (مال زكى أفندى في ٥ شوال سنة ١٢٤٠) — دفتر مصاحبة الحرير ص ٣ (لائحة ترتيب زراعة أشجار التوت وتكثير محصول الحرير في ذى الحجة سنة ١٢٤٧) .
Delchevalerie : Aperçu Général sur les Végétaux Exotiques ; p. 53.

(٢) فيجرى ج ٢ ص ١٩ — تستخدم دودة الصباغة في صبغ الطرايش .

Hamont : Op. cit., T. I. pp. 186 — 187, T. II, P. 249.

Taylor : Journey to Central Africa, p. 104 — Pascal : La (٣)
، Cange, Voyage En Egypte, p. 147.

..Bowring : Op. cit. p. 23. — Mazuel : Op. cit., p. 33. (٤)

أما عن جهود إبراهيم باشا في التجارة فقد أصلح المحكمة التجارية وذلك عندما أمر بإخراج الأرائك من دارها ووضع بعض الكراسى ومنضدة بدلا عنها وتعيين كاتب خاص ليدون محاضر الجلسات^(١).

وقد أنشأ إبراهيم باشا صحيفة أسبوعية تشتمل على أخبار التجارة والزراعة وقد سبق الكلام عليها في الزراعة.

هذا ويفضل إبراهيم باشا حرية التجارة على الرغم من أن الاحتكار كان أساس النظام الاقتصادي في مصر في عهد والده وأن الحكومة كانت تأخذ حاصلات معينة بالثمن الذي تحدده ، وكان إبراهيم باشا يعتقد أن نظام الاحتكار لا يستد أن يؤدي إلى تدهور ثروة أى قطر وأن مثله كمثل قطع الشجرة الطيبة التي تبشر بثمر عظيم في موسمها للحصول عاجلا على مقدار تافه من الفاكهة الفجة^(٢).

هذه هي جهود إبراهيم باشا الاقتصادية في مصر أما في الشام أنشاء الحكم المصرى فقد عمل على تنمية موارد الثروة والحصول على إيراد للحكومة دون الأضرار بالاقتصاد القومى وأولى الزراعة جل عنايته واهتمامه لأنها الفرع الأساسى للاقتصاد الشامى فتقدمت تقدما عظيما^(٣).

وقد اهتم إبراهيم باشا بعوامل الإنتاج الزراعى فعمل على زيادة الأراضى الزراعية وذلك بأن أعطى الأتبان لأى شخص يريد زراعتها مع إعفائه من ضريبتها إن كانت في حالة غير حسنة كما شجع الفلاحين على زراعة الأراضى وتعمير القرى المهجورة وأقنهم من غارات البدو عليهم تلك الغارات التي كانت فيما مضى تحملهم

Cattaui : Le Règne de Mohamed Ali, T. I, p. 356. (Pezzoni à (١)
Heyden, 25 août, 1829.)

Yates : The Modern History and Condition of Egypt, (1843), (٢)
Vol. II, p. 172.—Douin : La Mission du Baron de Boislecomte, p. 248.

Sabry : L'Empire Egyptien Sous Mohamed Ali et la (٣)
Question d'Orient, pp. 351, 358, 366.

على ترك الأراضي وكذلك ألزم الموظفين الكبار والأهالى الأغنياء لإصلاح القرى
الخربة وزراعة أطيانها وأنفق أموالا كثيرة فى المشروعات الزراعية مما أدى إلى
تعمير قرى كثيرة كانت مهجورة من قبل وإلى زراعة أراضيها وأيضاً اهتم إبراهيم
باشا بزراعة الأطيان البور فأرغم الأهالى على زراعة الأراضي الصالحة وأنفق مبلغاً
كبيراً من المال فى مشروعات من هذا القبيل ليكون مثلاً أعلى لغيره وألزم ضباط
الجيش حتى رتبة بكباشى الإنفاق على مشروعات مماثلة لذلك وزرع لحسابه الخاص
سهل انطاكية الفسيح وكان بورا وأيضاً طهر النهر الصغير بين عتّاب وحلب مما
جعله يأتى بكمية أكثر من المياه وقد زادت الأراضي الزراعية ٨٠,٠٠٠ فدان
فى مدى سنتين فى سنة ١٨٣٦ وزاد إيجار الأطيان فى بعض الأماكن إلى ثلاثة
أمثال إيجارها من قبل^(١) .

وأيضاً اعتنى إبراهيم باشا بالعامل الثانى للإنتاج الزراعى فاهتم بالفلاحين وعمل
على ما فيه خيرهم فأمنهم من ظلم الحكام ونهب البدو واعتدائهم فصاروا سعداء
ميسورين لعدم تعرضهم للجنود الذى كانوا فيه من قبل ، وكذلك رغب إبراهيم باشا
البدو فى ممارسة الزراعة وتعمير القرى المهجورة وأرغم بعض القبائل الرحالة على
الإقامة فى سهل انطاكية لزراعته على حسابه الخاص ، وبذا تحوّل آلاف من
البدو إلى زراع^(٢) .

كذلك اعتنى إبراهيم باشا بالعامل الثالث للإنتاج فأنشأ البنك الزراعى وأقام
صرفاً فى كل من حلب وأطنه ودمشق معه ٥,٠٠٠ جنيه لتسليف المال اللازم
للزراع المحتاجين كما أعطى سلفيات من المال للفلاحين الذين قطنوا القرى المهجورة

(١) محمد كرد على : كتاب خطط الشام ج ٣ ص ٦٨ : Dodwell : The Founder of

Modern Egypt, p. 253 — Sabry : Op, cit., pp. 351 — 356, 367.

(٢) — (٢) : Dodwell : Op. cit., pp. 253 — 254 — Sabry : Op. cit, pp. 341 —

343, 351, 352, 354, 355, 358. — محمد كرد على : كتاب خطط الشام ج ٣ ص ٦٨

لإصلاح بيوتهم وتموينها وأعفاهم من الضرائب ثلاث سنين وقدم في سنة ١٨٣٦
للفلاحين المساعدات الآتية : ٣٣٠,٤٠٠ قرشا و٤٧٠ شنبلا من القمح و ٢٠٧
شنبلا من الشعير كما أنشأ في السنة السابقة ١,٧١٨ محراثا وأنفق أموالا كثيرة
في المشروعات الزراعية .

هذا عن عوامل الإنتاج أما عن الثروة النباتية فقد بذل إبراهيم باشا ما في وسعه
لتحسين الزراعة وزيادة الإنتاج فأدخل في الشام كثيرا من الخضر الجديدة وبخاصة
البطاطس وجلب ١٤,٠٠٠ شجرة من عنب بردو زرعها بالقرب من حلب وعمل
على تكثير الزروع المختلفة فلم تنقص زراعة أي محصول بل بالعكس اتسعت زراعة
الخبوب والخضر اتسعا كبيرا وصارت من حاصلات التصدير كما زاد محصول
القطن وكثرت أشجار التوت والزيتون والعنب حيث ألزم الفلاحون زراعة عدد
كبير منها في كل قرية كما زادت أشجار الخروع وأجريت التجارب في زراعة القصب
والنبيلة وشجر البن وقطن مصر، وكان إبراهيم باشا يفتش دائما على الأعمال الزراعية ويحث
الأرض بنفسه ليشجع الفلاحين وليضرب لهم المثل الأعلى ، كما كان يبذل أقصى
جهده في مقاومة الجراد حتى لا يتلف الزرع وذلك بتكليف الأهالي والجنود القضاء
على الجراد وقيامه بمباشرة العمل بنفسه وجمعه بعض الجراد بيديه تشجيعا للأهالي^(٣).

أما عن الثروة الحيوانية فقد كان الحرير المحصول الرئيسي للشام وعماد ثروتها
يُنتج بالأخص في مناطق صيدا وبيروت وجبل لبنان ودمشق وطرابلس واللاذقية

١ محمد كرد علي : كتاب خطط الشام ج ٣ ص ٦٩ — الشنبل = ٥٠ رطلا = ١٠٠ أفة شامية
، Sabry: Op. cit, pp. 351, 353

٢ سليمان أبو عز الدين : إبراهيم باشا في سوريا ص ٣١٦ — ٣١٧ ، Sabry Op. cit.,
pp. 335, 353 — 355, 357, 360, 365.

٣ (٢) محمد كرد علي : كتاب خطط الشام ج ٣ ص ٦٩ Barker : Syria and Egypt
under the last Five Sultans of Turkey, Vol. II, pp. 209—210—Sabry:
Op. cit, p. 354.

وانطاكية تلك الأقاليم التي توجد بها مزارع واسعة من أشجار التوت زادت كثيرا أثناء الحكم المصري، وقد تحسن نوع الحرير نتيجة لإدخال بيض دود القز من فرنسا وإيطاليا على يد باركر القنصل الانجليزي في الشام الذي اتبع الطريقة الأوربية في تربية دود القز فأثر ذلك البيض وتلك الطريقة في تحسين الحرير عامة^(١).

كذلك ادخلت الأغنام الاسبانية في ضواحي نابلس وأرسلت بعض الذكور من الأغنام الاسبانية لضمها الى الأغنام الموجودة في عكا كما طلب ابراهيم باشا إرسال أغنام من كريت الى الشام لتربيتها هناك^(٢).

هكذا استأثرت الزراعة بمعظم نشاط ابراهيم باشا الاقتصادي في الشام لأنها الفرع الأساسي للاقتصاد القومي أما الصناعة فكان الاهتمام بها أقل من الزراعة ومع هذا فقد استمرت المنسوجات الحريرية الانتاج الرئيسي للمصانع ففي سنة ١٨٣٦ استمك نحو ١,٢٠٠ قنطار من الحرير الناتج من الشام في مصانع حلب ودمشق وطرابلس وحماة وبيروت ودير القمر وصيدا، وكذلك أنشئ في صور مصنع لنسج الصوف، وعمل ابراهيم باشا على إدخال طريقة أكثر إتقانا لاستخراج زيت الزيتون في طرابلس وما جاورها فجلب معاصر الزيت من فرنسا واستخدم عمالا أوروبين في العمل وكانت النتيجة سارة جدا بالنسبة الى الكم والكيف للزيت الناتج، وأيضا بذلت الحكومة المصرية جهودا عظيمة لكشف المعادن واجتهدت في التنقيب في جبال الشام بواسطة اخصائيين ففي الجنوب بحث بعض الفرنسيين عن الرخام وفي لبنان اكتشف بعض الانجليز نوعا جيدا من الفحم الحجري وفي الشمال اختبر بعض النمساويين الأرض وظنوا وجود الرصاص والنحاس والفضة والذهب بها ومهما يكن فن الثابت أنه عند نهاية الحكم المصري تأكدت الحكومة من وجود الفحم والحديد بكثرة في مناطق مختلفة^(٣).

Barker: Op. cit., Vol. II, p. 255 — Sabry: Op. cit., pp. 335, (١)

Sabry: Op. cit. p. 335. ٢٩٤ ص ٢ بيان بوثائق الشام ج ٢ (٢) أسدرستم

Sabry: Op. cit., pp. 358 — 362. (٣)

هذا وقد أدت العناية الخاصة بالزراعة إلى نشاط التجارة فزادت التجارة الخارجية زيادة مستمرة كما تأثرت التجارة الداخلية تأثرا عظيما من زيادة الإنتاج الزراعي وتقدم التجارة الخارجية فصارت دمشق مركزا عظيما للتجارة مع بغداد والبصرة والفرس والبلاد المجاورة كما زادت تجارة حلب زيادة عظيمة وأصبحت مصر الأولى بين الدول في تجارتها مع الشام بعد أن كانت في أول الأمر في الصف الثاني، وقد امتازت سياسة ابراهيم باشا التجارية في الشام بزيادة الإنتاج الزراعي من حرير وزيت زيتون وقطن وقمح وشعير وبإلغاء ما كان موجودا من قبل من عوائق التجارة من احتكارات ومظالم وجمارك داخلية وتنظيم توزيع الضرائب، وقد عمل ابراهيم باشا على تحسين طرق المواصلات فأنشأ ٣٠ مراكبا للملاحة في نهر الأورنت حتى أنطاكية، وكانت حرية التجارة من قواعد السياسة المالية في الشام وذلك لأن الروح التجارية عند الشاميين وكره الأوربيين للاحتكار واعتناق ابراهيم باشا مبادئ الحرية كل ذلك كان مضادا لإنشاء الاحتكارات في الشام غير أن تلك القاعدة قد كسرت عندما أنشأ ابراهيم باشا — بناء على أمر والده — احتكار الحرير للحصول على الكمية اللازمة منه لاستعمال البلاد ومع هذا فقد منح حرية تصدير الباقي بعد ذلك إلى الخارج^(١).

تلك هي جهود ابراهيم باشا الاقتصادية في الشام أما في بلاد العرب فإنه عندما فتحها وضع أساس الإصلاح الزراعي فيها فأمر بحفر الآبار في الأماكن الجرداء التي ظن فيها ماء^(٢).

هكذا كانت جهود ابراهيم باشا الاقتصادية في مصر والشام وبلاد العرب وهي جهود مجودة تنهض دليلا على أن عظمته لم تقتصر على الناحية الحربية التي اشتهر بها بين الجميع بل تعدتها إلى الناحية الاقتصادية.

(١) Sabry : Op. cit., P. P. 363 — 368

(٢) Crabitès : Op. cit., P. 36.

إدارة الشام روحها وهيكلها وأثرها للدكتور أسد رستم

دخل بطل مصر الى ربوع الشام فاتحاً منتصراً . وقضى عشر سنوات فيها موطدا مؤسسا . وكان رحمه الله مؤمنا برسالة والده الكبير مخلصا لها مندفعاً في تنفيذها اندفاعاً نادراً . وكانت رسالة العزيز هذه تلخص بما يلي : أولاً بالاعتراف بتأخر « الملة المحمدية » بتعبير ذلك العصر وبضعف الدولة العثمانية وبعجزها عن حماية هذه الملة . وثانياً بوجوب الصمود لطمع أوروبا وجشعها ودفع شرها عن الملة . وثالثاً بوجوب التذرع بجميع الوسائل الفعالة للوصول الى هذا الهدف النبيل . قال العزيز في كتاب له أرسله الى إبراهيم عند تأزم العلاقات بينه وبين الباب العالي للمرة الثانية وبمناسبة تدخل الدول الأوروبية مامعناه : لا تهدف الدول الى تعضيد الدولة العثمانية ولكنها ترمى الى إضعاف الطرفين كي يتسنى لها الاستيلاء على البلاد الإسلامية بسهولة ولذا فإن قبول تدخل هذه الدول خيانة للملة ولتمام استقلالها . فبدلاً من أن نقبل هذه الخيانة فنذكر باللعنة الى يوم القيامة أجدر بنا أن نموت في سبيل الدين فنشيد بذلك دنيانا وآخرتنا معا . هذا إذا غلبونا وأما إذا لم يغلبونا ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً فحينئذ نجد في الدنيا اللجنة التي يبحث عنها الناس في الآخرة . فيدوى في الافاق صدى بطولتنا وسمعتنا الطيبة ويذكرنا العالم بخير الى يوم القيامة . هذا لا ريب فيه : والله كفيلاً بعباده.^(١)

(١) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٣٣٦ ، يراجع كتابنا المحفوظات الملكية المصرية . بيان بوثائق الشام

وكان العزيز يرى من واجبه إزاء ما تقدم ذكره عن رسالته أن يؤمن العباد ويعدل بينهم ويوحد قلوبهم ويزيد في إنتاجهم كي يتسنى له الذود عن الملة والدين . ولم ير ما يمنعه عن الأخذ بجميع ما توصلت إليه أوروبا من أسباب الرقي وال عمران للقيام بمهمته وأداء رسالته . فاستقدم من أوروبا رهطا كبيرا من أهل الاختصاص في الحرب والسلم . ووكل إليهم أمر الإصلاح . وأيدهم كل التأييد وأرسل الوفد تلو الوفد من أبناء بلده الى أوروبا لتحصيل العلوم والفنون كي يتمكن في النهاية من الاستغناء عن الغربيين الغرباء . ولم يقيم في ذلك العهد في الآستانة من كان يصلح أن يعدّ للعزيز نظيرا . ولكن شاءت الأقدار أن ينبرى من رجال الحاشية السلطانية من يعترض سبيل العزيز ويشوّه سمعته أمام السلطان، نفشى العزيز سوء العاقبة ، واضطر أن يستعدّ لمحاربة السلطان وحاشيته في سبيل الدفاع عن النفس .

حمل ابراهيم رسالة والده الى الشام ، وبدأ بتأمين الأمن ، فامتنع عن إرهاب الأهالى ، وامتنثل في ذلك لأمر خاص صدر من والده يوصيه فيه ” بوجوب تأمين الأهالى وعدم اتباع سياسة التخويف والتهويل “^(١) .

وكان قد استدعى اليه منذ بدء أعمال الفتح الأمير اللبناني الكبير بشير الشهابي للتداول معه في تدبير الأمور، وقد أكبر بعمله هذا مواهب الأمير وخبرته وإصالة رأيه وإخلاصه ، ونتج عن هذا التداول أن أقصى القائد المصرى عددا لا يستهان به من ولاية الأمور في البلاد، وأحلّ محلهم من وجد فيه الكفاءة ، وأوصى ” بوجوب المحافظة على راحة الأهالى ، وتأمين العباد، وزجر المعتدين ، وتحاشي أسباب الجور والاعتساف “^(٢) . ووضع في الوقت نفسه تحت تصرف هؤلاء الولاة في جميع المراكز الهامة عددا كافيا من الجند لتنفيذ الأحكام وإحقاق الحق ، ثم

(١) عابدين دقر ٣ رقم ٩٣ : راجع كتابنا المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٢٦٩ .

(٢) كتابنا الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد على باشا ج ١ ص ٧٦ .

أمر عددا من كبار معاونيه بالتجول في البلاد وتفقد أحوال السكان للتثبت من تنفيذ أوامره السابقة .

وكان العزيز نفسه شديد الاهتمام بهذه المراقبة ملحا كل الإلحاح بتنفيذها موجبا على إبراهيم نفسه أن يقوم بشيء منها . فقد جاء في إحدى رسائله إلى ابنه في الشام " ان التجول في الولايات الجديدة وتفقد شؤون الرعايا أفضل من إصلاح الطرق ومجارى الأنهار في اذنه وطر سوس " .

وبعد أن أتم إبراهيم كل هذا منع جباية " الخوة " في معابر البلاد ومسالكتها وكانت السلطات العثمانية قد غضت النظر عن جبايتها أجيالا طوالا ، فأنحطت كرامتها وقل نفوذها ، وأصبح جباة هذه " الخوة " أسيادا في مناطقهم يفعلون ما يشاؤون . من هؤلاء آل أبي غوش في الطريق المؤدى من يافا إلى القدس وآل رستم في جسر شغور عبر العاصي بين اللاذقية وحلب وعشيرة الدنادشة في تل كلخ بين طرابلس وحمص . نهى إبراهيم عن الخوة وهدد بالعقاب الصارم فامتنع جبايتها عنها وامتثلوا للأمر وأصبحت معابر البلاد ومسالكتها حرة طلبة يسلكها التجار وأبناء السبيل آمنين فرحين بالامنة . ومما جاء من هذا القبيل قوله في مرسوم له وجهه إلى قاضي القدس وشيخ الحرم فيها ومفتيها ونقيها وخدام المسجد الأقصى " انه ليس خافكم أن القدس الشريف محتوى على معابد وأديرة ترد لأجل زيارتها جميع أملاك العيسوية والموسوية وفرقهم من كل فج ويقصدونها من سائر الأقطار والديار فبحسب تواردهم كان يحصل عليهم المشقات الباهظة لسبب الإغفار الموضوعة بالطرقات ولأجل إجراء الوفاق بين الناس صدرت أوامرنا إلى جميع المسلمين الذين في ايالة ألوية صعيدا وألوية القدس الشريف و نابلس وجنين برفع هذه الأغفار من جميع الطرقات والمنازل بوجه العموم ^(١) .

(١) كتابنا الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ج ١ ص ٨٧ — ٨٨ ، راجع

أيضا عابدين محفظة ٢٣٢ رقم ٢ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ١٨٨

ورأى بطل مصر موطن الأمن في الشام أن لا بد من جمع السلاح وتجريد السكان منه فأمر بذلك وشرع في التنفيذ . وما أن بدأ عمله فيه حتى ثارت القبائل والعشائر وقد رأوا ترك أزواجهم خيرا لهم وأجل وأشرف من ترك أسلحتهم فعقد الزواج بنادقهم . ومما زاد في الطين بلة أن عملاء الآستانة استغلوا الموقف وحرصوا السكان على الصمود في وجه الحكومة المصرية فاشتد ساعد السكان وأعلنوا العصيان . فجرد إبراهيم على كل من عصى حملة أكرهه فيها على الإذعان والطاعة . وتكبد في سبيل تأمين الأمن خسائر فادحة فمن حرب في فلسطين عم البلاد بأسرها إلى حملة تأديبية على النصيريين إلى مواقع دامية في وادي التيم وجبل الدروز إلى محاربة الأكراد في أقصى الشمال إلى فتنة مستعصية في لبنان أدت في نهاية الأمر إلى تدخل الدول الأجنبية وإقصاء المصريين عن البلاد .

أما عن العدل وهو وسيلة العزيز الثانية فحدث عنه ولا حرج . والواقع الذي لا جدال فيه إن الشام لم تنل من العدل في أى عهد مضى منذ أيام عمر بن الخطاب ما نالته في ظل العزيز . قال العزيز في رسالة له وجهها إلى أحد رجاله ناظر الجهادية : “كنت أود أن نكون قد تخلصنا من الشعوذة والغفلة والرخاوة والغرض والضعف والمحاباة التي طالما ألفتناها ومللناها في الأيام الحالية وأن يكون ذلك العهد قد مضى وانقضى وبدلنا به عهدا يقوم على أساس الإنصاف والإنسانية والحياسة والعدالة والاجتهاد والغيرة بحيث يتسنى لنا نحن أيضا أن نصرف عملنا وننجز مصلحتنا على أسلوب من اللطف والحسن يدخلنا في مصاف البشرية الراقية^(١) ” .

هذا هو العزيز وهذا هو رائده في الحكم . فإذا ما ذكرنا حزمه ونشاطه ومثابرته ومتابعته لما يصدر عنه أدركنا قيمة هذا القول وأثره في توجيه القضاة ورجال الإدارة والجيش .

(١) معية تركي دفتر ٣٦ رقم ١٦١ . المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٩٦ .

وفهم العزيز عقلية شعبه فهما تأمنا ، فأمر بشدة العقاب وسرعة التنفيذ جاعلا من أحكامه وتنفيذها عبرة لمن يعتبر، ومثال ذلك أن تشاكي كبار الموظفين انتشار الرشوة في دوائرهم في الشام فأمر العزيز بوجوب التثبت مما يقال وسمح بالشنق عند ثبوت الجرم، فنفذ حكم الإعدام أكثر من مرة في أناس ثبت عليهم هذا الجرم، قال ابراهيم في كتاب له الى سامي بك معاون العزيز : ” ستعلمون عندما تقرأون أوراق نعوم نوفل^(١) أن أهل عربستان مبالغون جدا الى إعطاء الرشوة ومراعاة الخواطر حتى أدى ذلك الى اكتشاف خيانة بعض المتسامين ومحاسبتهم وعزلهم . وقد تحملنا في سبيل إنقاذهم من بليّة الرشوة كثيرا من العناء ولكننا لو تركناهم على حالهم لخاضوا في السلب والنهب خوض المتقدمين على الإغارة^(٢) .

وأبقى اتفاق كوتاهيه تعيين قضاة الشرع في الشام بيد السلطان فخشي العزيز عدول هؤلاء عنه وانحيازهم الى جانب السلطان وأثر ذلك في أحكامهم فأوصى بمراقبتهم مراقبة خفية شديدة وأمر بوجوب عرض أحكامهم على كبار رجال الإدارة قبل تنفيذها . ثم لمس عجزهم عن النظر في بعض الدعاوى الحقوقية التجارية فسمح لمجالس المشورة أن تبت فيها حرة طليقة . ولم يتردد العزيز عن التدخل عند الحاجة في فهم الشرع الشريف وتطبيقه . فرضى رحمه الله عن موقف اللواء سليم بك من شيخ المغاربة في اللاذقية عندما أفتى هذا الأخير بأسر أولاد النصيريين ونسائهم وعندما قاومه اللواء المصرى وهدد بإزالة العقاب بمن يفعل ذلك^(٣) . وقل الأمر نفسه عن موقف العزيز من علماء دمشق عندما اعترضوا على نظام الكرتينا . قالوا : ” إن مهس الناس في البيوت وإقامة خفراء مأجورين عليهم وإخراج بعضهم على

(١) كاتب الخزينة في طرابلس .

(٢) عابدين محفظة ٢٥٢ رقم ١٣٠ . المحفوظات الملكية المصرية ج ٣ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٣) عابدين دفتر ٦ رقم ١١٠ : المحفوظات الملكية المصرية ج ٤ ص ١٠١ .

(٤) عابدين محفظة ٢٥٠ رقم ٢٣٦ : المحفوظات نفسها ج ٢ ص ٤٨١ .

هيئة مرعبة وإحراق بعض أشياءهم ودفن المسوقى بملابسهم وتكليسهم والكشف عن عورة الأموات كل ذلك دليل على خوف الموت والعجز عن تمرين القلوب عن الصبر وفيه ما فيه من مخالفة الشرع إذ أن الحبس وإخراج الناس في هيئة مخيفة إنما يجوز فيمن يكون مجرماً ولا جناح على الذى ظهر الطاعون فى بيته ولا يستحق الأجرة إلا من قام بعمل نافع للأجر . ولا ينبغى أن يضايق المحبوس فى عيشه “ . قالوا هذا كله فاستقدم العزيز من أفتى بما يلى : “ لقد ذلت أخبار السلف وآثارهم على أن الأجواء تختلف وأن بعضها قد تكون ضارة وأن الانتقال من محل ثبت فساد جوفه إلى محل آخر واشتد الروائح الطيبة واستعمال البخور لإزالة الروائح الكريهة والفصد والحجامة والاستقاء لما وردت بها السنة المحمدية ولا تتكر إذا نفذت بطريقة لا تخل بإحدى الفرائض . فإذا أمر ولى الأمر بإجرائها بشروط هى أن لا يضيع حق المطعون ولا الذى ظهر الطاعون فى بيته وأن لا تكون معيشة أحد عرضة للضيق وأن لا يحتفل بالميت مطعوناً دون الاحتفال بالمائت ميتة عادية ونفذت بطريقة لا تخل بالشعائر الدينية فإن إطاعة أوامره فى إتيان المباحات واجبة فكيف بالمجر الصبحى وهو بين الوجوب والاستحباب ^(١) “ .

وعندما رحب العزيز بقدوم صارم أفندى إلى مصر رجاء أن يغض النظر عن بقائه مدة طويلة فى الحجر الصبحى ثم أبدى رأيه فى هذا التدبير فقال : “ إن مسألة الحجر الصبحى وإن كانت سبباً صورياً لصيانة البرية والرعية من الأمراض المعدية إلا أنها بفضل السلطان تدبير لترويج التجارة الملكية التى لا يخفى أمر ارتباطها بالتجار الأوروبيين والمسؤول عنها قناصل الدول فلو تدخل الجنب العالى فى أمرها لعد تدخله تجاوزاً على العرف المرعى وهذا لا يوافق مزاج الجنب العالى ولا يجوز رضى صارم أفندى ^(٢) “ .

(١) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ٤٦ وعابدين دفتر ٢١٤ رقم ٣٨٣ = المحفوظات الملكية المصرية ج ٤ ص ٣١٤ — ٣١٥ .

(٢) عابدين دفتر ٦ رقم ٢٧ : المحفوظات الملكية المصرية ج ٣ ص ١٨١ .



ابراهيم الفاتح



محمد شریف باشا

وقال العزيز بوجوب توحيد القلوب فقام ابنه إبراهيم ينفذ هذه الرعية السامية وكتب في أوائل عهده في الشام إلى متسلم اللاذقية يقول : " والتعرض إلى الرعايا وعدم مؤاساتهم هذا مخالف لرضانا لأن الاسلام والنصارى جميعهم رعايانا وأمر المذهب ماله مدخل بحكم السياسة فيلزم أن يكون كل بحاله المؤمن يجري لإسلامه والعيسوى كذلك ولا أحد يتسلط على أحد^(١) . واحترم إبراهيم زعامة النصارى والدروز في لبنان احترامه لزعامة إخوانهم المسلمين في سائر الأقطار الشامية . ولم يتأخر قيد شعرة عن ترقية النصارى والدروز عند ثبوت الاستحقاق فعرض على^(٢) الشهابي الكبير الأمير بشير الثاني حاكمية جميع الأقطار الشامية قبل أن يرشح محمد شريف باشا للنصب نفسه . وكان قد عين هذا الأمير مديرا لمصالح البلاد يختم الأوراق التي تصدر عن مقر السرعسكر وقال عنه سرا لا يوجد عندي في بر الشام رجل بمعنى الكلمة سوى هذا الرجل الشهم وحيث أنه أظهر هذه الصداقة والأمانة فلا يهمننا قط أكثر عدد الأصدقاء أم قل^(٣) . وقدر إبراهيم نصرانيا آخر حق قدره أعنى حنا بحرى فرقاه إلى المرتبة التي استحقها وجعله مديرا عاما للألية متنعما برتبة البكوية . وهو أول نصراني في الأقطار العربية نال هذا اللقب . ولم يتردد العزيز وابنه إبراهيم عن منح هذا اللقب نفسه لأربعة من دروز لبنان هم نعمان جنبلاط ونضيف أبو نكد وخطار العماد وعبد السلام العماد . وشمع العزيز وابنه إبراهيم بتزيم الكنائس والأديرة وبإنشاء الحديد منها وغضبا النظر عن ارتداد ثلاثة من الموارنة كانوا قد قبلوا الإسلام فاستملا قلوب « الرعايا » وخطا فصلا جديدا في تاريخ الحكم في الشام . ولكنهما

(١) عابدين محفظة ٢٣٨ رقم ٢٤٥ — ٢٤٧ : المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ١١٧

(٢) عابدين محفظة ٢٣١ رقم ١٢١ : المحفوظات ج ١ ص ١٧٦

عابدين محفظة ٢٣٧ رقم ١٥٦ = المحفوظات ج ٢ ص ٨٦

(٣) عابدين محفظة ٢٣٢ رقم ٧٦ = المحفوظات ج ١ ص ٢١٨

(٤) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٥٣٢ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٧٢ — ٤٧٣

لم يسمحا بتنصر بعض الدروز خوفا من إساءة الفهم واستفزاز الجمهور^(١) وعاقب محاذ
بيروت بعض المسلمين علنا لأنهم تفوهوا ببعض كلمات غير لائقة بحق النصاري^(٢)
ورأى العزيز أن يجند العيسويين لتأييد الدول المسيحية عن إثارة الفتن في الشام
ولتزول عداوة المسلمين ولتتوطد صداقتهم^(٣).

ومن الوسائل التي تذرّع بها العزيز وابنه لتوحيد القلوب أنهما حافظا على العا
في التوظيف فامتنعا عن إغراق الشام بالموظفين المصريين ولم يستقدا من واد
إلا من استوجبت الضرورة قدومه . ومن ذلك أن العزيز أمر محمد شريف
لدى تسلمه أزمة الحكم في الشام بوجوب إسناد منصب المتسلمية في دمشق الى أ.
أعيان هذه البلدة أو الى مصرى إذا تعذر وجود كفؤ لها من الدمشقيين أنفسهم^(٤)
وقال أيضا في كتاب أرسله إلى سليمان باشا بأنه عين حراس الصحة في المساكن
المسافرة إلى بر الشام من أبناء مصر لأنه لم يجد من هو أهل لذلك في بر الشا^(٥)
وكان من نتائج النزاع الذي نشب بين مصر والباب العالي أن شعر العزيز بأه
العنصر العربي وبوجوب التودّد إليه والاعتماد عليه فخرج عن تقاليد الإدارة في
ووافق على ترقية البارزين من أولاد العرب في القراءة والكتابة إلى رتبة يوزباشي
وزهب إبراهيم إلى أبعد من هذا فأكد لوالده بأن نسبة المخلصين من العرب الملتحقين
بالخدمة كانت أعلى من نسبة المخلصين من زملائهم الأتراك وحيد لإفساح الم

(١) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٢٣٦ : المحفوظات ج ٣ ص ٤٤٤ .

عابدين محفظة ٢٥٥ رقم ١٩٩ : المحفوظات ج ٣ ص ٢٨٥ و ٢٨٨ و ٢٩٥ .

عابدين دفتر ٢١٢ رقم ٣٦٤ : المحفوظات ج ٣ ص ١٣٧ وغيره .

(٢) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ٢٢٨ : المحفوظات ج ٤ ص ٤١٥ — ٤١٦ .

(٣) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٤٣٨ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٢٦ .

(٤) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٤٢٢ : المحفوظات ج ٢ ص ٢٨٠ .

(٥) عابدين دفتر ٢١٢ رقم ٣٥٧ : المحفوظات ج ٣ ص ١٣٣ .

اترقية بعض العرب الى رتبة بيكاشى^(١) . ونوه بفضل العرب على المدنية فى التاريخ وقال فى ظروف معينة أنه أتى مصر طفلاً وأن شمسها غيرت دمه بفجرى عربياً^(٢) . ومما ساعد على توحيد القلوب أن العزيز فرق فى سياسته بين وطنى آمن وبين أجنبي طامع فشمل الأول بعطفه وحذر بطش الآخر فوافق مثلاً على السماح لتابع قنصل انكثره فى رودس باستخراج الإسفنج من مياه الشام ولكنه رأى أن يمنع عن ذلك إذا كانت هذه المصلحة بيد رجل وطنى . وأوجب منح التجار الوطنيين الامتيازات نفسها التى تمتع بها التجار الأجانب وسأوى بين الوطنيين وبين الأجانب فسمح للوطنيين بتصدير بضائعهم من مرافئ بر الشام . وجاء فى رسالة من المعية السنية الى ابراهيم باشا أنه لا يمكن ائتمان الأجنبي المتجنب على مصالح البلاد وأنه نظراً لتصلب اسكواره بك فى رأيه واستئنائه بشؤون مدرسة المدفعية تقرّر تشكيل لجنة من خريجي مدارس أوربة من أبناء البلاد للنظر فى تنظيم المدارس^(٣) .

عنى العزيز وابنه ابراهيم بالمحافظة على ثروة البلاد وزيادة الإنتاج فيها وسعياً سعياً حديثاً للوصول الى مرحلة معينة من التطور الاقتصادى يتمكّن فيها من الاستعانة عن أوربة . ولم ير العزيز مبرراً لخوف ابراهيم من تسرب النقود الى الخارج لأن الشام ستقدّم له من الفحم والحديد والخشب ما يستغنى به عما يستورده من أوربة ولأنه كان يأمل أن يكفى بر الشام مؤونة الشيت والملبوسات بفضل ما كان يقوم به من تنظيم الصناعات فلا يبقى القطر الشامى والحالة هذه بحاجة الى منتجات البلدان الأجنبية^(٤) . والواقع أن العزيز وابنه ألخا منذ بدء

(١) عابدين دفتر ٢١٢ رقم ٢٣١ وعابدين دفتر ٢١٤ رقم ١٥٠٢ المحفوظات ج ٣ ص ٦٧ وج ٤ ص ٤٦٠ .

(٢) راجع كتاباً أسباب الحملة على الشام ص ٦٤ — ٩٥ .

(٣) عابدين دفتر ٢١١ رقم ١٠٥ وعابدين دفتر ٢١٤ رقم ٢٢ وعابدين دفتر ٢١٢ رقم ١٧٧ المحفوظات ج ٢ ص ٣٨٨ وج ٣ ص ١٨٨ و ٧٩ .

(٤) عابدين دفتر ٢١٢ رقم ٢١٤ : المحفوظات ج ٣ ص ١١٢ — ١١٣ .

حكمتها في الشام بوجوب إرسال عشرين أو ثلاثين صهبا من بر الشام إلى مصر لتعلم صنع الجوخ والطرايش ولإدخال هذا الفن إلى بلاده "فتتحول إذ ذاك أرباح الأجانب من هذه البضاعة إلى أبناء البلاد" (١). ووافقا بعد مدة وجيزة "على إنشاء معمل لصنع العباءات في عكة تدار دواليبه بواسطة الميساء وإصدار الأمر لإرسال الدواليب والمدقات اللازمة من مصر. وكان إبراهيم يعير الزراعة في الشام شطرا وافية من اهتمامه الشخصي فتراه يستطلع رأى الجنب العالى "هل يسمح بإعفاء من يحيى الأراضى المهمولة بغرس الأشجار والعنب من الأموال تشجيعا له أم لا" (٢) ونرى اللواء أحمد بك يكتب إلى إبراهيم نفسه مبينا عدد القرى والمزارع التى تم إحياؤها حتى سنة ١٢٥٢ فيقول أن عددها في جهات حلب وحدها بلغ الرقم ٨٥ وأن عدد الأقدنة التابعة لهذه القرى والمزارع نفسها بلغ الرقم ١٠٣٧ (٣). ونلمس في موضع آخر وصول بعض رجال الاختصاص الذين درسوا الزراعة في فرنسا إلى فلسطين والتحاقهم بمصلحة تطعيم الأشجار (٤) وحى العزيز وابنه مصالح التجار الوطنيين ففتحهم الامتيازات نفسها التى كان يتمتع بها التجار الأجانب واستغلا لهذه الغاية ظرفا دوليا دقيقا : وتفصيل ذلك أن الحكومة الانكليزية كانت قد احتجت لدى الباب العالى على جباية بعض الضرائب المستحدثة في بر الشام . فقامت الحكومة المصرية تغض النظر عن جميع الرسوم الجمركية وتطلق حرية التجارة لاستمالة جميع الأوروبيين إلى جانبها كي يقول هجولاء "إذا كان الإنكليز قد رجعوا إلى الدولة في أمر تافه فمحمد على رفع جميع الرسوم من تلقاء نفسه" (٥) ثم استطرد العزيز فساوى بين التجار

(١) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٤٩٥ : المحفوظات ج ٢ ص ٣١٣ .

(٢) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٥٤٠ : المحفوظات ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٣) عابدين محفظة ٢٤٨ رقم ٢٤٣ : المحفوظات ج ٢ ص ٣٨٦ - ٣٨٧ .

(٤) عابدين محفظة ٢٥٣ رقم ١٧٠ : المحفوظات ج ٣ ص ١٤٨ .

(٥) عابدين محفظة ٢٤٧ رقم ٢٠ : المحفوظات ج ٢ ص ٣٢٦ .

(٦) عابدين محفظة ٢٥٢ رقم ٢٩١ : المحفوظات ج ٣ ص ٩٩ .

الأجانب و بين زملائهم الوطنيين كما أشرنا سابقا . وطعن بعمله هذا في صميم الامتيازات الأجنبية فبدأ فصلا جديدا في تاريخ العرب الحديث لم ينته إلا بعد مرور مائة عام ! ولمس إبراهيم الظلم الذى لحق بالفلاح وبالمزارع أيضا من جراء تلزيم الضرائب فهب للدفاع عن الحق المهضوم وكتب رسالة الى معاون العزيز يلح فيها بوجوب الغاء التلزيم وبجباية الضرائب مباشرة بواسطة موظفى الإدارة . قال :
” إني لم أقصد من طرح هذه الضرائب على الأهالى جلب وفر لحانب الميرى فقط بل إني رأيت فى ذلك نفعا وسهولة يعودان على الجانين معا . فقد تيقنت ما يلقاه الأهالى من الظلم والجور والأذى والخسارة من الملتزمين حين يأتون الى القرى التى التزموا عشرينها و يقيمون فيها فمأكل الملتزم ورجاله وعليق دوابهم ومأكل معارفهم الذين يمتزون عليهم فى أثناء السفر جميع هذا على حساب الأهالى وليس بإمكان هؤلاء أن ينقلوا غلالهم من البيادر ما لم يأمر الملتزم بذلك . فقد تبقى هذه الغلال على بيادها حتى موسم الخريف وتتعرض للتلف والفساد من جراء سقوط المطر . ولو فرض حدوث مظالم وأكل حقوق بموجب النظام الجديد فانه سيكون نادرا كما أننا لا نحجم عندئذ عن إجراء التحقيق اللازم . ولقد سألت شيوخ القرى بين الشام وحلب جرمانوس لدى مروره فيها إننا سمعنا أن ضرائب العشر ستطرح على الأهالى بالمقطوعية فقل لنا ماذا تم^(١) .“

هذه نماذج متنوعة من أقوال العزيز وابنه ورجالها الذين قاموا بأعباء الحكم فى الشام زهاء عشر سنوات . وقد اقتبسناها مما بقى من أوراق الادارة فى ذلك العهد . ورائدنا فى ذلك إظهار الرسالة التى تجس لها العزيز ودرجة تطبيقها . والشهادة التى تشهد بها هذه الأوراق لاحتاج إلى الكثير من الجرح والتعديل . فهى أقوال المسؤولين من رجال الإدارة وقد دونت فى زمن وقوعها . ولم يقصد بها قائلوها أية مصلحة شخصية أو دعاية عمومية لأنها كانت سرية أو على الأقل غير مباحة للجمهور .

(١) عابدين محفظة ٢٥٣ رقم ٤٦ : المحفوظات ج ٣ ص ١٢٠ — ١٢١ .

* * *

ولا بد قبل الخوض في الكلام عن هيكل الإدارة من إجلاء أمرين أساسيين هامين أولهما حدود الشام والثاني صلاحيات العزيز. فالشام في عرف العزيز ورجاله شملت آنشد أياالات حلب ودمشق وطرابلس وصيدا وسنجق القدس ونابلس . بيد أن قلة الثقة بين السلطان وبين العزيز أدت إلى مفاوضات شاقة حول الحدود الشمالية الشرقية لأيلة حلب وإلى أخذ ورد نتج عنه غموض في المراجع الأقوية يضيع الباحث ويحيره وجل ما يمكننا أن نقوله الآن بهذا الصدد هو أن الفرات كان بوجه إجمالى الحد الفاصل بين الأراضى التابعة لحكم العزيز وبين سائر الولايات الشرقية . وأن عينتاب وكلس وقسما كبيرا من كورد داغ وقعوا جميعا ضمن الحدود المصرية .

والأمر الثانى الذى لا مفتر عن الانتباه اليه هو أن العزيز بقى من الناحية القانونية حتى السنة ١٨٤١ واليا من ولاية السلطنة يحكم جزيرة كريد ومحصلية أذنة وأياالات الشام والحرمين الشريفين وما يليهما ومصر بموجب أمر سلطانى يوجه اليه سنة فسنة . ولكن الواقع الذى لا جدال فيه هو أن هذا الوالى كان أقوى ولاية السلطنة وأجدرهم بالحكم وأنه كان يضاهى السلطان نفسه قوة وعزة ومجدا وقد تمكن بالفعل من قهر الجيش السلطانى ومن أسرقائه الصدر الأعظم نفسه . ولذا فاننا نرى علماء الشام يعترفون بالواقع فيخاطبون العزيز بالعبارات التالية :

اللهم يا واجب الوجود منك نسأل وبرسوك الأعظم إليك نتوسل بدوام عز دولة ولّى النعم صفى الشيم الدستور الوقور (المكرم والمشير المظفر والمعظم أعظم الوزراء فى العالم مدبر أمور جمهور أخص وأشرف بنى آدم الخديوى الأعظم أدام الله تعالى ظل أبهة دولته ونصره وتأييده فى الأمم أفندم سلطانم) .

ولم يختلف رأى العزيز فى نفسه وفى صلاحيته عما تقدّم فهو المرجع الأعلى فى الحكم وحكمه لا يردّ ولكنه يرى هو أن يشترك الأعيان فى حكمه فيستشير فى كثير

من الأمور ويحتفظ بالرأى الأخير لنفسه . فهو إذا من دعاة الحكم المطلق الذين يصغون لأصحاب الرأى . وميزاته الكبرى بين حكام العرب في العصور الحديثة أنه كان يحب النظام ويحترمه ويلج في تطبيقه إلحاحا شديدا فيطلع يوميا على جميع التقارير الإدارية ووزير الإدارية التي كانت ترفع إليه فيبدى رأيه فيها ويردّها للتنفيذ . ومن ذلك قول إبراهيم إلى والده عن عكة : ”إنى لم أكتب شيئا من ذلك إلى الأعتاب الكريمه لأن التقارير اليومية ترسل كل يوم إلى الجنب العالى فيطلع منها على جميع الوقائع ولا شك في أنه قد أطلع على ما يوجب إصدار هذا الفرمان فأصدره بدون أن يكون لى أدنى علم بذلك^(١) . ومما يؤيد هذا الاستنتاج أن معاون العزيز كتب إلى حنا بحرى بك ينقل إليه رضى العزيز عن تقاريره ويطلب إليه أن يرفقها بترجمة تركية لأن ”الجنب العالى“ يودّ الاطلاع عليها لدى وصولها . فإذا وردت وهو فى دار الحریم تعذر ثقلها .

وقام العزيز بنفسه يأمر حنا بحرى بك بوجوب إرسال محاضر المجلس فى دمشق يوميا إذ لا فائدة من تأخيرها لديه حتى تتراكم فتُرسل دفعة واحدة^(٢) .

وقدر العزيز ابنه إبراهيم حق قدره فسلمه قيادة الحملة على الشام وجعله حاكم الأقطار المحتلة . وما أن بدأ هذا البطل أعماله فى الشام حتى شعر بوجوب فصل القيادة عن الحاكمية فطلب إلى والده أن يعين حاكما عاما محله يعنى بإدارة الأراضى المحتلة ورشح لهذا المنصب الرفيع الأمير اللبناني الكبير بشيرا الشانى وعندما اعتذر الأمير عن قبول هذا المنصب الجديد طلب القائد المصرى تعيين محمد شريف بك أحد أقرباء العزيز وحاكم الصعيد فى المنصب نفسه فلبى شريف الدعوة وجعل دمشق مركزا لحكمه واتخذ لنفسه لقب حكامدار الآيالات الشامية أو كتمخداى

(١) عابدين محفظة ٢٣١ رقم ٥٨ : المحفوظات ج ١ ص ١٤٠

(٢) عابدين دفتر ٣ رقم ٦٩ : المحفوظات ج ١ ص ٢٥١

(٣) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٢٧٢ : المحفوظات ج ٢ ص ١٨٢

خديو أعظم وحكمدار أيلات عربستان أو ما قارب ذلك . ومما كتبه الحكمدار في هذا الموضوع إلى أعيان حلب مثلاً قوله " لا خفاكم ما فاضت به بحور إحسانات سعادة أفندينا ولي النعم الخديو الأعظم عزيز مصر المعظم دام ما دام العالم وذلك بتفويض أحكام أيلات الأقطار الشامية لعهدة عجنا^(١) الخ " .

وما أن اتخذت هذه الخطوة الأساسية حتى تفرع عنها خطوات أخرى فقسمت البلاد إلى مديريات أربع وإمارة ممتازة وأشرف الحكمدار بنفسه على مديرية دمشق وتولى أعمال مديرية حلب أحد أنسباء العزيز إسماعيل عاصم بك وقام بأعمال الإدارة في مديرية طرابلس وصيدا كل من يوسف بك شريف والشيخ حسين عبد الهادي وولده بعده . أما لبنان فإنه بقي في عهد شيخه الجليل وأمره الكبير واكتسب عزاً في ظل العزيز لم ينله من قبل واحترم استقلاله الداخلي احتراماً تاماً . قال الحكمدار إلى القائد العام : " فكتبت أستعلم عن موضع إقامة مير أفندي فتبين أنه مقيم في قرية مشغره الكائنة بداخل الجبل المنحول لحكومة الأمير بشير فأوقفت لإرسال الفرسان للقبض عليه واكتفيت بعرض الحالة على الاعتبار السنية " . فأجيب الحكمدار : " يجب أن تشعر الأمير بشير بمن أخبرك بهذا الخبر^(٢) " . وهناك دليل آخر على استقلال هذا الجبل : عندما أوشك حكم العزيز أن ينتهي ، وبدأت أصابع الدول تلعب في لبنان كتب ريتشارد وود عميل بريطانيا الأكبر آنشد إلى الأمير بشير ما نصه بالحرف : " لم يجب تخشوا من وجه كون الأربع دول المشار اليهم يتعهدوا بأن يعطوا لجبل لبنان تلك الشرايع والحرية السالفة مع الإنعامات التي كانت تتمتع بها الأهالي تحت أحكام السلاطين^(٣) " .

وكان على رأس كل مدينة أو قرية كبيرة من هذه المديريات وقراها متسلم يعينه الحكمدار بموجب أمر رسمي صادر عنه ، وكان المتسلم يعني بأموال الإدارة ،

(١) يراجع كتابنا الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ج ٢ ص ٥٠ — ٥١

(٢) عابدين محفظة ٢٥٨ رقم ١٣ : المحفوظات ج ٤ ص ١٩٠ .

(٣) عابدين محفظة ٣٦٠ رقم ٢٢٤ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٣٢ .

ويدت في بعض الدعاوى الحقوقية البسيطة ويتعاون ومجالس المشورة في حل المشا كل الإدارية المهمة ، وكانت هذه المجالس تتألف من عدد معين من أعيان المدن والقرى وتمثل فيها جميع الطوائف تمثيلاً نسبياً ، أما صلاحية هذه المجالس فإنها لم تكن فيما يظهر دائماً واضحة محدّدة . فبينما نرى مجلس حلب ينصرف بكليته تقريباً للمحافظة على مصالح الحكومة المأذّية نفاجاً بأمر من العزيز إلى ابنه إبراهيم يستنسب فيه لإنشاء مجلس شورى في قونية ^(١) للنظر في أمور تلك البلاد ومصالحها ولإصدار البيانات اللازمة لتشويق الأهالي وحضهم على الطاعة ^(٢) ونرى في الوقت نفسه مجلس بيروت ينظر في بعض الدعاوى الحقوقية التجارية التي لا علاقة لها بمصالح الحكومة .

وكان العزيز بنوع خاص شديد الاهتمام بالمال يقول : ” إن النقود رأس كل عمل ، ويوجب بذل المهمة في تحصيلها على كل محب مخلص له ” ^(٣) ولا غرو في ذلك فالمال المقنن عليه سنوياً للآستانة فقط بلغ في أوائل عقده في الشام ١٩٨٧٧٦٥ غرشاً . ثم طلب منه بموجب جداول ممثلة في الآستانة ٥٠٢٢٠١٥ غرشاً ^(٤) وإذا ذكرنا المبالغ الطائلة التي يستوفي بها رجال الآستانة ونفقات جيشه العظيم وأسطوله الكبير وإدارته الواسعة إذا ذكرنا جميع هذا رفعنا لومنا عن هذا الرجل الفذ في تمسكه بالمال وفي إلحاحه على رجاله بوجوب جمعه وضبطه .

شعر العزيز بما تقدّم فأنشأ في الشام إدارة خاصة للمال وعين على رأسها برتبة مدير حنا بحرى بك ثم أرفق كل متسلم في البلاد بموظف مالى خاص أطلق عليه لقب الصراف . وحاول بحرى بك أن يجمع ما أمكنه من المال وأن يقوم بواجبه

(١) يراجع كتابنا الأصول ج ٤ ص ١٠٧ ٢٣١ .

(٢) عابدين دفتر ٢١٠ ورقم ٣٣٧ ؛ المحفوظات ج ٢ ص ٢١٩ .

(٣) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ١٧٧ : المحفوظات ج ٢ ص ١٦٩ .

(٤) عابدين دفتر ٤ رقم ٣٢ : المحفوظات ج ٢ ص ٣٩٣ .

”كمحب مخلص“ ولكنه لم يفلح فعرض عندئذ على العزيز مشروعا لإصلاح الحال يلخص بما يلي :

(١) تحديد المبالغ المطلوبة من كل مديرية ومدينة وقرية وطبعا بوضوح في دفاتر معينة وطبع غيرها للحاسبة وتعليم خطباء القرى وفقهاها استعمال هذه الأوراق والدفاتر وتعيين خطيب لكل قريتين أو ثلاث وتعيين ”معاون“ لكل خمسين قرية يشرف على أعمال الخطباء وكاتب يقوم بتعليمهم عند الحاجة .

(٢) مراقبة القرى وحمايتها من جور التجار واعتداء أصحاب القوة والافتقار وشذوذ الموظفين واستخفافهم بالقانون .

(٣) إعداد دفاتر خاصة بوضع على رأس كل صحيفة من صحائفها رقمها المتسلسل وتختتم بخاتم ديوان الحكومة وتوزع على الجهات التي تستعمل فيها .

(٤) الاهتمام بضبط المكايل والموازن وإبطال ما كان مختلا منها .

(٥) جرد النقود الموجودة لدى الصيارفة في أوقات غير معلومة وخص حساباتهم^(١) .

وعندما تم إصلاح الدواوين في مصر وانتهى على تقسيمها إلى أقلام أسس قلم خاص ”بمصالح بر الشام“ . فكتب العزيز إلى الحكمدار يقول : لما كان لبر الشام ككل قطر من الأقطار مصطلحات وقواعد قد يستشكل أمرها ويستبهم فهمها على رجال هذا القلم فالجناب العالى يطلب الى شريف باشا أن يختار رجلا ذا فطنة ودراية مطلعا على قواعد بر الشام فيرسله عاجلا الى مصر ليستقيم في القلم المذكور فيستعان بعرفانه عما يلزم حينئذ . ثم يعود فيقول : ”أنه عاد ففكر في كثرة أيلات بر الشام فاستبعد وجود رجل واحد تيسر له معرفة أصول كافة الأيلات ولذا فانه يرى أن يستحدث في بر الشام قلم صغير خاص بمصالح المقاطعات

والالتزامات يتولى بحث الأوراق العديدة وتدقيقها هناك ثم يبعث بخلاصة بحثه ونتيجة تدقيقه الى مصر . يفضل الجنب العالى هذا على إرسال الدفاتر والأوراق المتنوعة الى مصر ويستطلع رأى شريف باشا بالأمر^(١) .

وعهد العزير بعد موافقة ابنه إبراهيم الى سليمان باشا الفرنساوى بمراقبة شؤون الأجانب في بر الشام . فحاول هذا ضبط هويتهم وأمر بتطبيق قوانين التجول المتبعة في البلدان الأوروبية . ففرض على الأجنبي وجوب اتصاله بقمصله للتأشير على جواز سفره لدى وصوله الى بر الشام ووجوب مشولة أمام السلطات المحلية للحصول على شهادة هوية يبرزها عند الطلب^(٢) . وكان إبراهيم باشا قد عهد الى إسماعيل عاصم بك مدير أمانة حلب بمراقبة الحدود التركية وتنظيم شبكة للجاسوسية للعرض نفسه . فلما بدأت علاقات العزير مع السلطان تنازم من جديد أراد إبراهيم باشا أن ينشئ^(٣) قلم استخبارات عسكرية برئاسة المسيو إليه رئيس الاستخبارات بجزيرة كورسك^(٤) . وعنى إبراهيم عناية خاصة بتحسين المواصلات ولاسيما بتنظيم البريد العسكرى وقسمه الى قسمين بريد عادى وبريد مستعجل فكانت رسائله المستعجلة تصل من بعلبك الى مصر في ستة أيام . ثم أراد إبراهيم أن يخدم الجمهور فأمر بإعداد مشروع خاص لإنشاء بريد عام ينقل رسائل جمهور الناس . وما أن علم قنصل بريطانية في دمشق بهذا حتى احتج مدعيا أن إنشاء بريد عام يضر بالبريد الإنكليزى الذى كان يصل بيروت بدمشق . فاستدعى العزير قنصل بريطانية العام اليه وفأوضه في الأمر فوعده بالتدخل . فأمر العزير ابنه إبراهيم

(١) عابدين دفتر ٢١٢ رقم ١٢٣ و ١٢٥ : المحفوظات ج ٣ ص ٤٠

(٢) عابدين محفظة ٢٥٣ رقم ١٩٦ : المحفوظات ج ٢ ص ١٥٢

(٣) عابدين محفظة ٢٥٦ رقم ١٦٣ : المحفوظات ج ٣ ص ٤٤١

(٤) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٤٨٠ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٤٧

بوجوب المضى فى العمل وإجراء التغييرات اللازمة لإنشاء البريد الجديد . وقيل^(١)
اتهاء الحكم المصرى فى الشام أمر العزيز بإنشاء أبراج للإشارة بين مصر والعريش
ورأى أن المصلحة تقضى بإكمال هذه السلسلة وأنشأ أبراج للإشارة بين العريش
وعكة^(٢) . وكان سليمان باشا الفرنساوى قد اقترح على سامى بك معاون العزيز لإنشاء
طريق تصل بيروت بدمشق وطريق أخرى تربط قرنايل ببيروت^(٣) .

وأراد إبراهيم إصلاحا حقيقيا فرقب الإدارة الجديدة رقوبا شديدا وتفهم ضعفها
فكتب مرارا وتكرارا الى القاهرة يشكو الاضطراب الذى وقع فى هذه الإدارة
ويعزو ذلك إلى إهمال الموظفين وانصرافهم عن المصالح العامة الى ملذاتهم وشؤونهم
الشخصية ومن هؤلاء محمد شريف باشا واسماعيل عاصم بك . وتولى تفتيش الإدارة
بنفسه فالفها ملوثة تلويثا ووجد بحرى بك مهملًا ولمس تراكم أعمال المجلس فى دمشق
سنة ونصف سنة فأمر بحبس أعضائه فى قاعة المجلس الى أن يتقوا رؤية الشؤون
الموقوفة . وشكى ارتباك الأمور فى أيلة صيدا بنوع خاص فأفاد أن رجلا أتى اليه
وادّعى أنه بإمكانه أن يثبت أن متسلم غزة اختلس ما لا يقل عن ألفى كيس وأنه
قزر أن يقضى فصل الشتاء فى أيلة صيدا للاعتناء بشؤونها . وكتب فى إحدى رسائله
الى معاون العزيز يقول : "أخى، تعلمون أنى مريض أتمتع بالصحة يوما فيمتلبنى
المرض يومين وأنى أتعقل من محل الى آخر لإنقاذ الثورات التى تظهر بدون انقطاع
ولذا فإنى لا أقدر على إدارة الشؤون العسكرية والمدنية فى آن واحد . فلا بد والحالة
هذه من تعيين شخص يكرس وقته للشؤون المدنية . وإنى أرى فى شرمى أفندى خير

(١) عابدين محفظة ٢٥٨ رقم ٢٤٦ ومحفظة ٢٥٩ رقم ١١ وعابدين دفتر ٢١ رقم ٣٦٦ : المحفوظات

ج ٤ ص ٢٨٨ و ٢٩٨ و ٣٠٨ .

(٢) عابدين دفتر ٢١ رقم ٤٨٩ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٥٨ .

(٣) عابدين محفظة ٢٥٤ رقم ٢٦٥ : المحفوظات ج ٣ ص ١٦٨ .

من يقوم بهذه المهمة . فإذا وافقت الإرادة السنية على تعيينه قام هو في التفتيش وقمنا نحن بتفتيش أرائه^(١) .

والغريب المستغرب أن القائد العظيم شكى كل هذا ولكنه لم يربط بينه وبين تأخر مرتبات هؤلاء الموظفين تأخرا قد لا نجد مبررا له . قال رحمه الله في الرد على الخطاب الذي التمس فيه الحكمدار صرف مرتبات نظار المستودعات مرة كل أربعة أشهر : ”أيها الباشا إذا كان هؤلاء طلب فلنا واحد وعشرون مرتبا . وقد كتبت اليك غير مرة في مسألة النقود وكانت تأتي منك كتب يحتوى كل منها على أربع مائة سطر لا ذكر فيها للنقود . وهل يرضى الله تعالى أن ينال الناس في أحضان أزواجهم ويظل الجنود التعساء تائهين في الجبال وبين الصخور وليس لديهم نقود“ . وكتب الى الأمير بشير في الموضوع نفسه مانصه بالحرف : ”وردت ورقكم المتضمنة خصوص استنظار العيسوية من شأن صدقة . يامير يلزم في هذا الخصوص تحلم علينا . في الواقع يقولوا الصدقات ترد البلاد وتزيد العمر . ولكن في حقنا العسكربقا لهم واحد وعشرين شهرا لم أخذوا نصف فضة . وقال بحرى بك في كتاب رفعه الى ابراهيم باشا ما معناه : لقد تفضلتم في أثناء وجودكم في هذه الجهة فأصدرتم لإرادتكم العلية بصرف مرتب شهرين من مرتبات الموظفين المالكين بعد صرف مرتبات أربعة شهور للعساكر . والآن وقد تم صرف مرتبات أربعة شهور للعساكر فاني أعرض ما يلي :

إن الموظفين المالكين مثل المتسلم والكاتب أصبحوا في حاجة الى قوتهم اليومي من جراء عدم صرف مرتباتهم الموقوفة . وحيث أنهم أصحاب أولاد وليس لهم مورد رزق آخر فلا يبعد والحالة هذه أن يفتروا عن أداء الواجب وأن يمددوا بضغط

(١) عابدين محفظة ٢٥٦ رقم ١٣٣ : المحفوظات ج ٣ ص ٤١٧ — ٤١٨ .

(٢) عابدين محفظة ٢٥٨ رقم ٤٣ و ٤٩ : المحفوظات ج ٤ ص ٢٠٦ و ٢٠٨ .

الضرورة أيدى العتب والتطاول الى المصالح الأميرية المحولة إلى عهدتهم وإلى أموال الأهالى . ولذلك فإننى أقترح ما يأتى : يصرف مرتب شهرين لمن أوقف مرتباتهم ستة أشهر ثم يصرف مرتب شهر واحد فى كل شهرين كما هو جار مع أفراد الجليش^(١) .

ولم يكثف إبراهيم بمثل هذه المطالبات الرسمية . فإنه هدد أكثر من مرة بالاستقالة فكان لتهديداته وقع أليم فى نفس والده " ولا سيما وأن هذه التهديدات صدرت عن ابن العزيز الذى هو من صلبه^(٢) " .

هذه هى حكومة العزيز فى الشام ومميزاتها الكبرى لأنها كانت حكومة قوية أحلت النظام محل الفوضى والارتباك . قال إبراهيم عن حكمه لمرعش وأورفة : " إننى فى خلال المدة التى وليت فيها القيام بخدمة الحناب العالى الخديوى لم أتسبب فى أذية أى إنسان ولم أعمد إلى إيقاع الضرر بملك أو مال أى فرد من الناس . وهذا أمر يعرفه جميع أولى الأبصار كما يعرفه جميع أهالى البلدان التى جبتها وأهالى البلدة التى أقيم فيها الآن . ولما كنت أعامل الضباط والعساكر حسب نصوص القوانين ولا أحيد عنها فى علاقتى معهم قسدا شعرة فقد اقتفوا هم أيضا أثرى ولم يخرفوا عن هذه القوانين . إننى وإن كنت لم آت بعد أورفة فإننى منذ عشرة أشهر أقيم فى مرعش ولقد أعلن وجوه الأهالى فى مرعش المرة بعد المرة أنهم لم يمتنعوا طيلة حياتهم بمثل حكمنا العادل . أعلنوا هذا فى أسواق البلدة وفى جامعها الكبير وهم يقولون لقد كانوا فى العهد السابق يستولون على ما فى بنادرنا من ظلال وينهبون أثمار بسايتلنا وهب الله سلطاننا العمر الذى لا يفنى وعساه ألا يحرمنا من وزيرنا هذا العادل أى العزيز نفسه ذلك أننا لا نعاملهم كما كانوا يعاملون قبلا

(١) عابدين محفظة ٢٥٧ رقم ٢٩ : المحفوظات ج ٤ ص ٢٦ — ٢٧ .

(٢) عابدين محفظة ٢٤٨ رقم ١٧٩ : المحفوظات ج ٢ ص ٢٨١ .

من حيث التجنى عليهم وإتهامهم بدون حق لغرض ما . والأهالى الآن يؤدون الويركو على نحو ما هو مسجل فى سجلات المحاكم لا أكثر ولا أقل . إننى أدفع أثمان جميع حاجياتى اللهم إلا إيجار المنزل الذى أقيم فيه وثن المء الذى أشتريه وأنا متكفل أمر استقامة العساكر وحسن سيرهم^(١) .

ومن ميزات هذه الحكومة أنها كانت تميل إلى المشاورة فى الأمور قبل إبرامها وإنها كانت متتورة تحب العلم وتشجع طلابه موظفين وعاديين وقد أشرنا سابقا إلى ترقية الضباط الذين أثبتوا مقدرتهم على القراءة والكتابة . ونزيد الآن أن الحكمدار كتب مرة إلى معاون العزيز يفيد أنه أعلن لمن يعنيه الأمر من موظفى الحكومة فى بر الشام استعداد ديوان المدارس لبيع بعض الكتب التى كانت تطبع فى بولاق . ولأنه مقدم لنا القوائم التى وردت عليه من الشام وحلب وطرابلس واللازقية وغزة وبافه : أما الكتب المطلوبة فهى قانون الصناعة وعقرب الساعة وكتاب الحكمة وعلم الحساب وتاريخ أميركة وكتاب المعاين والتشريح البشرى وقلائد المفاحر وعقد الجمان وشرح المثنوى وكليلة ودمنة وتاريخ قدماء الفلاسفة وتاريخ الإسكندر وتاريخ المصريين والجغرافية الطبيعية وكتاب الطبيعة وأخلاق علائى وكتاب الطاعون وكتاب الفطر وتاريخ إيطاليا وابن عقيل وتطعيم الجدرى والتشريح العام ورحلة الشيخ رفاعة وقانون الزراعة وإنشاء الشيخ عطار وكتاب المنطق وصناعة الأفر باذين واللوغرتمة وجر الأثقال وتاريخ الأديان وكتاب الجراحة والفسولوجية والبتالوجية^(٢) . ونرى هنا بحرى بك ينزه بأهمية تاريخ ابن خلدون ويذكر المساعى التى أمر الجناب العالى ببذلها لاستنساخه عن نسخ المغرب ولنقله إلى التركية ثم يرجو التفضل بإرسال ما ترجم منه كي يمتز أولاده عليه ويعلمهم أصوله^(٣) . وقد

(١) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ٢٣ : المحفوظات ج ٤ ص ٣٠٥ .

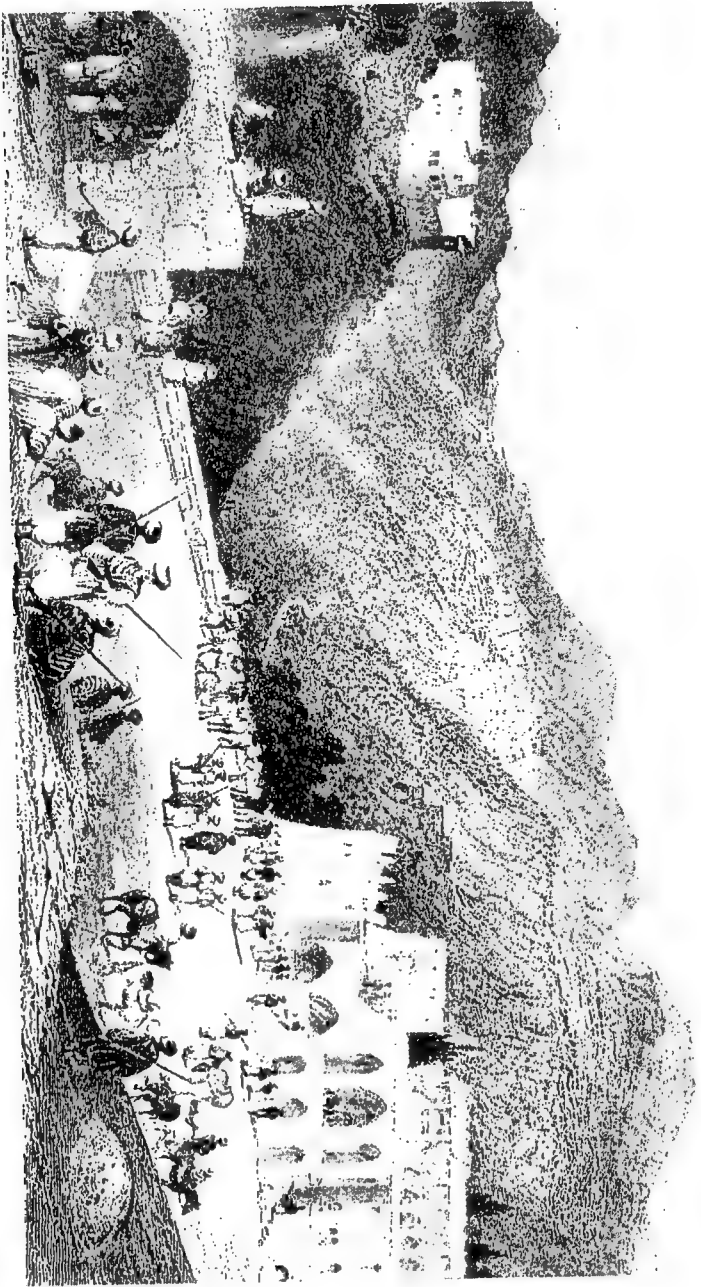
(٢) عابدين محفظة ٢٥٧ رقم ٢٠٤ : المحفوظات ج ٤ ص ١٧٦ --- ١٧٧ .

(٣) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ٥٧ : المحفوظات ج ٤ ص ٣١٧ .

أشرنا سابقاً إلى اهتمام هذه الحكومة بالصحة العامة أن من حيث إنشاء المستشفيات
أو من حيث تطبيق قوانين الصحة .

ولعل أبهج ميزات هذه الحكومة وأقربها إلى نزعة العرب في هذه الأيام أنها
سبقت أخواتها في سائر الأقطار العربية في ميدان الوطنية والعروبة . فقدّمت
الوطني على الأجنبي كما سبق فقلنا وعنت بطبع الكتب العربية ونشرها بين الناس
وقبلت العرب في الوظائف الهامة وقللت الأتراك

عن بيروت في ١٥ أيلول سنة ١٩٤٨



بيت الدين

القسم الثاني

التاريخ الحربي

الجيش الذى قاده ابراهيم

للبيكاشى عبد الرحمن زكى مدير المتحف الحربى

لم يرث محمد على ملكا موطد الدعائم منظم الأركان . ولم يهبه الله دولة كاملة الموارد مستحوذة للسيادة ! بل أتى إلى مصر — كما لا يحفل أحد — ضابطا برتبة البيكاشى ضمن أفراد حملة تركية ، ابتغاء طرد الأعداء من أرض الوطن .

وما زال يدرج به الحال ، حتى استقرت له الأمور ، وأسلم اليه القيادة ، بما أحرز من فطنة بادية ، وبما تحلى من شخصية ظاهرة . وصار على رأس وادى النيل . الربان الأمين ، يوجه السفين بيد حكيمة ، وعين بصيرة ، رغم ما تحوطه من أنواء عصفاء ، وأمواج هدارة .

وأحس بشئ فى أعماقه يربط مصر بحياته ، ويستحثه لأن يخلص لها الحب ، ويوفى إليها بالجهاد . فنذر لها العمر بما فيه من بذل وجهد وتضحية .

فانطلق يقطع الشوط تلو الشوط — مناخا ومجاهدا — سنين طويلة ليجمعها أمة خليقة بالاستقلال ، جديرة بالحياة . وقد واتاه التوفيق بل ما هو أكثر من التوفيق ، وظفر بتحقيق ما ساور رأسه من أمان . رغم ألوان الصعاب التى واجهته ، وأشتات المتاعب التى بثت فى طريقه .

وغنى عن القول إن إنشاء الجيش المصرى كان الدعامة الأولى التى حقق بها معظم أمنيته ، بعد إصلاحه أداة الحكم فى مصر ، واكتسابه عطف العالم الإسلامى ، ثم عنايته برفع مستوى البلاد الاقتصادى .

فكيف تهيا لهذا العاهل الكبير إعداد مثل هذا الجيش الذى تشيد صفحات التاريخ بمفاخره ، وتكاد تنحني هامة الزمن قبالة فتوحاته . كيف عاجل هذا القائد

الأسباب والمسببات التي أفضت به إلى الحصول على "إدارة عسكرية" كانت لها صولة وجولة ، في عهدها المنصرم ! ؟

ينبغي أن نعود إلى الماضى ، ونقفوا آثار الخطوات التي انتهجت ، والمهدات التي اختطت ، ففيها الضوء ، وعليها الإبانة .

من البداهة بمكان ، إنه لم يك في مصر جيش منظم يستند عليه محمد على ، لتأسيس ملكه الجديد . فبذل همه ، مذ تبوأ الولاية ، في تهيئة جيش وطنى من أشبال البلاد .

ولكن مثل هذه الفكرة الصائبة يئتها في نفسه متحينا الفرصة الملائمة لتنفيذها ، ورأى من الحكمة — مهما استطل الوقت — ألا يتعجل في إيقاظها . وظل يستخدم جنوده من أخلاط الأجناس العثمانية في حروبه لمعاونة سلطان العثمانيين ، في بلاد العرب واليونان ، وفي حملته السودانية . وكانت هذه الجيوش تتمتع الأساليب الحربية العتيقة ، سواء في مطالب التسليح أو طرائق القتال . حتى إذا خرج ابنه القائد إبراهيم ظافرا ، أقدم الوالد بما أوتي من الشجاعة الأدبية ، والبسعة الفكرية ، على تحطيم آله الحربية القديمة ، ليستبدل بها آلة أخرى من نوع مستحدث .

وشرع محمد على بالفعل — وقد اختمرت الفكرة — في تنفيذ الخطة . وبمعنى أوضح لكى يهـى في وادى النيل جيشا جديدا مدربا على أحدث القواعد والنظم العسكرية .

واستهل محمد على سبيله الشائك بأن راح يقنع قواد الجندية بأفضلية النظام المبتنى وما زال بهم حتى أفضى الأمر أن يتقبله بعضهم . فلم يأت أغسطس عام ١٨١٥ حتى أشاع رغبته الملحة على رؤس الأشهاد ، وصحبها بما يتسمى بـ "التنفيذ" .

وقد وصف الجبرتي مؤرخ ذلك العصر ما حدث من الجند عقب المحاولة الأولى التي أرداها الفشل ، وزراه يسجله بين أحداث (٢٥ شعبان عام ١٢٣١ هـ — ٣ أغسطس عام ١٨١٥ م) فيقول :

”أمر الباشا جميع العساكر بالخروج إلى الميدان قبيل الفجر للتعليم على طريقة الإفرنج إلى الضحوة فأخذوا في الرماحة والبندقية المتواصلة المتتابعة مثل الرعود ورجعوا داخلين في المدينة في كبكة عظيمة وداسوا أشخاصا بجيولهم بل وحميرا أيضا“.

وقد دبر الجنود غير النظاميين مؤامرة واسعة النطاق بين جوانح القاهرة في وجه هذا المشروع الجريء . فنشهدهم ينسابون أو يتوزعون في طرق المدينة ينهبون ويهشمون بل ويقتلون كل ما صادفهم في طريقهم . ولولا الذين تصدوا لهم من الأهالي بالبنادق، وغلق أبواب الأحياء والمتاجر، لكانت الحال أفظع ! .

ولكن قابل محمد على هذه الحركة اللاخفة بسمات الحلم والأناة . وتسنى له أن يستغل تلك الحوادث المنكرة لخدمة مشروعه العظيم . وبادر إلى إبداء مظاهر استيائه وعوامل استنكاره بما اقترفه المتمردون — وأكثرهم من شبان الممالك والألبان — وقرّر تعويض جميع التجار الذين نهبت حوانيتهم ، مما جعل الشعب يلهج بالثناء عليه ، ويسخط على الجند المتمردين . بل وكان في هذا العمل دعاية طيبة ”لنظام الحديث“ .

ووفق الباشا يهيئ الوسائل لإدخال ذلك النظام ، الذي لم يقدم على تنفيذه إلا سنة ١٨٢٠ ، بلنا كان يتحين الفرص تدريجيا للتخلص من أدران الجنود غير النظاميين ، وإبعادهم عن القاهرة ، حتى لا يكون احتشادهم فيها عونا على تمردهم ، وباعثا لتجديد الفتن ، فوزعهم على الثغور المختلفة .

وفي هذا السياق نأتى على ما سطره الجبرتي في حوادث عاشر المحرم سنة ١٢٣١ —

١٢ ديسمبر ١٨١٥ :

”رجع الباشا من الإسكندرية وأول ما بدأ به إخراج الجنود مع ضباطهم الى شمال الدلتا وجهة البحيرة والثغور فنصبوا خيامهم بالبر الغربي والشرقي تجاه الرحمانية وأخذوا صحتهم مدافع وبارود وآلات الحرب واستمروا خروجهم على دفعات كل يوم وذلك

لإبعادهم عن مصر جزاء فعلتهم المتقدمة واستهل ربيع الأول عام ١٢٣١ هـ وفيه سافر طوسون باشا وأخوه إسماعيل باشا الى ناحية رشيد ونصبوا خيامهما (عرضيهما) عند الحماد وناحية أبي مندور (من أعمال مركز دسوق) وذلك لكي يدخل على الجند أنه أخرج معهم أنجاله للمحافظة ومعهم الكثيرون من كبراء البلاد الى جهة البحر الشرقى ودمياط .

وقال عن بناء الثكنات للجند الذين شتتهم محمد على بالأقاليم : إن الباشا أمر ببناء مساكن للجند الذين أخرجهم من مصر بالأقاليم يسمونها القشلاقات بكل جهة من الأقاليم لسكن الجند المقيمين بالنواحي لتضررهم من الإقامة الطويلة بالخيام في الصيف والشتاء واحتياج الخيام في كل حين الى المحافظة والعناية بها .

واضطلع محمد على بمحاولة ثانية — وهو الصبور الذى لا يئأس — عقب حملته في السودان ، فأمر بجلب عدد من السودانيين ليجندهم ، غير أن المرض أنشأ أظفاره في جسومهم ، حتى كاد يستأصل شأقتهم . فأخفقت تجربته الثانية .

فلم يتبق قبالة محمد على — والحالة هذه — إلا أن يرجع الى الأمر الطبيعى ، وأن يعهد بالدفاع عن مصر الى سواعد بنيها البررة .

وكان أن أنشئ المعسكر الأول لتدريب النواة الأولى للجيش في ربوع اسوان . وتشاء الظروف المواتية أن يصل الكابتن سيف الى مصر ، فيطلب اليه أن يكون رئيس المدربين العسكريين في المعسكر الجديد . ثم بعث بابنه إبراهيم ليشرف على تدريب الغلمان الذين يعهد اليهم في قابل حياتهم مهمة تدريب الجند (يوليو عام ١٨٢٠) .

وفي الثالث من أكتوبر عام ١٨٢١ (٦ محرم ١٢٣٧ هـ) صدر أمر من لندن محمد على باشا الى محمد بك لاط أوغلو ناظر الجهادية ، أشار به الى تعيين أمين أفندى المعماري للقيام ببناء ثكنات اسوان ، تسع كل ثكنة ألفى جندي ، على أن تبعد الواحدة

عن الأخرى مدى ريع ساعة . وأمره بأن يتعاون مع أحمد باشا طاهر متصرف
بحرجا ، لكي يستكمل العمل سريعا .

وفي التاسع عشر من أكتوبر من العام الآنف (١٢ المحرم) صدر أمره الى
مدير دنقلة لتشديد تكن بالصعيد الأعلى بمعرفة محمد بك لآظ أوغلو ، ليكون مأوى
السودانيين المحندين من السودان ، وأوصاه بئذ ما يستطيع من الجهد والهمة . ولم
ينس أن يكتب الى محمود بك مدير بربر وشندى يشير له باستعمال الوسائط الضرورية
للغاية برفاهية السودانيين ومأكلهم ومشربهم وسفرهم برا وبحرا ؛ لأنه وصل الى
مسامعه نزول تلف جسيم بهم في خلال الطريق . كما أشار — في خطاب بنفس
المعنى — الى نجله إبراهيم باشا والى جدته وأمره بوضع النظم والتسهيلات التي
تكفل تسيير أحوالهم في متباين الظروف .

وفي نفس الوقت (١٣ المحرم ١٢٣٨ هـ) صدر أمر من محمد على الى محمد بك
لاظ أوغلو ذكر فيه أنه انتخبه دون سواه لوثوقه به ناظرا على الجهادية — مؤسسته
الجديدة — ومن معه من الضباط المعينين وأغلبهم من غلمانة الذين رباهم ، وأن
له أملا أن يسلكوا السلوك الحميد .

ميلاد النظام العسكرى فى وادى النيل

وفي السابع عشر من شهر فبراير عام ١٨٢٢ (٢٥ جمادى الأولى ١٢٣٧ هـ)
صدر أمر من محمد على الى أحمد باشا طاهر ذكر له فيه أنه لضرورة إعادة الجنود
الترك من السودان لعدم تحملهم حر البلاد استصوب جمع أربعة آلاف مصرى من
الوجه القبلى لينضموا الى محمد بك لآظ أوغلى ناظر النظام العسكرى ، ومن يجمع يرسل
الى سليمان بك أغا (الفرنسى) معلم الجنود باسوان ، لتعليمهم حسب مقتضيات
النظام الجديد . وبعد خدمتهم ثلاث سنوات يعودون لبلادهم ويعافون من جميع
التكليفات . وإنما يعدون من الجنود ما داموا على قيد الحياة . وكان هذا أول
تأسيس للنظام العسكرى بمصر .

ومثل هذا النظام الحدث، كان بحاجة ماسة الى إقناع القائمين به قبل سواهم بقيمته، وتوجيه نظرهم الى أهميته، وما يعقد من الآمال على نتائجه، لكي يعنوا به عناية وفيرة ويؤتي ثماره . ولذا لم يك بدعا حين نرى محمدا عليا يبعث برسائله في هذا المعنى الى المختصين .

فمن رسالة وجهها الى ناظر مصلحتي اسوان وفرشوط يقول :

” لقد اقتضت التجليات الإلهية التي أظهر الله فينا آياتها أن يخرج هذا الأثر الجليل — أى النظام الجهادى الجديد — من حيز القول الى حيز الفعل فى زمان شيخوختنا فإذا عسانا صانعون ؟ ... اللهم إلا أن نكون قد أدينا على قدر كبرنا خدمة للدين المبين وأن نكون قد ضاعفنا ما اكتسبنا من مجد وشهرة“ .

وجاء فى رسالة أخرى كتبها لابنه إبراهيم بمناسبة تجنيد الفلاحين ما يلى :

الى مولانا صاحب الدولة إبراهيم باشا^(١)

لما كتبنا الى أحمد باشا متصرف جرجا والى محمد بك ناظر مصلحتي أسوان وفرشوط أمر جلب وجمع الأفراد المعلمين المراد تدريبهم من الأقاليم الصعيدية أدرجنا لهم وسطرنا أن يفهموا من مقتضى الحال أنها مهم أن يكون كل واحد من هؤلاء الأفراد متوطنا فى القرية التى يجلب منها وإذا أهل وسكن فيها وليس من أولئك الدخلاء الشاردين الذين لا يضبطهم رش ولا يفقههم زمام وأن يحزر هؤلاء الأفراد بمعرفة حكام أقاليمهم وبكفالة شيوخ قراهم بحيث يكونون مستقرين فى أماكنهم مهئين للطلب وأن يثبت فى الدفتر أسماء قراهم وأسمائهم وأبائهم وأنهم سيستخدمون ثلاث سنين ويعطون فى أثناء خدمتهم لحما وأرضا مقللا مرتين فى الأسبوع ومرتب قدره ثمانية قروش كل شهر والكسب اللازمة لهم فى كل عام ثم يطلقون ويسرحون بعد السنين الثلاث وتسلم إليهم وثائق مختومه تتيح لهم الإقامة فى قراهم معافين من التكاليف .

(١) المكاتبة التركية رقم ١٦٨ دقر ١٠ معينة تركى بتاريخ ٦ رجب سنة ١٢٣٧هـ (مارس ١٨٢٢).



ابراهيم باشا

وقد جاءنا والحالة هذه عثمان أغا^(١) أمين ملا بسنا فقال لنا إن الفلاحين المتوطنين لا يحتررون بل سيفرون وأن متصرف جرجا وناظر مصلحتي أسوان وفرشوط يشاهدان هذه الحالة فيميلان الى تحرير الفلاحين الدخلاء . وأنه اتخذ طريقا يمتز بكم فخرج عليكم وأخبركم بما هو واقع ومع أن هذه المصلحة الخيرية ظاهر أنها من الأمور الدينية وبديهي وظاهر أنها على كل حال ستكون موجهة للسعادة إلا أنه لما لم يكن من عادة الفلاح ولا من طبعه أن يقبل على هذا الأمر فلم يكن ثمة ما يوجب إرغامه عليه ولا معاملته بالعنف فيه بل كان يلزم تحرير الفلاحين وتجنيدهم باستدراج عقولهم إليه وذلك بتفهمهم تدريجا أنه أمر منطوي على الخير ويملا آذانهم بالأقوال التي تستوجب حسن قبولهم إياه وقد يكون ذلك بوساطة الواعظين والفقهاء الذين يمتزنونهم على الانعطاف إليه وتولية وجوههم شطره فالذي يلوح لي هو أنه لم يشرع في إنشاء أساس هذه المصلحة على هذا الوجه الذي تتطلبه طبيعة العمل فيها بل اعتبرت كمسائل السخرة وعولجت كيفما اتفق فكان هذا داعيا الى إباء الفلاح وامتناعه . وعلى هذا التقدير فلو كتبتم سعادتم الى متصرف جرجا والى ناظر مصلحتي أسوان وفرشوط بمراعاة قاعدة التدرج وعدم اتخاذ سبيل الجهر في التجنيد بل تلقين الفلاحين وملء آذانهم واستدراك أذهانهم بوساطة الوعاظ والفقهاء ولو أن الطرق التي من شأنها جلب الفلاحين أرشد إليها ودل عليها لكان من البديهي أن يقترن هذا العمل بالتنفيذ على وجه السهولة كما أن من البديهي أنه لو ذكر الفلاحون مثلا بأن الفرنسيين لما أرادوا أخذ عسكر من القبط لم يخالف القبط في ذلك ولم يتخلفوا عنه نظرا لما هو معلوم من غيرتهم على الكفر فاذا كان هذا شأن القبط فلا بد من أن الفلاحين الذين شرفوا بنور الإيمان تأخذهم الغيرة على ذلك فلا يمتنعون عن قبول هذه المصلحة الخيرية لما خلا تذكيرهم بمثل هذه الأقوال من الفائدة . فاذا سارت الحال على هذا النهج فحينئذ لا يحتر الجنود من الدخلاء الشاردين بل يقيدون كما نفضل ونستصوب من

(١) اللواء عثمان نور الدين باشا فيا بعد .

المتوطنين المستقرين وعلى هذا فان مما يوافق المصلحة أن تتذاكروا وتبحثوا مع أهل
المجاس ثم تكتبوا الى كل من المومنا إليهما رسالة على الوجه المحترر بعاليه “ .

سير العمل فى المعسكر

وحين أقبل الثامن عشر من رجب عام سنة ١٢٣٧هـ (١٠ أبريل سنة ١٨٢٢)
صدر أمر من محمد على الى ابراهيم أبان فيه عن وصول تقرير من سليمان أغا ومن
أحمد أفندى المهندس ومن عثمان نور الدين ، أساتذة العلوم العسكرية ، عن تشكيل
وتهيئة النظام الجديد — وعلم منه أن مشروعه ينطوى على تأليف أورطتين مكوّنتين
من ١٩٤٣ جنديا بقيادة لواء . وهذا الترتيب اتبعه نابليون على مقياس كبير وهو
لا يوافق عليه ، ويرى أن يجتمع لديه الضباط لوضع ترتيب التشكيلات العسكرية .
وفى خطاب آخر نرى محمدا عليا يبدى الموافقة على شريطة أن يؤلف الآلاى من
ألف الى ألف ومائتى جندى على غرار ترتيب السلطان سليم العثمانى .

الوحدات العسكرية الجديدة

وكان ناظر الجهادية على اتصال مستمر بالباشا — يبلغه نتيجة أوامره أولا
بأول ، ويفيده بما يتم لإنشائه من الوحدات الجديدة . والوثيقة الآتية تبين
لنا تأييد هذا الرأى .

من الجناح العالى إلى ناظر مصالح اسوان وفروشوط :

قد علمنا من مكاتبتكم الواردة أنه صار تنظيم الأمور اللازمة للأورطة المشاة
فى اسوان وفروشوط بحسب الحاجة وانضمام رأى حضرة صاحب العطفوفة نجنا
الباشا والى جدّة وأن نجنا الباشا المذكور قد عاد إلى مصر وأنكم قصدتم إلى اسوان
ولما وصلتم إليها أنشأتم ثلاثة أورط أخرى فبلغ مجموع الأورط أربع عشرة أورطة

(١) وثيقة تركية رقم ٣٧١ دقرقم ١٠ معية تركى ورقة ٧٢ بتاريخ ٢٤ ذى الحجة ١٢٣٧ هـ

(١١ سبتمبر ١٨٢٢ .)

وأن الأغوات الموجودين لدى خورشيد أغا والقائمين بتعلم فن الهندسة صار قيديهم في الأورط وأن الذين يقومون منهم بالواجب تبذل لهم الرعاية والاحترام والذين لا يقومون بالواجب يسرحون . وأنه ورد من لدن نجلنا الباشا سر عسكر السودان ٩٥٠ نفرًا من العبيد على دفعتين فوزع منهم ٧٥٠ على الأورط كما إنه ورد مني طرف نجلنا الباشا السر عسكر المشار اليه ٤٥٠ بحملا فقام حاكم بربر بسوقها نحوكم إلا أن عربان البشارة قطعوا عليها الطريق واعترضوا مسيرها واستولوا عليها فنبلغكم سرورنا وحبورنا من غيرتكم وحميتكم المشهورتين ولا يخفى عليكم أنى متظر منكم الأخبار كل خمسة عشر يوما لما تقتضيه الظروف الحالية وعليه يجب أن تبادروا الى بذل حميتكم في إشعارنا وإبلاغنا أخبار تلك الجهات كل خمسة عشر يوما بانتظام .

أوامر محمد علي إلى ضباطه^(١)

وفي ١٢ المحرم ١٢٣٨ هـ (٢٩ سبتمبر ١٨٢٢ م) وجه محمد علي الى نواة ضباط جيشه الجديد بأسوان رسالة تفصح عما في مكنون نفسه للنهوض بدولته الجديدة — قال لهم :

مرسوم إلى ضباط الجيش بأسوان

اليكم يا مفاخر الأماثل والأقران بكاشية جنودنا — الجهادية المقيمين في اسوان وضباطهم من رتبة الصاغ قول أغاسي والصول قول أغاسي واليوز باشي والملازمين وحاملي الأعلام والضباط الآخريين ... نبليكم أن سلك الجهادية الشريف هو أعز المسالك وأكرمها من الوجهتين الدينية والشعبية وأن الشؤون الحربية هي أهم الشؤون والمصالح بالنسبة للحكومة والوطن . وقد أثنى الله سبحانه وتعالى أحسن الثناء على من سلكوا هذا المسلك القويم في قرآنه الكريم وبين نبينا الكريم المبعوث للإنس والجن كافة في حديثه الشريف مقدار ما يصيب سالكو هذا الطريق من العزة والشرف والسعادة من كل الوجوه .

(١) وثيقة تركية رقم ٣٧٥ — دفتر رقم ١٠ معية تركي بتاريخ ١٢ محرم سنة ١٢٣٨ هـ (٢٩ سبتمبر سنة ١٨٢٢ م) .

يا أيها البكاشية وغيرهم ... لقد واثاكم السعد ونالكم الحظ الأوفر وأمدكم التوفيق الأزلى بفاء كل منكم وأصبح مظهرا للطف والعناية ومصدرا للشرف والسعادة كل على قدرها وتراخوا حقوقها فهذا التقدير وهذه المراعاة لا يكونان مرة أخرى إلا إذا تركتم عاداتكم التي كنتم مطبوعين عليها ونبذتموها ظهريا وتشبثتم بقواعد المسلك الجديد والحمد لله فكل منكم محترم الجانب مرعى الخاطر وكل قوانينكم ونظمكم موافقة فارجعوا الى أنفسكم واقروا ضمائرکم واعملوا بمقتضى الرجولة واسلكوا سبيلكم بمقتضى الإنسانية ... وليقم كل منكم ببذل همته فى أمور تعليم وتدريب الموجودين فى أودرتكم ولا يهملان فى ذلك وليسع الى أن يكون كل شىء منظما أحسن نظام وفقا لقوانينكم وقواعدكم المقررة .

أما ناظرکم محمد بك : فهو رجل الأمين الوفى وهو ناظرکم الرؤف بكم كأنه أبوکم فرضاؤه رضائى وإدارته إدارتى . فلا تخرجوا من رأيه ولا تحرفوا عن طاعته ولا تحيدوا عن إدارته بأى حال من الأحوال . ويقضى واجبكم بأن تكونوا يدا واحدة فتقوموا بالاتحاد على إجراء ما يوافق القانون والنظام والابتعاد عن كل ما يخالفها واصرفوا رويتكم فى تنفيذ هذا النظام ولا تغفلوا عنه ولا تهملوا فيه أبدا . وقصارى القول إن ما نؤمله فيكم أن تراخوا المواد التي ذكرتها لكم وهذا مادعانا الى تسطير مرسومنا هذا وإرساله اليكم فلدى وصوله بمشيئة الله تعالى اقرءوه وكلکم حاضرون واعملوا بمقتضاه .“

الجيش فى نظر محمد على

وحدث أن بلغ محمد على أن بعض رجال الجيش فى أسوان قد ارتكبوا بعض الذنوب — فكتب الى ناظر اسوان وفرشوط يبسط له الرأى الذى يتهم به فى علاج هذه الحالة الطارئة ويبقى على عاتقه تصفية مجرى الأمور ... فيقول^(١) :

(١) وثيقة تركية رقم ٣٧٦ دقر رقم ١٠ معية تركية (ورقة ٤٧) بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٣٨ هـ

(٣٠ سبتمبر سنة ١٨٢٢) .

من الجنب العالى الى ناظر اسوان وفرشوط

تعلمون أن المصالح العسكرية الجلييلة أهم من كل أمورنا وشئوننا وقد توفقتنا الى تنظيمها وتسوية أمورنا وأن تنفيذ هذه النظم مناط على اهتمام رجالنا الصادقين وبناء على ذلك قد انتخبك من بين أولئك الصادقين وأحلت عليك هذه المهمة الجلييلة ... إن فريقا من الأغوات الممالك قد عنيت بتربيتهم ونشأتهم ويغلب على ظنى أنهم وصلوا الى درجة الرجولة ونضجوا وأظنهم قاموا بتعليم هذه الرجولة الى الفريق الآخر . فان كان الأمر كذلك حقا فلا بد أن يقدر أولئك الذين عنيت بتربيتهم هذه النعمة حق قدرها ويراعوا حقوق هذه العادة فان قيام واحد من بينهم بعمل ينافى مبدأ الرجولة لسبب قلة أدبه وعقله أو سلك طريقه مخالفا للشروط فلا يقتضى إلا تسريح أمثال هذا الرجل وأن العقلاء الذين يديرون حركة مثل هذه الجماعة لم يراعوا الخاطر فى وقت ما أبدا ولم يظاهروا قط أولئك الذين يتسببون فى الإخلال بروح المصلحة ، ولو كان أخاهم ، لا بل أبهم ، فاذا تقر ذلك فانى أيضا شديد الأمل أنهم لا يظاهرون أحدا من بين الذين تربيتهم ونشأتهم من أمثال أولئك السفهاء قليلى الأدب والإدراك وإذا ما دعى أحد رجالى المعتمدين لى . وقال : إنى وإن كنت لا أظاهر فلانا ولكن كيف أصل الى إفهامه الكلام وهو عديم الفهم قليل الإدراك . ففى هذه الحالة لا يقتضى بقاء مثل هذا القليل الفهم ثمة فان كان ذا شارب فدائرة أغوات الحرم مفتحة الأبواب فأرسلوه الينا وليأت ليكون أغا للحرم وإن كان لما ينبت شارب فالحقوه بالحاج حسين أفندى الموجود فى ذلك الجانب ليتعلم وإذا ما ظاهر أحد من رجالى الذين أعتمد عليهم واحدا من ذوى العقول الغليظة بسابق الشبوبة وأهمل فى إبعاده ثم ظهرت بادرة منه من وقت ما مخالفة للشروط بسابق قلة الإدراك واقتضى الأمر مس المصلحة التى أوجدتها بالتعب والمشقة فى ذلك الوقت يعجز رجل المعتمد الذى ظاهر ذلك الشخص عن الاجابة ولا ينبو ذلك الشخص من يدى .

انظروا يا أولادى... لقد جاهدت سبعا وثلاثين سنة حتى أوجدت هذه الجماعة بأمل إسداء خدمة لديننا الدين المحمدى نخدمكم وإذا كانت من الظاهر لنا فهى فى الحقيقة لله ورسول الله . لو كنتم تقدرون قدر هذه الخدمة على حقيقتها لكنتم أقدمتم على العمل لدوامها وقيامها بأكثر من اهتمامكم الحالى ألف مرة ولسعيتم لنيل الأجر الجزيل من الله تعالى ولطلبتم الحصول على الذكر الطيب من عباده .

وقصارى القول إن وقاية هذه الجمعية المباركة من تطرّق الخلل إليها فرض علينا . وعليه فقد حررنا أمرنا هذا بطلب التوصل بالأسباب الكفيلة بوقايتها وأرسلناه إليكم فاذا ما وصل إليكم بمشيئة الله تعالى نطلب منكم أن تعقدوا مجلسا خاصا — وتقرؤه فى مواجهة الجميع وتعتنوا فى إفهامهم مزاياه .

تنظيم الجيش

وإذا طرحنا الخطاب السابق جانبا، نلقى محمدا عليا ينهض بنفسه لتنظيم الجيش، ولا يدع صغيرة أو كبيرة إلا ويتعهد بها بالموالاة ووضعها فى نطاقها .

وخلال الرسالة التالية يستبان لكل ذى عينين أن هذا العاهل كان لا ينى عن تتبع أفكاره بما نسميه التدعيم، ولا يكف عن الاسترسال فيما استهدفه ...

من الجناح العالى الى ناظر أسوان وفرشوط

إن الأورط التى نظمت فى أسوان وفرشوط كانت بلغت الى الخامسة عشرة . وقد اقتضى إنشاء أربع أورط من السود فى أسوان فى الوقت الحاضر فاعملوا على إنشائها . ثم عينوا البكاشية والقول أغاسية والملازمين وحاملى الأعلام . — واليوز باشية اللازمين لها وفقا للتعليمات الشفوية التى أدلينا بها الى مندوبكم محمود أغا . فاذا لم يتيسر إكمال عدد الضباط الموجودين فى أسوان فيمكن أخذ الضباط اللازمين من أورط فرشوط أو من القوة الموجودة بمعية إبراهيم أغا وإكمال النقص منهما . وحيث أن الممالك أجدد بالمعاونة بالنسبة للجنود الاتراك فيجب البدء بهم فيؤخذ من بينهم

من يليق بأن يكون ضابطا ثم يكمل العدد الباقي من الأتراك . ولما كان الجنود الترك لا يقاسون بالماليك فإذا ما انتخبوا — ضابطا فإنه يجب العناية جهدا باستعدادهم واستحقاقهم ولذا يجب أن تهتموا بذلك ولا تجهزوا الإهمال أو الغظة .

وبعد إنشاء الأورط المذكورة تقرّر أن تبقى أربعة أورط منها في إسوان وأورطتين أو ثلاثة في فرشوط والأورط الباقية تعسكر في القرى التي أعطى بيان بأسمائها الى محمود أغا السالف ذكره فعليكم أن تستبقوا الأورط المقررة بقاؤها ثم ترسلوا الأورط الأخرى الى الجهات التي تقرّر نزولها فيها . وحيث أنه يقتضى تعيين موظف كناظر للإشراف على ما كولهم ومشروبهم فعليكم تعيين النظار الذين ينتخبونهم من بين رجالكم وإبلاغهم التنبيهات اللازمة وإرسالهم مع الأورط . ومن المستحسن توزيع كل ما يرد من العبيد الذين سيقدمون من السودان وكردفان على هذه الأورط بالتساوى فاعملوا على توزيع كل طائفة ترد في أى وقت على هذه الأورط بالتساوى بدون زيادة أو نقصان .

أما أوامرنا الأخرى فقد أحلنا أمر تبليغها على دراية محمود أغا المذكور وحسن إفادته فستحيطون علما بها منه — وهذا ما دمانا الى تحرير مكاتبتنا هذه وإرسالها إليكم^(١) .

معنويات الجند

وكان من جملة التدابير التي اتخذها محمد على لإقناع الجمهور بمرعية النظام الجهادى الجديده أنه أمر بوجوب قراءة الفاتحة قبل الشروع بأعمال التدريب^٢ لأنها جامعة للفيوضات الأزلية . فقد ورد في خطاب صدر عنه الى محمد بك ناظر مصاحفى إسوان وفرشوط ما يلى :

(١) وثيقة تركية رقم ٣٢٧ — دفتر رقم ١٠٠ هـ تركى ورقة ١٤ بتاريخ ١٣ محرم ١٢٣٨ هـ (٣٠)

سبتمبر ١٨٢٢) .

” إن فاتحة الكتاب (سورة الفاتحة) لا ريب في أنها جامعة للفيوضات الأتزية فإذا ما قرأها جنود الجهادية في أيام التدريب قبل الشروع فيه ثم باشروا التمرينات عقب القراءة لكان ذلك مستوجبا للفيض والبركات — فالأمول منكم أن تبلغوا حضرات البكاشية سلامنا وتفهموهم أن إرادتنا تقضى بقراءة الفاتحة قبل التمرينات النهارية والتمرينات الأخرى “ .

وقام من طبقة العلماء من ناصر ” العزيز “ في مشروعه الجديد وأكد للشعب المصرى أن النظام الجديد يتفق وأصول الشرع الشريف وقواعد الدين ” الحنيف “ . ومثال ذلك أن شيخ الاسلام آنئذ الشيخ محمد العروسى أوعز الى الشيخ خليل الرجبى أن يؤلف كتابا فى تاريخ محمد على باشا يظهر فيه مآثر العزيز وخدماته وأن الشيخ الرجبى خصص المقالة السابقة من كتابه هذا ” النظام الجهادى الجديد “ مبينا فيها شرعية هذا النظام مؤيدا ذلك بخمسة أدلة ملخصها ما يلى :

(١) أن حفظ النور الاسلامية وتحصينها بالعساكر الجهادية لإرهاب الأعداء المحاربين وإدخال قلوبهم هيبة المسلمين واجب شرعا وفرض محتوم أصلا وفرعا .

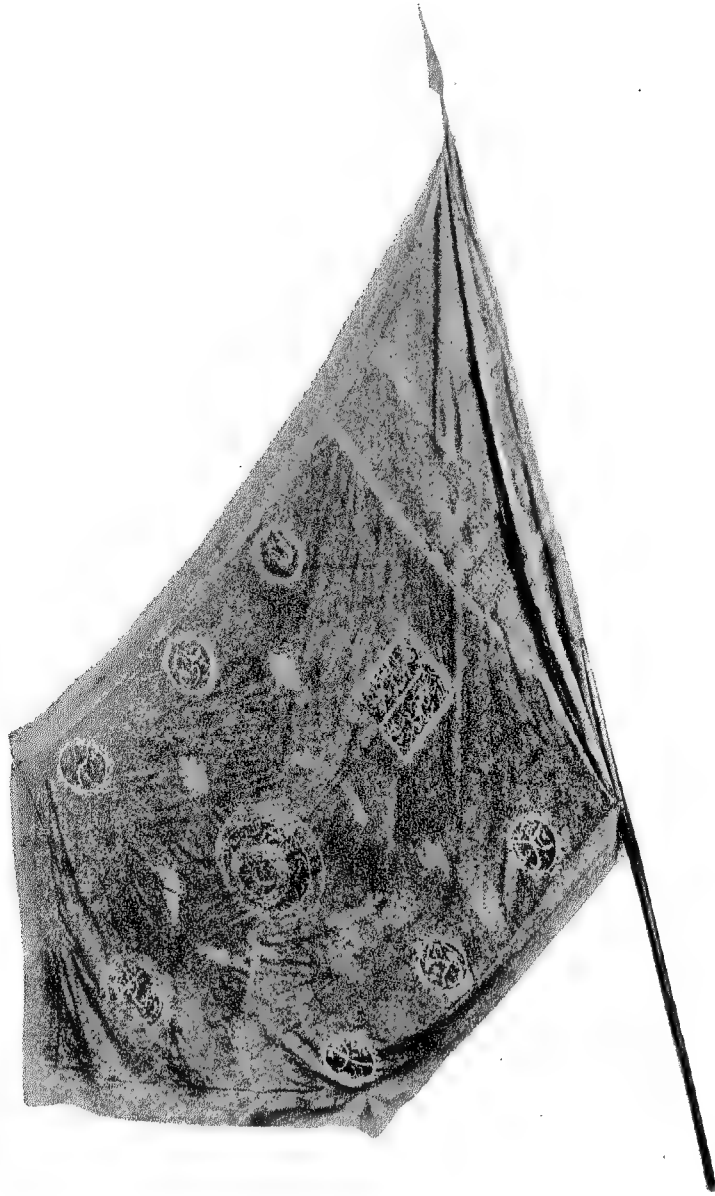
(٢) أن الصبر وحده لا يفيد فى الدفاع عن بلاد المسلمين إذ لا بد له من أن يقترن بالطاعة والنظام .

(٣) أن كتب الفروسية مشحونة برقم الصفوف وتنويعها إذ هى أشكال وصنوف هندسها الأوائل وأهملها الأواخر فبدت باهمالها أهوال الغوائل وليس أمرها فى المؤمنين مبتدعا ولكن تركوا صنع السلف فلا ترى أحدا من الأواخر لهم متبعا ... وحيث كان الشأن ذلك وأمكن الأمير إعادة ما كان من تلك المسالك

(١) كتاب تاريخ الوزير محمد على باشا للشيخ خليل الرجبى — مخطوطة جامعة بيروت الأميركية رقم ١٨٣٧٩ ص ٣ ومخطوطة دار الكتب الملكية .



سليمان باشا الفرنساوى



علم ابراهيم باشا في معسكره
(الوجه الأول)



علم ابراهيم باشا في معسكره
(الوجه الآخر)



أمير الدواء خورشيد طاهر باشا

وتعليم طوائف من المؤمنين صناعة الفروسية وتعريفهم أشكالها واختلاف الصور وإتقان هذه الكيفية فقد وجب شرعا المبادرة إلى هذه الصناعة وحرم عليه إن تأخر وأبدى امتناعه وله إذا أقدم على هذا الشأن الجليل الرضوان من الرحمن مع الثواب الجزيل .

(٤) أنه لما قوى العدو بإدمان هذه الصناعة وضعف المؤمنون بترك هذه البضاعة حصل الضرر والإضرار وبدأت المنايا والمناضلات من الكفار وحينئذ فيخشى على الأماكن والدور من سطوات أهل الجحود والفجور وكذلك الثغور المعلومة التي هي لأذهانهم وأبصارهم مشاهدة مفهومة وحيث كان الأمر على ما قلناه وبحسب ما ذكرناه ووقعناه فإنه يجب على أعيان المسلمين وأهل الحل والعقد من الموقفين أن يخاطبوا أمير القطر في تحصيل أجناد ترهب الأعداء وترهقهم بالحرب إذا توافقوا بالبيداء بتعليمهم كيفية الحرب وأشكالها إذ هي ضرورية حيث تميزت الأعداء في هذه الصناعة العظيمة وملكوا بها الجهات الحسيمة فيلزم حينئذ أن يتعلمها أجناد المؤمنين ويتقنوا عرفانها أجمعين ليدرؤا الشر بمثله ويطاردوا العدو بوزان صنعه وشكله ومن تأخر عن ذلك فقد باء بإثم كبير وناداه لسان الشريعة المحمدية بالنكير .

(٥) أن حفظ الدين والنفوس والأعراض والأنساب والعقول والأموال واجب شرعا وذلك متوقف على القوة لرد الأعداء الصائليين على الأموال والنفوس ولا سيما إذا كانوا كفارا فيزداد عند ذلك الخوف على الدين والعرض مع المال والنفوس ولا شك أنه إذا وقع الخلل في الدين والعرض والمال تلف العقل أو كاد وضاعت النفوس والأنساب في الأماكن والبلاد فكان الخوف من الكفار جامعا لكل مفيد ومتلفا لكل سيد تقي عفيف فإذا ظهرت من الخوف أسبابه وطغى العدو وسال عبايه وضعفت الأجناد عن مقاومته ومضاربه ومضارعتة وجب على الأمير بالقطر إحضار جند معلمين عارفين بصناعة حرب الكفار مقاومين يدرون

الصفوف وصنوفها وترتيب الضربات وصبروفها ووجب عليهم تعلم صناعة حرب الكفار إن لم يكن لهم بها الملم وتذكاري ليدراً الشر بمثله وينقمع العدو بطبق صنعه وشكله وهذا محتم في الوجوب وفرض لازم على هذا الأسلوب لتوقف حفظ ما تقدم عليه وما توقف عليه الواجب فهو واجب يعول^(١) عليه .

كان محمد على مخلصاً لدينه شديد الحرص عليه فسعى جهده في أن تكون معنويات الجيش قائمة على أساس هذا الدين تستمد منه قوة ومناعة . وبهذا استطاع أن يحظى بتأييد جميع عناصر الأمة . ولعل من الخطأ أن نقلل من أهمية هذه الظاهرة أو أن نزعج كما زعم بعض المؤرخين أن جيش العزير كانت تنقصه الروابط المعنوية . فإن في هذه الظاهرة وحدها ، في مثل ذلك العصر ، ما يكسب الجيش قوة معنوية تؤلف بين أفرادهم وتحضهم للدفاع عن حياض الوطن والدين .

التجنيد ومصلحة الشعب

ولم تنقص محمد على ، على شدته ، تلك المرونة التي يتحلى بها عظماء الرجال وكبار قادة الأمم — لين في غير ضعف وشدّة في غير عنف . فقد ارتأى بثاقب بصره حين كان إبراهيم باشا يتولى أمر جمع الجنود في الأرياف ، أن هناك شيئاً من التبرم عند فريق من الأهالي في بعض المناطق . فدرس الأمر ووجد أن حالتهم الزراعية لا تسمح لهم في ذلك الوقت بتلبية مثل هذا الطلب . فبعث إلى ابنه إبراهيم بكاتب ملأه الحكمة يذكر له فيه : الاختلاف بين الشعب المصري والشعوب الأوروبية التي عرفت مثل هذا النظام ، والفرق بين الحكومات الأوروبية وحكومة مصر ، ويسأله أن يجند العساكر حسبما يتيسر ، وأن يستخدمهم على نحو ما يستوجبه الموقف وأن يوفق بين المصلحة والحالة^(٢) .

(١) وثيقة رقم ٣٧٩ معية تركية دفتر رقم ١٠ بتاريخ ١٤ محرم ١٢٣٨ هـ وكذلك تاريخ الوزير محمد على باشا للشيخ خليل الرجي ص ١٧٠ — ١٨٤ .

(٢) سجل ١٦ معية تركي — وثيقة ٢٠ ص ١٩ بتاريخ ٨ شوال ١٢٣٨ هـ .

من الجناح العالى إلى والى جدة^(١) :

”فى أوائل رمضان جند عدد وافر من الفلاحين من الوجه البحرى توطئة لإلحاقهم بالعساكر الجهادية ، فأحضروا إلى مصر وأرسلوا بواسطة المأمورين إلى الجهات المطلوب إرسالهم إليها بيد أن الأعمال الحربية دقيقة والقيام بأعبائها يتطلب وجود الشبان الأقوياء على حين أن أكثر الذين جندوا كانوا عليلين كبار السن لا يصلحون لشيء وقد اتصل بنا أن العساكر الذين من هذا القبيل يعادون إلى قراهم وعليه فقد لزم أن يعنى بأمر تجنيد العساكر المطلوب تجنيدهم بعد العيد بحيث لا يجندون كيفما اتفق وهذا ما حملنا على أن نكتب بتاريخ ٢ شوال و ١٢ يونيو إلى الأفندى ناظر الأقاليم البحرية نخطره بوجوب اجتماعه والأغوات النظار لتداول رأى فى هذا الصدد أو أن يحضر معهم إلى مصر لبيان رأيهم فى هذا الشأن لإقرار الخطوة التى يجب السير عليها وأن لا يطيل هذه المسألة وينظر فى أحسن الطرق المؤدية إلى تنفيذها . وفى يوم الثلاثاء ٨ شوال و ١٨ يونيو وهو اليوم الذى يجتمع فيه المجلس حضر الأفندى الموما إليه والأغوات النظار إلى شبرا حيث بسط الموضوع وأفهموا أن عددا وافرا من الفلاحين الذين أرسلوهم فى أوائل رمضان قد أعيد بعضهم من مصر والبعض الآخر من الجهات الأخرى وأن الذين أبقوا منهم دون المأمول فاستأذنوا بمناسبة تقرب أوان الزراعة أن يرعى تجنيد العساكر المطلوب تجنيدهم بعد العيد إلى ما بعد الانتهاء من التحضير وبما أن التماسهم يتنافى والمصلحة فقد أجيبوا بما يتفق والموقف وأكد عليهم بوجوب جمع وتجنيد العساكر المطلوبة على أن أهالى مصر لا يفهمون الجندية كما يفهمها أهالى أوروبا كما أن هيئة الحكومة عندنا ليست بقدر هيئة الحكومة فى أوروبا ومن البديهي أنه لا يستطيع والحالة هذه تجنيد العساكر وفقا لأصول الجهادية المقررة وعليه فإن من الحلى الواضح أن الواجب يقضى علينا أن نجند العساكر حسبما يتيسر لنا وأن نستخدمهم على نحو ما يستوجبه الموقف وأن نوفق بين مصالحنا وحالتنا وأن نرى أعمالنا على

(١) المقصود هو إبراهيم باشا .

قدر قدرتنا فإذا ما وافقتم على ذلك أنتم أيضا أوفدوا من قبلكم من يفحص هؤلاء العساكر عند احضارهم إلى مصر ونهبوا عليه بأن يفرز منهم من يصلح نوعا ما للعمل ويرسلهم إلى الأورط ويعيد الذين لا يصلحون إلى قواهم ولما كان من اللازم أن توزع العساكر التي يتم إرسالها على الأورط وأن لا يعاد منهم أى نفر فأخطروا رؤساءهم بذلك . وجامع القول فكروا في هذا الموضوع من ناحية العسكرية والفلاحية . مع مراعاة الحالة والموقف وانهوه بطريقة مناسبة .

حاشية :

والحاصل أن العقلاء من الحكام السالفين كانوا عندما يريدون تنظيم بعض الأمور يعمدون في بادئ الأمر إلى تنظيمها كيفما اتفق أى على بركة الله ومن ثم يأخذون في وضعها في نصابها . كلما ثبتت أقدامهم حتى تباح لهم مع الأيام تسيير أمورهم وفقا لما يرغبون فيجب علينا أن نتشبه بهم نحن أيضا فنتسير بأمورنا حسبما يقتضيه الموقف وكلما اتسع لنا الموقف وسمحت الظروف عمدنا إلى إتمام ما ينقصنا فابذلوا الهمة في اتخاذ هذا الأسلوب ولئن توهنا بوجوب إرسال من يتولى فرز العساكر الذين يصلحون للخدمة من العساكر الذين سيأتون إلى القصر العيني بمصر إلا أننا نترك لرأيكم أمر حالة هذا الفرز إلى القواص باشي المأمور في القصر كما كانت الحالة قبلا أو إرسال آخر لهذه الغاية من قبلكم فافعلوا ما ترونه مناسباً في هذا الشأن واعنوا بإجراء ما يتفق ومصلحتنا .

استقدام بعثة عسكرية

لتدريب الجيش

وكان محمد علي بالغ العناية بتدريب الجيش الجديد فاتخذ الجيش الافرنسي مثالا له ينسج على منواله . ورأى قبل اختياره للتدريين الفنيين أن يدرس كفاءاتهم ودرايتهم العسكرية وأحوالهم الخاصة حتى إذا وقع اختياره على من راقه منهم أغراه بالمسال وأطلق يده في العمل . ومع أننا لم نوفق بعد للوقوف على الوثائق التي تبين

علاقات العزيز مع الكابتن سيف الفرنسى فى مستهل عهده فى خدمة الجيش فاننا نستطيع أن نقطع بوجود هذه الظاهرة التى ألمعنا إليها حين نقرأ رسالة العزيز الى ابنه إبراهيم المؤرخة فى ٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٣٨ هـ (١٨٢٣ م) حيث يقول :
لقد فكرنا فى استخدام رجل قدير يتولى تنظيم عساكرنا الجهادية وفقا للأصول العسكرية المقررة ويكمل النقص فى الأنظمة القائمة الآن ويرفع مستوى التعليم والشئون الأخرى على الوجه المطلوب وقد تحدثنا فى هذا الموضوع الى صديقنا الخواجة دورفى قنصل فرنسا عندما جاءت مناسبة . فكتب جنابه بدوره عن فكرتنا هذه الى الجنرال الذائع الصيت المعروف باسم بوييه أحد جنرالات بوناپرت الذى سيصبح بعد رتبة واحدة مرشالا والذى حضر مع بوناپرت أكثر حروبه . وقد استوضحنا القنصل مقدار المكافأة التى تمنح للجنرال فيها إذا حضر . ثم جاء فى الخطاب الذى أرسله الجنرال المذكور أنه سيحضر وفى حالة حضوره سيقطع عنه الإيراد المقرر له من حكومته وأبان القنصل أن هذا الإيراد لو اشترى لبلغت قيمته مئة ألف ريال على الأقل وأنه يجب أن يخصص له ٢٥٠.٠٠٠ غرش شهريا ولكل من معاونيه ثلاثة آلاف ريال سنويا . إن هذه المبالغ ليست بالشئ المرهق إزاء رفع مستوى مصالحتنا الى الحد المطلوب ووصولنا الى غايتنا . ولكن هل الجنرال المذكور هو فى الواقع كما قيل عنه . فإذا كانت شهرته قد بلغت الى هذا الحد فلا بد أن يعرفه الافرنج الذين معكم وعليه استوضحوهم أمر هذا الجنرال بطريقة مناسبة^(١) .

ومن الغريب أن بينما كان العزيز يبحث عن أشهر المدربين وأقدرهم فى أعلى الأوساط العسكرية فى فرنسا كان أولو الأمر فى الأستانة يسألونه أن يبعث إليهم بمدربين وطنيين من قواده لتدبير شئون الجيش فيها^(٢) .

(١) من محمد على باشا الى إبراهيم باشا - ٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٣٨ - معية تركى دفتر رقم ٣٢

(٢) الوثيقة التركية رقم ٤٣٧ تاريخ ١٢ المحرم ١٢٤٢ هـ (١٦ أغسطس ١٨٢٦) بدفتر ٣٢

معية تركى من محمد على باشا الى الصدر الأعظم .

تخير الجنرال بليار — أحد القادة الفرنسيين في المعاش — من القادة الافرنسيين الجنرال البارون بوييه^(١) (General Boyer) ليكون رئيسا للبعثة العسكرية التى تنظم جيش محمد على الحديد . ومعه كولونيل المشاة جودا (Gaudin) والشقيقان أدولف وبولان دى تارليسه وكان أولها قائد كتيبة وثانيهما يوزباشى فى الخيالة . وبعض ضباط آخرين وطبيب . وتطوع ليفرون (Livron) للعمل بصفة شبه رسمية وكان على نصيب كبير من الفطنة . واكتسب فيما بعد ثقة الباشا وعينه مندوبا عنه لدى الحكومة الفرنسية بدلا من تورنو .

وصل بوييه الى اسكندرية مع معاونيه فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٢٤ ، وكان يستصحب هدايا ثمينة من أسلحة وذخيرة . فلما قدّمها للباشا تأثر هذا كثيرا من عطف الحكومة الفرنسية . وقال — بعد تجربة — إن البارود أحسن نوعا من الذى استورده من إنجلترا ! .

وحل الجنرال بوييه بالقاهرة حيث سكن فى قصر نخم بمصر القديمة خصص لإقامته وليكون أيضا مقرا للرئاسة العامة للبعثة . وفى هذا القصر استملت الأعمال الأولى لمشروعات الجيش وتدريبه .

وقد جرى الاتفاق على أن يتصل بنفسه بالباشا للتفاهم فى كل ما يراه من آراء وما ينتهجه من خطط . كما جعل لجودان الإشراف على تعليم المشاة^(٢) .

ويتسنى لنا أن نقف على أعمال الجنرال بوييه من مخبراته مع بليار مدة ١٨ شهرا ومراسلات شهود العيان من أمثال بريس دافن الذى شغل بعض الوقت وظيفة أستاذ فى مدرسة المشاة بدمياط . ومدرسة أركان الحرب فى جهاد آباد .

(١) ولد الجنرال بوييه (١٧٧٢ — ١٨٥١) فى بالقورت — وكان برتبة ادجوتانت جنرال فى الحملة الفرنسية على مصر . وصار قائد فرقة فى عام ١٨١٤ . وعقب انتهاء مهمته فى مصر شغل قيادة كبرى فى الجزائر فى عام ١٨٣٠ .

(٢) جوليبلانا — Histoire de la regeneration de l'Egypte ص ٧٣

والملازم جولز بلانا المدير والمؤسس للكلية الآتفة . وفيلكس منجان قنصل فرنسا العام . والدكتور كلوت بك مؤسس الخدمة الطبية العسكرية في مصر . والمالى كادلفين وزميله دى بروفى اللذان اكتشفا بعض المجهول في إقليم النوبة . ومما هو قمين بالتنويه في هذا المجال أن "بليار" كان على اتصال بـ "بوييه" . يرأسه باستمرار ويتبدى مما كتبه له أنه لا يوافق مطلقا على اشتراك محمد علي في حملة المورة خشية أن تفقد فيها مصر جيشها الفتى ! وكان يرى من الأصوب أن ينسحب محمد علي من هذا المشروع ولا يجابه الأمم المسيحية . ويحني ثمار النصر بالوسائل السلمية لتحظى مصر بالتقدم وتستمتع بالمدينة الحديثة .

وقد ألح بليار مرة أخرى ليوجه نظر محمد علي الى وجهة أخرى فيها فائدة كبرى لمستقبل مصر، ويجعل لها قوة يدفعها صوب الشرق الأدنى وأفريقية، مما يفتح لمصر أبواب التوسع والرفاهية، بدون أية خسارة مرتقبة^(١) .

ومن المتفق عليه أن محمدا عليا كان مقتنعا بهذا الرأي . بيد أنه لم يك بعد واثقا من قوته، ومن نتائج محاولته، ليقطع العلائق مع أمير المؤمنين . وكان يأبى المغامرة خوفا من فقد ملكه الحديد .

والواقع أن حرب المورة وحرب الجماز كلفتا كثيرا . فقد خسر فيهما حوالى ثلاثين ألف من خيرة جنوده . ثم إن التشكيلات العسكرية الجديدة التي نظمها سيف فيما بعد لم تك قد استكمل تعليمها وبعبارة أوضح كانت ناقصة الى حد يذكر . ولم يك غير الضباط العظام ملهمين بالقراءة والكتابة مما جعل محو أعمالهم يدور على محض الذاكرة . فلا كتب مأثورة، ولا قوانين مطبوعة، ولا تعليقات محفوظة . ولم يك من بينهم أحد يعتمد على الدرس والكتابة سوى القائمقام أدهم بك، الذي درس المدفعية في استانبول^(٢)، وقام برحلات شتى في إنجلترا .

(١) Belliard a'Boyer. 10 Fevr. 1826, p. 103. رسالة .

(٢) جول بلانات — ص ٦٥ Jules Plant

وتجملو الوثائق الآتية أهم المراسلات الخاصة بالبعثة العسكرية في عهددها الجديد ،
حينما زاول أعضاؤها العمل في الجيش ...

من الجناح العالى الى محمد بك ناظر الجهادية :

”لقد أرسلنا إليكم جناب المحترم الجنرال بوييه وزميله الجنرال ليورون ومن
في معيتهما من الضباط وهم الهيئة العسكرية التي استحضرت من دولة فرنسا ، وحيث
إن مرتبات الجنرال بوييه والضباط وتعييناتهم اليومية مدرجة في عقودهم فعليكم
أن تنظموها وفقا لما أدرج في العقود .

أما الجنرال ليورون فليس له عقد بل خصص له مرتب سنوى قدره ستة
آلاف ريال ، فقيوده في الدفاتر بهذا المرتب ، وأصرفوه له لدى استحقاقه ، وعليكم
أن تصرفوا له أيضا تعييناته اليومية بحسب اللازم .

ولما كان هذا الجنرال بوييه من رجال الحرب ، وواقف على شئون الجند ، وخبير
بقنون الحرب ، فقد استحضرناه إلينا ابتغاء الحصول منه على معلومات خاصة
بالشئون العسكرية ولا يخفى عليكم أجمعين ذلك . ولذلك لم تعد هناك حاجة الى تغيير
أسمائهم ورأينا الاكتفاء بتغيير زيهم وملابسهم فاعلموا ذلك وضعوا خطة
لاستخدامهم بموجبها بحسب ذلك ولدى وصولهم الى ذلك الجانب عليكم أن تسلموا
كل واحد منهم حصانا كامل العدة كالعتاد وأصرفوا لهم الملابس اللازمة على
الآلا يكتفى بإعطاء الجنترالين حصانا واحدا لكل منهما بل يزداد في عدد الخيل وأن
تكون ملابسهما من النوع الجيد ويزاد لهما شال كشمير .

ولدى تشرف الجنرال المذكور بتقديم هدية ملكية رأينا فيه مخايل العلم والعرفان
لذلك يقتضى إيفاء واجب الرعاية لهم والعمل على اكتساب المعلومات التي تؤدى
الى ازدهار هذه المصلحة العسكرية من الجهة العالمية مادامنا قد أنشأناها واضطرتنا
كلنا الى تنظيمها أحسن نظام^(١) .

(١) وثيقة رقم ٤١٨ ورقة ٦٣ دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ١١ ربيع الثانى ١٢٤٠هـ (ديسمبر سنة ١٨٢٤م) .



أمير اللواء أحمد المنكلي باشا

من الجناح العالى الى محمد بك ناظر الجهادية :

”جاء فى مكاتبتكم الواردة أخيرا ما نصه : وصل الجنرال بوييه فأنزل فى منزل الخواجه جوانى الكائن بمصر القديمة ، وأن الجنرال ليورون والضباط آثروا الإقامة فى المعسكر ، فأعدهم ما يحتاجون اليه من الخيام وغيرها ، وأنه خصص للجنرال ليورون مرتبه والتعيينات اللازمة ، كما أنه ربطت مراتب الجنرال بوييه والآخرين وتعييناتهم بموجب عقودهم وأعدت حاجاتهم وفقا لطبائهم التى اعتادوا عليها ، ولما كان العقد الخاص بالجنرال بوييه ينص على إعطائه خمسة رؤوس من الخيل فصرف له حصانان روميان وحصان نجدى ، وسيعطى له الحصانان الآخران قريبا أما الجنرال ليورون فقد أعطى له حصانان روميان وآخر نجدى بحسب رتبته ، وصرفت لهم الملابس اللائقة وأعطى لكل منهما سرجا مفضضا ، ولم نعلم إن كان الحصانان النجديان اللذان سيعطيان لهما داخلين ضمن هذه الخمسة والثلاثة أم لا ؟ اضطررنا الى الاستعلام ، ولقد صرفنا الى الضباط السروج اللائقة بهم والخيل اللازمة لهم والملابس . كما أننا أعطينا الى هذين الجنرالين سيفين مذهبين ، وقد أخرجنا إعطاء الجنرال بوييه سيف الافتخار وإلباسه الفراء (الكورك) الى أجل .

فأحطت علما بما حررتوه فنبلغكم أن الحصانين النجديين المقتررين إعطائهما الى الجنرالين المذكورين داخلان ضمن الخيل الخمسة والثلاثة المقتررين صرفها لهما ، وليس ثمة خيل أخرى عند صرف الحصانين للجنرال . وبهذه الصورة يكون عدد الخيل المقتررة لهما قد تمّ فعلا ، ولا حاجة الى إعطائهما أكثر من ذلك .

ولقد استحسننا ما فعلتموه من تأجيل إعطاء سيف الافتخار الى الجنرال بوييه ومن السياسة الحقة ، لأننا عازمون على الحضور الى ذاك الطرف فى هذه الأيام ولدى وصولنا بمشيئة الله سيعطى له السيف ويلبس الفراء^(١) .

(١) وثيقة رقم ٤٣٠ ورقة ٦٥ دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ٢٧ ربيع الثانى ١٢٤٠ هـ ١٩

ديسمبر ١٨٢٤ م .

من الجناب العالى الى ناظر الجهادية^(١) :

”لقد أرسلنا اليكم الكولونيل رى من ضباط الطوبجية الذى جىء به من باريس بواسطة الجنرال ليورون ، وهو خبير فى فن الطوبجية وفيما يتعلق بالمدافع والمهمات المتنوعة الخاصة بها وفى نظم تعليماتها وتدريباتها ، وستقفون على درجة خبرته من العقد الخاص به ، فعليكم أن تأمروا بترجمة عقده حتى تتبينوا مأموريته ، ثم استخدموه فى خدمات المدفعية وكلفوه بفحص الآلات والمهمات الخاصة بالمدافع وليخبركم بما يتقنها ، وقد أنبأنا الأغا كتخدانا تحريرا بإعطائه تصريحاً للتفتيش على المدافع وعلى المهمات واللوازم والأدوات الخاصة بها حيناً بعد حين“ .

وكتبت صورة من هذا الأمر بعبارته الى البك الكتخدانا .

وألحق بهذا الأمر مادة أخرى الى البك ناظر الجهادية :

”لقد أرسلنا اليكم المدعو برييه الذى استقدم بواسطة الجنرال المذكور بصحبة الكولونيل الماز ذكره ، وهذا أيضا خبير فى الأسلحة والمهمات وله علم تام بكل الأدوات واللوازم ، فعليكم أن تقوموا بترجمة عقده ، ثم تبادروا الى استخدامه فى الشئون الخيرية بها“ .

وهذه العبارة نسخت بعبارتها وزيد عليها بعض الوصايا وأرسلت الى البك الكتخدانا .

خدمة الجيش واجب نيل

ولكى يغرس العاهل الكبير فى نفوس ضباط الجيش الصفات النبيلة ، ويث بين جوانحهم السجايا القويمة ، التى يتألف من نسيجها العسكرية الحقبة ، كان يوجه من حين الى آخر نصائح وإرشاداته ، ليعمل الضباط بها . وفى النداء التالى نلمس روح محمد على^(٢) .

(١) دفتر ٢٠ معية تركى — الوثيقة رقم ١٧٠ ورقة ٣١ بتاريخ ٣ صفر ١٢٤١هـ (١٧ سبتمبر ١٨٢٥م) .

(٢) الوثيقة رقم ٤٩ دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ١٥ محرم ١٢٣٩هـ (٢١ سبتمبر ١٨٢٣م) .

مرسوم خديوى صادر للجيش المصرى

الى مفانر الأماجد والأعيان عثمان بك وخورشيد بك وحسين بك ميرالايات
العساكر الجهادية زاد مجدهم ، والى مفانر الأماثل والأقران قائمقامى الآلايات
وبكباشية الأورط والصباغ والصول قول أغاسية واليوزباشية والملازمى الأول
والثناة وحامل الأعلام والحاسيين وأمناء البلوك والجاويشية زاد قدرهم ، نبلاغكم
أن المصلحة الخيرية التى عينتم لها ليست مصلحة عبارة عن مجزء جمعية ، بل هى
مصلحة ربطت كل ناحية منها بنظام ، وكل شئ فيها مرتبط بشروط ، ولذلك
كما وضعنا فى أيدي استحقاقكم الوسائل الكفيلة بإجراء ما يقتضيه هذا النظام ،
ولما كان كل واحد منكم قد نشأ على يدينا ، ومنح الرتبة والاعتبار اللذين لم يشاهد
مثلهما فى عهد أسلافنا ، فكان أمر اهتمامكم بتنفيذ الشروط والقيود معدود من
جملة أمانينا .

ففيما مضى كان اتصل بنا نبأ بعض الأفعال غير اللائقة التى صدرت من
بعضكم ، فكم أصدرنا لكم مرسوما بتاريخ ١٨ ذى الحجة خطابا بكم جميعا ضمنناه
التنبيهات والوصايا ، قلنا لكم فيه : " لاتسلخوا السبل المتتوية بتجويز الأوضاع
المنافية لأصولكم ونظمكم ، وإن وجد فيكم من لا يصغى للقول ويسلك هذا السبيل
الوعر ، فلا تقبلوا أن يتطرق الخلل الى النظام بسبب مخالفة واحد منكم ، لأن
هذه الجمعية الخيرية إنما وجدت بعد تعب كبير ومشقة عظيمة ، وانبدوا من كان
على هذه الشاكلة من بين ظهرائكم وإن كان صاحبكم أو من أقاربكم حق ولو كان
أبا لكم أو أخا " ، وأرسلناه اليكم مع خفتانينا سليم أغا . ولقد اتصل بسمى من
الفادين والرائحين أن أولئك الذين ارتكبوا تلك المخالفة إنما هم الحق الذين وجدوا
فى الرئاسة بدون استحقاق وأهلية وكان وجودهم فى الرئاسة وسلوكهم هذا السبيل
المعوج ناجما من صحابة بعضكم لهم ومظاهرتهم إياهم .

يا قوم ! فكروا فى ما بذل من الجهد وما أنفق من المال الحسيم حتى وصلتكم إلى هذه الدرجة ووصلت جمعيتكم إلى ما وصلت إليه ، وفى المصاعب التى ما زلنا نحتملها وفى ما ننفقه من المال فى الوقت الحاضر حتى إننا أخذنا عددا جما من الفلاحين من القرى التى يقيمون فيها ورضينا بتعطل كل شىء حتى الخدمة الزراعية التى عليها مدار الغنى والثروة للجميع .

هذه المصاحبة هى مصاحبة هامة لا يبذل فى سبيلها المال فحسب بل تبذل فيها الأرواح أيضا ! فكيف يتهاون تجويز انقاص قدرها واعتبارها بمثل هذه الأفعال المنكرة التى يأتيا أمثال هؤلاء الحمقى ؟ ... فهل تؤثر الصمت وندعهم وشأنهم ؟ لا ولو كانوا غلمانا الذين نشئوا على يدي بل ولو كانوا أولادى

إذن وجب عدم مظاهرة هؤلاء الناس ولو كانوا من البكاشية لا من صغار الضباط فخرجوهم من بينكم باتفاقكم أجمعين وبمعرفة ناظركم وأرسلوهم إلينا ... فإن كان أولئك المبعدون من كبار الضباط فاتخبوا من يكون ذا أهلية وكفاءة واستحقاق من بين ضباط تلك الأورطة بوساطة ناظركم وانصبوه مكانه ، أما إذا كان ذلك الرجل المبتغى لإرساله إلينا يتعظ ويرجع إلى نفسه ويرضى برتبة أدنى بحض اختياره ، تتفق وكفاءته ، فاعملوا على قيده بالرتبة التى ارتضاها بمعرفة ناظركم أيضا . واتخذوا هذا النظام دستورا للعمل يعمل به فى كل آن ولا تؤدّوا شهادة فى مصاحبة فرد لا يكون ذا حق ولا تنكروا حقا لذى حق فتبوءوا بالندم ، ومجمل القول إن وجود الرتبة المخصصة للضباط مسندة إلى من يستحقها مؤد إلى زيادة رفعتكم كما أن وجودها مسندة إلى من لا يستحقها مفض إلى مذلتكم وهذا أمر معروف بالبداهة ... فاعلموا ذلك جيدا وعوه واعملوا كما ينبغى عمله وفقا لذلك ولا تصاحبوا ذوى الحماقة متبعين هوى نفوسكم حتى لا تندموا فى نهاية الأمر وليقم كل منكم بأداء الخدمات اللازمة المفروضة عليه وليؤدّها حق أدائها طبقا للنظم وليتأش ما من شأنه الإخلال بالنظام كالفسلة والتباطؤ تنفيذها لما ذكرناه

في مرسومنا الآنف الذكر . واعنوا واعتنوا بإيفاء مطالب الإخلاص والاستقامة التي آملها منكم في كل آن وانقوا المسئولية بخالفة ما فيه وانتهجوا اليقظة والانتباه دينا لكم على الدوام . واكتبوا لنا مشاهداتكم عن الشؤون العسكرية في صورة تقارير تبعثون بها إلينا شهرا فشهر ... هذا ما تقضى به إرادتنا ومطلوبنا القاطع إجراؤه وتنفيذه .

فإليكم يا أيها الميرالايات والقائمقامات والبكاشية والضباط الآخريين أبلغكم بأننا أصدرنا هذا المرسوم من ديوان مصر بالتنبيه عليكم والتوبيخ والتشديد كما أننا أحلنا على صاحب العزة الأفسدى مهردارنا إبلاغكم إياه وأوامرنا الأخرى وقد أرسلناه مع حضرته إليكم^(١) .

وتتبع هذا النداء بمرسوم آخر يحمل نفس المعنى ويهدف إلى أغراض الباشا .

مرسوم خديوى إلى ضباط الجيش

إليكم يا مفانح الأماجد والأعيان ميرالايات العسكر الجهادية عثمان بك وخورشيد بك وحسين بك زاد مجدهم .

ويأقائمقامات الآلايات وبكاشية الأورط والصاغ والصول قول أغاسى واليوزباشية والملازمى الأول والثناء وحاملى الأعلام والحاسبين والباشجاويشية وأمناء البلوك والجاويشية والأونباشية زاد قدرهم .

نبليكم أنه لا يخفى عليكم أجمعين أن شئوننا الجهادية فى نتيجة كل مصلحة من مصالحنا ، وأن كل أفكارنا واهتمامنا منصرف فى نظامها وانتظامها ، وأن ما نملكه إنما نبذله لدوامها وقيامها ... هذا شئ واضح وجلى ... إذن يقضى الواجب أن تكون كل حركات عساكرنا الجهادية وسكاتهم مطابقة للشروط النظامية والأصول المقررة فلأجل إبلاغ هذا الواجب إليكم ككنا قد أرسلنا لكم مرسوما

(١) وثيقة رقم ٤٩ — دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ١٥ محرم سنة ١٢٣٩ (٢١ سبتمبر سنة ١٨٢٣) .

بتاريخ ١٨ ذى الحجة وأتبعناه بمرسوم آخر بتاريخ ١٥ محرم وأرسلنا أولها مع الأغا خفتانينا وثانيهما مع الأفندى مهردارنا .

فيا أيها الميرالايات المذكورون لقد جاء في عرضتكم الواردة في معرض الإجابة على مرسومنا المرسل لكم مع خفتانينا "لأنه لما كانت الخدمات العسكرية المكلفين بها هي أهم ما تصبو إليه نفوسنا وأعظم ما نرغب فيه فإن تنفيذ أصولها المقررة فرض على ذمتنا ولنقوم بإجرائها وسنسلك سبيل الرضا ونعمل في طريق الاستقامة بدافع إخلاصنا .

وإذا وجد فينا من يخالف ذلك لا نظاهره ولو كان المخالف أخانا أو أبانا بل نقوم بتأديبه وفقا لنظامنا وإذا لم يفلح معه التأديب ننظر في أمر إبعاده ... وفي كل الأحوال سنكون يدا واحدة باتحاد القلوب فنطيع من هو أعلى منا ونحترم من هو أصغر منا ولا نقصر في ذلك ونتعهد بتحرير الدعاوى العسكرية التي تعرض يوميا على ديوان الآلاى ونقدمها في صورة تقرير شهريا ، وسنسعى إلى إيفاء ما تفرضه علينا عبوديتنا باذلين في سبيل ذلك أرواحنا ورؤوسنا فداء " .

فعلمت ما حررتموه واستحسنتم ما أظهرتموه من الغيرة وحسن النية فأدعوا الله أن يوفقكم جميعا وأطلب منكم أن تقوموا بتحقيق هذه النوايا الحسنة .

وقد أصدرنا أمرا هذا من ديوان مصر إليكم جميعا لإبلاغكم استحسناتنا وأرسلناه مع صاحب العزة حسين أغا جوقدارنا .

تعيين القادة

كان يجري محمد على باشا على نمط كريم حينما يصدر أمره بتعيين أحد كبار ضباط الجيش قائدا لأحد الآلايات . فقد سار على أن يكتب إليه مرسوم التعيين يتضمن عبارات التكريم ودوافع التشجيع ، حتى يثبت فيه قوة على قوته ، ويحضره

(١) وثيقة رقم ٥٣ (ورقة ١٢) — دفتر ١٦ مكية تركي بتاريخ ٣ صفر سنة ١٢٣٩ (١٩ أكتوبر سنة ١٨٢٣) .

على العمل بما يفضى الى تحقيق نظريته . وأكثر من ذلك يقدم القائد لضباط وحدته ، ليكونوا على بينة من قائلدهم الجديد ، الذى عهد إليه أمر زمامهم ، وتوجيههم فى قابلهم .

وهو تقليد عسكرى جدير بالتقليد . إن دل على شىء فعلى أن مجدداً عليا كان لا يفتأ يستن السنن الحسنة ، التى تعود على الجيش بالخير والبركة .
والمرسوم التالى خير مثال يبسط فى هذا النطاق :

مرسوم خديوى إلى سليم بك ميرالاي هـ جى بياذة^(١) :
” إليكم يا افتخار الأماجد والاكارم سليم بك المعين ميرالاي خامسا لعساكرنا الجهادية دام مجده ...

ويا قدوة الأماجد والأعيان سليم أفندى قائمقام هـ جى بياذة .
ويا مفاخر الأماثل والأفران عثمان أغا بكجاشى ٢٠ جى أورطة وحسين أغا بكجاشى ٢٢ جى أورطة وسليمان أغا بكجاشى ٢٣ جى أورطة والحاج سليم أغا بكجاشى ٢٤ جى أورطة .

ويا صاغ وصول أغاسية هذه الأورط ويوزباشيتها وملازمها الأول والثناء وحاملى إعلانها وحاسبها وباشجاويشيتها وأمناء البلوك فيها وجاويشيتها وأونباشيتها زاد قدرهم .

فيا أيها الميرالاي انك لما أظهرته من الإخلاص والصدقة فى وظيفتك كساحدار للرحوم نجلنا الباشا سرعسكر السودان فقد أحلنا على عهدتك رتبة الميرالاي الخامس لعساكرنا الجهادية ووضعنا تحت إمرتك ٢٠ جى و ٢٢ جى و ٢٣ جى و ٢٤ جى أورطة فعليك أن تقوم بأداء الخدمات اللازمة لوظيفتك المحالة عليك بالاتحاد مع قائم مقام الآلاى وبكجاشية الأورط وضباطها الآخرين بحسب مواد

(١) وثيقة رقم ٩٦ دقر ١٦ معية تركى بتاريخ ١٨ ربيع الثانى ١٢٣٩ هـ (٢٢ ديسمبر ١٨٢٣)

القانون ووفقا للنظام المعمول به في الآلايات ١ جى و ٢ جى و ٣ جى و ٤ جى بزيادة
وبإيفاء لوازم الحماية والغيرة المأولين منك .

وأنت أيها القائم مقام ويا بكجاشية الأورط والصول أغاسية وجميع الضباط ،
اعلموا أن البك المذكور هو ميرالايكم واتبعوا رأيه في المسائل التي تكون موافقة
للنظام ومطابقة للقانون وراعوا مراسم الاتحاد في التعليمات العسكرية والخدمات
الجهادية واسعوا في إبراز ماشاهدناه من حسن درايتكم مضاعفا . وعليه فقد أصدرنا
مرسومنا هذا من ديوان مصر ومن معسكر بنى عدى ” .

تعليمات محمد على إلى قادة الجيش

ولم يكف محمد على عن توجيه تعليماته لقادة الجيش الفينة بعد الفينة . فهو
لا يفتأ يبعث بإرشاداته إلى رجالاته ، لكي يكونوا على بينة من خطواته ، ويقتفوا
آثار توجيهاته . فمثل هذه الارشادات أو التوجيهات كانت مصابيح الهدايا في الطريق
المستحدث ، يمشون على ضوءها نحو الهدف المرموق .

ولسنا بصدد عرض جميع هذه التعليمات أو التنويه بمختلف الارشادات وإنما
نأتى على أمثلة منها .

مرسوم خديوى إلى ناظر الجهادية ورجال الجيش المصرى^(١)

إلى افتخار الأمراء والأكابر محمد بك ناظر الجهادية دام اقباله وإلى افتخار
الأمجاد والأكارم عثمان بك رئيس رجال الجيش والميرلوا حسن بك دام مجدهما .
وإلى مفانحر الأمجاد والأعيان حسين بك وسليم بك ميرالاي رجال الجيش
ومحمود بك وأحمد بك وعلاء الدين بك وسليم بك ميرالايات الآلايات ٩ جى و ١٠ جى
و ١١ جى و ١٢ جى بزيادة زاد مجدهم .

(١) وثيقة تركية رقم ٢٣٦ ورقة ٤١ دفتر ٢٠ معية تركى بتاريخ ٢٣ ربيع الثانى ١٢٤١ هـ
(٥ ديسمبر ١٢٨٥) .



أمیر اللواء ابراهيم یکن باشا

وإلى مفانحر الأمانل والأقارن الأغوات القاتمقامات والأغوات البكباشية
والصاغ والصول قول أغاسى والحاسبين واليوزباشية وحاملى الأعلام والملازمى الأول
والثناة والخوايشية والأونباشية وأمناء البلوكات زاد قدرهم وإلى جميع الجنود ...

بعد السلام — نبلغكم أن طريق الجهاد والفداء الذى هو للفيض رفيق
هو طريق الله القوى وسبيل سلطان الأنبياء وهذا شئ بديهى . والذين سلكوا
هذا المسلك القويم من أصحاب الصدق والوفاء حصلوا على مرادهم ونالوا مبتغاهم
وهذا أمر واضح لذلك قد صرفنا ما فى مقدورنا لتقوية نظام هذا الطريق ولوينا
عنان همتنا نحو استقرار هذا النظام ونحمد الله إذ كانت الأزلية معنية بنا ولازمنا
التوفيق فقمنا بتنظيم الآلايات والأورط ووضعنا لها النظم التدريبية وكانت نتيجة
ذلك أن شوهدت الفضائل العديدة والخصائل الجميلة للجنود الجهادية وشاع أمرها
فى الأقطار المعمورة . وكان الواجب يقضى بتقدير هذا الفضل الإلهى وعرفان حق
هذا الفيض اللانهاى وإبقاء الشكر والثناء على هذه النعم ولكنى يا حضرات الأمراء
والضباط أسمع أن بينكم من لا يحترم هذا السلك العسكرى الذى هو مبدأ العز
والسعادة ومبدأ المجد والمناقب ولا يراعى أصول القوانين المودعة فى يد أمانتكم وأجاز
لنفسه الغفلة والتراخى واستباح لنفسه سلوك طريق ملتو غير موصل . ولا ريب فى أننا
لانرضى إطلاقاً أن يصيب أصول نظام الجيوش الحسنة والجنود الغر الميامين ، الذين
صرف فى سبيلهم أعظم الهمم حتى وجدت وأكبروا التوفيق حتى استقرت فنالوا
بوضعهم الحديث استحسان الوكلاء ، أى خلل يودى بالشروط المقررة لهم أو أن
يطرأ على قانونهم المحترم أى اعتلال .

كما أنه قبل كل شئ لا جدال فى وجوب وقاية هذا السلك من هذه العوارض
فعليكم أنتم أيها الأمراء والضباط أن ترجعوا إلى القانون المسلم إليكم فى جميع حركاتكم
وسكناتكم باتخاذكم جميعاً وأن تسعوا للعمل بمقتضاه وإذا وجد من بينكم من يتبع
الهوى ويفعل أفعالا مخالفة للشرع ويسلك سبيلاً منافياً للأصول مناهضاً للشروط

فلا ترعوا خاطره وإن كان قريبا أو صديقا لكم حتى ولو كان أبا أو أخا لكم ،
وقوموا بتأدية التأديب اللازم طبقا لما توضح في نص القانون واعنوا العناية الصادقة
في تعليم الأنفار وتحكيم أصول التعليمات حتى يتسنى لكم بذل مقدوركم في إيفاء
واجبات الصدق والإخلاص والسداد من بعد الآن كما هو المرتقب منكم وكما شاهدناه
فيكم إلى الآن وفي وقاية نفوسكم من أن تكون معيوبة معاتبة بتجوز أدنى إهمال
أو تراخ .

وأتم يا صغار الضباط ويا جميع الجنود عليكم أن تطيعوا بكاركم اعتبارا من رتبة
أونبائش حتى البكاشي وأن تتبعوا أوامرهم وأن تبذلوا جهد المستطاع لتكونوا
متحلقين بأفضل الأخلاق .

وأنت يا أيها الناظر عليك أن تفرغ قصارى جهدك وتبذل حميتك وغيرتك
في جل الشئون المنتفزة من نظارتك وأن تعمل على استكمال الوسائل الحسنة المؤدية
إلى ازدهار الجيوش الجهادية وازدياد محاسنها النظامية واحذر أن تكون مسئولا
بتجوز أقل ما يمكن من التهاون في هذا الباب .

وعليه فقد أصدرنا مرسومنا هذا من ديوان مصر من باب التنبيه والتأكيد
وأرسلناه إليكم فاعملوا بإذن الله بمقتضاه وتحاشوا أوضاع المخالفة له والمنافية للرضا .
وهناك عامل آخر كان له الأثر الكبير في معنويات الجيش هو عزم "العزیز"
على تأييد هذه المؤسسة وتنشيطها وشعور رجالها بذلك . فإننا نلمس هذا الأمر
لمس اليد في خطاب أرسله "العزیز" إلى ناظر الجهادية في خريف سنة ١٨٢٧
ولإليك النص :^(١)

من الجنب العالی إلى محمود بك ناظر الجهادية :

إن مؤسسه الجهادية عمرها الله لى في حد ذاتها نعمة جلیلة وأمنية بلغ من شرف
قدرها أنى ما زلت منذ عشر سنين متعللا برجاء إدراكها قائلا : "أیكون لى أنا الآخر

(١) دفتر ٢٦ مئة تركى — مكاتب تركية رقم ١٦١ بتاريخ غرة ربيع الأول ١٢١٣ هـ .

سعادة نيلها“ بل ما فتئت ألقى بنفسى وأولادى وعيالى وبعرضى ومالى وبذلك العدد الكبير من أصدقائى وأتباعى الذين هم غرس يدى وثمرة تعهدى . ألقى بكل أولئك فى المهالك وأعرضهم للضار والأخطار أملا فى إحداث هذا السلك الجهادى الذى تذكره يا محمود بك كيف كان وقع لفظه عليك حين سمعته لأول مرة فإن تكن حينذاك على حق فيما أظهرت من آثار الاستبصار الناشئ عن توقعك مخاطر هذا المشروع الظاهرة وجرائره المنتظرة فإننى لم أحفل بأوضاع الحيرة التى تملكك ولا أبهت لأحوال غيرك من سائر المقرئين ولكنى وصلت ليل بنهارى مضحيا بنومى وراحتى وماضيا فى عزمى وإقدامى حتى بلغت وله الحمد مرادى ووفقت وله الشكر الجزيل إلى نبيل مراعى كما أنك تذكر كم بذل بعد ذلك من جهد فى المحافظة على هذا السلك لئلا يحيد عن جادته السديدة جنوبا إلى الأودية المعهودة وكيف لم أضن فى سبيل ذلك حتى بعلى أغا كسكين زاده قائمقام آلاى ٥ جى بياده إذ أعدم رميا بالرصاص فى مواجهة الصفوف العسكرية وهو ذلك الذى نشأ فى رعايتى من الصغر وربيتته حتى شب وكبر .

فلهذا كنت أودّ أن نكون قد تخلصنا من الشعوذة والولاية والغفلة والرخاوة والغرض والصفينة والمحابة التى طالما ألفناها ومللناها فى الأيام الخالية . وأن يكون ذلك العهد قد مضى وانقضى وبدلنا به عهدا يقوم على أساس الإنصاف والإنسانية والحياسة والعدالة والاجتهاد والغيرة بحيث يتسنى لنا نحن أيضا أن نصرف عملنا وننجز مصلحتنا على أسلوب من اللطف والحسنى يدخلنا فى مصاف البشرية الراقية ولكن بينما نحن مطمئنون إلى هذا الأمل إذ صدمتنا جرائم محمود أفندى القائد السابق للآلاى ١ جى بياده التى تييناها سواء من العريضة التى كان قدمها إلينا أو من محزراته الواردة عليكم .

وإذا كنا قد حولنا قضية (محمود أفندى هذا) عليكم لاستجوابه وفقا لقواعد النظام الجهادى المستحسنة ثم لعرض أمره علينا بعدما يتفق يتخذ المجلس بشأنه

قراراً موافقاً لمقتضى العدالة والقانون . وكنتم بدوركم قد ألقتم بهذا القصد مجلساً جهادياً ثم حوّلتم القضية على سليم بك للفصل فيها . فان المجلس المذكور ما كاد يتلقى ردّ محمود أفندى على سؤاله حتى قنع بهذا الجواب فلم يبد من أحد من أعضائه أى ميل إلى الاعتراض على معاودة الشعوذة والولاية . ولا دحض جواباً بالجواب الذى يستوجبه ويقتضيه . وإنما ضرب المجلس فى أودية المحاباة فاعتبروا الجريمة ناشئة عن شكاية (أحمد باشا) ولم يحملوها فى قرارهم إلا هذا الحمل وهكذا صرفوا أنظارهم عن أداء الواجب بذمتهم وإبقاء من مهمتهم ولم يعرأ أصول الوظيفة والمصلحة . بل لقد حاولوا استدراجنا معهم إلى طرائق ولايتهم . فكان هذا داعياً إلى تعجبنا باعثاً على دهشتنا وتحيرنا حتى ليعلم الله أن كبدي كادت تنفطر من شدة الأسى وتقطر دماً من فرط الأسف فهل ضاع الانصاف أيضاً (يا محمود بك)؟ أم تراهم أكتفوا برؤية الدعوى على ضوء القانون ظانين إني نسيت مضمون عريضة (محمود أفندى) ومحركاته أو كانت الدعوى المذكورة قد نظرت حقاً بحسب القانون وكان كل ما يستحقه الرجل هو ذلك الجزاء الذى قرره المجلس فى مضبطته بإجماع الآراء بعد وزنه بجرأته وتقديره لها بموجب مضمون عريضته ومحركاته فليبعث إلى بتلك العريضة والمحركات لأحقق أنا أيضاً المسألة . فقد أكون لها ناسياً . حتى إذا أسفر تحقيق عن صحة قرار المجلس فيها نعمت . وإلا حق على أن أقاضى أعضاء المجلس وأفصل بنفسى فى دعواى فأوفى كلا منهم جزاءه .

وبناء على ذلك لقد أعدت إليكم فى طي كتابي هذا مضبطة المجلس ، كي تردوها إليهم وترسلوا معها العريضة والمحركات عسى أن ينعموا النظر فى المطابقة والموازنة . فان هم اجتروا بعد ذلك على انتهاج خطة الخلاف فليعلموا علم اليقين إني لابتدئ موردتهم موارد التلف تبعاً للنصوص الواردة فى القانون .

أذن فليرعوا ذلك ويحكموا في هذه الدعوى بمقتضى الحق والنصفة مسترشدين
بما في النظم الجهادية من أصول صحيحة مستحسنة وبما تنص عليه القوانين
القيمة ليختاروا لأنفسهم واحدة من هاتين الخطتين ثم ليجيبوا مخبرين بها
مشيرين إليها .

هذا ما لزم تسطيره فاذا أحطتم علما بفجواه فأخص مطلوبنا أن تبادروا إلى
إيفاء مقتضاه^(١) .

العناية بالرماية

أما أن محمدا عليا كان يعنى بتدريب الجيش على شئون الرماية ، فهذه حقيقة
لا ينكرها الواقع . وكيف لا والرماية هى « الصناعة » التى يتعين أن يجيدها كل
جندى شاء أم لم يشأ . فحسبك أن تعلم مدى أهميتها حين نعترف بأن الجندى الذى
لا يجيد الرماية أشبه بالنقدية التى لا تصيب الهدف ... كلاهما إن لم يك صالحا فهو
مضر للغاية .

وفى الأمر التالى يلوح لنا جلليا كيف كان هذا المصالح يفحص مثل هذا الأمر
بعين محدقة ، ويوجهه برأس مفكرة

من الجناح العالى إلى ناظر الجهادية

”لأنه لمن البدهاة أنكم ستعون كل العناية بتعليم الآليات المائلة بمعسكرى عدى
وفى تفنن الضباط والعساكر كما ينبغى ، بيد أنه من المعروف أيضا أن إصابة
الهدف من الأمور التى لها أهميتها وخطورتها . فمن الواجب — والحالة هذه —
أن تعنوا أيضا بأمر الرماية وتعليم أصولها عنايتكم بالأمور الأخرى . فنيهوا على
الميرالاي الثالث خورشيد بك والميرالاي الرابع حسن بك والميرالاي الخامس سليم بك

(١) المكتبة التركية رقم ١٦١ دفتر رقم ٦ مئة تركى بتاريخ غرة ربيع الأول سنة ١٢٤٣ هـ

(٢٢ سبتمبر ١٨٢٧ م) .

بأن يعزوا أيضا بتعليم الرماية وأفهموا سليمان بك أيضا بأنه يجب عليه بعد أن يفرغ من تعليم الفصول المطلوبة أن يشرع في تمرين الجنود على الرماية أسوة بالتمرينات الأخرى وأن يوصلهم إلى درجة الكمال فيها وأن لا يتكاسل عن ذلك . ففحق علمتم أن هذه إرادتنا في هذا الصدد أروني يا أنحى همتكم واعملوا على تنفيذ إرادتنا ووافونا بالاجراءات التي ألتخذتموها في هذا الشأن “ .

ديوان الجهادية

لم يكن لدى محمد علي مجلس للنظار أو الوزراء كما هو الحال اليوم . بل كان لكل فرع من فروع الادارة الحكومية ديوان أو هيئة وعلى رأس كل ديوان ناظر ينفذ الأوامر التي يصدرها اليه بدون تحوير أو تعديل . وكان عدد هذه الدواوين سبعة وهي :

الديوان العالى — ديوان الايرادات — ديوان الجهادية — ديوان البحرية — ديوان المدارس — ديوان الأمور الأجنبية — ديوان الفابريقات .

وقد أنشئ ديوان الجهادية في عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢١ — ١٨٢٢ م) وكان يرجع اليه في ادارة شئون الجنود البرية ، وتعليمهم ، وضبط حركاتهم ، وبناء الشكاك والمشافى ، ومشتري المهمات والأسلحة وسواها .

ولم يكن على ناظر الجهادية سوى إصدار الأوامر التي يتلقاها من محمد علي باشا وملاحظة تنفيذها بدقة وبسرعة وبدون الرجوع الى نظام المكاتبات وبطئها المعروف .

وكان لناظر الجهادية اثنان من الكتبة الأقباط يقومان بتحرير الرسائل الضرورية لفروع ادارة الجيش وأسلحته .

ومما يذكّر أن أول من تقلد هذه الوظيفة (ناظر ديوان الجهادية) محمد بك لاظ أوغلو ثم خلفه محمود بك عزت الذي بقى في منصبه حوالى العام ثم استبدل بالفريق أحمد المنكلى باشا وقد جرح في معركة قونية .

المدارس الحربية

مدرسة القلعة

بعد مذبحة المماليك في سنة ١٨١١ ، جمع محمد علي غلمانهم وصغارهم في القلعة بمدرسة ، على غرار المدارس التي كان أمراء المماليك يقيمونها في قصورهم . وأحضر لهم المعلمين يلقنونهم القراءة والكتابة التركية والفنون الحربية ، ثم زيد عليها الرسم والرياضيات واللغة الإيطالية .

ومن ثم أوفد — فيما بعد — كبار تلاميذ هذه المدرسة وبعض غلمانه وغلمان كبار موظفيه الى أسوان حيث أنشئت لهم مدرسة حربية يتعلمون فيها على أيدي المدربين الأوربيين وعلى رأسهم الكابتن « سيف » الذي تسمى بعد باسم « سليمان الفرنساوى » .

تنظيم التعليم العسكرى :

وما لبث أن ارتأى محمد علي أن ينظم التعليم العسكرى في البلاد — فأمر بتأليف مجلس يهمن على شئون التعليم في الجيش ويتولى الإشراف على تدريبه وسمى ديوان « قومسيون » المدارس العسكرية . وقد تألف هذا الديوان من ناظر الجهادية رئيسا وعثمان نور الدين بك وقادة الآليات العسكرية في مصر والكولونيل جودا مدير تعليم المشاة والبكاشى فوجت وزميله ديلفورت ، وكان يقوم بأعمال السكرتارية — أحيانا — القومندان بلانا .

وكانت من أعمال هذا الديوان البحث في مطالب تعليم الجيش ، ووضع القوانين والتعليمات وتعديلها على حسب الأحوال . وقد أسندت رئاسة هذا الديوان لأمير اللواء مصطفى مختار بك .

مدرسة الليادة بأسوان

في اليوم الثامن من أغسطس عام ١٨٣١ صدر أمر محمد علي بإنشاء المدرسة الحربية بأسوان وتنظيمها والعناية بأمرها وتدريس العلوم بها . وفي اليوم السابع والعشرين وافق على ترتيب دروس المدرسة الحربية .

وحين حل الخامس والعشرون من يناير ١٨٣٢ صدر أمر بتعيين محمد بك. لاط أوغلو ناظرا على مدرسة أسوان المذكورة ولتنظيمها ولإدارة شئونها . وفي الأمر الآنف نصح تلامذة المدرسة بصفتهم والدهم على الانقياد للناظر وبالاجتهد في تحصيل العلوم والفنون لأجل ترقيةهم .

وفي ١٦ فبراير ١٨٣٢ صدر أمر من محمد علي باشا لهذا الناظر بالاقتداء مع سليمان أغا (الفرنساوي) لعمل ترتيب للمدرسة حسب التعليمات التي أعطيت للذكور، وانتخاب من يلزم من المدرسين ، وترقية المجتهدين من التلامذة الى جاويش أغاسية أو "بلوك باشية" ، لحث الباقين منهم على التقدم أسوة بغيرهم .

بيد أن أسوان لم تكن ملائمة للدراسة العسكرية — ولذلك نقلت المدرسة الحربية الى (إسنا) فانتقل سليمان أغا وبصحبه أحمد أفندي — وهو من الرجال الفنيين — وكان يتردد عليهما بين الحين والآخر إبراهيم باشا ليقف بنفسه على نجاح تدريب النواة الأولى للجيش المصري .

واستمرت مدرسة إسنا الحربية قائمة على تخريج الضباط لفرق الجيش الجديدة . الى أن نقلت الى أنجم ثم النخيلة (على مقربة من أسيوط) . وأخيرا استقر معسكر التدريب أو المدرسة الحربية بالخانقاه . وقد سميت فيما بعد بمدرسة الجهادية^(١) .

(١) ذكر مسيو جومار في كتابه (La Reforme en Egypte) أن قائد هذه المدرسة كان ضابطا سردينيا اسمه (بلاسو) وكانت تسع خمسمائة طالب ، ولم يقدر لهذه المدرسة البقاء سوى بضع سنوات .

مدرسة البيادة بالخانقاه

أنشئت مدرسة البيادة على مقربة من الخانقاه في سبتمبر سنة ١٨٣٣ لتخرج ضباط وحدات المشاة . بيد أنها لم تعمر بالخانقاه طويلا . إذ نقلت في مايو سنة ١٨٣٤ ، أى بعد نحو عامين من إنشائها بالخانقاه ، الى مدينة دمياط . فظلت بها حوالى سبع سنين ثم نقلت سنة ١٨٤١ الى أبى زعبل في مكان المدرسة التجهيزية . ومكثت بها الى نهاية عهد محمد على . وقد نصت لوائح التعليم في سنة ١٨٣٦ على أن مدة الدراسة بمدرسة البيادة بدمياط ثلاث سنوات . يدرس في غضونهما التلاميذ المواد التالية : مبادئ التحصين ، والطبوغرافيا ، ورسم الخطط ، ونظريات وحركات البيادة ، والتمرين على استخدام السلاح ، وواجبات الخدمة الداخلية والبوليس ونظام الحاميات والأورط والبلوكات .

وكان موظفو المدرسة هم : مديرها يوسف أغا بعد أن كان الضباط بولونينو وويكله وأستاذ للطبوغرافيا والخطط ، وآخر للتحصين والهجوم ، وأربعة ضباط من المشاة ، وأربعة ملازمين ، ومدرّب للسلاح ، وآخر للرياضة البدنية . وكان يرأس لجنة امتحان تلاميذها قائد من الجيش .

وقد نص قانون المدرسة على اعتبار تلاميذ مدرسة المشاة كتيبة في الجيش . ومما يذكر أنهم كانوا في سنة ١٨٣٧ خمسة وستين وثلاثمائة . منهم الأنفار وضباط الصف ثم أربى العدد عقب ثلاث سنين على الأربعمائة . حتى إذا كانت سنة ١٨٤١ وأعيد النظر في تنظيم المدارس رأت الحكومة أن الحاجة إلى مدرسة المشاة ما تزال ماسة حتى بعد إنقاص الجيش لإلغاء معسكر النخيلة الذى كان يمد الجيش بالضباط . ولم يبق ثمة مدرسة تخرج ضباط للمشاة سوى مدرسة البيادة . لهذا استبقيت المدرسة على حالتها الأولى مؤلفة من أربعة بلوكات . في كل بلوك مائة وعشرة من التلاميذ أعمدا وضباط الصف . وقد تضخمتم أعداد التلاميذ حتى صارت المدرسة تحتوى

عل ثمانية وستين تلميذا بعد الثمانمائة وبذا كانت المدرسة الوحيدة بمصر التي ازداد عدد تلاميذها بعد سنة ١٨٥١ عما كانت عليه من قبل .

وقد ظلت المدرسة الى انحرىات أيام محمد على زاهرة بعدد وفير من التلاميذ يربو على عدد تلاميذ أى مدرسة أخرى بمصر (٣٣٠ تلميذا) . وفى بداية حكم عباس الأول نقلت مدرسة الليادة من ابى زعل الى الجيزة ثم ألغيت وسرح تلاميذها .

مدرسة أركان الحرب

أنشئت مدرسة أركان الحرب بقرية "جهاد أباد" بقرب الخانقاه بمشورة عثمان نور الدين أفندى . وقام على تأسيسها الكابتن الفرنسى "بلانا"^(١) وبدأت الدراسة بها فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٣٥ .

وأقيم للمدرسة بناء جميل، وشيدت منازل على النسق الحديث، وكانت نواتها الأولى ١٨ ضابطا وكان (بلانا) ينهض بنصيب موفور من التعليم وبمعاونة بعض المدرسين الأوروبيين والشرقيين .

وكانت مدة الدراسة بها ثلاث سنوات . وكان فى نية منشأ زيادة مدة الدراسة سنة رابعة يتناول فيها التلاميذ الطبيعة والكيمياء والحساب والجغرافيا والتاريخ .

وكان الضباط الذين يتخرجون فى هذه المدرسة يعينون "أركان حرب" فى الوحدات الفنية فى الجيش ، أو فى المدفعية ، أو فى المناجم ، أو فى الإدارة الحربية أو المدنية أيضا .

(١) خدم جول بلانا مصر من عام ١٨٢٤ الى ١٨٢٨ ومات فى فرنسا فى العام التالى .

مدرسة السوارى

أنشئت مدرسة السوارى فى ذى القعدة ١٢٤٦هـ (أبريل ١٨٣١م) وخصصت لها قصر مراد بك بالجيزة. وقد استمرت به حتى ألغيت فى بداية عصر عباس الأول.

وقد نصت لوائح المدرسة (سنة ١٨٣٦ - ١٨٣٧) على أن يلحق بها :

(١) ضباط يعدّون ليكونوا معلمين بالجيش .

(٢) تلاميذ من المدرسة التجهيزية .

(٣) جنود من الجيش ليكونوا نانخى الأبواق و"ترومبتجية" .

أما الضباط فتبعث بهم الى المدرسة فرق الجيش على ألا تقل أعمارهم عن ثلاثين سنة . ويشهد رؤساؤهم بكفائتهم وحسن أخلاقهم . وتختبر مهارتهم فى الثلاثة أشهر الأولى من بدء التحاقهم بالمدرسة . حتى إذا قبلوا بها نهائيا ظلوا بين جوانحها عامين أو ثلاثة أعوام يدرسون العلوم التى تؤهلهم ليكونوا فيما بعد معلمين فى وحدات الجيش .

أما التلاميذ الذين يؤخذون من المدرسة التجهيزية فيمكنون بمدرسة السوارى ثلاثة أو أربعة أعوام يعينون بعدها ضباطا فى فرق الفرسان بالجيش . وكان تلاميذ المدرسة يتلقون دروسا مختلفة بعضها فى نظريات الخدمة العسكرية وبعضها فى اللغات العربية والتركية والفارسية . وبعضها الآخر فى الهندسة والحساب والرسم والخط . هذا إلى التدريب العسكرى فى القفز وركوب الخيل واستخدام السلاح وغير ذلك من فنون الفروسية . وكان تلاميذ المدرسة مقسمين أربع فرق فى دروس الخدمة العسكرية ، وبالمدرسة فرقة للرسم وأخرى للفروسية . وفيما عدا ذلك يقرأ التلاميذ كتباً متباينة فى العربية والتركية والفارسية ويمتزنون على خط الرقعة أو الثلث . وكان ضباط المدرسة وفريق من تلاميذها يتعلمون اللغة الفرنسية .

وكان على التلاميذ أن يخدموا خيولهم بأنفسهم في الثلاثة أشهر الأولى من دراستهم .

وكانت مدرسة السوارى — كما ذكرنا — تنتظم ضباطا وتلامذة وجنودا ضاربين على الطبل ، وآخرين ناخين في الأبواق .

أما الضباط فكانوا يقومون على تعليم التلاميذ وتدريبهم ويتلقون دروسا تعدّهم ليكونوا معلمين بالجيش .

أما التلاميذ — وكانوا الأغلبية في المدرسة — فكانوا يؤخذون من المدرسة التجهيزية وسواها من المدارس الحربية والخصوصية .

أما الجنود فكانوا من أولاد الجند العاملين ويلحقون بالمدرسة ويقرءون بها القرآن الكريم ويتعلمون القراءة والخط .

وأما الناخون في الأبواق ” البروجية ” فكان مقررا للمدرسة أربعة وأربعون وكانوا ينتخبون من تلاميذ المدارس الأخرى الحاصلين على درجة ” دون الدون ” في الامتحانات .

وقد بلغ عدد تلاميذ المدرسة في عهدها الأول من الترك والمماليك حوالى المائتين . أما المصريون فكانوا يقصرون على تعليم العزف في الأبواق . ولكن مالبث العنصر المصرى ينمو بها ويتزايد حتى إذا مضت سنوات قلائل أصبح تلاميذ المدرسة كافة من المصريين وزال منها العنصر الأجنبي أو كاد .

وأكبر عدد بلغته مدرسة السوارى (٧٥٠ تلميذا وجنديا) وفي سنة ١٨٤٦ كان مجموع من بها ٦٣٩ منهم ثلاثون ضابطا و ٣٢٨ تلميذا و ٢٨١ جنديا وناخا في البوق وضاربا على الطبل .

وفي مستهل حكم عباس الأول ألغيت المدرسة .

ومما يذكر أنه قد تولى منصب (مدير المدرسة) في عهدها الأول ضابط فرنسى يدعى "فارن" (Varin) فنظمها على غرار المدارس الحربية الفرنسية وقد رفع محمد على رتبته إلى أميرالاي عقب انتصار الجيش في حروب عام ١٨٣٢ . وقد خلفه على إدارة المدرسة ضابط فرنسى يدعى "واسيل" أو "واسيل أضا" وقد ظل مديرا للمدرسة حتى شارف عصر محمد على النهاية .

مدرسة المدفعية

لما مست الحاجة إلى ضباط لوحدات المدفعية المنشأة في ذلك العهد تقدم ضابط إسباني اسمه "دى سيجويرا" إلى إبراهيم باشا القائد العام للجيش المصرى باقتراح إنشاء مدرسة خاصة بالمدفعية فوافقت الحكومة على اقتراحه وأنشئت المدرسة وعين مديرا لها . وجمعوا لها ثلاثمائة من تلاميذ مدرسة قصر العيني التجهيزية . وكان إنشاء المدرسة في سنة ١٨٣١ م (١٢٤٧ هـ) .

أنشئت المدرسة في طرة وكان غالبية تلاميذها — أول نشأتها — من المصريين والأتراك كما كان منهم يونانيون من كانديا وبعض أفراد الأسرة الحاكمة . وقد تراوحت أعمارهم بين الحادية عشرة والخامسة عشرة ومنهم من يزيد على ذلك . ولم يكن يشترط عند التحاقهم بها إلا معرفة القراءة والكتابة ثم يتعلمون الحساب والهندسة والجبر والرسم والاستحكامات ولغة أجنبية .

فالذين يعدّون للخدمة في الأسطول يتعلمون الإنجليزية . والذين يعدّون للجيش يتعلمون الفرنسية أو الإيطالية . أما اللغة التركية فكان يتعلمها جميع التلاميذ على السواء .

وكان يضطلع "رفاعة رافع الطهطاوى" وقد عين مترجما بمدرسة المدفعية بعد نقله من مدرسة الطب بدلا من المستشرق الشاب "كنيك" (Koenick) وظل بها سنتين (١٨٣٣ — ١٨٣٥) .

وفي سنة ١٨٣٦ ندب شورى المدارس لتنظيم مدرسة المدفعية بطرة لجنة مؤلفة من مختار بك مدير الشورى و "حكا كان أفندى" مدير مدرسة المهندسخانة والمسيو "لامبير" وكان آنذاك مهندسا بشورى المدارس . وانضم اليهم "مظهر أفندى" المهندس و "بهجت أفندى" مدير مدرسة المدفعية والمسيو "برونو" ^(١) مدرب التلاميذ بها . ودرست اللجنة نظام المدرسة ووضعت لأحتتين .

وقد أصبح برنامج الدراسة في أواخر عصر محمد علي حافلا بالدروس المتنوعة كفيلا بتخريج ضباط أكفاء للهنة التي أعدوا لها .

وفي سنة ١٨٤١ رأت اللجنة التي وكل اليها تنظيم التعليم أن تحتفظ بالمدرسة على أن يكون قوامها عددا من التلاميذ كافيا لإدارة "بطارتين اثنتين" . بيد أن حظها بعد سنة ١٨٤١ لم يكن خيرا منه قبل تلك السنة .

فقبل سنة ١٨٤١ كانت الحاجة ملحة إلى ضباط لفرق الجيش التي تتزايد يوما إثر يوم . الشيء الذي طالما دعا الى تخريج التلاميذ قبل أن يستكملوا دراستهم . ولكن بعد سنة ١٨٤١ أنقص الجيش وأصبح كثيرا من خريجيها الذين أتموا علومهم على قلوبهم لا يكادون يجدون عملا . فكانوا يظلون بالمدرسة يستعيدون دروسهم حتى تحتاج اليهم أو إلى بعضهم فرق الجيش .

وكان عدد تلاميذ المدرسة وقت إنشائها ثلاثمائة تتراوح أعمارهم بين الحادية والخامسة عشرة أو تزيد على ذلك أحيانا .

ولما نظمت المدرسة في سنة ١٨٣٦ لم تستطع المدرسة أن تستوفي إلا نحو مائة وثمانين تلميذا موزعين على ثلاث فرق دراسية .

وفي سنة ١٨٤٣ كان بها ثمانون ومائة تلميذ فحسب موزعين على أربع فرق .

(١) تاريخ التعليم في مصر — أحمد عزت عبد الكريم . ص ٤٠٩ — ٤١١

وفي العام التالي استوعبت المدرسة أكثر من مائتي تلميذ موزعين على ست فرق دراسية . ولكن عدد التلاميذ ارتدّ يهبط سريعا حتى وصل في سنة ١٨٤٦ الى أقل من مائة ثم الى ثمانية وسبعين تلميذا موزعين على أربع فرق دراسية . وفي أخريات أيام محمد علي تقزّر إبلاغ عدد تلاميذها الى ثلاثمائة بأكثرهم من تلاميذ المكتتب العالي بعد امتحانهم .

وفي أوائل عهد عباس الأول أغلقت المدرسة أبوابها . وقد كان أول مديري المدرسة الكولونيل (الدون أنطونيودي سيجويرا) بيد أنه اعتزل الخدمة بعد أربع سنوات وخلفه مصطفى بهجت أفندي (باشا فيما بعد) عضو بعثة عام ١٨٢٦ الى فرنسا ثم ناظر مدرسة قصر العيني التجهيزية .

وكان يعاونه مدرّب فرنسي يدعى ”برونو“ ثم خلفه ”خليل أفندي“ مديرا للمدرسة وبعد ذلك استقل الضابط المدرّب ”برونو“ بإدارة المدرسة وظل بها الى أواخر عصر محمد علي .

مدرسة الموسيقى العسكرية

أنشئت في قرية ”جهاد آباد“ مدرسه لتعليم الموسيقى لنفر من أبناء المصريين ليكونوا موسيقيين في وحدات الجيش والأسطول . وكان يعلمهم معلم أجنبي يدعى الخواجة كلود كاريه . ثم نقلت المدرسة الى ”الخانقاه“ وكان عدد تلاميذها يبلغ المائتين .

وكانت هذه المدرسة تابعة منذ إنشائها لديوان الجهادية ثم أصبحت منذ أوائل سنة ١٨٢٧ تابعة لديوان المدارس .

ورأى الديوان أن عدد تلامذتها — وكان مائتي تلميذ وخمسة تلاميذ — أكبر مما تحتاجه فرق الجيش وأنهم يزيدون على نسبة المعلمين — فقزّر الاكتفاء بمائة وخمسين منهم ونقل الباقين الى مدرسة المبتديان وعين لهم مدرّسين من الأجانب .

وفي عام ١٨٤١ ألغيت المدرسة ووزع تلامذتها على المدارس الحربية .
وكان عدا مدرسة الخانقاه — ثمة مدارس أخرى لتعليم الموسيقى منها مدرسة
بأثر النبي ثم نقلت الى سوق السلاح في البناء الذي كان مصنعا للصوف . ومدرسة
بالقلعة — وقد زارها بعض كبار الأجانب وأعجبوا ببراعة تلاميذها المصريين
في تفهم الموسيقى الغربية وأداء أدق القطع لأهمهر الموسيقيين الإيطاليين والفرنسيين .

مدارس الوحدات

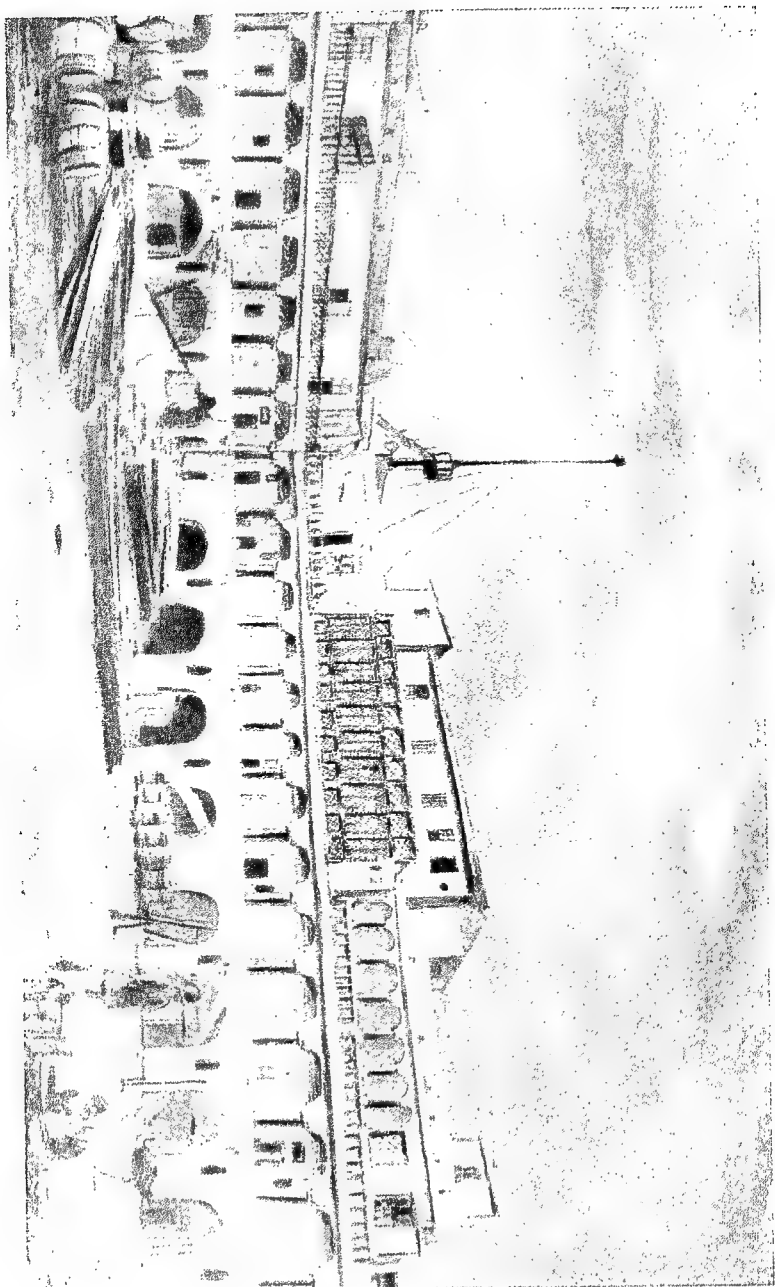
لم تهمل حكومة محمد علي تعليم جنود جيشنا . فهيأت مدارس بفرق الجيش
ووحدات الأسطول يتعلم بين جوانحها الجنود (جنود البر والبحر) القراءة والكتابة
والحساب . وكانت الحكومة تولى تشجيعها للتفوقين منهم بترقيتهم قبل أقرانهم .

البعثات العسكرية

ورأى محمد علي باشا — بعد إنشاء النظام العسكرى الحديث في مصر وتأسيس
المدارس الحربية والمؤسسات التي لا غنى لجيش وطنى — أن حاجة البلاد الى
الأجانب من مديرين ومدربين لا تزال حيث كانت . ولما كانت نفسه الطموحة
لا تريد أن تحتاج البلاد الى شىء ما من الخارج . عول على إيفاد البعثات من الشبان
الذين أهلتهم معاهد العلم بمصر الى أوروبا ليلموا دراستهم بها ليتنبأ بتمصير تعليم
الجيش . وشرع يرسل التلاميذ تباعا الى مختلف البلدان الأوروبية لتكون منهم
نواة لإحياء المجد العلمى بمصر الحديثة ، وتخير مسيو جويمار رئيسا للبعثات المصرية
بفرنسا وغيرها للاشراف على البعثات العلمية .

بعثة الجيش الأولى

كانت أولى البعثات التي أوفدها محمد علي — عام ١٨١٣ — للتخصص في الشؤون
الحربية وكان أعضاؤها :



دار الصناعة بالإسكندرية

دويدار مصطفى مختار — أرسل لتعليم الإدارة الحربية . ومن المناصب التي تولاه مدير ديوان الجهادية عام ١٨٣٥ ثم مدير ديوان المدارس (١٨٣٦) . وكان أول ناظر للعارف في مصر .

محمد مظهر — تخصص في دراسة الرياضيات والهندسة وبعودته الى مصر عين ناظرا للمدرسة المدفعية بطرة ، ومن أهم أعماله إنشاء فناء الاسكندرية برأس التين .
أحمد يكن مصطفى القللى — تعلم صناعة الدخيرة .

البعثة الثانية

كان عدد أعضائها قليلا وقد سافروا عام ١٨١٨ . ومن أظهر أفرادها عثمان نور الدين (باشا فيما بعد) وقد ترقى الى أرفع المناصب العسكرية ثم رئيسا للأستطول المصرى (١٨٢٨) .

البعثة الثالثة

أوفدت عام ١٨٢٦ — وقد تخصص معظم طلبتها في الصناعات العسكرية فتعلم أميني أفندى وأحمد حسن حنفى صب المدافع وصناعة الأسلحة . ودرس المدفعية عمر أفندى وسليمان لاظ (الطرابزونى) . وتلقى علوم الإدارة الحربية رشيد أباطة وسليمان الجركسى .

البعثة الرابعة

أوفدها محمد على في عام ١٨٤٤ وهى أعظم البعثات العسكرية وبلغ عدد تلامذتها سبعين تلميذا ثم لحق بهم غيرهم . ومن أعضائها :

أحمد حلمى بك وكان من أهم الوظائف التي شغلها ناظر المدرسة الحربية بالقلعة السعيدية .

أحمد خير الله بك .

أحمد راسخ بك .

- الأمير أحمد رفعت .
- أحمد عجيلة السبكي بك وكان من كبار رجال الرى في مصر .
- أحمد عبيد بك وله عدة مؤلفات عسكرية مترجمة .
- أحمد نجيب (باشا) .
- الخدوي اسماعيل باشا .
- حسن أفلاطون باشا — عين في عهد سعيد باشا رئيسا للصانع الحربية بالحوض المرصود .
- الأمير حسين باشا .
- الأمير محمد عبد الحلیم باشا .
- حماد عبد العاطي باشا — تخصص في المدفعية — وفي عام ١٨٥٤ عين مديرا لمصنع الحوض المرصود ، وله عدة مقالات عسكرية نشرت في مجلة أركان الحرب المصرية .
- حنفي هند بك .
- خورشيد بك برتو بك .
- سعيد نصر (باشا) تقلد عدة مناصب مدنية وعسكرية وقضائية .
- سليمان بخاتي (بك) عين مأمورا لإدارة المدرسة الحربية بالعباسية في عهد الخديو اسماعيل .
- شافعي يعقوب رحى (بك) . اضطلع بعدة أعمال طبوغرافية واشترك مع المهندسين المسكرين في عمل أبحاث شق قناة السويس .
- شحاتة عيسى (بك) كان في عهد الخديو اسماعيل ناظرا لمدرسة أركان الحرب .
- صادق سليم شنن — عبد الرحمن محمد — عبد الفتاح بك — عثمان شريف — عثمان صبرى — عثمان نوري (باشا) .

- على ابراهيم (باشا) عين في عهد الخديو توفيق ناظرا للمعارف ثم ناظرا للحقانية .
- على شريف (باشا) .
- على فهمى (باشا) .

على مبارك (باشا) تقلد عدة مناصب عسكرية في الجيش وفي المعاهد واشترك في حرب البلقان وعين في عام ١٨٧٧ لإدارة الأوقاف والمعارف ثم أسندت إليه نظارة الأشغال واشترك فيما بعد في عدة نظارات واستعفى في مايو ١٨٩١ وأدركته الوفاة في ١٤ أكتوبر عام ١٨٩٣

محمد اسماعيل الطوبجى — محمد خفاجة — محمد راشد (باشا) — محمد شريف (باشا) وكان من أعظم رجال مصر .

- محمد صادق (باشا) قام بعدة أعمال جغرافية في وادى النيل وبلاد العرب .
- محمد عارف (باشا) .
- مراد حلمى (باشا) .
- ولى حلمى (بك) ... وآخرون

ولا ريب أن مصر قد أفادت من خدمات هؤلاء الرجال الذين نشأوا على عهد محمد على وبرزوا على أيام أحفاده ... بل نستطيع القول بأنهم كانوا العمود الذين ازدهى بهم بناؤه .

وحدات الجيش

آلاى المشاة الأول (١ جى آلاى بيادة)

- أنشئ هذا الآلاى في سنة ١٨٢٣ وألغى في سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية .
- ثم أعيد إنشاؤه في أواخر السنة الآتية وأرسل إلى السودان ضمن حملة هكس باشا وأبيد عن آخره في صحارى كردفان مع أفراد الحملة في نفس العام .

آلاى المشاة الثانى (٢ جى آلاى بيادة)

هبيء هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية .
ثم أنشئ من جديد فى أواخر السنة المذكورة وأنفذ إلى السودان ضمن حملة
(هكس) باشا وانقضى عن آخره فى صحراوات كردفان مع بقية أفراد الحملة فى نهاية
تلك السنة .

آلاى المشاة الثالث (٣ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ عقب الثورة العرابية .
ثم أعيد إنشاؤه من جديد فى أواخر السنة الآتفة وأرسل إلى السودان ضمن قوات
(هكس) باشا وأبيد فى فلوات كردفان مع باقى أفراد الحملة فى أواخر تلك السنة .

آلاى المشاة الرابع (٤ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية .
ثم أعيد إنشاؤه فى أخريات السنة المذكورة وأرسل إلى السودان ضمن جيش
(هكس) باشا وتلقى إبادته فى صحراوات كردفان مع بقية أفراد الحملة فى أواخر تلك
السنة .

آلاى المشاة الخامس (٥ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ ، وفى سنة ١٨٧١ ، عندما أدخل الحديوى
اسماعيل نظام الفرق فى الجيش ، فاتخذ هذا الآلاى رقم (١ جى بيادة ٢ جى فرقة) .
وبعد التخفيض الذى أصاب الجيش فى سنة ١٨٧٩ ، لسوء حالة القطر المالية ،
نمر فى سنة ١٨٨٠ بالتمرة الأصلية . ثم فى الثورة العرابية حينما زيد الجيش لمحاربة
الإنجليز نمر مرة أخرى (١ جى بيادة ٢ جى فرقة) وألغى بعد الثورة فى سنة ١٨٨٢ ،
وحدث أن أعيد إنشاؤه من جديد تحت رقمه الأصلى فى أخريات السنة المذكورة
وأرسل إلى السودان بين حملة (هكس) باشا وظل فى الخرطوم كحامية لها . وبعد

حصارها وسقوطها في سنة ١٨٨٥ أبيد هذا الآلاى وكان أطول آلايات الجيش عمرا .

آلاى المشاة السادس (٦ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى في سنة ١٨٢٣ واشترك في حرب سورية سنة ١٨٣١ ولم يعد منها لخيانة قائده الذى سلمه لجيش الحلفاء بعد وقعة بيروت في سنة ١٨٤٠ . ومع كونه متصرا على هذا الجيش فقد فعل هذا خوفا من إبراهيم لغاطلة كان قد اقترفها في غضون القتال .

وعقب عودة الجيش من هذه الحرب ، في سنة ١٨٤١ ، أعيد إنشاء هذا الآلاى من جديد .

وفي سنة ١٨٧١ ، عندما نسق نظام الجيش على وتيرة فرق منفردة ، حمل هذا الآلاى رقم (٢ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وبعد تخفيض الجيش في سنة ١٨٧٩ ، لسوء مالية مصر ، نمر بتمرتة الأصلية . وفي الثورة العربية ، عندما زيد الجيش لمحاربة الإنجليز ، نمر مرة أخرى (٢ جى بيادة ٢ جى فرقة) . ثم ألغى بعد الثورة الآتفة في سنة ١٨٨٢ مع باقى الجيش .

وعندما هيا الخديوى إسماعيل الجيش في فرق منفردة في سنة ١٨٧١ ، وزاده في سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هي : ٣ جى فرقة ، أنشأ هذا الآلاى من جديد ونمره (١ جى بيادة ٢ جى فرقة) . ثم ألغى في سنة ١٨٧٩ م عندما خفض الجيش لسوء المالية المصرية في ذلك العهد . ثم أعيد إنشاؤه مرة خامسة في سنة ١٨٨٢ م وقت الثورة العربية عندما زيد الجيش لمواجهة الإنجليز ونمر مرة أخرى : (١ جى بيادة ٣ جى فرقة) ثم ألغى مع باقى وحدات الجيش بعد الثورة المذكورة في سنة ١٧٨٢ م .

آلاى المشاة العاشر (١٠ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى في سنة ١٨٢٥ . ثم توجه لحرب سورية سنة ١٨٣١ م ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد . وبعد عودة الجيش من هذه الحرب في سنة ١٨٤١ م

أعيد إنشاء الآلاى المذكور لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية فى حرب روسيا من سنة ١٨٥٥ وبعد انتهاء الحرب المذكورة ألغى فى سنة ١٨٥٦ م . ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٧٠ .

وعندما هيا الخديوى اسماعيل الجيش فى فرق منفردة ، فى سنة ١٨٧١ م ، وزاده فى سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى ٣ جى فرقة أنشأ هذا الآلاى من جديد ونمره . (٢ جى بيادة ٣ جى فرقة) ثم ألغى فى سنة ١٧٨٩ م عندما خفض الجيش لسوء المالية المصرية فى ذلك العهد . وأعيد إنشاؤه للمرة الخامسة فى سنة ١٨٨٢ م حينما زاد العربيون الجيش لمحاربة الانجليز ونمره مرة أخرى : (٢ جى بيادة ٣ جى فرقة) . ثم ألغى مع باقى الجيش بعد الثورة العربية فى سنة ١٨٨٢ م .

آلاى المشاة السابع (٧ جى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٤ ، وفى عام ١٨٧١ ، حينما استحدث نظام الفرقة فى الجيش ، أخذ هذا الآلاى رقم (٣ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما أصاب الجيش التخفيض لسوء مالية مصر فى ذلك العهد . وعندما قبض العربيون على أزمة الحكم زادوا الجيش فى أوائل سنة ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى بنمرته الأصلية . ثم نمر مرة أخرى لدى زيادة الجيش فى تلك السنة لمحاربة الإنجليز بنمرة (٣ جى بيادة ٣ جى فرقة) . وألغى بعد الثورة العربية فى سنة ١٨٨٢ مع باقى وحدات الجيش .

آلاى المشاة الثامن (٨ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٤ ، وفى سنة ١٨٧١ عندما استحدث نظام الفرق فى الجيش نمر الآلاى الآنف (٤ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وألغى فى سنة ١٨٧٩ حينما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذلك العهد ، وعندما قبض العربيون على زمام الحكم زادوا الجيش فى أوائل سنة ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى برقمه الأصل .

وعندما زيد الجيش في تلك السنة الأخيرة لمحاربة الانجليز نمر مرة أخرى (٤ جى) ،
بقيادة ٢ جى فرقة) . وألغى بعد الثورة العرابية في سنة ١٨٨٢ مع باقى الجيش .

آلاى المشاة التاسع (٩ جى آلاى قيادة)

أنشئ هذا الآلاى في عام ١٨٢٤ بعد عودة الجيش من حرب سورية في عهد
محمد على باشا ، ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأول
مساعدًا للدولة العلية في حرب روسيا المعروفة بحرب القرم من سنة ١٨٥٣ الى
سنة ١٨٥٥ م . وألغى في سنة ١٨٥٦ بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة
في سنة ١٨٦٦ وألغى في سنة ١٨٧٠ .

الآلاى الحادى عشر المشاة (١١ جى آلاى قيادة)

أنشئ هذا الآلاى في سنة ١٨٣٥ م . ثم ألغى في سنة ١٨٤٣ بعد أوبة الجيش
من حرب سورية في عهد محمد على باشا . ثم أعيد إنشاؤه من جديد لتكوين الجيش
الذى أرسله عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية في حرب روسيا من سنة ١٨٥٣
الى سنة ١٨٥٥ م ، وحدث أن ألغى في سنة ١٨٥٦ م وأنشئ مرة ثالثة ثم ألغى
في سنة ١٨٧٠ م .

وعندما نظم الخديو اسماعيل الجيش في فرق منفردة ، في سنة ١٨٧١ م ،
وزاده في سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هي ٣ جى فرقة أنشأ هذا الآلاى من جديد
ونمره : (٣ جى قيادة ٣ جى فرقة) ثم ألغى في سنة ١٨٧٩ م عندما خفض فيها
الجيش لسوء مالية مصر . ثم أنشئ مرة خامسة في سنة ١٨٨٢ وقت الثورة
العرابية حينما زيد الجيش لمواجهة الانجليز ونمر مرة أخرى : (٣ جى قيادة ٣ جى
فرقة) . ثم ألغى عقب الثورة المذكورة في سنة ١٨٨٢ م مع بقية وحدات الجيش .

الآلاى الثانى عشر المشاة (١٢ جى آلاى قيادة)

أنشئ هذا الآلاى في سنة ١٨٣٥ وألغى في سنة ١٨٤٣ م بعد أوبة الجيش
من الحرب السورية في عهد محمد على باشا . ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش

المرسل من قبل عباس باشا الأول لمساعدة الدولة العلية في حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ وألغى في سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة في سنة ١٨٦٧ م وألغى في سنة ١٨٧٠ م وعند ما استحدثت الخديو اسماعيل في الجيش الفرق المنفردة في سنة ١٨٧١ م وزاده في سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هي ٣ جى فرقة أنشأ هذا الآلى من جديد ونمره : (٤ جى بيادة ٣ جى فرقة) . وألغى في سنة ١٨٧٩ م عند ما خفض الجيش لسوء مالية مصر في ذلك الوقت . ثم أنشئ مرة خامسة في سنة ١٨٨٢ م في وقت الثورة العربية حينما زيد الجيش لمقاتلة الانكليز ونمر مرة أخرى : (٤ جى بيادة ٣ جى فرقة) وألغى بعد الثورة الآنفه في سنة ١٨٨٢ م مع بقية وحدات الجيش .

الآلى الثالث عشر المشاة (١٣ جى آلى بيادة)

أنشئ في سنة ١٨٢٨ وألغى في سنة ١٨٤٢ في عهد محمد علي باشا بعد عودة الجيش الذى كان في جزيرة العرب . وكان هذا الآلى قسما منه . ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش المرسل من قبل عباس باشا الأول لمساعدة للدولة العلية في حرب الروس من سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٦ وألغى في سنة ١٨٦٦ م بعد انتهاء هذه الحرب ثم أنشئ مرة ثالثة في سنة ١٨٦٧ وألغى في سنة ١٨٧٠ ثم أنشئ للمرة الرابعة في سنة ١٨٨٢ في وقت الثورة العربية عند ما زيد الجيش لمهاجمة الانجليز ونمر (١ جى بيادة ٤ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة في سنة ١٨٨٢ م مع باقى الجيش .

الآلى الرابع عشر المشاة (١٤ جى آلى بيادة)

أنشئ هذا الآلى في سنة ١٨٣٠ م وألغى في سنة ١٨٤١ م بعد أوبة الجيش من حروب سورية في عهد محمد علي باشا ثم أنشئ من جديد لتأليف الجيش المرسل من قبل عباس الأول لمعاونة الدولة العلية في حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م . وألغى في سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة في سنة ١٨٧٧ وألغى في سنة ١٨٧٠ م . ثم أنشئ مرة رابعة في سنة ١٨٨٢

في وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمحاربة الانكليز ونمر : (٢ جى بيادة
٤ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة في سنة ١٨٨٢ م مع باقى الوحدات العسكرية .

الآلأى الخامس عشر المشاة (١٥ جى آلأى بيادة)

أنشئ في سنة ١٨٣١ م وألغى في سنة ١٨٤١ م في عهد محمد على باشا بعبد
عودة الجيش الذى كان في جزيرة العرب وكان هذا الآلأى قسما منه . ثم أنشئ من
جديد لتكوين الجيش المرسل من قبل عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية
في حرب الروس من ١٨٥٣ — ١٨٥٥ م وألغى في سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه
الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة في سنة ١٨٦٧ وألغى في سنة ١٨٧٠ م . ثم أنشئ مرة
رابعة في سنة ١٨٨٢ في وقت الثورة العرابية حينما زيد الجيش لمحاربة الانكليز
ونمر : (٣ جى بيادة ٤ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة في سنة ١٨٨٢ م مع باقى
الوحدات العسكرية .

الآلأى السادس عشر المشاة (١٦ جى آلأى بيادة)

أنشئ هذا الآلأى في سنة ١٨٣١ م وألغى في سنة ١٨٤١ م بعد أوبة الجيش من
الحرب السورية في عهد محمد على باشا وعودته من جزيرة كريت التى كان فيها هذا
الآلأى . ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش المرسل من قبل عباس باشا الأول
مساعدة للدولة العلية في حرب الروس من سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٥ م وألغى في سنة
١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب ثم أنشئ مرة ثالثة في سنة ١٨٦٧ وألغى في سنة ١٨٧٠ م
ثم أنشئ مرة رابعة في سنة ١٨٨٢ في وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمحاربة
الانكليز ونمر : (٤ جى لبيادة ٤ جى فرقة) . وألغى بعد هذه الثورة في سنة ١٨٨٢ م
مع باقى الجيش .

الآلأى السابع عشر المشاة (١٧ جى آلأى بيادة)

أنشئ هذا الآلأى في سنة ١٨٣١ م وألغى في سنة ١٨٤١ م بعد عودة الجيش
من حرب سورية في عهد محمد على باشا . ثم أنشئ من جديد لتأليف الجيش

المرسل من قبل عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية في حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م . وألغى في سنة ١٨٥٦ عقب انتهاء هذه الحرب ثم أنشئ مرة ثالثة في سنة ١٨٦٧ م وألغى في سنة ١٨٧٠ ، ثم أنشئ مرة رابعة في سنة ١٨٨٢ في وقت الثورة العربية عند ما زيد الجيش لمجابهة الانكليز ونمر (١ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة في سنة ١٨٨٢ م مع بقية الجيش .

الآلاى الثامن عشر المشاة (١٨ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى في سنة ١٨٣١ م وأرسل مع الجيش الى حرب سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيع في معاركها . ثم أنشئ من جديد في سنة ١٨٥٤ لتكوين الجيش المرسل من قبل سعيد باشا مساعدة للدولة العلية في حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م وألغى في سنة ١٨٥٦ م عقب انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ للمرة الثالثة في سنة ١٨٦٧ وألغى في سنة ١٨٦٨ ، ثم أنشئ للمرة الرابعة في سنة ١٨٨٢ في وقت الثورة العربية عند ما زيد الجيش لمجابهة الانكليز ونمر : (٢ جى بيادة ٥ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة في سنة ١٨٨٢ م مع باقى الجيش .

الآلاى التاسع عشر المشاة (١٩ جى آلاى بيادة)

أنشئ في سنة ١٨٣١ وألغى في سنة ١٨٤١ م في عهد محمد على باشا بعد أوبة الجيش الذى كان في جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه . ثم أنشئ من جديد في سنة ١٨٥٤ لتكوين الجيش المرسل من قبل سعيد باشا مساعدة للدولة العلية في حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م وألغى في سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة في سنة ١٨٨٢ في وقت الثورة العربية عند ما زيد الجيش لمحاربة الانكليز ونمر : (٣ جى بيادة ٥ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة في سنة ١٨٨٢ م مع باقى الجيش .

الآلای العشرون المشاة (٢٠ جى آلای بیادة)

أنشئ في سنة ١٨٣٢ م. وألغى في سنة ١٨٤١ في عهد محمد علي باشا بعد عودة الجيش الذي كان في جزيرة العرب وكان هذا الآلای قسما منه . ثم أنشئ من جديد في سنة ١٨٥٤ م لتكوين الجيش المصرى المرسل من قبل سعيد باشا مساعدة للدولة العلية في حرب الروس من سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٥ م وألغى في سنة ١٨٥٦ م بعد تصرم هذه الحرب . ثم أنشئ للمرة الثالثة في سنة ١٨٨٢ م في وقت الثورة العراقية عندما زيد الجيش لمحاربة الانكليز ونمر (٤ جى بيادة ٥ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة في سنة ١٨٨٢ م مع باقى الجيش .

الآلای الحادى والعشرون المشاة (٢١ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای في سنة ١٨٣٢ م وألغى في سنة ١٨٤١ في عهد محمد علي باشا بعد عودة الجيش الذي كان في جزيرة العرب وكان هذا الآلای قسما منه .

الآلای الثانى والعشرون المشاة (٢٢ جى آلای بیادة)

أنشئ في سنة ١٨٣٤ م وألغى في سنة ١٨٤١ م بعد عودة الجيش من حرب سورية في عهد محمد علي باشا ولم يعد لإنشاؤه بعد ذلك .

الآلای الثالث والعشرون المشاة (٢٣ جى آلای بیادة)

أنشئ في سنة ١٨٣٤ م وألغى في سنة ١٨٤١ م في عهد محمد علي باشا بعد أوبة الجيش الذي كان في جزيرة العرب وكان هذا الآلای قسما منه ولم يعد لإنشاؤه بعد ذلك .

الآلای الرابع والعشرون المشاة (٢٤ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای في سنة ١٨٣٥ م وألغى في سنة ١٨٤١ م بعد ارتداد الجيش من حرب سورية في عهد محمد علي باشا ولم يعد لإنشاؤه بعد ذلك .

الآلای الخامس والعشرون المشاة (٢٥ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٥ وأرسل مع الجلیش فى حرب سوریه ولم یعد منها ولعله أسر أو أبید فى معاركها الحربیه ولم یعد إنشاؤه .

الآلای السادس والعشرون المشاة (٢٦ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٧ وأرسل مع الجلیش المحارب فى سوریه ولم یعد منها ولعله أسر أو أبید فى معاركها الحربیه ولم یعد إنشاؤه .

الآلای السابع والعشرون المشاة (٢٧ آلای جى بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد أوبة الجلیش الذى كان فى جزیره العرب وكان هذا الآلای قسما منه ولم یعد إنشاؤه .

الآلای الثامن والعشرون المشاة (٢٨ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٧ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد عودة الجلیش الذى كان فى جزیره العرب وكان هذا الآلای قسما منه ولم یعد إنشاؤه .

الآلای التاسع والعشرون المشاة (٢٩ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٧ م وأرسل مع الجلیش المحارب فى سوریه ولم یعد منها ولعله أسر أو أبید فى المحاربات ولم یعد إنشاؤه .

الآلای الثلاثون المشاة (٣٠ جى الآی بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد أوبة الجلیش من حرب سوریه فى عهد محمد على باشا ولم یعد إنشاؤه .

الآلای الحادى والثلاثون المشاة (٣١ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد عودة الجلیش من حرب سوریه فى عهد محمد على باشا ولم یعد إنشاؤه .

الآلای الثاني والثلاثون المشاة (٣٢ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٨ ولم یشارك فى حرب من الحروب وألغى فى سنة ١٨٤١ م عقب أوبة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم یعد إنشاؤه .

الآلای الثالث والثلاثون المشاة (٣٣ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٨ وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد رجوع الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلای قسما منه ولم یجدد إنشاؤه .

الآلای الرابع والثلاثون المشاة (٣٤ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٨ م وأرسل مع الجيش المحارب فى سورية ولم یعد منها ولعله أسر أو أبید فى معاركها الحربية ولم یجدد إنشاؤه .

الآلای الخامس والثلاثون المشاة (٣٥ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٨ م وأرسل مع الجيش فى حرب سورية ولم یعد من هذه الحرب من هذا الآلای سوى تسعة جنود فحسب ، لأنه كان یكون حامية عكا وفى خلال دفاعه من هذه المدينة قبالة أسطول الحلفاء انفجرت (جبهانته) وأفنت أكثر جنوده وألغى فى سنة ١٨٤١ ولم یجدد إنشاؤه .

سلاح الخیالة

الآلای الأول (١ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٧٢ م .

الآلای الثاني (٢ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٨٢ م .

الآلای الثالث (٣ جى آلای سواری)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . ثم أنشئ للمرة الثانية فى سنة ١٨٦٥ وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذیالك العهد . وفى الثورة العربیة ، عندما زید الجيش فى سنة ١٨٨٢ لمحاربة الإنكلیز ، أنشئ مرة ثالثة وألغى بعد هذه الثورة فى تلك السنة مع باقى الجيش .

الآلای الرابع (٤ جى آلای سواری)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . ثم أنشئ ثانية فى سنة ١٨٦٥ وألغى فى سنة ١٨٧٩ حینما أصیب الجيش بالتخفیض لسوء مالية مصر آنذاك . ثم فى الثورة العربیة عندما زید الجيش لمحاربة الإنكلیز فى سنة ١٨٨٢ أنشئ لثالث مرة وألغى عقب هذه الثورة فى تلك السنة مع باقى الواحدات العسکرية .

الآلای الخامس (٥ جى آلای سواری)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد عودة الجيش من حرب الشام ثم أنشئ مرة ثانية فى سنة ١٨٤٨ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . وحدث أن أنشئ لثالث مرة فى سنة ١٨٧٤ وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما خفض الجيش لسوء المالية فى ذیالك العهد .

الآلای السادس (٦ جى آلای سواری)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد عودة الجيش من حرب الشام . وأنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٤٨ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . ثم أعید إنشاؤه مرة ثالثة فى سنة ١٨٧٤م وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذلك الوقت .

الآلای السابع (٧ جى آلای سواری)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد عودة الجيش من حروب سوریه ثم أنشئ مرة ثانية فى سنة ١٨٤٩ وألغى فى سنة ١٨٥٥ .

الآلای الثامن (٨ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد أوبة الجیش من معارك سورية • ثم استعيد مرة ثانية فى سنة ١٨٤٩ وألغى فى سنة ١٨٥٥ •

الآلای التاسع (٩ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد رجوع الجیش من وقائع سورية ثم أنشئ مرة ثانية فى حرب القرم فى سنة ١٨٥٣ وألغى بعد انتهائها فى سنة ١٨٥٥ •

الآلای العاشر (١٠ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد عودة الجیش من معارك سورية ثم أعيد إنشاؤه مرة ثانية فى حرب القرم فى سنة ١٨٥٤ وألغى عقب انتهائها فى سنة ١٨٥٥ •

الآلای الحادى عشر (١١ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد أوبة القوّات المصرية من حرب سورية •

الآلای الثانى عشر (١٢ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد عودة الجیش من حرب سورية •

الآلای الثالث عشر (١٣ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد أوبة الجیش من الحروب السورية •

المدفعية

آلاى المدفعية الأول (١ جى آلاى طوبجية)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٥ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العربية مع
باقى الجيش .

آلاى المدفعية الثانى (٢ جى آلاى طوبجية)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ وألغى فى سنة ١٨٨٠ بعدما قبض العربيون
على أزمة الحكم وزادوا الجيش فى أوائل عام ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى . ثم ألغى
بعد الثورة العربية فى السنة المذكورة مع باقى الجيش .

آلاى المدفعية الثالث (٣ جى آلاى طوبجية)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٥ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد أوبة الجيش من
معارك سورية فى عهد محمد على باشا . ثم أنشئ مرة ثانية فى سنة ١٨٧٤ وألغى
فى سنة ١٨٧٩ . ثم أعيد إنشاؤه مرة ثالثة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العربية
عندما زيد الجيش لمحاربة الانكليز وألغى بعد هذه الثورة فى السنة المذكورة مع باقى
وحدات الجيش .

آلاى المدفعية الرابع (٤ جى آلاى طوبجية)

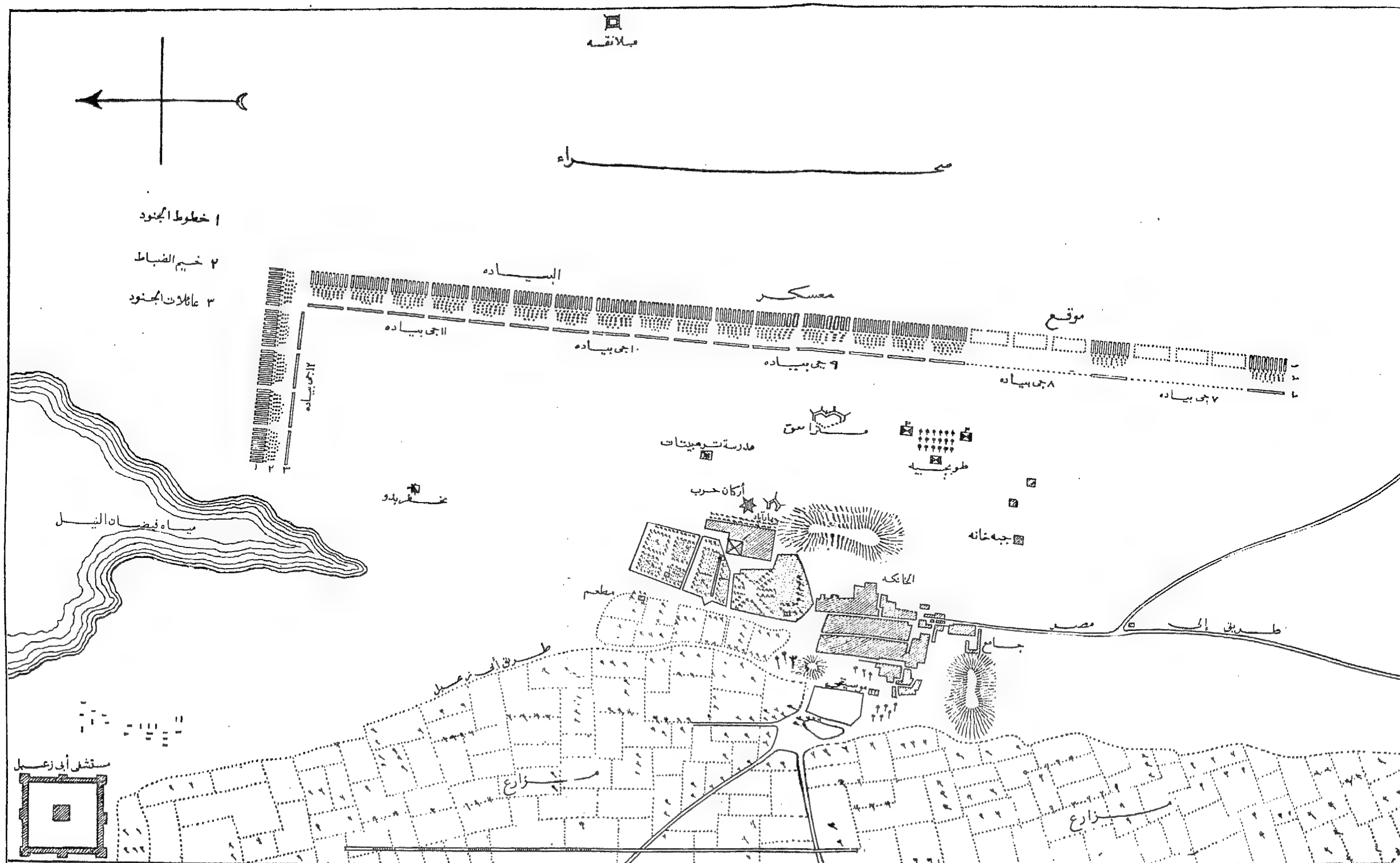
أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العربية عندما زيد الجيش
لمحاربة الانكليز ثم ألغى بعد هذه الثورة فى السنة الآتية مع بقية وحدات الجيش .

١ جى آلاى طوبجية سوارى

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش من
حرب سورية فى عهد محمد على باشا . ثم أنشئ للمرة الثانية فى سنة ١٨٥٣ وألغى
سنة ١٨٥٦ . ولم يحدد إنشاؤه .

٢ جى آلاى طوبجية سوارى

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٥ م وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش
من حروب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يحدد إنشاؤه بعد .



رسم معسكر جهاد آباد وناحية الخانكة عمل يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٢٦ م بمعرفة حسين افندي وسليمان افندي مميش اليوز باشيين بأركان حرب الجيش المصري

مدفعية السواحل

الآلأى الأول سواحل (١ آلأى سواحل)

أنشئ هذا الآلأى فى سنة ١٨٤٦م وألغى فى سنة ١٨٨٢م بعد الثورة العربأفة
مع باقى الجأش .

الآلأى الثانى سواحل (٢ جى آلأى سواحل)

أنشئ هذا الآلأى فى سنة ١٨٥١ م وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العربأفة
مع باقى الجأش .

الآلأى الثالث سواحل (٣ آلأى سواحل)

أنشئ هذا الآلأى فى سنة ١٨٧٤م وألغى فى سنة ١٨٨٢م بعد الثورة العربأفة
مع باقى الجأش .

المهندسون العسكرأون

البلطجفة والكبروؤفة

ذكر القومندان « بلانا » أن عدد المهندسأن العسكرأن فى الجأش بلغ
فى عام ١٨٢٨ القوأت الآتفة :

عدد
١٢ بلوك بلطجفة عددأا ١٢٠٠ جندى بمعدل بلوك مهندسأن لكل آلأى
مشاة يلحق به وقت الحرب .

١ بلوك كبروؤفة عددأه مائة جندى .

وقد استهل فى ذفاك الوقت فى تنظم بلوك للألغام .

وأورد البارون بو الكونت لإحصائفة للجأش المصرى عام ١٨٣٣ جاء فىأا أن
عدد المهندسأن العسكرأن كان ٢٩٤٢

وفى لإحصائفة الجأش لعام ١٨٣٩ التى تأتت فى كآاب كلوت بك (ج ٢ ص ٣٥١)
ورد ذكر المهندسأن العسكرأن على الوجه التالى :

آلاى الحرس الأول (۱ جى آلاى غارديا)

أُنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ وألغى فى سنة ١٨٤٩ م . ثم أُنشئ من جديد فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٥ ، وأعيد إنشاؤه للتره الثالثه فى سنة ١٨٦٦ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ وألغى فى سنة ١٨٥٩ ، ثم أنشئ من جديد فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٥ ، وأعيد إنشاؤه للمرة الثالثة فى سنة ١٨٦٩ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ ، ثم أنشئ من جديد فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٥ ، وأعيد إنشاؤه مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٩ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٦٩ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

وحدات الحرس الخيالة

آلاى حرس الخيالة الأول (١ جى آلاى سوارى غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٤ وألغى فى سنة ١٨٤٩ م ، ثم أعيد إنشاؤه فى سنة ١٨٥٢ وألغى فى سنة ١٨٥٤ ، ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٦ وألغى فى سنة ١٨٧٩ م .

آلاى حرس الخيالة الثانى (٢ جى آلاى سوارى غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٤ وألغى فى سنة ١٨٤٩ م ، ثم أعيد إنشاؤه فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٤ م ، ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ وألغى فى سنة ١٨٧٩ م .

وحدات الحرس المدفعية

آلاى حرس المدفعية الأول (١ جى آلاى طوبجية غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ، ثم أنشئ مرة ثانية فى سنة ١٨٧٤ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى حرس المدفعية الثانى (٢ جى آلاى طوبجية غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٤ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش من المعارك السورية فى عهد محمد على باشا .

من الوثائق التاريخية

والحديث عن إنشاء الوحدات العسكرية السابقة قد لا تستوعبه المجلدات ، وتقصر ولا ريب دونه الصفحات ، الشئ الذى حدا بنا — فى هذا السياق الى أن نأتى — على سبيل المثال — فيما يلى ببعض الوثائق الخاصة بالولايات السابع والثامن والتاسع المشاة .

ففى الثانى من ذى القعدة عام ١٢٤٠ هـ (١٨ يونيو ١٨٢٥) كتب محمد على الى ابنه الخطاب الآتى :

من الجناب العالى إلى الباشا السر عسكر^(١) .

”نحمد الله تعالى حمدا مضاعفا على أن جعلنا مظهرا لآثار فيض نعمه بما عزمنا عليه من تشكيل الآلايات ١٠ جى و ١١ جى و ١٢ جى بيادة فقد بدأنا مستعينين بالله تعالى بإعدادهم وتهيئة ما يلزم لهم من الضباط حتى القائمقامات من الآلايات ٧ جى و ٨ جى و ٩ جى بيادة وأورطة الأوجان وأخذنا بتنظيم الجنود اللازمة لها وبفضل الله تعالى فى أقرب وقت سيكون ذلك رهين محاسن الكمال بأكماله ولم ينقصها (أى تلك الآلايات) إلا الرؤساء وقد رأينا من المناسب تعيين أحمد أفندى المنكلى وسلم أغا قائمقام الآلاى ٢ جى بيادة المأمور للحجاز وصالح أغا قائمقام الآلاى ٤ جى بيادة المأمور للورة وبما أن أحمد أفندى هنا قد أعلمناه بذلك وأرسلنا الخبر للحجاز وأحلنا لإرسال صالح أفندى لعهدة سعادتم وأن أحمد أفندى وإن كان لازما ثمة فقد اضطررنا لحسن مأموريته إلى ترقية لرتبة الميرالاي حسب الإيجاب .

وقد كتبنا لكم ذلك ليكون معلوما لكم إن شاء الله تعالى “ .

تشكيل الآلايات ١٠ و ١١ و ١٢

وإذا خلفنا ذلك نجد أنه فى السابع عشر من شوال عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ م) قد صدر أمر الوالى إلى ابراهيم باشا بأنه تيسر تشكيل الآلايات ١٠ و ١١ و ١٢ وتعيين القواد والضباط اللازمين لها . وتعيين أحمد المنكلى المبعوث المعين بين الطرفين سابقا أميرالاي لأحد تلك الآلايات وأنه لاتساع نطاق النظام العسكرى قد جدد ترتيب علاوة على النسق القديم وتعيين لواء يكون تحت قيادته الآلايين

(١) وثيقة رقم ٤٣ — دفتر ٢٠ معية تركى ورقة ١١ بتاريخ ٢ ذى القعدة ١٢٤٥ هـ

إنشاء أورطة الرجال العسكرية

”من الجناح العالى إلى الصاغفول والصول قول أغاسية واليوزباشية والملازمين الأولين والثانيين وسائر الضباط بأورطة العساكر الجهادية :

”كنت آمل أن تلاميذ السنة الدراسية الثالثة قد اتقنوا بفضل الجهود المبذولة التعاليم الخاصة بالبيادة والطوبجية وتعلموا الحساب ومجموعة المهندسين وأصول الهندسة والمثلثات المسطحة مما أقدرهم على تخطيط البلدان واستطلاع أحوال الأراضى ورسم الخرائط أو الاستحكامات الخفيفة والقوية وأنهم برعوا فى هذه المواد نظريا وعمليا حتى تكوّنت لديهم القدرة على إجراء كل علم منها وسهل عليهم المثلثات القلكية وإنشاء الخرائط بالهندسة كما أنهم قد ترجموا من اللغة الفرنسية بعض أشياء مما يفيد مصلحتنا ويوافق أصولنا (وكنت أقول أنهم لم يقفوا عند هذا الحد) بل شرعوا فى دراسة فن الحرب وكذلك تلامذة السنة الدراسية الثانية هم أيضا يستفرون جهدهم ليلحقوا بتلامذة السنة الثالثة ويبلغوا مستواهم كما هى الحالة فى تلامذة السنة الأولى فانهم لا يرضون بجهد فى بلوغ مرتبة تلاميذ السنة الثانية (أجل كنت أمنى النفس بهذا) إلا أنه قد ظهر من نتيجة الامتحان التى عرضت على أخيرا أن الصول قول أغاسية : حسين أفندى وعلى أفندى من القول أغاسية، وسليمان أفندى ممش زاده وأحمد أفندى الخربوطلى من اليوزباشية والملازم الثانى عبد الله أفندى من تلامذة السنة الدراسية الثانية هم وحدهم من بين سائر التلاميذ قد اجتهدوا طبق أمرى ووفق مرضاتى وبذلوا المساعى لتحصيل العلوم وكسب المعارف وقد ظهر أيضا من النتيجة الآتفة الذكر أن تلامذة السنة الدراسية الأولى قد بلغ بهم الكسل مبلغا أقعدهم عن الحضور وتلقى الدروس بالمدرسة فضلا عن الجّد والسعى فلما علمت هذا قد أمرت بترقية الصول قول أغاسيين المذكورين إلى رتبة الصاغفول قول أغاسى وترقية اليوزباشيين إلى الصول قول، والملازم الثانى إلى الملازم الأول ، ثم إنى بقدر ما سررت من مساعى هؤلاء قد

شعرت بخيبة الأمل في حزن مضاعف وتأثر كبير من فتور التلاميذ القداماء ولا سيما من تواني القول أغاسية وكسل التلاميذ المستجدين وقد انبعث هنا عثمان بك رئيس رجال الجهادية لأنه لم يعر لهذه المسألة ما يستحقه من العناية والاهتمام ولم يأخذ التلاميذ الكسالى بالشدة ليحملهم على الجّد والسعى وتساهل في معاقبة من لم يرجع منهم إلى الرشد والإنصاف بما يستأهله لكي يكونوا عبرة لغيرهم ولما كان اليوزباشى خورشيد أفندى أخذ إلى الكسل ولم يحصل شيئاً يذكر بالرغم من هذه المدة الطويلة ولم يقدر قدر الرتبة التي يحوزها فقد خفضت رتبته درجة ، ثم لما أعطف على المجتهدين لكسب العلوم والمعارف وأبذل لهم مكافأة على مساعيهم لا أتأخر عن إنزال العقاب على المتكاسلين وعلى الذين يقصرون جهدهم على تحصيل نظريات أى فن من الفنون ويحول كسلهم دون إجادة تطبيقه العملى ، هذا وقد تقرّر أن أصحاب الرتب الذين لم ينالوا رتبهم عن جدارة ولا يسعون أيضاً ليكونوا جديرين بها لا يتركون منعمون بهذه الرتبة بل تنزل رتبهم إلى درجة تليق بأحوالهم ولذلك ينبغى أن تنظم جداول فى أواخر كل شهر يبين فيها مبلغ كل منكم من العلم والأخلاق ثم تعرض هذه الجداول علينا لنعلم أحوالكم ونعامل كل واحد منكم بما يليق بحاله كما يجب عقد امتحان لكم جميعاً فى كل ثلاثة أشهر مرة فى حدود الأصول الجهادية وتعرض نتيجته علينا للاطلاع .

”وقد أصدرنا أمرنا هذا من الإسكندرية حيث نقيم فيها الآن وأرسلناه إليكم فتم وصل بمنه تعالى وعلمتموه فالواجب عليكم أن تبذلوا ما فى وسعكم من الجهود على أدائه مهمتكم وفق إرادتى وطبق مرضاتى على وجه يتفق والقواعد الإنسانية لكي تنالوا عطفى فتسعدوا فى ظلى وتمتازوا بين أقرانكم وتكونوا نافعين لى ولأنفسكم ولديننا وشعبنا جميعاً“^(١)

(١) وثيقة رقم ٢١٣ — دفتر ٢٦ معية تركى ص ٥٩ — بتاريخ ٢١ ربيع سنة ١٢٤٤ هـ (١١ نوفمبر سنة ١٨٢٧ م) .

إحصائيات الجيش

ونورد فيما يلي إحصائيات، تنبئ عن مدى قوّات الجيش المصري، في أبرز سنواته. استقيت من عشرات المراجع والموارد، التي تضمنت الحديث عن أعدادهم ورجاله ووحداته.

ومثل هذه الإحصائيات التي تخبرناها، بغنى — ولا مرء — عن استظهار أعدادهم، خلال سنتينه الطويلة، التي كان يجاذبها المدّ والجزر، وتبدانها الاستزادة والبت...

الجيش المصري في عام ١٨٢٨ م

| الوحدات | القوّد | مراكز الوحدات | القوة عند التكوين | القوة الحالية |
|---------------------|-----------|--|-------------------|---------------|
| الآلاى الأول المشاه | رستم بك | ٣ أورط في سنار وأورطتان في كردفان | ٤٠٠٠ | ٢٥٠٠ |
| » الثانى » | محمد بك | القاهرة ومكثت في حرب الحجاز ثلاث سنوات قبل رجوعه الى القاهرة | ٤٠٠٠ | ٣٢٠٠ |
| » الثالث » | — | — | — | — |
| » الرابع » | — | — | — | — |
| » الخامس » | — | مورة تحت قيادة إبراهيم باشا | ٢٨٠٠٠ | ١٦٠٠٠ |
| » السادس » | سليمان بك | وخسر هذا الجيش نحو نصفه في هذه الحرب | | |
| » السابع » | حسن بك | ماعد الآلاى العاشر | | |
| » الثامن » | حسين بك | — | — | — |
| » العاشر » | أحمد بك | — | — | — |
| » التاسع » | محمود بك | الحجاز تحت قيادة أحمد باشا يكن | ٨٠٠٠ | ٧٠٠٠ |
| » الثانى عشر » | عابدين بك | | | |

(تابع) الجيش المصرى فى عام ١٨٢٨ م

| الوحدات | القسّاد | مراكز الوحدات | القوة عند التكوين | القوة الحالية |
|---------------------------|----------|--------------------------------------|-------------------|---------------|
| الحادى عشر | سليم بك | جهاد آباد | ٤٠٠٠ | ٤٠٠٠ |
| أورطان غير مرقومين | — | اسكندرية | ١٦٠٠ | ١٦٤٠٠ |
| ثلاث أورط مدفعية | أدهم بك | جهاد آباد ولا تزال فى حالة التكوين | ٢٤٠٠ | ١٨٠٠ |
| أربعة وعشرون بلوكا للهمات | — | جهاد آباد ولا تزال فى حالة التكوين | ٧٤٤ | ٣٠٠ |
| بلوكا للجندرمة | مصطفى بك | جهاد آباد | ٢٠٠ | ١٥٠ |
| مدفعيون أترك | — | موزعون فى حصون مصر | — | ٨٠٠ |
| اثنا عشر بلوكا بطجية | — | بلوك مع كل آلاى مشاه | ١٢٠٠ | ٧٠٠ |
| بلوك للواد الملتبهة | — | اسكندرية | ١٠ | ٨٠ |
| بلوك للكارى والجسور | — | اسكندرية | ١٠٠ | ٨٠ |
| أساس الضباط | — | جهاد آباد | ٨٠٠ | ٥٠٠ |
| مدارس حربية | — | — | — | ١٠٠٠ |
| مشاه ألبانيون | — | ٢٠٠٠ بمورة والباقي بمصر وجزيرة كريد | — | ٦٠٠٠ |
| فرسان أترك | — | موزعون فى مصر ومورة وشبه جزيرة العرب | — | ٦٠٠٠ |
| باشبوزق غير نظاميين | — | — | — | — |
| | | | ٥٥١٤٤ | ٥١٥١٠ |

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٣

| أسماء البلاد والأماكن التى بها قوات الجيش | الفرسان النظاميون | المشاة النظاميون | المدفعيون | فريق المدفعية | فرسان باشيرزق | عصبة | مغاربة | فرنسيون | مدارس حرية | أجناس مختلفة | أجناس مختلفة | أجناس مختلفة | أجناس مختلفة |
|--|----------------------|---------------------|-----------|------------------|------------------|------|--------|---------|---------------|-----------------|-----------------|-----------------|-----------------|
| مصر | ٢٧٦٠ | ١٧٤٣٧ | ٤١٠٢ | ٢٩٨٩ | ٧٠٠ | — | — | ١٥ | — | — | — | — | — |
| مكة والحجاز | — | ٦٨٧٠ | — | ١٠١ | ٧٠٠ | ٦٦٨ | ١٧٧ | — | — | — | — | — | — |
| السودان | — | ٥١٥٧ | — | — | ٤٨٤ | ٦٠٤ | — | — | — | — | — | — | — |
| المسكة | ٥٢٩٢ | ٣٥٥٤٣ | ٢٢٥٥ | ٨٥٢ | ١٥٥١ | ٤٠٩٨ | ٣٤ | — | — | — | — | — | — |
| كندية | — | ٥٠٠٤ | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — |
| الأساطيل بالإسكندرية | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | ١٦٧٨٥ | — |
| الترسانة بالإسكندرية | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | ٨٣٥٨ |
| مدرسة أركان الحرب بقصر العيني | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — |
| المدرسة لخرربة البحرية بالإسكندرية | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — |
| حاسيون فى مصالح الجيش | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — |
| كتبة ومترجمون بالترسانة | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — | — |
| الجميلة | ٧٩٦٢ | ٧٠٠١١ | ٦٣٥٧ | ٣٩٤٢ | ٣٤٣٥ | ٥٣٧٠ | ٢١٢ | ١٥ | ٢٧٧٦ | ٧١٢ | ١٦٧٨٥ | ٨٣٥٨ | — |

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٧ م
المشاة

| رقم الآلاى | المركز | القطر | قوة الآلاى ضباط وصف ضباط وعساكر |
|------------|---------|-------------|---------------------------------------|
| ١ حرس | عينتاب | سورية | ٣٠٤٨ |
| ٢ » | مرعش | » | ٢٦٤٥ |
| ٣ » | حلب | » | ٢٤٣٥ |
| ١ | سنار | السودان | ٤٥٤٧ |
| ٢ | عينتاب | سورية | ٢٢٥١ |
| ٣ | اليمين | جزيرة العرب | ١٥٢٦ |
| ٤ | مرعش | سورية | ٢٥٩٣ |
| ٥ | أذنة | » | ٢٦٢٩ |
| ٦ | كلس | » | ٢٣٦٢ |
| ٧ | المجاز | جزيرة العرب | ٢١٩٢ |
| ٨ | سنار | السودان | ٣٣٩٦ |
| ٩ | حلب | سورية | ٢٣٠٤ |
| ١٠ | » | » | ٢٠٥٤ |
| ١١ | أورفة | » | ٢٣٣٨ |
| ١٢ | عينتاب | » | ٢٣٢٦ |
| ١٣ | المجاز | جزيرة العرب | ١٢٢٥ |
| ١٤ | حلب | سورية | ١٩٨٨ |
| ١٥ | الدرعية | جزيرة العرب | ٢٥٥٥ |
| ١٦ | كنديه | جزيرة كريد | ٣١٤٩ |
| ١٧ | أورفة | سورية | ٢٣٦٩ |

(تابع) المشاة

| رقم الآلى | المركز | القطر | قوة الآلى |
|-----------|----------|-------------|-------------------------|
| | | | ضباط وصف ضباط وعساكر |
| ١٨ | عكا | سورية | ٢٠٤٩ |
| ١٩ | الحجاز | جزيرة العرب | ٢٣٤٩ |
| ٢٠ | البحرين | » | ٢٦٧٧ |
| ٢١ | الحجاز | » | ٢٣٦٣ |
| ٢٢ | أورفة | سورية | ٢٢١٢ |
| ٢٣ | ينبع | جزيرة العرب | ٢٣٤٢ |
| ٢٤ | أنطاكية | سورية | ٣١٣١ |
| ٢٥ | القدس | » | ١٧٥٥ |
| ٢٦ | القاهرة | مصر | ٣٣١٨ |
| ٢٧ | الجديدة | » | ٢١٢٩ |
| ٢٨ | » | » | ٢٤٤٦ |
| ٢٩ | أذنة | سورية | ٣١٧٢ |
| ٣٠ | حماة | » | ٢٩٢٥ |
| ٣١ | حلب | » | ٢٤٠١ |
| ٣٢ | القاهرة | مصر | ٣٣١٨ |
| ٣٣ | اسكندرية | » | ٢٦٠٤ |
| ٣٤ | كلس | سورية | ٢٥٦٤ |
| ٣٥ | القاهرة | مصر | ٣٣١٢ |
| | | الجملة | ٩٦٩٩٩ |

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٧ م
الفرسان

| رقم الآلاى | المركز | القطر | قوة الآلاى |
|------------|----------|-------|-------------------------|
| | | | ضباط وصف ضباط وعساكر |
| ١ حرس | أنطاكية | سورية | ٧٩٦ |
| ٢ » | بيسان | » | ٨٤٤ |
| ١ | أورفة | » | ٨٢٥ |
| ٢ | زنبة | » | ٨٣٠ |
| ٣ | القاهرة | مصر | ٨٣٢ |
| ٤ | أدنة | سورية | ٦٧٨ |
| ٥ | القاهرة | مصر | ٨٣٢ |
| ٦ | دمشق | سورية | ٧٧٠ |
| ٧ | طرسوس | » | ٧٤٢ |
| ٨ | دمشق | » | ٧١٢ |
| ٩ | اسكندرية | مصر | ٨١٦ |
| ١٠ | عكا | سورية | ٧٦٨ |
| ١١ | كاس | » | ٧٥٦ |
| ١٢ | طرسوس | » | ٦٦٢ |
| ١٣ | أورفة | » | ٨٠٦ |
| الجملة | | | ١١٦٨٤ |

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٧ م

| رقم الآلاى | المركز | القطر | قوة الآلاى | رقم الآلاى | المركز | القطر | قوة الآلاى |
|------------|--------|----------|------------|------------|-------------|----------|------------|
| رقم الآلاى | المركز | القطر | رقم الآلاى | رقم الآلاى | المركز | القطر | رقم الآلاى |
| المهندسون | | | | المدفعية | | | |
| ١٨٢ | سورية | عكا | ١ | ١٣٧٢ | سورية | حماة | ١ حرس |
| ٧٥٨ | » | أدب | أورطة | ٢٣٤٩ | مصر | اسكندرية | ٢ حرس |
| ٨٠٨ | مصر | اسكندرية | » | ١٩٤٩ | سورية | حلب | ٣ حرس |
| ٥٦٤ | » | القاهرة | » | ٩٨٢ | » | حمض | ١ |
| ٢٩٤٢ | الجملة | | | ١٠٠٧ | » | دمشق | ٢ |
| | | | | ٣٢٢٥ | مصر | القاهرة | ٣ |
| | | | | ٣٧٩ | جزيرة العرب | الحجاز | أورطة |
| | | | | ٣٣٧ | سورية | عكا | ٤ بلوكات |
| | | | | ١١٦٠٠ | الجملة | | |

مجموع قوة الجيش النظامى المصرى

عام ١٨٣٧

وهذا بيان توزيع الجيش المصرى على الأقطار

| عدد | المشاه | عدد |
|-------|--------|-------------|
| ٩٦٩٩٩ | ٢٦٥٦٨ | مصر |
| ١١٦٨٤ | ٦٧٩٥٧ | سورية |
| ١١٦٠٠ | ١٧٦٠٨ | جزيرة العرب |
| ٢٩٤٢ | ٧٩٤٣ | السودان |
| | ٣١٣٩ | جزيرة كريد |
| | ١٢٣٢٢٥ | |
| | ١٢٣٢٢٥ | |

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٩ م
الجيش النظامية

| وحداتها | نوعها | مراكزها | عددتها |
|----------------|--------------------------|------------|--------|
| الآلاى الأول | من مدفعية الحرس | حماة | ١٣٧٢ |
| » الثانى | من المدفعية المشاة | الاسكندرية | ٢٣٤٩ |
| » الثالث | » » | حلب | ١٩٤٩ |
| » الأول | » الراكبة | حصن | ٩٨٢ |
| » الثانى | » » | دمشق | ١٠٠٧ |
| أربع كتائب | من المدفعية | عكا | ٣٣٧ |
| الأورطة الأولى | » » | الحجاز | ٣٧٩ |
| الآلاى الأول | من مشاة الحرس | عينتاب | ٣٠٤٨ |
| » الثانى | » » | مرعش | ٢٦٤٥ |
| » الثالث | » » | حلب | ٢٤٣٥ |
| » الأول | المشاة (الأورطة الخامسة) | السودان | ٤٥٤٧ |
| » الثانى | من المشاة | عينتاب | ٢٢٥١ |
| » الثالث | » » | اليمين | ١٥٢٦ |
| » الرابع | » » | مرعش | ٢٥٩٣ |
| » الخامس | » » | أدنة | ٢٦٢٩ |
| » السادس | » » | كلس | ٢٣٦٢ |
| » السابع | » » | الحجاز | ٢١٩٢ |
| » الثامن | » » | السودان | ٣٣٩٦ |
| » التاسع | » » | حلب | ٢٣٠٤ |

(تابع) الجيوش النظامية

| وحدتها | نوعها | مراكزها | عددتها |
|-------------------|-----------|---------|--------|
| الآلأى العاشر | من المشاة | حلب | ٢٠٥٤ |
| » الحادى عشر | » » | أورفة | ٢٣٣٨ |
| » الثانى عشر | » » | عينتاب | ٢٣٢٦ |
| » الثالث عشر | » » | الحجاز | ١٢٢٥ |
| » الرابع عشر | » » | حلب | ١٩٨٨ |
| » الخامس عشر | » » | الدرعية | ٢٥٥٥ |
| » السادس عشر | » » | كندية | ٣١٤٩ |
| » السابع عشر | » » | أورفة | ٢٣٦٩ |
| » الثامن عشر | » » | عكا | ٢٠٤٩ |
| » التاسع عشر | » » | الحجاز | ٢٣٤٩ |
| » العشرون | » » | اليمىن | ٢٦٧٧ |
| » الحادى والعشرون | » » | الحجاز | ٢٣٦٣ |
| » الثانى والعشرون | » » | أورفة | ٢٢١٢ |
| » الثالث والعشرون | » » | ينبع | ٢٣٤٢ |
| » الرابع والعشرون | » » | أنطاكية | ٣١٣١ |
| » الخامس والعشرون | » » | القدس | ١٧٥٥ |
| » السادس والعشرون | » » | القاهرة | ٣٣١٨ |
| » السابع والعشرون | » » | الجديدة | ٢١٢٩ |
| » الثامن والعشرون | » » | » | ٢٤٤٦ |
| » التاسع والعشرون | » » | أدنة | ٣١٧٢ |

(تابع) الجيوش النظامية

| وحداتها | نوعها | مراكزها | عددتها |
|--------------------|--------------------------|------------|--------|
| الآلأى الثلاثون | من المشاة | حماة | ٢٩٢٥ |
| » الحادى والثلاثون | » » | حلب | ٢٤٠١ |
| » الثانى والثلاثون | » » | القاهرة | ٣٣١٨ |
| » الثالث والثلاثون | » » | الاسكندرية | ٢٦٠٤ |
| » الرابع والثلاثون | » » | كلس | ٢٥٦٤ |
| » الخامس والثلاثون | » » | القاهرة | ٣٣١٨ |
| » الأول | من فرسان الحرس | اللاذقية | ٧٩٦ |
| » الثانى | فرسان الحرس المدرّعون | بيسان | ٨٤٤ |
| » الأول | من الفرسان | أورفة | ٨٢٥ |
| » الثانى | » » | زمينة | ٨٣٠ |
| » الثالث | من الفرسان فى الطريق إلى | الاسكندرية | ٨٤٧ |
| » الرابع | من الفرسان | أدنة | ٦٧٨ |
| » الخامس | من الفرسان فى الطريق إلى | الاسكندرية | ٨٤٧ |
| » السادس | من الفرسان | دمشق | ٧٧٠ |
| » السابع | » » | طرسوس | ٧٤٢ |
| » الثامن | » » | دمشق | ٧١٢ |
| » التاسع | من الفرسان فى الطريق إلى | الاسكندرية | ٨١٦ |
| » العاشر | من الفرسان | عكا | ٧٦٨ |
| » الحادى عشر | » » | كلس | ٧٥٦ |
| » الثانى عشر | » » | طرسوس | ٦٦٢ |

(تابع) الجيوش النظامية

| مدها | مراكزها | نوعها | وحداتها |
|--------|----------------------|--------------------|-------------------|
| ٨٠٦ | أورفة | من الفرسان | الآلأى الثالث عشر |
| ٣٩٨٠ | القاهرة | الجنود الأقدمين | أورطة |
| ٨١٢ | عكا | من حملة البلط | الآلأى الأول |
| ٧٩١ | الاسكندرية | من الجنود الأقدمين | الأورطة الأولى |
| ١٦٤١ | طرابلس | » » | أورطتان |
| ٨٥٥ | دقالة | » » | أورطة |
| ٧٥٨ | أولب | من المهندسين | » |
| ٨٠٨ | الاسكندرية | من حملة البلط | » |
| ٩٤ | القاهرة | للآلغام نسا فون | كتيبة |
| ٢٨٥ | » | | أساس الضباط |
| ١٦٧١ | موزعين فى أنحاء مصر | من الجنود الأقدمين | ١٦ بلوكا |
| ١٨٥ | مصر القديمة | | صانعو المفرقات |
| ١١٥٢ | فى معية رئيس القوّات | ذوو القرايينه | آلأى قرايه |
| ١٠٦ | الحجاز | » » | كتيبة قرايه |
| ٢٠٠ | » | من الجنود الأقدمين | بلوكان |
| ١٣٠٣٠٠ | المجموع | | |

مشماتات الموضوع

- تمهيد .
- ميلاد النظام العسكرى فى وادى النيل .
- سير العمل .
- الوحدات العسكرية الجديدة .
- أوامر محمد على إلى ضباطه .
- الجيش فى نظر محمد على .
- تنظيم الجيش .
- معنويات الجنود .
- التجنيد ومصالحة الشعب .
- خدمة الجيش واجب نبيل .
- استقدام بعثة عسكرية .
- تعيين القادة .
- تعليمات محمد على إلى قادة الجيش .
- ديوان الجهادية .
- المدارس الحربية .
- مدرسة القلعة — مدرسة الليادة بأسوان .
- مدرسة الليادة بالخانقاه — مدرسة أركان الحرب .
- مدرسة السوارى — مدرسة المدفعية .
- مدرسة الموسيقى العسكرية — مدارس الوحدات .
- البعثات العسكرية .
- وحدات الجيش .
- المشاة — الخيالة — المدفعية — المهندسون .
- إحصائيات متوقعة عن قوة الجيش .

حرب كريت والمورة

(١٨٢١ - ١٨٢٨)

للبيكاشى (٢٠١)

أحمد فهميم بيومى

مدرس بكلية أركان الحرب الملكية

محتويات البحث

مقدمة :

جدول زمنى يبين تواريخ الأحداث المختلفة والمعارك الهامة التى وقعت إبان
حرب المورة وكريت .

١ — الفصل الأول : ثورة الاغريق :

الجمرتحت الرماد .

اشتعال نيران الثورة .

٢ — الفصل الثانى : مراحل الحرب فى اليونان :

مراحل الحرب الثلاث :

المرحلة الأولى .

المرحلة الثانية .

المرحلة الثالثة .

٣ — الفصل الثالث : المرحلة الأولى :

- أعمال التوار
- أعمال الأتراك
- عصب الثورة
- الانحراف عن مبادئ الثورة
- إستعانة تركيا بالأسطول المصرى
- الحملة المصرية على كريت
- الحملة المصرية على المورة
- المنظار الذى يجب أن ننظر به لهذه الحملة
- الاستعداد للحملة
- الحرب البحرية على شواطئ الأناضول
- توحيد القيادة
- القائد المصرى إبراهيم باشا
- تأمين خطوط مواصلاته
- انتهاء المرحلة الأولى من هذه الحروب

٤ — الفصل الرابع : المرحلة الثانية :

- (١) تخليص كورون والاستيلاء على تقارين
- مسرح العمليات
- طبيعة أرض المورة
- موارد المياه
- المناخ

- المواصفات .
- حالة الأتراك عند نزول القوات المصرية إلى المورة .
- خطة إبراهيم باشا للغزو .
- الاستكشاف والوقاية .
- إنقاذ كورون .
- حصار نفارين .
- استسلام نفارين .
- التحليل الفنى لهذه المعركة .
- مبدأ المحافظة على الهدف .
- مبدأ ادخار القوى .
- مبدأ خفة الحركة .
- مبدأ التعرض أو القتال الهجوى .
- مبدأ المفاجأة .
- مبدأ التعاون .
- مبدأ الوقاية .
- مبدأ حشد القوى .

الدروس المستفادة من هذه المعركة :

- (١) أهمية القائد فى المعركة .
- (ب) أهمية الضبط والربط فى النيران والتدريب الجيد للجنود .
- (ح) أهمية التعاون بين القوات المحاربة .

(د) أهمية الخيالة في الأراضي الوعرة لقطع مواصلات العدو .

(هـ) أهمية المطاردة .

« الروح التي خاض بها إبراهيم باشا غمار هذه المعركة :

• مهاجمة السفن اليونانية لسواحل مصر .

• الموقف العام بعد هذه المعركة .

٥ — الفصل الخامس : تابع المرحلة الثانية :

(٢) احتلال المورة .

• تطهير بيليا .

• حشد قواته في نيسى .

• تأمين خطوط مواصلاته قبل الزحف .

• فتح كالاماتا .

• الاستيلاء على تريبوليتسا .

• توفير المؤن وتنظيم الشؤون الإدارية .

• احتلال بتراس .

الموقف في نهاية عام ١٨٢٥

التحليل الفني لهذه المعارك :

(١) مبدأ المحافظة على الهدف .

(ب) « القتال التعرضى .

(ج) « خفة الحركة .

(د) « الوقاية .

(هـ) « حشد القوى .

(و) « المفاجأة .

(ز) « التعاون .

الدروس المستفادة من هذه المعارك :

- (١) أهمية تأمين قاعدة للعمليات .
- (ب) « اتخاذ قوات العدو دون المواقع الجغرافية هدنا للهجوم .
- (ح) « خفة الحركة في الهجوم والمطاردة في الأراضي الجبلية .
- (د) أثر الروح المعنوية في القتال .
- (هـ) أهمية الاستكشاف وتأمين خطوط المواصلات .
- (و) أهمية توفير المطالب والشئون الإدارية محليا للوحدات .

٦ — الفصل السادس : تابع المرحلة الثانية :

- (٣) فتح ميسولونجي وأثينا .
- حالة الأتراك أمام ميسولونجي .
- مسارعة إبراهيم باشا لنجدة رشيد باشا .
- خطة إبراهيم باشا للاستيلاء على ميسولونجي .
- سقوط ميسولونجي .
- حصار أثينا .

التحليل الفني لمعركة ميسولونجي :

- (١) مبدأ المحافظة على الهدف .
- (ب) مبدأ حشد القوى .
- (ج) مبدأ القتال التعرضي .

(د) مبدأ المفاجأة .

(هـ) مبدأ التعاون .

الدروس المستفادة من معركة ميسلوننجي .

(١) أهمية الخطة والدقة في تنفيذها .

(ب) أهمية إحباط نوايا العدو للمفاجأة .

الموقف العام بعد سقوط ميسلوننجي وأثينا .

انتهاء المرحلة الثانية من مراحل حرب المورة .

٧ — الفصل السابع : المرحلة الثالثة :

معاهدة لوندرة .

مقدمات معركة نفارين البحرية .

معركة نفارين البحرية .

موقف إبراهيم باشا بعد معركة نفارين .

اختلاف وجهة نظر تركيا ومصر بعد معركة نفارين .

الاتفاق بين مصر والحلفاء على إخلاء الجيش المصري لبلاد المورة .

عودة إبراهيم باشا ورجاله .

انتهاء المرحلة الثالثة .

٨ — الخاتمة : نتائج حرب المورة وكريت :

خسائر مصر في هذه الحملة .

ما كسبته مصر من هذه الحملة .

(١) الكسب المادى .

(ب) الكسب المعنوى .

استقلال مصر .

مقدمة

تعدّ حرب المورة وكريت إحدى الأعمدة الرئيسية^(١) التي شاد عليها عاهل مصر العظيم محمد علي باشا الكبير بنيان امبراطوريته الرائعة ... والحق إن هذه الحملة، رغم قصر عمرها وقلة مواقعها الرئيسية وكثرة انتشار سحايات المأسى المحزنة في سماء أحداثها، تضم بين جوانحها أروع المثل القيمة وأسوأ النتائج المؤلمة ! . فهي تظهر لنا جلياً ما أصاب « الرجل المريض »^(٢) من سوء مآل عندما أحسّت أجزء امبراطوريته بالضعف وقد بدأ يدب في جسده السقيم ... وتوضح لنا ضرامة أتون الثورات الاستقلالية وسريان انتشارها في البلاد كسرى النار في الهشيم ... ثم تطلعنا على ثعلبة رجال السياسة ومكرهم الذي لا يغيض ... وخلال ذلك كله تبهر أنظارنا بقوة « محمد علي باشا الكبير » وروعة شبلة « إبراهيم باشا » الذي أذاق الثوار العصاة حذّة حسام المصريين وضراوة بأسهم وقوة شكيמתهم ، والذي أخاف دول أوروبا من سطوع شمس العسكرية المصرية فعملوا في خيث ودهاء وتحت أستار ظلام الخديعة على تحطيم قوة مصر البحرية الناشئة التي — رغم استقرار معظمها قبل نهاية هذه الحرب في قاع اليم — لم تنجد تلك الشعلة بل كانت تتقد وتزايد لتذهلهم بعد ذلك في حروب أخرى لامعة .

والحديث عن هذه الحملة جدّ شيق وطويل يؤدّ الباحث في أنحائه المتشعبة لويقف به الزمن فيتيح له الاطلاع الوافي على جميع المراجع العديدة والمختلفة ولونطاق يده من عقابها لتسطر المحلّلات الضخمة الحاوية لشتى العوامل والأحداث والمعارك محللة تحليلًا عسكريًا دقيقًا ومذيّلة بالدروس المستفادة من كل منها .

... أما وأن ذلك غير متاح لنا في مجالنا الآن فسأوجز رسالتى هذه في ذلك الحيز المضروب جاعلاً جل اهتمامى للناحية العسكرية غير مهممل جميع الأحداث التاريخية أو المقدمات الباعثة لهذه الحرب .

(١) كتاب « مؤسس مصر الحديثة » لدودويل ص ٦٨ (٢) الاسم الذى أطلق على تركيا إبان ضمها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . مجلة « المكاتب المصرية » عدد ٦ مجلد ٢ ص ٢١٤

جدول زمنى يبين تواريخ الأحداث المختلفة والمعارك الهامة
التي وقعت إبان هذه الحرب

| رقم مسل | التاريخ | الحادثة أو المعركة | ملاحظات |
|------------|-------------------------------|---|------------------------------|
| ١ | عام ١٨١٥ | بدء تكوين جمعية الأصدقاء في موسكو وبخارست وترىستا | سببت تخلى روسيا عن هيسلنت |
| ٢ | ٦ مارس ١٨١٥ | مذبحة جالاتز وياسى | |
| ٣ | أول أبريل ١٨٢١ | اشتعال الثورة اليونانية والاستيلاء على كالاماتا | |
| ٤ | {يونيو ١٨٢١ - فبراير ١٨٢٥} | المرحلة الأولى | |
| ٥ | يونيو ١٨٢١ | سقوط نفارين في أيدي الثوار | |
| ٦ | ٥ أكتوبر ١٨٢١ | سقوط تريبوليتسا في أيدي الثوار | |
| ٧ | ٢١ يونيو ١٨٢٢ | تقدم الدراملى لغزو الموره | |
| ٨ | عام ١٨٢٣ | هزيمة الدراملى وسقوط نوبلى في أيدي الثوار | |
| ٩ | ٢١ أغسطس ١٨٢٣ | وصول أول قرض بريطانى للتوار مع لورد بيرون | |
| ١٠ | يونيو ١٨٢٤ | إنجاح ثورة كريت وقبرص | |
| ١١ | ١٦ يناير ١٨٢٤ | إصدار فرمان بدعوة محمد على باشا إلى تجريد جيشه على الثوار في الموره | |
| ١٢ | يوليو ١٨٢٤ | إبحار الحملة من الاسكندرية | |
| ١٣ | ديسمبر ١٨٢٤ | عودة إبراهيم باشا إلى كريت وانتهاء المرحلة الأولى فبراير سنة ١٨٢٥ | |

(تابع) الجدول الزمني

| ملاحظات | الحادثة أو المعركة | التاريخ | رقم مسلسل |
|------------------------------|--|-------------------------------|-----------|
| | المرحلة الثانية | {فبراير ١٨٢٥ — يونيو ١٨٢٧} | ١٤ |
| | نزول إبراهيم باشا وجنوده في أرض المورة | ٢٦ فبراير ١٨٢٥ | ١٥. |
| | إتقاذ كورون | ٥ مارس ١٨٢٥ | ١٦ |
| | الاستيلاء على نفارين | ١٨ مايو ١٨٢٥ | ١٧ |
| | » » كالاماتا | ١٢ يونيو ١٨٢٥ | ١٨ |
| | » » تريبوليتسا | ٢٣ يونيو ١٨٢٥ | ١٩ |
| | » » بتراس | ٢٧ يوليو ١٨٢٥ | ٢٠ |
| | » » ميسولونجي | ٢٢ أبريل ١٨٢٦ | ٢١ |
| | » » أثينا و انتهاء المرحلة الثانية | يونيو ١٨٢٧ | ٢٢ |
| | المرحلة الثالثة | {يوليو ١٨٢٧ — أكتوبر ١٨٢٨} | ٢٣ |
| بين إنجلترا وفرنسا وروسيا | معاهدة لوندرة | ٦ يوليو ١٨٢٧ | ٢٤ |
| | معركة نفارين البحرية | ٢٠ أكتوبر ١٨١٧ | ٢٥ |
| | الاتفاق بين مصر والحلفاء على إخلاء المورة | أغسطس ١٨٢٨ | ٢٦ |
| | إبحار الجيش المصري من المورة إلى مصر | أكتوبر ١٨٢٨ | ٢٧ |
| | اتهاء المرحلة الثالثة | | |

الفصل الاول

ثورة الاغريق

الجمرتحت الرماد :

أهل القرن التاسع عشر على اليونان وهى ترسف فى أغلال الاختلال يحكمها الولاة الأتراك الذين ترسلهم حكومة الأستانة ليدلوا رقاب أبنائها وليخفقوا حرية أفرادها، ولكن أهلها رغم تظاهرهم بالولاء والاستكانة كانوا يتطلعون إلى الاستقلال شأن كل شعب حر كريم لا يقبل المذلة أو يرضى بالضميم . ولذلك نشط شبانهم وأعيانهم فى تأليف الجمعيات السرية لتنظيم الثورة والخروج على ذلك الحال البغيض بحث تعاليمهم فى أنحاء البلاد واستمالة الرأى العام فى الدول الأوربية المختلفة فكتبوا^(١) فى عام ١٨١٥ أول هيئة سرية لهم جعلوا مقرها فى موسكو وبخارست وتريست^(٢) لتكون على اتصال بالحكومات الأوربية التى تعطف على مبادئهم وبمنجاة من اضطهاد الحكام الأتراك وأطلقوا عليها اسم "جمعية الأصدقاء" (فيليكه هيتاريا)^(٣) وكانت أهدافها :

- (أولا) إنقاذ الشعوب الهيلينية من ذل الاستعمار .
- (ثانيا) طرد الأتراك من بلادهم .
- (ثالثا) التخلص من حكم ولاية الأستانة .
- (رابعاً) إحياء الامبراطورية الأرثوذكسية فى الشرق^(٤) .

ولقد نجحت هذه الجمعية بعض النجاح فى غرس بذور العصيان خلال الأعوام الثلاث الأولى من بدء تكوينها ثم ما لبث أن قوى نفوذها بانضمام كل ذى مكانة

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ١٩٦

(٢) ابراهيم مصر لكريبتس ص ٤٦

(٣) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٥٨

(٤) كتاب التيارات الرئيسية للتاريخ الأوربى لهرنشتو ص ١٦٢

في اليونان من الشبان والأعيان ورجال الدين إليها وتولى زعامتها الميجر جنرال "هيسلنت" - وهو ضابط يوناني كان يعمل ياورا لدى قيصر روسيا "اسكندر الأول" - في ٢٧ يونيو عام ١٨٢٠ فجعل هدفه الأول طرد الأتراك من أوروبا وبدأ بقيادة الثورة في (ياسى) من أعمال ولايتي البغدان (ملدافيا) والأفلاق (رومانيا) فهاجم (ولاشيا وملدافيا) حيث دخل عاصمة الأخيرة في ٦ مارس عام ١٨٢١ دون مقاومة تذكر وهناك جرد الأتراك من سلاحهم وأعدمهم عن بكرة أبيهم في مذبحتي (جالاتز وياسى) مما أثار حفيظة قيصر روسيا عليه فأسقط اسمه من كشف الجيش الروسى وتغلى عن مؤازرته رغم أن هيسلنت هذا قد اختار هذه البقاع خصيصا لحركاته الأولى كي يكون بمقربة من روسيا فتعمده بالجيوش والعتاد !! على أن هذا كله لم يمنع اليونانيين من تحديد شعار ثورتهم وهو "اليونان لليونانيين كما وأن رومانيا للرومانيين" ^(١) فأحست تركيا بوجود الجمر المتقد الحار تحت الرماد وشرعت تعمل جاهدة على استعادة "ملدافيا" .

اشتعال نيران الثورة :

وكانت ثورة على باشا تيلان حاكم "يانينا" على السلطان عام ١٨٢٠ ^(٢) هي الريح الصرصر التي أذهبت بالرماد المتراكم والتي ألهمت الجمر فأذكت نيرانا متقدة ... فقد رأى اليونانيون في ثورته هذه وفي انشغال تركيا في إنحادها هي والثورات في شرق الدانوب ، الوقت المناسب لإعلان ثورتهم سافرة غير مقنعة .

فبعد شهر من عبور "هيسلنت" لنهر بروث اندلعت نيران الثورة في المورة وتكونت في "البلوبونيز" جمعية الأصدقاء السبع (إيفورز) ^(٣) وكان "الكسندر

(١) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٨٠

(٢) كتاب إبراهيم مصر لكر بيتس ص ٤٦

(٣) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٧١

ما فركورد اتوس“ قد وصل من روسيا في مارس عام ١٨٢١ إلى البغدان (ملداف) على رأس قوته الصغيرة فرفع “جيرمانوس“ كبير أساقفه “بتراس“ راية العصية في “كلفريتا“ في بلاد المورة^(١) وبدأت الثورة بهجمات متقطعة ومنفصلة بعضها على الأتراك ظلت تشتد وتتركز متخذة الطابع الديني الخطير حتى أصبح عامة في أوائل أبريل حيث حاصر اليونانيون الأتراك في “كلفريتا“ واستولوا على معسكراتهم في “كالاماتا“ وبسقوط هذه الأخيرة اشتدت الثورة في “بتراس“ واشتط اليونانيون في شعارهم فجعلوه تلك الأغنية المشهورة لديهم «لن يبقى أى تر على أرض المورة» وكأنا تلك الكلمات قد ألهمت حماسهم فترجموها من اللغة إلى الأعمال فذبحوا الآلاف من الأتراك في شبه الجزيرة واستولوا على “فالتنسى“ قرب “تريبوليتسا“ وامتدت ثورتهم عبر “خليج كورنث“ حيث استولوا على “سالونا“ واحتل أبناء بارنز “أيلنا“ وإن لم يستولوا على الأكروبول إذ حصه الأتراك وقاوموا فيه حتى منتصف صيف ذلك العام .

وفي الغرب انضمت “ميسولونجي وفارا كورى“ إلى الثوار وبذلك أصبح الإقليم بأسره جنوب “مالياك وأمبراكان“ عدا القلعة في أيدي الثوار ولما تمضي ثلاثة أشهر على بدء ثورتهم^(٢) .

وفي كريت قام “السفاكيوتس“ وتعدادهم يزيد على ١٦٠,٠٠٠ نسمة بثور سافرة استولوا فيها على “خانية“ بعد أن حاصروها .

وقصارى القول لقد حلق “مارس“ بجناحيه في ربيع عام ١٨٢١ ليظلل أرض اليونان وليجعلها مسرحا لحرب ضروس .

(١) كتاب إبراهيم مصر لكريتس ص ٤٦

(٢) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٧١

الفصل الثانى

مراحل الحرب فى اليونان

مراحل الحرب الثلاث :

والباحث المنقب فى ثنايا تاريخ هذه الحرب يجد أنها تنقسم إلى ثلاث مراحل رئيسية متباينة يتميز كل منها عن الآخر فى النتائج والعمليات^(١) وهذه المراحل هى :

(أولا) المرحلة الأولى :

وتبدأ عام ١٨٢١ حين ألتخذت الثورة اليونانية طابعها الجدى الخطير وتنتهى فى أوائل عام ١٨٢٥ ، وفى هذه المرحلة أحرز الثوار انتصارات خاطفة سريعة حاسمة على الأتراك فقوى ذلك ساعدتهم وجعل النجاح يحالفهم رغم بعض الانتصارات القليلة الأولى التى حصل عليها الأتراك . هذا إلى أن هذه المرحلة تشمل الحملة المصرية إلى كريت واستعدادات الحملة المصرية إلى المورة .

(ثانيا) المرحلة الثانية :

وتبدأ فى أوائل عام ١٨٢٥ عندما وطئت أقدام إبراهيم باشا وجنوده أراض المورة وتنتهى فى منتصف عام ١٨٢٧ ، وفى هذه المرحلة أشاح الحظ بوجهه عن الثوار فأنزله بهم الهزائم المتتالية بفضل بمالة الجنود المصريين وعبقريّة قائدهم " إبراهيم باشا " وفيها أيضا أحرز الأتراك تحت قيادة " رشيد باشا " انتصارات رائعة عاونهم فيها المصريون فى بلاد اليونان .

(ثالثا) المرحلة الثالثة :

وتبدأ فى منتصف عام ١٨٢٧ ببدء تدخل ثلاث من دول أوروبا وهى فرنسا وبريطانيا وروسيا وتنتهى فى أكتوبر عام ١٨٢٨ بانتهاء هذه الحرب وعودة المصريين إلى بلادهم .

(١) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلرس ٧٥

الفصل الثالث

المرحلة الأولى (يونيو ١٨٢١ - فبراير ١٨٢٥)

اعمال الثوار :

لم تكن ثورة اليونان هذه وليدة أيام أو شهور بل كانت ربيبة سنين طوال كما رأينا فلا عجب إن آتت أكلها ناضجة شهية في بدء اندلاعها وهذا ما نلمسه واضحا جليا في المرحلة الأولى من مراحل هذه الحرب فقد أحرز الثوار اليونانيون انتصارات خاطفة سريعة زادت في قوة ثورتهم رغم أن هذا النجاح قد حصل عليه قادة مستقلون عن أى سلطات مركزية .

ففى يونيو عام ١٨٢١ استولى الثوار على "مونمفاسيا ونافارين" وذبخوا حاميتى الأتراك فى هاتين المينائين فأحالوا مياه البحر الزرقاء فى تلك البقاع إلى اللون الأحمر القانى لكثرة ما تدفق فيها من دماء الأتراك^(١) .

وفى أكتوبر تمكن الثوار من الاستيلاء على "تريبوليتسا" عاصمة الأتراك فى المورة وأعقب ذلك مذبحه سالت فيها دماء ثمانية آلاف ما بين مسلم ويهودى .

وكان من المتوقع بعد سقوط العاصمة أن تهدأ الأمور قليلا ولكن هذا لم يحدث بل اندفع الثوار فى غلوائهم تحمسهم انتصاراتهم السريعة والروح الوطنية المستعرة بين جوانحهم وأعلنوا تكوين الحكومة اليونانية ورفعوا العلم اليونانى "الأزرق والأبيض" على "أكركورنت"^(٢) .

(١) كتاب الامبراطورية العثمانية المجلد ٧٥

(٢) نفس المصدر ص ٧٥



أمير البحر اسماعيل جبيل طارق

اعمال الأتراك :

ولم تقف الأتراك مكتوفة الأيدي أمام هذه الانتصارات والمذابح المزعجة التي لم تقض مضجعهم فحسب بل زادت أيضا في صعوبة أعمال خورشيد باشا ضد علي باشا تبلان حاكم "يانينا" في "تساليا ويانينا"... ولكن إثر انتصار خورشيد باشا على علي باشا في ٥ فبراير عام ١٨٢٢ أمر السلطان بالهجوم المزدوج على الثوار من الشرق والغرب وأسند قيادة الجيش الغربي إلى "الدراملي" الذي تقدم في ٢١ يونيو عام ١٨٢٢ فالق الذعر في نفوس الأثينيين بغزوه السريع للوارة وأكر كورنث ووصله إلى أرجوس رغم تسليم الأكر بول لأوديسيوس قبل بدء تقدمه هذا^(١) ولكن هذه العمليات السريعة الناجحة استنفذت الكثير من جهد رجاله فتفشست فيهم الأمراض ونقصت التعيينات والذخائر والعلائق فاضطر ثانية إلى الانسحاب والتراجع إلى شبه الجزيرة .

وفي نفس الوقت تقدم "عمر فر يونس" الذي خلف علي باشا في "يانينا" جنوبا وحاصر "ميسولونجي" .

وسرعان ما انبرى القائد اليوناني "تيودور كولو كوترونز" الملقب "بأكل الأتراك" إلى الدرامل في هزمه وأوقف غزوه الأتراك للوارة عام ١٨٢٢^(٢) واستولى الثوار على "نوبلي" التي اتخذتها الحكومة الثورية مقرا لها عام ١٨٢٣^(٣) .

وعندما انتهى السلطان من حروبه مع إيران التي اضطرت له للحرب في آسيا وأوربا في وقت واحد سير بعض جيوشه لليونان فاقترحوا "تسالي" ونهبوا كينوز دلفي وتقدمت قواته من "سكوتاري" في ألبانيا ونزلوا في غرب اليونان .

(١) نفس المصدر ص ٧٦

(٢) نفس المصدر ص ٧٧

(٣) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر .

ولكن سرعان ما فاز الثوار بانتصارين سريعين إذ استعادوا قلعة "كورنث"
في الغرب وفكوا حصار "أنا توكيلين"^(١).

عصب الثورة :

ولا شك في أن سر نجاح هؤلاء الثوار يتلخص في عظم استعدادهم وحسن
تنظيمهم لأعمالهم فلقد وفروا لثورتهم ذلك الثالوث الضروري لنجاح الثورات
ألا وهو :

المال والدعاية والروح الوطنية العالية .

فبفضل الأموال تتدفق سيول الأسلحة والعتاد بل والأفراد اللازمة لاستمرار
استمرار نيران القتال . وبالدعاية يحصل على الرأي العام فتعطف الدول الكبرى
على الثوار وتحتضن صراهم وتغذيه بالمال والرجال وهذا ما حدث في تلك الثورة
التي نحن بصدددها الآن إذ كسب الثوار عطف دول أوربا فلم ترض عنهم بالقروض
الكثيرة المختلفة ولم يتوان رجالها الأفذاذ عن الإسراع للانضمام إلى الثوار كالورد
"بيرون" الذي حمل وإياه للثوار في ٢١ أغسطس عام ١٨٢٣ أول قرض بريطاني
بمبلغ ٨٠٠,٠٠٠ جنيه وأنشأ لهم أول جريدة لإشعال الروح الوطنية "ذى جريت
كرونكيل" في ١٢ يناير ١٨٢٤^(٢)؛ وأما الروح الوطنية فهي التي توفر القوى الأدمية
وتبعث الروح المعنوية ذات الأثر الحاسم في نجاح الحروب .

فبهذا الثالوث الذي قد توفر للثوار قويت أعصاب ثورة اليونانيين واستفحل
أمرها فكتبت لها الحياة مرارا بعد أن كانت شمسها تؤذن بالمغيب .

(١) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر .

(٢) نفس المصدر السابق .

الانحراف عن مبادئ الثورة :

وكأنما يريق ذلك الفوز السريع قد أعمى بصيرة اليونانيين فأبعدهم عن الهدف الأساسي لثورتهم وأصم آذانهم عن شعارهم الخالص الذى اتخذوه لأعمالهم فازداد الثوار عتوا بما نالوه من نصر فى بحر الأرخبيل حيث أحرقوا الكثير من السفن التركية وعاثوا فى البحر فسادا وأحيوا عهدا من القرصنة^(١) لم ير العالم ما يماثلها فى الشدة والفظاظة^(٢) اكتوت بنسيرانها أساطيل أمم أوروبا التجارية مما جعلها تشكو لتركيا وتطابق يدها فى إخماد تلك الثورة^(٣) .

هذا إلى أن وهج الذهب الذى وصل إلى الثوار مع "لورد بيرون" نفي بذور الغيرة والمنافسة التى بذرتها نتائج الانتصارات المنفصلة الأولى بين حزبي "الهيسلنت" (جمعية الأصدقاء) و "البلوبوتيز" (إيفورز) ندب الشقاق بين الثوار وبدت سحب الحرب الأهلية تجتمع فى سماء الأحداث فى تلك البقاع لتصادق على قول بلوتارك المأثور : "إن التاريخ يعيد نفسه" فقد ولدت اليونان الحديثة فى مهد النزاع والشقاق ولم تذق للسلم الداخلى طعما حتى وقت أن كانت تكافح فى سبيل وجودها ولعل هذا ما نشاهده فى أيامنا هذه الآن .

استعانة تركيا بالأسطول المصرى :

ولما استفحل أمر قرصنة هؤلاء اليونانيين فى البحر أرسل السلطان محمود إلى محمد على باشا يعهد إليه أن يجرد أسطوله لتطهير البحر من هذه السفن وكان ذلك عام ١٨٢١ أى قبل الحملة المصرية على كريت^(٥) بعام فأعد محمد على باشا أسطولا

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ١٩٩

(٢) كتاب نفارين لدوين ص ٣

(٣) كتاب ابراهيم باشا لبدران ص ٦٦

(٤) نفس المصدر ص ٧٥

(٥) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ١٩٩

مؤلفا من ستة عشرة سفينة تامة التسليح والعتاد بها ثمانمائة مقاتل بقيادة
”طبوزاوغلى“ وأقلع هذا الأسطول من الاسكندرية في ١٠ يوليو عام ١٨٢١
متجها إلى مياه ”رودس“ لمطاردة سفن القرصنة اليونانية والتي بالأسطول التركي
في الدردنيل ثم عاد إلى الاسكندرية في ٨ مارس عام ١٨٢٢ ليتأهب لنقل الحملة
المصرية إلى ”كريت“^(١) مع بعض القطع البحرية الخاصة بالجزائر وتونس وطرابلس
وتركيا^(٢).

الحملة المصرية على كريت :

ولم تقتصر استعانة السلطان محمود بمحمد على باشا على القرصنة اليونانية فقط
بل لقد عرض عليه عام ١٨٢٢ ولاية جزيرتي كريت وقبرص إذا تمكن من إخماد
الثورة التي قد أشعل نيرانها ”السفاكيوتس“^(٣) كما أسلفنا في نفس الوقت الذي
شبت فيه ثورة بلاد المورة وجزر الأرخبيل وانتصر فيها الثوار على الحاميات التركية
التي اضطرت إلى التحصن في بعض القلاع بالجزيرة فأعد محمد على باشا حملة بلغ
تعداد رجالها خمسة آلاف مقاتل ونحسمائة فارس بقيادة حسن باشا مصطفى وأقلع
بهم الأسطول المصري من الاسكندرية قاصدا جزيرة كريت فتنزل الجنود إلى البر
في يونيو عام ١٨٢٢^(٤).

ولقد كان الثوار في الجزيرة كثيرون والعدد وشجعان فقاتلهم المصريون قتالا
شديدا مدى عامين أنقذوا في خلالها القوات التركية المحاصرة في القلاع وقدمت
حسن باشا خلال الفتح خلفه حسين بك في قيادة القوات المحاربة واستمر القتال

(١) كتاب تاريخ مصر في حكم محمد على لمناحان ج ٢ ص ٢٤٠

(٢) كتاب التاريخ العسكري محمد على وأبنائه لفيضان ج ١ ص ٢٣٣

(٣) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودويل ص ٧٠

(٤) كتاب عصر محمد على للرافعي بك ص ٢٠١

(٥) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودويل ص ٧٠

الى أن ظفر المصريون بالشوار وضيقوا عليهم الخناق وحصروهم على الساحل في "سفا كيا" التي أضحت آخر معقل لهم^(١) ثم سرعان ما شتوا شملهم ففر الكثيرون منهم الى الجزر اليونانية الأخرى واستتبّت السكينة في الجزيرة^(٢) .

وكذلك أحمد ألقان من الجنود المصريين تحت قيادة صلاح بك الثورة في جزيرة قبرص^(٣) .

الحملة المصرية على المورة :

ولا شك في أن النجاح الذي أحرزته قوات محمد علي باشا في كريت جعلها محط أنظار السلطان، فطلب منه عوناً آخر بأن أصدر في ١٦ يناير عام ١٨٢٤^(٤) فرماناً يدعو فيه محمد علي باشا إلى تجريد جيشه على الثوار اليونانيين ويخوله حق ولاية المورة .

وهنا يختلف المؤرخون في سر هذا المطلب فيرجعه بعضهم إلى عجز القوات التركية عن إخماد الثورة بعد أن تكبدوا خسائر فادحة كما أسلفنا فتلقت السلطان حوله يبحث عن العون وحينئذ أشار عليه سفير النمسا بذلك السيف الذي ما زالت تقطر منه دماء النصر والفتوح وهو محمد علي باشا قاهر الوهابيين وفاتح السودان^(٥) ويعتقد البعض الآخر بأن التجاء الباب العالي إلى محمد علي باشا إنما كان ينطوي على الرغبة في إضعافه بإشراكه في تلك الحرب وحرمانه من المضي في تنظيم جيشه ومضاغفة قواته إذ كان يخشى لو استمر ماضياً في سبيله هذا أن يقوى على تركيا

(١) نفس المصدر .

(٢) كتاب عصر محمد علي للرافعي بك ص ٢٠١

(٣) كتاب التاريخ العسكري لمحمد علي وأبنائه لقيجيان ص ٢٣٣ ج ١

(٤) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودويل ص ٧١

(٥) آداب حروب محمد علي لسيد فرج ص ٨٤

ويحقق فكرة الانفصال عنها وإعلان استقلاله بمصر . وتجمع فئة ثالثة بين السببين فتقول إنما السلطان قد قصد بذلك تحقيق غرضين : أولها الاستعانة بالجيش المصرى على إخماد الثورة بعد عجز الأتراك والثانى صرف محمد على باشا عن المضى فى تنظيم جيشه ومضاعفة قوته^(١) .

وأى من هذه الأغراض كان السبب فى ذلك العرض ليس مجال بحثنا الآن إذ أن ما يعنينا فى هذا المقام هو أن محمد على باشا قد قبل هذا العرض الذى يرفع من شأنه ويزيد فى مكانته باستنجد تركيا به وذلك بعد أن استشار كبار رجال حكومته فأقروا جميعا لإجابة دعوة الباب العالى^(٢) .

المنظار الذى يجب أن ننظر به لهذه الحملة :

وقبل أن نبدأ بالتحدث عن هذه الحملة وأعمالها فى المورة يجب أن نكون على بينة تامة من أمر هام سيكون هو العامل الأساسى فى الحكم على هذه الأعمال ألا وهو غرض محمد على باشا الأساسى من قبول هذه الحملة وما كان يرمى إليه عند إرسالها . .

لقد زعم بعض الكتاب الإفرنج بأن غرضه الأساسى كان محو اليونانيين أو بالأحرى المسيحيين وإبادة شعب المورة لينبئ على أنقاضه دولة إسلامية وهذا^(٣) ولا شك زعم خاطئ فمنذ نشوب الحرب فى المورة بين تركيا واليونان أخذ محمد على باشا فى تتبع أخبارها وتحولها أملا منه بأن يدعوه الباب العالى الى مساعدته على إخضاع العصاة ... لأنه وهو صديق لليونانيين والمسيحيين لم يرفى هذه الحرب سوى فرصة سانحة ليظهر فيها للعالم مدى قوته الفتية وتفوقه على الباب العالى

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠١

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٢

(٣) كتاب محمد على للكریم ثابت بك ص ١٧٧

وليحاول في مقابل الخدمات التي يسديها إليه التخلص من سلطته ليفوز في الوقت عينه بتنظيم المورة وليستفيد من نشاط اليونانيين في خدمة مصر وليبسط حكمه على جنوب أوربا فيحول شرق البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة مصرية^(١).

تلك كانت أغراض محمد علي باشا الحقيقية وهي أغراض سياسية محضة تحقق أمنيته التي وقف عليها كل قواه وهي تعزيز قوى مصر في الداخل وبسط نفوذها في الخارج ويدلنا على صدق ذلك ما أكده لوثرني نقلا عن سليمان باشا بأنه كان واثقا من أن محمد علي باشا سيمنح البحارة اليونانيين عفوا عاما بشرط أن يجهنوا إلى مصر بعائلاتهم^(٢). هذا إلى أنه وابنه إبراهيم باشا كانا كراما إلى أقصى حدود الكرم في معاملة الجالية اليونانية الكبيرة في مصر وليس أدل على هذا من أن "الفليكي هيتاري" كانت تبث دعوتها بنشاط في مصر وكان "ثيودور تسرا" أكثر أعضائها نشاطا وجلدا. ولم يكتف الباشا بعدم مقاومة الثورة الإغريقية في مبدئها بل إنه ظاهرها وأعانها على أغراضها^(٣).

فلتكن هذه الأغراض بمثابة المنظار الذي نرى من خلاله أعمال الحملة المصرية في المورة حتى يمكننا الحكم الصائب عليها.

الاستعداد للحملة :

ولقد بذل محمد علي باشا همه كبرى وجهودا مضنية جبهة مدى الستة أشهر التي تلت صدور هذا فرمان^(٤) في تجهيز معدات الحملة على المورة فأعد قوات برية

(١) كتاب الامبراطورية المصرية للدكتور صبرى .

(٢) نفس المصدر .

(٣) كتاب محمد علي لكرم ثابت بك ص ١١٧

(٤) الهيلينية ومصر الحديثة لاثنازي ج ١ ص ١٨٩

(٥) نفس المصدر .

(٦) "اب مؤسس مصر الحديثة لدودييل ص ٧١

من جيشه النظامى الحديد أسلم قيادتها إلى نجله الأكبر إبراهيم باشا بطل المجاز وقاهر الوهابيين وبلغت هذه القوات فى بدء الحملة ثمانية عشر ألف مقاتل من المشاة^(١) مؤلفين من الآلايات الآتية :

الآلاى الثالث بقيادة الأميرالائى خورشيد بك .

» الرابع » » حسين بك .

» الخامس » » سليم بك .

» السادس » » سليمان بك (الفرنساوى)^(٢) .

ومعها قواتها المعاونة وهى أربع بلوكات من مهندسى الطرق^(٣) وثمانمائة فارس بقيادة حسن بك ومقدار كبير من مدفعية الميدان والحصار^(٣) وجهازهم بأحدث ما لديه من أسلحة وعتاد وذخيرة وأعد السفن البحرية اللازمة لنقل هذه الحملة بعتادها على أن يتولى حمايتها الأسطول المصرى المرافق لها بقيادة الأميرال ” إسماعيل أغا الجبل الأخضر “^(٤) فبلغت هذه العماره فى مجموعها إحدى وخمسين سفينة حربية ومائة وستة وأربعين سفينة نقل^(٥) تجمعت كلها فى ميناء الإسكندرية فكانت منظرها يأخذ بالآلأباب ... إذ لم ير الشرق حملة بحرية تدانها فى ضخامتها منذ حملة بونايرت وكان الشرق بذلك قد أراد أن يغزو الغرب جوابا على حملة أوربا عليه وهكذا تنقلب الأطوار فى سير التاريخ^(٦) .

(١) كتاب التاريخ العسكرى محمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٣٥

(٢) كتاب الجيش المصرى فى عهد محمد على لعبد الرحمن زكى ص ٣٧

(٣) كتاب التاريخ العسكرى محمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٣٦

(٤) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لأدوارجون ص ٦٦٣

(٥) وثيقة رقم ١٤ من وثائق المورة وهى رسائل الميسوروفنى قنصل فرنسا الى وزير الخارجية الفرنسية .

(٦) كتاب تاريخ اليونان السياسى لدرير ج ١ ص ٢٥٧

الحرب البحرية على شواطئ الأناضول :

وعندما أبحرت القوات المصرية من نغرا الإسكندرية في شهر يوليو عام ١٨٢٤ لم تكن الآستانة قد استقر رأيها على من يعقد له لواء الحملة المشتركة ولم تقصد هذه القوات شبه جزيرة المورة رأسا بل اتجهت إلى مياه "رودس" ومنها إلى خليج "ما كرى" على شاطئ الأناضول لتلتقي بالأسطول التركي الذى نيط به مطاردة السفن اليونانية في مياه بحر الأرخبيل وتطهير البحر من قرصتها وإخماد الثورة في الجزر والاستيلاء على "بسارا" الذى تم في ٣ يوليو^(١).

ولما وصلت العمارة المصرية إلى خليج "ما كرى" أنزل إبراهيم باشا جنوده إلى البر تهيأ للإقلاع بأسطوله فقط شمالا ليتصل بالأسطول التركي الذى جاء من الدردنيل بقيادة خسرو باشا فالتقى به في ميناء "بودروم" على شاطئ الأناضول في أواخر أغسطس وهناك ظهر الفرق جليا بين نظام الأسطول المصرى وفوضى الأسطول التركى الذى قد لاقى الأهوال من مهاجمة سفن التوار اليونانيين حينما اعترضت طريقه في مياه جزيرة "ساموس" فأحرقت بارجة الأميرال وسفینتين آخرين فتراجعت العمارة التركية جنوبا حتى آلتقت بالأسطول المصرى .

وهاجمت السفن اليونانية العمارتين بالقرب من بودروم ودارت رحى القتال بين الفريقين فلاذ الأسطول التركى بالفرار من الميدان أما إبراهيم باشا فقد صمد بأسطوله للسفن اليونانية إلى أن اضطرها للتقهقر في سبتمبر عام ١٨٢٤

وانصلت العمارتان المصرية والتركية ثانية ونحرتا عباب السيم^(٢) سويا إلى جزيرة "مدلى" ثم تابعت العمارة التركية سيرها شمالا إلى الدردنيل بينما عاد الأسطول المصرى جنوبا فاعترضته السفن اليونانية في مياه جزيرة "سافز" واشتبكت معه في معركة

(١) كتاب إبراهيم باشا ترجمة بدران ص ٥١

(٢) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودويل ص ٧٢

شديدة أفضت إلى غرق سفيلتين مصريتين (أكتوبر سنة ١٨٢٤) فقط وعاد إبراهيم باشا بأسطوله إلى ميناء «بودروم» .

ولقد أدرك إبراهيم باشا من هذه الوقائع البحرية أن هزيمة اليونان لن تكون فوق سطح البحر حيث لم السفن المسلحة المنيثة في نواحيه وإنما ستكون بالقضاء على قواتهم في البر أى في شبه جزيرة المورة فرجع أدراجه إلى ميناء «مرمريس» جنوباً ثم أقبل إلى جزيرة كريت في ديسمبر عام ١٨٢٤ ورسى بعمارته في خليج السودة حيث أخذ يتحين الوقت المناسب للإقلاع إلى ساحل المورة. ولقد برهن إبراهيم باشا خلال هذه المرحلة الابتدائية على شجاعته التي امتاز بها في حروب البر فإنه قد صمد عدة أشهر لقتال السفن اليونانية التي اشتهرت بعظم قدرتها على خوض غمار البحار ومهارتها في مهاجمة السفن الحربية ولولا عزيمته ورباطة جأشه في مواجهة المخاطر لتشتتت شمل العمارة المصرية ولتبددت أمام هجمات السفن اليونانية^(١) .

توحيد القيادة :

ولا شك في أن مسلك خسرو باشا العجيب أمام شاطئ «رودس» لم يزد محمد على باشا وابنه إلا بغضا لفكرة القيادة المزدوجة إذ كانا من بادئ الأمر غير موافقين على فكرة تقسيم القيادة ولذلك كتب محمد على باشا إلى الباب العالي في ١٣ سبتمبر عام ١٨٢٤ كتاباً جمع فيه بين الأسف وشيء من الغبطة الشخصية فقال :

«يؤسفني كل الأسف أن ما طلبته من توحيد قيادة الأسطول كله لم يجب وأن هذا الشرف لم ينله ولدى إبراهيم . وليس بخاف أن النصر في المواقع الهامة لا ينال إذا عهد بالقيادة العليا إلى أكثر من رجل واحد ذلك بأن اختلاف الرأي لا بد وأن يؤدي إلى هذه النتيجة السيئة . وقد كانت الحوادث الأخيرة مع الأسف الشديد أكبر دليل على صدق هذه العقيدة»^(٢) .

(١) كتاب عصر محمد على للرافعي بك ص ٢٠٣ (٢) كتاب إبراهيم باشا لبدزان ص ٧٤

(٣) مجموعة رسائل محمد على وثيقة رقم ١٥٨

فمن هذا نرى أن مطلب محمد على باشا وإبراهيم باشا في توحيد القيادة لم يكن وليد الرغبة في خطوة إبراهيم باشا بها بل هي عقيدة يقدر قيمتها هذان العسكريان وهما في ذلك لم يتجنبا أو يطالبا بما هو مخالف للأسس العسكرية السليمة فقد قال نابليون: "لا شيء أهم من توحيد القيادة"^(١) ولقد ردّد هذا النداء "جوليود وهيت" في تعاليمه الأساسية للحروب الجوية وصمم "إيزنهاور" على تحقيقه عند تفكير الحلفاء في غزو أوروبا وتدمير حائط الأطلنطيق فقد اشترط ضرورة توحيد الأعمال البرية والجوية تحت قيادته وقد سلمت رئاسة هيئة أركان حرب جيوش الحلفاء بوجهة نظره^(٢).

ولقد أثمر خطاب محمد على باشا هذا ثمره المرجو فولى إبراهيم باشا قيادة الحملة التركية المصرية وكانت هذه التولية هي الحجر الأساسى الذى بنيت عليه جميع انتصارات هذه الحملة.

ولقد صحت عزيمته إبراهيم باشا بعد ذلك على أن يقضى الشتاء في جزيرة كريت^(٣).

القائد المصرى إبراهيم باشا :

لا شك وأن أهم جانب في دراسة التاريخ العسكرى هو دراسة شخصيات القادة إذ أن أعقد ما يواجه الدول عند نشوب الحروب هو انتخاب القائد العام فبتقرير ذلك قد يخلق جيش يحلق في سماء النصر وقد يذهب بجهود الأمة بأسرها لأن جميع الجنود تحارب جيدا إذا قيدت جيدا.

وليس أدل على أهمية القادة في المعارك من قول فوش : "تتوقف النتائج في الحروب على القادة لدرجة كبيرة والتاريخ محق في جعلهم أصحاب النصر فيمجدهم

(١) تاريخ العالم العسكرى لميشل ص ٦

(٢) تقرير بعثة ضباط الجيش عام ١٩٤٧ لانجلترا وفرنسا ص ٧٢

(٣) كتاب إبراهيم باشا ترجمة بدران ص ٧٥

أو المسؤولين عن الهزيمة وحينئذ يتقدم ... وبدون القادة لا
تتحقق الانتصارات^(١) .

ولم ينس نابليون أن يشير إلى ذلك أيضا فقال : "لم يغزو الـ
بل هنز مهاقيصر... ولم ترتجف روما فرقا أمام القرطاجنيين وإنما
تفتح الهند بالفلانكس المقدونية وإنما غزاها الإسكندر^(٢)" .

فلا عجب إن أضحي لزاما علينا أن نلم بصفات إبراهيم باشا
قاد الحملة المصرية على المورة كي نلمس بوضوح مدى قوة شخصه
الذي قاد النصر طائعا مختارا للقوات التي تحت إمرته .

ولعل أصدق ما يجب أو يورد في هذا المجال هو ما قد
عرف صفاته كلها دون واسطة فوصفه وصفا مفصلا قال فيه :
"هو رجل لا تفارقه الهيبة ولا حب العدالة ... أمره مطاع =
شجاع رحيم لين العريكة لكنه شديد الحرص على النظام لا يرضى
رجل في جيشه ما لا تطاوعه نفسه هو على عمله . يطيعه الناس و
سواه لأن في يده العقاب ، ومع ذلك التفت حوله قلوب جنده .
العالية لا تتعارض في نظر أبناء العرب مع الصراحة فإن الجنود كثير
على أسرارهم الخاصة ... وكنت تراه في الحروب الأخيرة دائم إلى
الرقابة . يدهش الناس بسرعة تنقله بين الجنود دون أن يشعروا
ينام على الثلج في العراء ليضرب بذلك المثل لغيره ... وهو حذب =
عليهم ويحادثهم ويصنع إلى قصصهم ويث في قلوبهم الشجاعة ويمته
واجتماعهم ويجلس معهم في مضاربهم كأنه واحد منهم ولكن لا يـ

(١) كتاب الاستراتيجية الألمانية لنيام ص ١

(٢) نفس المصدر ص ٢

ولم يعرف عنه أنه ضحى يوما بشرفه فسفك دماء أحد في ساعة من ساعات غيظه^(١) وتراه في ميدان القتال رابط الجأش لا يفارقه هدوءه إذا دنت ساعة الخطر أو ثارت عليه القبائل من حوله ، يثبت في جنوده روح الشجاعة والإقدام ويضرب لهم بنفسه خير مثل في البسالة وخوض الغمرات وكثيرا ما استعان ببعد نظره وصدق فراسته على كشف ما يبت له من المصائد وينصب له من المكائد... ولولا جهود إبراهيم لما استطاع والده أن ينجز نصف ما أنجز وأعلم الناس بذلك هو محمد علي نفسه^(٢) .

تلك هى صفات إبراهيم باشا وكلها تنبئ بأن صاحبها لا شك واصل إلى نصر سريع حاسم بفضل شخصيته القوية وصفات خلقه المتينة على أن أهم ما يجب أن نذكره هو أن إبراهيم باشا كان قائدا عسكريا فذا دالت له أصول الاستراتيجية فعرف كيف يستخدمها الاستخدام الرائع الذى لا يزال يأخذ باللبابنا كلما تعمقنا فى دراسة خططه وأساليبه فى القتال وهذا ما سيتضح لنا جليا فى إبان بحثنا فى هذه الحملة .

تأمين خطوط مواصلاته :

ولم يقف إبراهيم باشا مكتوف الأيدى خلال فترة انتظاره فى خليج السودة متحينا الفرص كي يقلع إلى شاطئ المورة وإنما عمل على الاستيلاء على "كاسوس" لتكون كقاعدة لصبانة كريت من الغزوات المفاجئة كما أنه أنزل ضربات سريعة مفاجئة بسفن الثوار جعلتهم يلوذون بأذيال الفرار وبذلك أمن خطوط مواصلاته مع كريت التى كانت فى أيدى القوات المصرية فى ذلك الحين^(٣) .

(١) تاريخ مصر وحالها فى الوقت الحاضر (١٨٤٢) لياقس الجزء الثانى ص ١٧٤

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٧

(٣) كتاب الامبراطورية العثمانية لميرص ٨٩

انتهاء المرحلة الأولى من هذه الحروب :

وباتهاء عام ١٨٢٤ انتهت المرحلة الأولى من مراحل الحملة على كريت والمورة وفيها كما قد رأينا أحرز الثوار انتصارات سريعة على الأتراك وهزموا جيوشهم شرمزية ولكن سرعان ما دب بينهم الشقاق كما أسلفنا من قبل فألهاهم ذلك عن الخطر الأكبر الذى كان يهددهم وأعمض أعينهم عما حل بكريت فلم يفكروا فى أنهم سيلقون نفس المصير من ذلك العاهل العظيم الذى كان يربص الفرص المواتية ليقلع إلى شواطئهم . وقد واثته هذه الفرصة طيبة مختارة عندما وقع الاضطراب بين بحارة السفن اليونانية لتأخر عطائهم وتنازع زعمائهم من رؤساء الحكومات الثورية فأبى البحارة الاستمرار فى القتال ، وما كاد إبراهيم باشا يعلم بذلك إلا وأقلع بعبارته من "خانية" إلى "مودون" جنوبى المورة فأنزل جنوده إلى السبر فى ٢٦ فبراير عام ١٨٢٥^(١) وبذلك بدأت المرحلة الثانية من مراحل هذه الحرب وهى المرحلة التى تخلى فيها الحظ عن الثوار ولع فيها نجم القوات المصرية بفضل عبقرية قائدهم الفذ الذى ظل طوال وقته يقظا متحفزا للوثوب إلى هدفه .

الفصل الرابع

المرحلة الثانية (٢٦ فبراير ١٨٢٥ — يونيو ١٨٢٧)

١. — تخليص كورون والاستيلاء على نفارين

مسرح العمليات^(٢) :

لا شك وأن طبيعة أراضى مسرح الحرب وطبوغرافيتها ومناخها وموارد المياه بها من أهم العوامل المؤثرة على سير العمليات التى تجرى عليها فلا غرو إن أضفى وصف مسرح العمليات فى حرب المورة أول مايجب أن نلم به قبل البدء فى سرد

(١) كتاب التاريخ العسكرى محمد على وأبنائه لفيحان ص ٢٣٦

(٢) معظم المعلومات عن مسرح العمليات مستقاة من كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه للجنرال

فيحان ج ١ ص ٢٣٩

المعارك المختلفة ودراستها الدراسة العسكرية الحقبة حتى نكون على بينة واضحة من جميع المؤثرات في تلك العمليات وحتى يمكننا أن نحكم على قدرة القوات التي خاضت غمار هذه المعارك .

طبيعة أرض المورة ^(١) :

تكاد المياه تحيط بشبه جزيرة المورة من جميع الجهات عدا تلك الأرض الضيقة الصغيرة التي تمر بكورنث وتصلها بشبه جزيرة تساليا أو بالأحرى بأوربا ... وتمتاز شبه المورة بتشعب امتداد أراضيها في داخل البحر وهذا مما يوفر لها الموانئ الصالحة لرسو السفن والمضائق الكثيرة الصالحة لأن تكون أوكارا للسفن التي تعمل في البحر ... وطبيعة أراضيها جبلية عالية إذ تمتد فيها سلاسل من الجبال المرتفعة أهمها تلك السلسلة الساحلية التي يزيد ارتفاعها على ٢٠٠٠ متر والتي تسير محاذية لخليج "كورنث" وتمتد إلى خليج "أجين وبتراس" وأعلى قممها "تريكاللا وإيريمانث" ثم تتحد متجهة صوب الجنوب إلى البحر الأبيض المتوسط على ضفتي خليج "ماراتون" وتسمى "أركاديا" (في الوسط) و"بلاكوني وتايجيت" (في الجنوب) وتقع سلسلة جبال "مسيني" في الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة غرب نهر "برماتزا" وتكاد تكون شبه منطقة مستقلة وهذه المناطق الجبلية بأسرها وعرة وقاحلة وشديدة البرودة عدا في بعض المناطق حيث توجد بعض الأدغال كما في "أركاديا ومسينا".

أما في وسط شبه الجزيرة فميز بانخفاض عميق توجد فيه "تريبوليتسا" العاصمة التركية القديمة كما توجد بها مساحات صحراوية شاسعة بها بعض المناطق الصالحة للزراعة وهذه تتوافر بجوار السواحل وعلى شواطئ الأنهار القليلة التي تخترق تلك السلاسل من الجبال .

موارد المياه :

وشبه جزيرة المورة فقيرة جدا في موارد المياه وذلك لأن أغلب أراضيها كما رأينا جبيلية قاحلة أو صحراوية جافة على أن أهم الموارد بها هي نهر "أيروتاس" الذي يصب في خليج "ماراتون" ونهر "برماترا" الذي يصب في خليج "مسيني" ونهر "ألفي" الذي يصب في خليج "أركاديا" وهذه كلها أنهار صغيرة تعترضها العوائق الرملية الكثيرة بالقرب من منابعها .

المناخ :

ومناخ شبه جزيرة المورة حار بالقرب من السواحل وغير صحي لوجود مستنقعات كثيرة بها أما وسط شبه الجزيرة بخوة مرهق للقوات المحاربة إذ أنه حار جدا في الصيف وبارد جدا في الشتاء وفي منطقة "تريبوليتسا" تهب رياح شمالية دائمة .

المواصلات :

ولقد كانت المواصلات لهذه الأراضي قليلة جدا بل لقد أصبحت متعذرة بسبب تلك الثورة التي دامت خمس سنوات دمر فيها الثوار الطرق وقطعوا وسائل الاتصال^(١) .

ومن هذا كله يتضح لنا جليا أن طبيعة مسرح العمليات في المورة في صالح المدافعين لأنه يلقى عبئا كبيرا على عاتق المهاجمين إذ يحدد طرق تقدمهم ويجعلهم تحت رحمة المدافعين لو حصنوا مواقعهم الحاکمة على طرق التقدم في الجبال والمرتبات .

حالة الأتراك عند نزول القوات المصرية إلى المورة :

ولقد ألحق إبراهيم باشا، عند نزوله وقواته في ميناء "مودون" في فبراير عام ١٨٢٥، القوات التركية في أسوأ حال لغلبة الثوار عليهم بحرا وبرا لاسيما وقد سقطت "نقارين"

(١) نفس المصدر ص ٢٤٠



أمیر البحر حسن الاسکندرانی باشا

عند نزول القوات المصرية ولم يبق في شبه الجزيرة تحت أيدي الأتراك سوى "مودون" وميناء "كورون" التي كان يحاصرها الثوار^(١).

خطة إبراهيم باشا للغزو :

ولو أن المراجع التاريخية لم تحدثنا بوضوح عن خطة إبراهيم باشا التي اعتمدها ونفذها في غزو شبه جزيرة المورة إلا أنها بسردها لأعماله المختلفة قد رسمت لنا الأسس التي قد بنى عليها ذلك القائد الفذ خطته التي تتمشى مع أحدث أساليب الحرب الآن والتي تثبت أنه كان استراتيجيا من الطراز الأول فبوصوله إلى "مودون" أيقن بأن شبه جزيرة "بيليا" هي أصح مكان لتكون قاعدة لعملياته وأدرك لأول وهلة بأن "مودون" هذه لا تكفي لأن تكون رأس الكوبرى الذي يقيم عليه حملته وذلك لمعرفته التامة بقوة عدوه البحرية التي قد تضرب مع قواته البرية الحصار التام عليه فتضطره إلى التسليم في البر أو الاندحار في البحر ولذلك رأى أن يوسع رأس الكوبرى هذه باستيلائه على سلسلة الموانئ المجاورة له في "بيليا" كي يوفر لقواته قاعدة تثبت فيها أقدامها ويمكنها أن تعمل منها بحرية تامة لا تعوق حركاتها ضيق المواجهة ولا يجعلها ذلك الضيق عرضة لإلحاقها في البحر إذا هاجمها العدو ولا شك في أن الدهشة ستأخذ بتلابيبنا إذا عرفنا أن نفس هذه الفكرة هي التي خطرت للارشال "مونتجمري" عند وضع خطط غزو أوربا فقد عدل خطة "كوساك" التي قد وضعها هيئة أركان حرب "لاينهاور" من قبل فزاد في مواجهة رأس الكوبرى المقترح وهذا يحقق لنا صدق قول "البارون دي جوميني": "إن الاستراتيجية أيام قيصر هي بعينها أيام نابليون وإن لم تدون في أي كتاب"^(٢).

(١) كتاب عصر محمد علي للرافعي بك ص ٢٠٦

(٢) كتاب عمليات النصر جيتجانند ص ٣٤١ ، ٣٤٤

(٣) كتاب الاستراتيجية كما استخدمت في الحرب العالمية الثانية للكولونيل هـ بورن .

الاستكشاف والوقاية :

وفي اليوم التالى لوصول إبراهيم باشا عهد إلى قواده العناية بترتيب المعسكرات وإقامة المخازن والمستودعات وتنظيم شئون الوحدات الادارية ثم استصحب فصيلة من المشاة وأخرى من الفرسان ليستطلع بنفسه الأماكن القريبة من "نفارين" وبعد أن تم له الوقوف على ما أراد من معلومات عاد بعد الظهر إلى المعسكر بجيلة قطعان من الأغنام والماشية استولى عليها خلال ذلك الاستطلاع^(١) وأصدر أوامره لبعض الوحدات كي تقوم بحماية الطرق الرئيسية المنقذة من "مودون" حتى لا يدمرها الثوار وحتى يوفر الوقاية التامة لقواته في أماكنهم بمودون .

إنقاذ كورون :

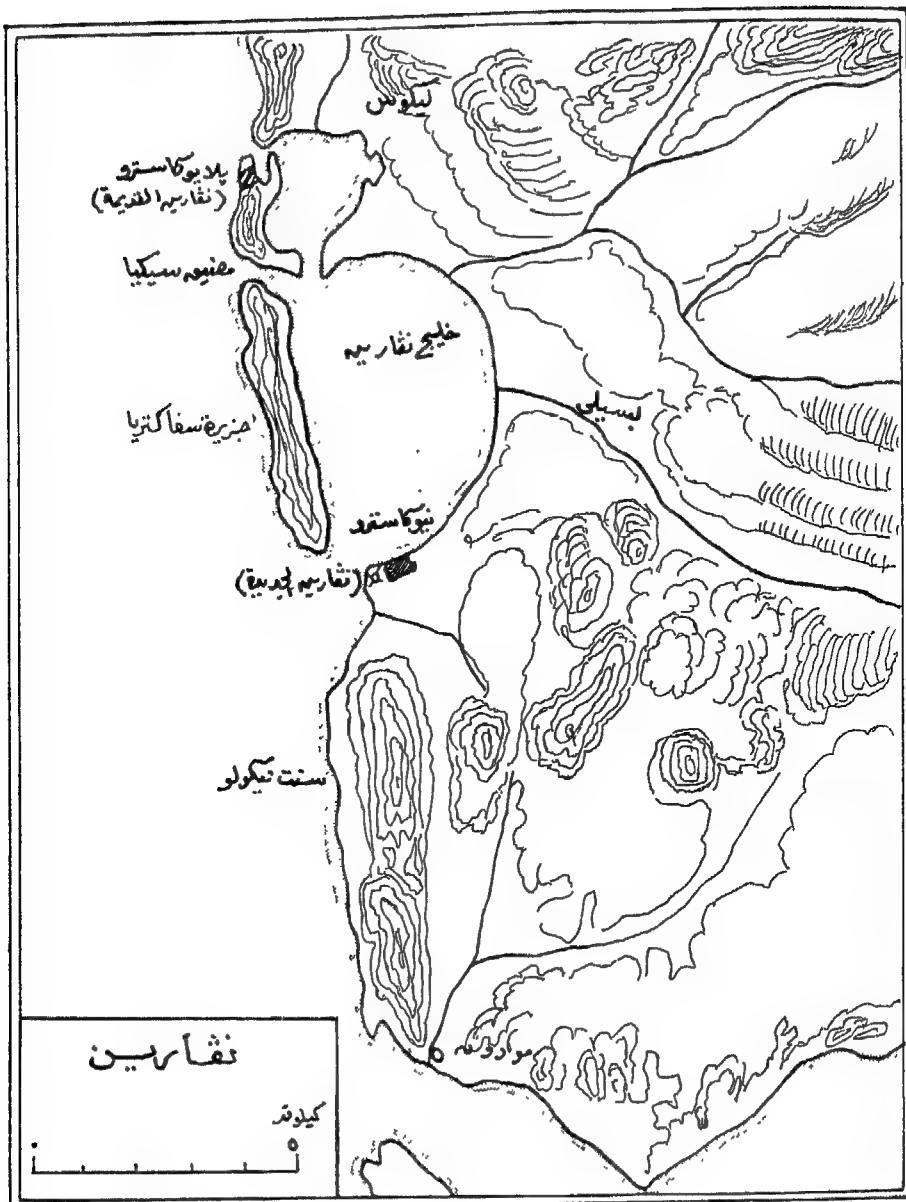
وفي ٣ مارس تقدم إبراهيم باشا بقوات كبيرة لتخليص "كورون" فأزال كل مقاومة أراد بها الثوار صده عن مواصلة التقدم وتمكن في ٥ مارس من اختراق خطوط الحصار واتصل بالقلعة وأبعد المحاصرين عنها وعسكرت جنوده تحت أسوارها أسبوعا صدوا في خلاله كل الهجمات المضادة التي وجهها إليهم أشياع اليونان وبعد أن عزز حامية هذا الموقع وزوده بما فوق حاجته من المؤن والماشية التي غنمها في غزواته عاد إلى مركز قيادته العام^(٢) .

ولقد أظهرت تلك العملية الأولى مدى قوة الجنود المصريين المشاة وأهمية الفرسان المعاونة لهم التي أزججت الثوار في الجبال وفي السهول والتي كانت دائما وأبدا تغير على مواصلات العدو فتأتى بأعمال حاسمة مفيدة وتؤثر على الروح المعنوية في قواته كما أبرزت دقة المدفعية المصرية التي كانت منظمة على أحدث النظم الأوربية وقتئذ^(٣) .

(١) كتاب مصر في القرن التاسع عشر لادوار جوان ص ٦٦٦

(٢) نفس المصدر ص ٦٦٧

(٣) كتاب التاريخ العسكري لمحمد علي وأبنائه لفيجان ص ٢٤١



ولم يمض إبراهيم باشا سوى ست ساعات فقط في مركز قيادته عاد بعدها إلى استئناف الإيغال في داخل المورة لجس نبض الأعداء في جملة من مواقعها المختلفة واستولى على بعض المواقع الدفاعية الهامة على جبل "هاجيو ديمتري" كي يقي خطوط المواصلات إلى "كورون" ثم عاد إلى "مودون" في ١٥ مارس واستراح ليوم واحد فقط سافر بعده في اتجاه الشمال الشرق لاستكشاف مدخل "مسيني" وهو الباب الغربي للمورة ولم تصادفه أى مقاومات للعدو حتى عاد يوم ٢٢ مارس إلى قاعدته .

من هذه العمليات البدائية ندرك لأول وهلة مدى استيعاب إبراهيم باشا لمبادئ الحروب فأول ما عمل عليه هذا القائد هو وقاية قواته التي أنزلت في أرض العدو فبدأ بالاستطلاع وملك ناصية المبادأة بالأعمال الهجومية فأثار الرعب في نفوس الثوار وأمن طرق مواصلاته مع قاعدة عملياته ومع "كورون" التي استولى عليها وفي كل ذلك لم يتفاض عن توفير الشؤون الادارية لقواته باستغلاله للوارد المحلية في التو واللحظة . وكل هذه الخطوات لا شك وأنها تنبئنا بمدى ما سيقومنا به إبراهيم باشا من عمليات حربية رائعة إبان هذه الحملة .

حصار نفارين :

بعد أن استولى إبراهيم باشا على "كورون" التي تحمي قاعدته من الجنوب تلقت شمالا ليقتر احتلال "نفارين" التي تعتبر أهم الموانئ في شبه جزيرة المورة لكبرها ولاعتصام الثوار بها .

وتحيط "نفارين" هذه قلعتان حصينتان على جانبي خليج نفارين الذي يبلغ عرضه من الشمال الى الجنوب ٥٥٠٠ متروطوله من الشرق الى الغرب ٣٥٠٠ متروعمقه يسمح بإيواء أكبر قطع الأسطول كما أنه يحميها ضد عواصف البحر الأيوني لوجود جزيرة "سفاختريا" عند مدخله وتوصل بعض الطرق الرملية إلى هاتين القلعتين^(١) .

(١) كتاب التاريخ العسكري لمحمد علي وأبنائه ج ١ ص ٢٤٢

أرسل إبراهيم باشا يوم ٢٣ مارس الآلايين الثالث والرابع بقيادة خورشيد بك وحسين بك ومعهما المعدات اللازمة لحصار نفارين فأسرع الثوار لنجدة هذا الموقع ولكن أورطقي عثمان أغا ويوسف أغا بادرتا بمهاجمتهم فألحقنا بهم الهزيمة عند أول اشتباك ولم يتمكن القواد اليونانيون من النجاة بأنفسهم مع بعض رجالهم إلا بشق الأنفس أما الباقون فقد قتل فريق منهم وأسر الفريق الآخر وحاولت الحامية تعزيز حركتهم فخرجت لمهاجمة القوات المصرية لكنها عندما شهدت ما حل بقوات نجدها أسرعت بالعودة إلى المدينة بعد أن تكبدت خسائر فادحة واغتنم المصريون هذه الفرصة فطاردهم حتى وصلوا بهم إلى القنطرة الممدودة على خنادقهم والموصلة لمدينتهم^(١) .

وفي ٢٥ مارس سار إبراهيم باشا ببقية قواته من مودون فعسكر أمام الأسوار التي نيط الدفاع عنها بالقائد اليوناني (نيكولاؤس) وكانت الأوامر قد صدرت إلى الثوار في المورة بالتحرك لإمداد "نفارين" فأخذ إبراهيم باشا يصعد هذه القوات كلها هاجمته مستعينا على ذلك بالأورط الثلاث التي كانت تحت قيادة مصطفى أغا وعثمان أغا وسليمان أغا^(٢) .

ولقد كانت خطة إبراهيم باشا للاستيلاء على "نفارين" تلتخص في الهجوم المزدوج على القلعتين في آن واحد. فأرسل حسين بك ومعهم أورطة من كل من الآلايين الثالث والرابع وبعض الخيالة لمحاصرة القلعة القديمة ومهاجمتها بينما يقوم هو بجيشه بأكمله بالهجوم على القلعة الجديدة بعد حصارها ولكن اليونانيون تمكنوا من إمداد^(٣) القلعة القديمة فقاومت هجوم حسين بك مقاومة شديدة .

(١) كتاب مصر في القرن التاسع عشر لادوارد جوان ص ٧٦٨

(٢) نفس المصدر .

(٣) كتاب التاريخ العسكري لمحمد علي وأبنائه ج ١ ص ٢٤٣

وبينا كان إبراهيم باشا منهمكا في حصار القلعة الجديدة فطن اليونانيون للخطر الذى سيحدث بهم لو تمكن القائد المصرى من إحكام حصاره فتقدمت قوات منهم بلغت ٣٥٠٠ مقاتل تحت قيادة الكابتن "يانى" لمهاجمته وسرعان ما أرسل إليهم إبراهيم باشا ثلاث أورط بقيادة عثمان أغا ومصطفى أغا واكل سولاي أغا فشلت شمل قوات "يانى" وأسرته مع الكثيرين من جنوده ... ولقد حاولت الحامية مرارا الخروج بقيادة "نيكولاؤس" الذى كان اليونانيون المتواردون لنصرته يعززون جانبه خارج الموقع لكن هذه المحاولات لم تجدهم نفعاً وتمكن المصريون من أسر "نيكولاؤس" نفسه في إحداها^(١).

وفي ١٩ إبريل تناهت إلى إبراهيم باشا الأخبار باحتشاد ١٠,٠٠٠ من الشوار في قرى "كريميدى" على بعد ٩ ميل جنوب "نفارين" وأنهم قد تحصنوا في ثلاث من القرى وجبلين واقعة كلها على مسيرة ١٢ كيلومترا من المعسكر فلم يتردد إبراهيم باشا في المسارعة إليهم في ٣,٥٠٠ مقاتل من وحدات الآلاى الثالث والرابع و ٤٠٠ فارس وتولى هو بنفسه قيادة الفرسان فعهد إلى عمر أغا وكوجك عثمان بمهاجمة الجبلين من جهتين متقابلتين لأنهما مفتاح الموقع وأمر باقى الجنود بمهاجمة القسرى الثلاث فلما فوجئت الجيوش اليونانية بالهجوم من كل ناحية وفي وقت واحد فشلت مقاومتها فقتل منها الكثير واستسلم الباقون وضرب إبراهيم باشا بعد ذلك كل الحصون والاستحكامات فدمرها ثم عاد الى معسكره في ٩ مايو^(٢).

وشدد إبراهيم باشا الحصار على "نفارين" ولكن قلعتها لم تستسلم لتوالى ورود الإمدادات لها من البحر وعند ذلك أيقن إبراهيم باشا بأن مفتاح الموقف في الاستيلاء على جزيرة "سفاختريا" فصمم على احتلالها وعهد بهذه المهمة إلى

(١) كتاب مصر في القرن التاسع عشر لادوار جوان ص ٦٦٩

(٢) كتاب مصر الحديثة لفولابل جزء ١٢ ص ٣٢١

سليمان (باشا) الفرنساوى فأرسل معه بلوكين من الأورطة السادسة المشاة إلى (مودوا) حيث أبحر بهما في ١٥ سفينة مسلحة^(٢) فلما علم اليونانيون بأن هذه القوة آتية لاحتلال الجزيرة عززوا حاميتها بقوات مختارة من المحاربين والبحارة ولما سارت السفن المصرية في مرمى نيران مدفعية السواحل للعدو أطلقت قلاعها النيران عليها ولكن أجابتها بالمثل بينما راحت تنزل الجنود في الزوارق فقصدها الجزيرة تحت وابل من النيران وتمكنوا من الوصول إلى البر واحتلوا الجزيرة ورفعوا العلم المصرى واستحكماتهما^(٣) وقد قتل في هذه العملية بطل اليونان "تسامادوس" وجرح سليمان با، وفر « مافركورد اتوس » وهربت بقية السفن اليونانية وبذلك تم تطهير خليج « نفارين » من الأسطول الهيلينى .

استسلام نفارين :

وفي ليلة ١٢ — ١٣ مايو هاجم ٣,٠٠٠ من الثوار مؤخرة حسين بك ولكن جنوده كانت متأهبة للقائهم بل والهجوم عليهم فشنت شملهم وفي الوقت نفسه حاول المحصورون في القلعة القديمة الزحف عليهم تحت جنح الظلام ولكن القوادى المصرية قابلتهم بنيران حامية أوقفت تقدمهم وجعلتهم يلوذون بالقلعة ثانية فطاردتهم الخيالة المصرية وفتكت بهم وأسرت الباقين فاستسلمت القلعة القديمة في ١٣ مايو^(٤) .

وفي هذا اليوم أراد الأميرال (ميلوليس) اليونانى الثأر لمقتل (تسامادوس) أغار بأسطوله على «مودون» وأشعل النيران في بعض قطع الأسطول المصرى وزادت فالرياح العاصفة في اشتعال النيران حتى امتدت إلى المدينة فدمرت بعض مخازر

(١) كتاب مصر الحديثة لفلابل جزء ٢ ص ٣٢١

(٢) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٤٣

(٣) كتاب عصر محمد على للرافى بك ص ٢٠٨

(٤) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه لفيضان ج ١ ص ٢٤٥

البارود ولكن ذلك كله لم يفت في عضد إبراهيم باشا ولم يجعله يتحول عن هدفه الأساسى بل شدد الحصار على القلعة حتى استولى اليأس على المحصورين فأرسلوا في ١٦ مايو وفدا من وجوههم يلتمسون الأمان فأمنهم إبراهيم باشا على حياتهم بشرط أن سلم إليه المدينة بقلاعها وما فيها من المؤن والذخائر والأسلحة فاستجابوا لهذه الشروط وفي ١٨ مايو سنة ١٨٢٥ دخل إبراهيم باشا وجنوده المدينة فكان ذلك أعظم الانتصارات التي تزين تاريخه الحربى وكان لسقوط "نفارين" أثر بالغ في الموقف الحربى إذ جعل اليأس يدب في صفوف اليونانيين ووطد مركز الجيش المصرى باستكمال قاعدته اللازمة للعمليات في داخل المورة^(١) .

التحليل الفنى لهذه المعركة :

لا شك وأن هذه المعركة تحتل المكان الأول من الأهمية في حملتنا هذه لأنها حجر الزاوية التي بنى عليها النجاح المستقبل ولذلك يجب علينا أن نحللها التحليل الفنى المسهب لنذكر ما فيها من روعة أعمال الجيش المصرى وعبقريه قائده الفذ إبراهيم باشا الذى تمكن من تطبيق مبادئ الحرب تطبيقا قلميا يوفق إليه أى قائد قديم أو حديث ولنتنظر الآن كيف طبق إبراهيم باشا جل مبادئ الحرب في هذه المعركة حتى أوصلته إلى ذلك النصر الحاسم السريع .

مبدأ المحافظة على الهدف :

إن أول مبدأ من مبادئ الحرب عمل إبراهيم باشا على تحقيقه هو مبدأ المحافظة على الهدف فلقد كان هدفه الأساسى الاستيلاء على نفارين ولم يصرفه عن هذا الهدف كل ما قام به الثوار من مختلف الأعمال والهجمات كما رأينا ففى كل موقف من المواقف التي هاجمته فيها قوات الثوار أو شرعت في الاحتشاد لمهاجمته لم يترك "نفارين" ويتوجه إليهم بل كان يسارع لتشتيت شملهم في الوقت الذى لا زالت

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠٨

قواته المحاصرة تشدد قبضتها على القوات المحصورة . فالأهداف المفاجئة لم تجعله يهمل هدفه الأساسي ، هذا إلى أن كارثة حرق بعض قطع أسطوله في ”مودون“ ونسف ذخيرته لم يفت في عضده ولم يصرفه عن تحقيق هدفه الأساسي فلا عجب إذا أمكنه تحقيق ما قدر رمي إليه وحصوله على النصر الحاسم في النهاية .

مبدأ ادخار القوى :

ولم تدفع رغبة تحقيق الهدف الأساسي لإبراهيم باشا إلى تجاهل مبدأ ادخار القوى فتجعله يجازف بكل قواته في حصار نفارين بل لقد عمل على تحقيق مبدأ ادخار القوى بإرساله بعض قواته فقط لحصارها واحتفاظه بقوة احتياطية كبيرة (ثلاث أوطرط وبعض الخيالة كما أسلفنا) لمواجهة جميع المفاجآت التي حاول الثوار تحقيقها بهجماتهم المختلفة التي تصدى لهم فيها إبراهيم باشا ودحرم المزة تلو الأخرى حتى أصبح هدفه الأساسي أقرب ما يكون إلى المنال بواسطة هذه العميات منه بالحصار الدائم .

مبدأ خفة الحركة :

ويدهشنا إبراهيم باشا في هذه العمليات بتطبيقه الرائع لمبدأ خفة الحركة ففي جميع الأحوال التي كانت الأنباء تصله باحتشاد قوات للعدو للقيام بهجمات مفاجئة كانت قواته المجهزة والمستعدة تهرع في خفة وإسراع إلى الذهاب بجهود العدو ودحر قواته ولقد عرف إبراهيم باشا كيف يستفيد من خفة حركة فرسانه بعمليات التطويق التي قام بها عند هجومه على جموع العدو في قرى ” كرميدى “ وأيضا في مطارداته الدائمة للقوات المنسحبة التي أمامه وكأنه في ذلك كان يحقق قول نابليون : ” أن سر الحرب هو أن تمشي إثناس عشر فرسنا وتخوض غمار المعركة ثم تمشي إثناس عشر فرسنا أخرى للطاردة “^(١) .

(١) كتاب الحرب لمحمد عثمان ص ٩٦

مبدأ المفاجأة :

ولا شك في أن أهم مبدأ استخدمه إبراهيم باشا وأتى بثماره ناضجة شمية هو مبدأ المفاجأة فأثنى علم باقتراب جيوش التخليص لم يتخبط في العمل الذى يجب أن يقوم به بل أسرع بقواته المهيأة لذلك والمتوفرة لديه كاحتياط مجهز وفاجأ تلك الجيوش التى لم تكن تتوقع هجومه مطلقا ، كما وأن بقطة قواته وقواده أخفقت الكثير من محاولة العدو مفاجأة هذه القوات تحت جناح الظلام أو فى حصرها بين هجوميين من داخل القلاع وخارجها .

مبدأ التعاون :

وأروع دليل على مدى استخدام إبراهيم باشا لمبدأ التعاون وتفهمه لأهمية هذا المبدأ جيدا هو ذلك الحصار البرى والبحرى الذى ضربه حول "نفارين" ، وأيضا تعاون مدفعيته ومشاته فى الحصار أثناء إسرعه هو وفرسانه وبعض المشاة للملاقة جيوش التخليص المتتالية ثم يتضح لنا ذلك جليا فى تعاون مشاته المحملة فى المراكب مع بحريته لإبان الهجوم على جزيرة "سفاختريا" واحتلالها ، والحق إننا لنلمس فى كل أعماله هذه روح التعاون الوثيقة المطلوبة وهى التى نادى بها "جوليود وهيت" والتي أصبحت أساسا لتنظيمات وحدات العمليات المشتركة ، ونواة لوححدات الأسطول البرية والجوية التى استخدمت فى الحرب الأخيرة .

مبدأ الوقاية :

وفى جميع عمليات إبراهيم باشا منذ وصوله إلى أرض المورة حتى سقوط "نفارين" أبرز لنا بوضوح أهمية الوقاية فعملياته الاستكشافية الدائمة وتأمينه لخطوط المواصلات الموصلة للأماكن التى احتلها ولقاعدة عملياته كانت خير دليل على عظم قيمة هذا المبدأ فهو دائما وأبدا كان يقى قواته شرم مفاجأة العدو لها أو محاصرتها وإن وقوفه فى كل آن على نيات العدو وتحركات قواته وفر لجيوشه الأمن اللازم وجعلهم يواجهون العدو أثنى فكر فى الإغارة عليهم .

مبدأ حشد القوى :

أما مبدأ حشد القوى فهو كفيل بذاته لإثبات وجوده دائماً في هذه المعارك ولأنه ليتضح جلياً في ما أقدم عليه إبراهيم باشا من حشد قواته لمحاصرة "نفارين" وفي ذهابه لملاقاة جيوش التخليص وفي مهاجمته لقرى "كرميدى" ومرافعاتها بل وفي محاصرته النهائية "لنفارين" نفسها ، حيث جمع كل قواته البرية والبحرية المتوفرة لبلوغ هدفه الرئيسى في النهاية .

تلك هى مبادئ الحرب التى نصت عليها أغلب تعليمات الكتب العسكرية الاستراتيجية وقد حققها إبراهيم باشا جميعها في هذه المعارك إلا أن الكتب العسكرية الأميركية الحديثة تضيف مبدأ آخر ألا وهو مبدأ البساطة^(١) وهذا المبدأ يعتبر من أهم المبادئ حقاً فالخطط العسكرية المبسطة دائماً وأبداً تأتى بنتائج طيبة ولا شك في أن إبراهيم باشا قد حقق هذا المبدأ إلى حد كبير جداً فخطته بأسرها كانت مبسطة ورائعة وتهدف دائماً إلى دحر العدو دون ما تعقيد في تنفيذ ذلك فهو عند نزوله في المورة لم يفكر في القيام بحركة تطويق كبيرة بإزالة قواته في جانبي شبه الجزيرة ولم تستهوه أهمية سقوط "نوبلى" عاصمة الثوار بل لجأ إلى أخذ الأمور من أبسط نواحيها وهى النزول في المنطقة التى في يد الأتراك والى تصلح لأن تكون قاعدة لعملياته ، هذا إلى أنه وضع نصب عينيه أن يعمل دائماً بقول نابليون : " فيما يختص بى فإنى دائماً أعمل على خطوط داخلية"^(٢) فلم يفكر في العمل على الخطوط الخارجية وكأنما في كل ذلك كان يحقق تعليمات "البارون جوميني" حيث قال : إن أربعة شروط ضرورية لنجاح العمليات على الخطوط الداخلية وهى :

(١) ضرورة توفير قاعدة مناسبة للعمليات تعمل منها القوات بحرية ولا تحاصر فيها .

(١) كتاب تاريخ العالم العسكرى لميتشل ص « ٦ » .

(٢) كتاب الاستراتيجية كما استخدمت في الحرب العالمية الثانية لبورن .

(٢) عدم التوسع الغير ضرورى فى هذه القاعدة حتى لا تكتسح أجنابها بسهولة .

(٣) مهاجمة أجناب العدو دون قلبه .

(٤) هزم قوات العدو المشتبك معها نهائيا قبل البدء فى عمل أى هجوم آخر

جديد .

وإن نظرة فاحصة لما قام به إبراهيم باشا خلال هذه العمليات ترينا بوضوح أنه قد قام بتنفيذ هذه التعليمات بدقة تامة فعمل على تهيئة قاعدته على مساحة مناسبة كما أسلفنا وهاجم ”كورون“ أولا حتى هزم قوات العدو وأمنها ثم اتجه إلى ”نفارين“ وطوق أجناب العدو فى حصاره ”لنفارين“ وفى هجومه على قرى ”كرميدى“ . فله دزه من قائد كان يعرف كل صغيرة وكبيرة من فنون الاستراتيجية التى لم تكن قد دوت أو نشرت تعاليمها .

الدروس المستفادة من هذه المعركة

ويستخلص من هذه المعارك بعض الدروس الهامة الآتية :

(١) أهمية القائد فى المعركة :

إن هذه المعركة قد أظهرت لنا بوضوح أهمية القائد وقدرته فى المعركة فالتعاليم الاستراتيجية تعتبره العقل المحرك لكل آلة الحرب وعلى قرارات هذا العقل وتصرفاته تتوقف النتائج النهائية لها ... ولا شك فى أن من حسن طالع القوات المصرية أن كان قائدها إبراهيم باشا الذى عرف كيف يتصرف فى كل المواقف المختلفة التى طرأت إبان هذه المعارك من هجمات جيوش التخليص والذى كان دائما وأبدا بعيد النظر وعلى جانب كبير من الصواب فى جميع قراراته .

(٢) أهمية الضبط والربط فى النيران والتدريب الجيد للجنود :

ولقد رأينا الثوار يهاجمون القوات المصرية تدفعهم فى ذلك روحهم الوطنية العالية وحماستهم المتأججة ولكن ثبات القوات المصرية وهدوئها وعدم إطلاقها

النيران حتى الوقت والمرمى المناسب أذهب بكل جهود المهاجمين وأذاقهم علقم الهزيمة ولا شك في أن هذا العمل لن يتأتى إلا من قوات مدربة بلغت الذروة القصوى في ضبط وربط واستخدام النيران وهذا من أهم عوامل النجاح في هذه المعارك .

(٣) أهمية التعاون بين القوات المحاربة :

وتبدولنا أهمية التعاون التام في تلك المعركة في ذلك الحصار البرى والبحرى على "نفارين" الذى لولاه لذهبت جهود الجنود المحاصرة هباء منثورا ولطال أمد الحصار دون جدوى طالما تصل إليها الإمدادات من البحر .

(٤) أهمية الخيالة في الأراضي الوعرة وقطع مواصلات العدو :

وتبرز لنا الخيالة في هذه المعارك لترينا أهميتها في الأراضي الوعرة وخفة حركتها في تطويق أجناب العدو وقطع خطوط مواصلاته وذلك ما لم يغفله إبراهيم باشا بل لقد رأيناها يقودها بنفسه في مهاجمة قوات العدو بقرى كرميدى والمرتفعات العالية بها .

(٥) أهمية المطاردة :

ولا شك في أن أعظم درس مستفاد من هذه المعارك هي أهمية المطاردة فقد قال نابليون : "الانتصار لا يعد شيئا إذ يجب إتمام وتعزيز هذا النصر بالمطاردة"^(١) وهذا ما اتبعته قوات إبراهيم باشا دواما إذ كان ديدنها دائما وأبدا مطاردة العدو المنسحب وقد رأينا ذلك في كل عملية كبيرة أو صغيرة خلال هذه المعارك .

الروح التى خاض بها إبراهيم باشا غمار هذه المعركة

ولقد يتساءل بعض الباحثين عن السر في عدم إصدار إبراهيم باشا أوامره المباشرة منذ بدء الحصار بالاستيلاء على جزيرة "سفاختريا" وقد يعزرون ذلك إلى أنه قد غاب عنه أن هذه الجزيرة هي مفتاح الموقف مدى تلك الأسابيع الطويلة التى أمضيت في الحصار . ولكن لا شك في أن هذا لم يغيب عن ذهن إبراهيم باشا مطلقا

وإنما هو قد آثر ألا يلجأ إلى العنف والبطش والشدة والضربات الحاسمة القاصمة في أول معركة له بسبب أوامر والده له التي قد أوردنا بعضها فيما سبق . هذا إلى أنه كان يتوقع استسلام الثوار من الروح التي قد قبل بها في ”مودون“ ومما تنهى لأسماعه من الآثار السيئة التي فعلها المال الذي أحضره وإياه اللورد ”بيرون“ وليس أدل على ذلك مما ذكره لوثرني في كتاب ”ذكريات عن اليونان“ عن هذه الآثار الذي استنتج منها أن إبراهيم باشا لم يكن يستحيل عليه أن يصل إلى نفارين بشرائه ضمائر اليونانيين إلى أن قال : ”ولو تم له ذلك لنادى به السكان واليا على المورة ولأعلن هدنة عامة لإرضاء لليونانيين الذين استسلموا له ويؤيد رأيي هذا ما شهدته بنفسى في سهول مودون فقد رأيت الفلاحين اليونانيين يقبلون يد إبراهيم وهو يأمرهم بالانصراف قائلا لهم : ”أبلغوا الناس جميعا أنى أبوكم وأننى لن أقسو إلا على العصاة^(١) الثائرين“ فهذه هى الروح التي خاض بها إبراهيم باشا هذه المعركة وإنما لنرى أن الحامية كادت تستسلم له في أول الأمر لولا هروء جيوش التخليص لها فهذه الفكرة الهامة لم تفت ولا شك تفكير ذلك القائد الفذوها نحن رأيناها عندما اشتدت مقاومة الثوار صمم على تنفيذها وحصل عليها فى التو واللحظة وقسى على العصاة الثائرين كما أعلن من قبل .

مهاجمة السفن اليونانية لسواحل مصر :

وتطالعنا هذه الحملة ببعض أعمال تشير فى النفوس الدهشة لوقوعها فى ذلك العهد لأنها تشبه إلى حد كبير أعمال إغارات ”الكومندوز“ فى الحرب الأخيرة فلقد استهدفت السواحل المصرية فى خلال تلك الحملة لقرصنة السفن اليونانية التى أحفظها اشتراك مصر فى الحرب فأقبلت فى شهر يونيو ثلاث من حراقات اليونان إلى بوغاز الاسكندرية ودخلت واحدة منها إلى الميناء أمام طابيزة ”صالح“ وأشعلت النار فى نفسها تريد بذلك حرق الأسطول المصرى الذى كان راسيا أمامها وهذه طريقة

(١) ص ٦٧ من كتابه هذا .

قد اشتهرت بها الحراقات اليونانية ودمرت بها الكثير من السفن العثمانية ولكن حراس القلعة بادروا بإطلاق المدافع على السفينة اليونانية وبادرت السفن الحربية المصرية إلى إرسال زوارقها المسلحة بالمدافع فهاجمتها وأنحدرت ناراها وبرهنت في تلك الحركة على مهارتها ويقظتها فلما رأت السفينتان الأخرى أن ما حل بالأولى لاذا بالفرار ولما علم محمد على باشا بهذه المحاولة الجريئة أصدر أمره إلى محرم بك أميرال الأسطول المصرى ووكيله بلال أغا بالخروج مع خمس سفن حربية لتعقب الحراقتين اليونانيتين وخرج محمد على باشا بصحبة هذه الحملة على ظهر السفينة الحربية (جناح بحرى) ولكن الحملة لم تسطع اللحاق بالحراقتين وقد تابع محرم بك تحواله بالأسطول حتى بلغ مياه ” رودس “ حيث كانت السفن اليونانية راسية هنالك فلما أبصرت الأسطول المصرى لاذت بالفرار وأقلعت إلى مياه الأرخبيل^(١) .

ومن تلك الحادثة العابرة ندرك مدى ما كان عليه هؤلاء الثوار من قوة وقدرة على التفكير ونحكم على مدى عبقرية إبراهيم باشا لتمكنه من الانتصار السريع عليهم وعلى يقظه القوات المصرية في كل آن .

الموقف العام بعد هذه المعركة :

ولقد أحس الثوار بعد هذه الموقعة بخرج موقفهم فإنهم بالرغم من تمكنهم من تهريب بعض رجالهم ومدفيعتهم وذخيرتهم بواسطة المراكب البريطانية والفرنسية إلى ” كالاماتا ومسينى “ فان ” بيوتى “ كانت مهددة بالأتراك وفى ” ميسولونجى “ مات ” ييرون “ . فهرع الكثير من اليونانيين الذين فى الخارج إلى بلادهم ليدافعوا عنها وأفرجوا عن القائد ” كولوكوترونىس “ الذى كان فى السجن فى ” هيدرا “ لاتهامه بتبديد بعض الأموال لكن وصوله للورة جاء متأخرا إذ أصبحت الأرض التى شهدت نصر ” الأرجوس “ و ” الإسبارطيين “ و ” كورنث “ تحت رحمة قائد الجيوش المصرية إبراهيم باشا^(٢) .

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢١٠

(٢) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٤٧

الفصل الخامس

تابع المرحلة الثانية

٢ - احتلال المورة

تطهير بيليا : (أنظر خريطة رقم ١)

بعد أن حصل إبراهيم باشا على موقع إستراتيجي محصن بثلاث فلاع (مودون — نفارين — كورون) في "بيليا" صمم على اختراق البلاد واحتلال أراضيها ثم السير إلى "تريبوليتسا" العاصمة القديمة للسنجق التي سقطت في أيدي الثوار في ٥ أكتوبر عام ١٨٢١ ولكن قبل تقدمه رأى أن يطهر "بيليا" تماما من الثوار فاتبع تكتيكات رائعة في تقدمه وهي أنه كان يدفع بقولات الخيالة أمام مشاته لتسبقها باحنة عن العصابات فإذا عثرت على بعضها عملت على قطع مواصلاتها من الخلف وعزلها حتى إذا حاولت الانسحاب ضيقت عليها الخيالة الخناق أما إذا ثبتت في مواقعها هاجمتها المشاة من الأمام بينما تطوقها الخيالة من الأجناب وتحاصرها من الخلف فيقضي عليها . ولقد نجحت هذه التكتيكات فهاجا باهرا فأزالت الكثير من مقاومة العصابات اليونانية وطهرت "بيليا" من الثوار فبدأ إبراهيم باشا في تحقيق تقدمه إلى "تريبوليتسا" (١) .

حشد قواته في نيسى :

ولقد جعل إبراهيم باشا بلدة "نيسى" الواقعة شمال شرق "كورون" على الشاطئ الأيمن لنهر "يرماتزا" مركزا لحشد قواته من مختلف الميادين حتى يتمكن من التقدم بها إلى داخل البلاد .

تأمين خطوط مواصلاته قبل الزحف :

ولم يقف إبراهيم باشا مكتوف الأيدي خلال إتمام ذلك الحشد بل تقدم ومعه

(١) كتاب التاريخ العسكري لمحمد علي وأبنائه ج ١ ص ٢٤٩

١٥٠٠ مقاتل قاصدا ممر "ليوندارى" وهو أحد منافذ هضبة "أركاديا" الذى يجرى فيه نهر "ألفى" وكان يحتله (البابا فلشياس) من الهتيرى ومعه بعض رجاله الأقوياء لمنع تقدم المصريين لاحتلال قلب "أركاديا" وليتدد خطوط مواصلاتهم إذا تقدموا جنوبا فى "تايجيت" فصمم إبراهيم باشا على الاستيلاء على ذلك الموقع الاستراتيجى الهام فهاجم عصابات "فلشياس" فى ١٠ يونيو بتكتيكاته المعتادة الرائعة فهزمهم بعد مقاومة عنيفة دامت لست ساعات . وبعد أن فتح إبراهيم باشا ذلك الباب الموصل "لأركاديا" حصنه وأسند حراسته لبعض قواته ثم عاد إلى "نيسى" حيث تم حشد قواته فأمر بالتحرك بعد ثلاث ساعات إلى "كالاماتا" .

فتح كالاماتا :

تقع "كالاماتا" على الشاطئ الأيمن لنهر "برماترا" وكان "بترو" القائد العام للشوار فى تلك البقاع قد حشد فيها ٤٠٠٠ مقاتل وحصن مواقعه وحفر الخنادق حولها فهاجمه إبراهيم باشا فى الحال بثلاث آلايات وفرقة من الفرسان ولم يكد اليونانيون يبصرون بالجنود المصرية حتى ولوا الأدبار لما تناهى إلى أسماعهم من أنباء عن هزيمة "فلشياس" وقواته فأرسل إبراهيم باشا فرسانه خلفهم فطاردتهم وقتلت نحو ٥٠٠ منهم وأحرقت بعض القرى منها "كتيريا" بلدة "بيثرو" واستولى على الميناء .

وفى اليوم التالى حاصر ٢٠٠٠ من الثوار فى دير بلدة "فلاميديا" القائم على أكمة عالية فاستولى عليه وأسرههم .

الاستيلاء على تريبوليتسا :

وفى ١٨ يونيو تقدم إبراهيم باشا فعب سلسلة جبال "تايجيت" وسار إلى "تريبوليتسا" عاصمة جزيرة المورة فتر بعض الجيش بإقليم "أركاديا" والبعض الآخر بإقليم "ليوندارى" فخرّب القولان فى طريقهما قريتي "كالافيا وبولاكى" وكان

سليمان بك وحسين بك ورشوان أغا يمحون إبراهيم باشا في زحفه وصعوده في الجبال وقد صعدوا فيها معه للاستطلاع وكان "كولو كوترونييس" و "بتركو" قد تحصنا بقمة جبل (تركي خورا) لمقاومة الجيش المصري . ووقف إبراهيم باشا على نيتهما فانقض عليهما ودحرهما ودمر استحكاماتهما وقتل خمسمائة من رجالهم ومنهم الجنرال "بتركو" وما أقبل المساء حتى انضم إبراهيم باشا إلى جيشه الأساسي .

وفي ١٩ يونيو تاهب للزول في سهل "ليونداري" وعلم أن الأعداء ينصبون له كميناً فأنفذ إليهم فصيلة دحرتهم وكان "كولو كوترونييس" قد اتخذ له في النقط الخلفية موقعا منيعا لكن جنوده لم تجرؤ على البقاء فيه خيفة أن يدهمهم إبراهيم باشا فينكل بهم ولذا فروا على وجوههم في الجبال لا يلوون على شيء وبذلك بات الطريق مفتوحا للجيش المصري فدخل في ٢٣ يونيو وفي طليعته إبراهيم باشا مدينة "تريبوليتسا" بعد أن هجرها سكانها وأشعلوا فيها النار^(١) .

ولم يستم إبراهيم باشا إلى هذه الانتصارات السريعة فقرر على الرغم من المشاق التي كابدها جيشه في المواقع الأخيرة أخذ (نوبلى دى رومانيا) التي اتخذها الثوار عاصمة لهم فترك لهذا الغرض في عاصمة المورة جيشا احتياطيا قويا وتحرك في ٢٥ يونيو في قوة مؤلفة من ٥٠٠ فارس وأورطة مشاة وبعض المدفعية والهاون فوصل في اليوم الثالث من زحفه إلى سهل "أرجوس" حيث أحرق كل ما فيه من أشجار الزيتون ثم انقض على طواحين "نوبلى" التي كانت في حراسة "إسلانتى" و ٣٠٠ من جنوده المشهورين باسم (الباليكار^(٢)) قترامت القنات بالثيران وتصنع إبراهيم باشا حركة رجعية قصد بها إلى استدراج العدو في طريق "تريبوليتسا" فكانت هذه الخدعة بالنجاح واستولى على جميع مواقع الأعداء ثم استأنف السير حتى عاد إلى معسكره في ٣٠ يونيو

(١) كتاب مصر في القرن التاسع عشر لاد وارد جون ص ٦٧٩ .

(٢) نفس المصدر .

توفير المؤن وتنظيم الشؤون الإدارية :

وأول ما اهتم به إبراهيم باشا عند عودته إلى عاصمة المورة هو تدبير الوسائل اللازمة لإقامه جنوده بها في فصل الشتاء فحصد ودرس ما لم يتيسر للأهالى أن يحصدوه أو يدرسوه من الحبوب ونقله على الخيل التي غنمها منهم إلى المخازن والمستودعات ولكي يضمن للعمال الذين قاموا بهذه الأعمال الأمن على حياتهم بث الداوريات حولهم للاستطلاع وكان يختلف دائماً إلى النقط الأمامية منها ليشرّف بنفسه على أحوالها وقاد بعض الدوريات الحاربة بنفسه ومعه فرسان حسين بك لأخذ الطواحين اللازمة لطحن الحبوب المحصودة فقاتل الثوار واستولى على ما أراد^(١).

احتلال بتراس :

وفي ٢٧ يوليو عرج إبراهيم باشا على وادي "لكونيا" حيث كان الثوار يربطون في معاقلهم فهزمهم واستولى على استحكاماتهم ثم احتل "بتراس" وبذلك صار شبه جزيرة المورة في قبضة الجيش المصري عدا مدينة "نوبلي" عاصمة الحكومة الثورية فأخذ يتأهب لحصارها^(٢).

الموقف في نهاية عام ١٨٢٥ :

لقد أصبحت شبه جزيرة المورة بأسرها في يد إبراهيم باشا عدا "نوبلي" ولكن كان الثوار يزعمون معسكراته بمناوشاتهم وهجماتهم الجزئية فأرسل إبراهيم باشا إلى محمد علي باشا في طلب إمدادات له فجهز له عاهل مصر الآلايين السابع والثامن بقيادة حسن بك وحسين بك للإبحار إلى "نفارين" وبرفقتهم بلوكين من المهندسين وقوة كبيرة من الفرسان ومدفعية حصار وجبلية فبلغت القوة في تعدادها جميعا ١٠,٠٠٠ وصلته في ١٠ يناير عام ١٨٢٦^(٣).

(١) نفس المصدر ص ٦٨١

(٢) كتاب عصر محمد علي للرافعي بك ص ٢١١

(٣) كتاب التاريخ العسكري لمحمد علي وأبنائه ج ١ ص ٢٥٤

التحليل الفني لهذه المعارك

لا شك وأن هذه المعارك الخاطفة التي قامت بها القسوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا تثير دهشتنا . ففي أقل من شهرين من بدء زحفها إلى داخل المسورة احتلت كل أراضيها وبلادها عدا "نوبلى" ومثل هذه النتائج لا تتأتى إلا من خطط رائعة قد أحكم تدبيرها ونسق تنفيذها فأنت بأكلها سرية شمية . والحق إنه بتقرير إبراهيم باشا جعل جميع عملياته على الخطوط الداخلية كإبليسون ضمن وقاية قواته وخطوط مواصلاته وتمكن من التقدم يمتة ويسرة بالتوالى حتى لا يعرض أجنبائه للعدو مطلقا فباحتلاله "كالاماتا" ثم "أركاديا" و"تريوليتسا" و"أرجوس" ثم "تيراس" تمكن من الحصول على نصر سريع بفضل تجميع قواته واستخدامه لأصول الحرب في كل معاركه ولننظر كيف طبق إبراهيم باشا مبادئ الحرب في هذه المعارك :

(١) مبدأ المحافظة على الهدف :

قال نابليون : "إنى لأرى دائما شيئا واحدا وهو جيش العدو الرئيسى" والحق إن الهدف الأساسى لأى جيش مهاجم هو قوات العدو وليست الأهداف الجغرافية كعاصمة مملكته لأنه إذا هزمت تلك الجيوش إنهارت مقاومة العواصم^(١) ولقد كان هدف إبراهيم باشا خلال هذه المعارك قوات العدو المختلفة فأنى وجدت هذه القوات هاجمها ودحرها ولم يلق بالالعاصمته "نوبلى" إذ أنه كان موقنا من الاستيلاء عليها بعد تهيبته للفرص المناسبة ، هذا إلى أن انتصاره على قوات العدو أنى صادفها في المورة أوصلته إلى احتلال المورة بأسرها عدا "نوبلى" كما رأينا .

(٢) مبدأ القتال التعرضى :

ولقد حرص إبراهيم باشا طوال حروبه في المورة على الاحتفاظ بالمبادأة وهذه لا تتأتى إلا بالقتال التعرضى دواما ففي جميع عملياته هذه كان رائده الهجوم المستمر

(١) كتاب فن الحرب على الأرض لبورن ص ١٢

على قوات العدو لإجلالها عن مواقعها التي لو تحصنت فيها ودافعت عنها دفاع المستميت لعرقلت تقدم قواته وهذا الهجوم قد شبط روح العدو المعنوية بفعله يفتر من أمام قواته إذا سمع باقترابها وبذلك حقق له النصر السريع .

(٣) مبدأ خفة الحركة :

ولا شك في أن هذا القتال التعرضي المستمر لم يكن ليصبح طوع بنان إبراهيم باشا لولا توفيره التام لمبدأ أخفة الحركة لقواته فباتباعه لتلك التكتيكات الرائعة ، التي سبق أن أشرنا إليها ، أعطى وحداته قوة دافعة جعلتها تسير من نصر خاطف إلى آخر سريع إذ استخدم كل سلاح فيما هو أهل له فعرف كيف يستفيد بخصائص كل سلاح وأمكنه الاستعانة التامة بخفة حركة الخيالة التي لم تقتصر أعمالها على تطويق أجناب العدو وقطع خطوط مواصلاته فقط بل لقد دأبت دواما على مطاردة فلوله الهاربة لتوقع الخسائر الفادحة في صفوفها .

(٤) مبدأ الوقاية :

ولما لا نجد مبدأ حظى بعناية إبراهيم باشا كمبدأ الوقاية فهو في كل أعماله هذه كان يطبقه التطبيق الرائع المنتج فباستكشافاته السريعة الدائمة كان يوفر الوقاية لقواته المتقدمة وبثأمينه لخطوط المواصلات قبل التحرك كان يثبت صمام الأمن الذي يعطى لقواته الحرية في العمل باطمئنان وبدفعه للدوريات المحاربة باستمرار كان يبق قواته من أى عمل مفاجئ يخفيه له العدو .

(٥) مبدأ حشد القوى :

ولقد حرص إبراهيم باشا في جميع أعماله في المورة على تطبيق مبدأ حشد القوى فقبل بدء تقدمه حشد قواته كما أسلفنا في "نيسى" وفي كل معركة من المعارك التي خاضها كان يوفر القوات اللازمة لإحراز النصر فيها وإننا لنندس ذلك في أنه لم يضطر لإمداد أى قوات قد دفعت لأى معركة إذ كانت القوات المحشودة دائما وأبدا كافية لدحر العدو ومطاردته .

(٦) مبدأ المفاجأة :

ولقد حققت خفة حركة قوات إبراهيم باشا واستخدامه لها الاستخدام المنتج مبدأ المفاجأة دوماً في هذه المعارك . فدائماً وأبداً كانت قواته الخفيفة تقطع خطوط مواصلات العدو فتفاجئه بظهورها خلف قواته ولقد بلبل إبراهيم باشا أفكار الثوار باتخاذهم تلك الخطة السريعة في الهجوم التي كانت في أهدافها تتجه يميناً ثم يسرة دون أن يقف العدو على نواياه فكانت هذه سلسلة من المفاجآت لقوات العدو جعلتها تستسلم لقوات إبراهيم باشا أنى ظهرت أمامها .

(٧) مبدأ التعاون :

كما وأن قوات إبراهيم باشا قد حرصت على تطبيق مبدأ التعاون بين أسلحتها المختلفة حرصاً كبيراً فالفرسان والمشاة باتباعهم لتكتيكات إبراهيم باشا، التي لا تختلف عن تكتيكات الجيوش الحديثة الآن في شيء كانوا يظهرون مدى أهمية التعاون بين الأسلحة المختلفة في إحراز النصر السريع .

الدروس المستفادة من هذه المعارك

ومن هذه المعارك نستخلص الدروس الهامة الآتية :

(١) أهمية تأمين قاعدة للعمليات :

لقد أوضحنا لنا هذه المعارك أهمية وجود قاعدة مؤمنة للعمل منها لإبراهيم باشا باتخاذهم "بيليا" قاعدة له أمن خطوط مواصلاته وسهل تحركاته لعملياته وبذلك تم له اكتساح قوات الثوار في شبه جزيرة المورة في هذه الفترة القصيرة . والحق إن أهم ما يرمى إليه أى قائد ينبغي القيام بعمليات سريعة هجومية هو أن يؤمن قاعدة لقواته حتى يمكنه العمل بحرية وفي طمأنينة تامة .

(٢) أهمية اتخاذ قوات العدو دون المواقع الجغرافية هدفا للهجوم :
ولقد أبانت لنا هذه المعارك أهمية اتخاذ قوات العدو هدفا للهجوم دون التفكير في الاستيلاء على المواقع لإبراهيم باشا في احتلاله للورة كان هدفه الأساسى قوات الثوار كما أسلفنا فأنى وجدها دحرها وأوصله ذلك للاستيلاء على البلاد الهامة بل إن الثوار يجزء علمهم بأنه قد اقترب من ” تريبوليتسا “ هربوا منها وذلك لأنهم عرفوا مدى قوته فى مهاجمة قواتهم المختلفة التى صادفته .

(٣) أهمية خفة الحركة فى الهجوم والمطاردة فى الأراضى الجبلية :
وأبرزت لنا هذه المعارك أهمية خفة الحركة فى الهجوم والمطاردة فى الأراضى الجبلية والوعرة لإبراهيم باشا بتوفيره خفة الحركة لقواته بفضل تنظيماته لها وتأمينه لخطوط مواصلاته واستخدامه للتكتيكات الرائعة أمكنه القيام بذلك العمل الهجومى الدائم ومطاردة فلول الثوار أنى هربوا فنجح فى احتلال كل شبه الجزيرة الجبلية تقريبا فى ذلك الوقت القليل .

(٤) أثر الروح المعنوية فى القتال :

وتوضح لنا هذه العمليات مدى أثر الروح المعنوية فى القتال فالثوار فى كل هذه المعارك لم يصمدوا للقوات المصرية المهاجمة لانهايار الروح المعنوية فيهم ... لقد كانت طبيعة الأرض وتعذر طرق المواصلات فى الجبال خير معين لهم على عرقلة تقدم القوات المصرية ... بل إن المنافذ المختلفة للهضاب والطرق كانت أفضل أعناق للزجاجات التى تمكنهم من إيقاف تحرك القوات المصرية ولكنهم لم يصمدوا أمام أى هجوم سريع أقدم عليه إبراهيم باشا وذلك لضعف الروح المعنوية فيهم بل ها نحن نراهم أمام ” تريبوليتسا “ يهربون منها ويشعلون فيها النيران .

(٥) أهمية الاستكشاف وتأمين خطوط المواصلات :

ويطالعنا إبراهيم باشا في هذه العمليات بدرس رائع هو أهمية استكشاف القائد بنفسه لمسرح عملياته وتأمينه لخطوط مواصلاته فبمراعاته لهذا العمل الحربى الضرورى طوال حملته أمكنه أن يؤمن قواته من شرور مفاجأة العدو لها وأمكنه الحصول على الكثير من المعلومات التى أفادته فى هجماته المفاجئة على قوات العدو .

(٦) أهمية توفير المطالب والشئون الإدارية محليا للوحدات :

وأخيرا يضرب لنا إبراهيم باشا أروع المثل على ما يجب أن يعمل عليه كل قائد لتوفير مطالب وحداته وتنظيم شئونها الإدارية فى كل آن حتى ولو كان ذلك محليا ... لقد كان دائما وأبدا يعمل على سد مطالب وحداته بل ها نحن قد رأيناه يعمل على توفير المؤن لهم ويحمى العمال أثناء الحصاد بل ويقا تل من أجل الطواحين وذلك ليقينه بصدق قول « نابليون » : "إن الجيوش تسير على بطونها" فبتوفيره كل الشئون الإدارية لوحداته تمكن من حفظ روحهم المعنوية وجعلهم دائما وأبدا صالحين لكل الأعمال الحربية المطلوبة منهم .

الفصل السادس

تابع المرحلة الثانية

٣ — فتح ميسو لونجى وأئينا

حالة الأتراك أمام ميسو لونجى :

فى الوقت الذى كانت فيه قوات إبراهيم باشا تنتقل من نصر إلى فوز فى أنحاء المورة كان محمد رشيد باشا المعروف بكوتا هية نسبة إلى وطنه كوتا هية بالأناضول قد فت فى عضده اليأس من استيلائه على "ميسو لونجى" إذ سبق له أن رفع عنها

الحصار هو والأميرال عمر يونس في ١٣ يناير سنة ١٨٢٤ بكيفية الصقت به العار ، إذ تحدته القوات اليونانية واضطرته إلى فك الحصار ولما أيقن السلطان بتردده في الاستيلاء عليها أنفذ له أوامره في كلمتين ” إماميسولونجي وإما رأسك “ فعاود مهاجمتها عام ١٨٢٥ ولكن باءت كل هجماته بالفشل وهنا لم يجد أمامه سوى الاستنجاد بإبراهيم باشا^(١) .

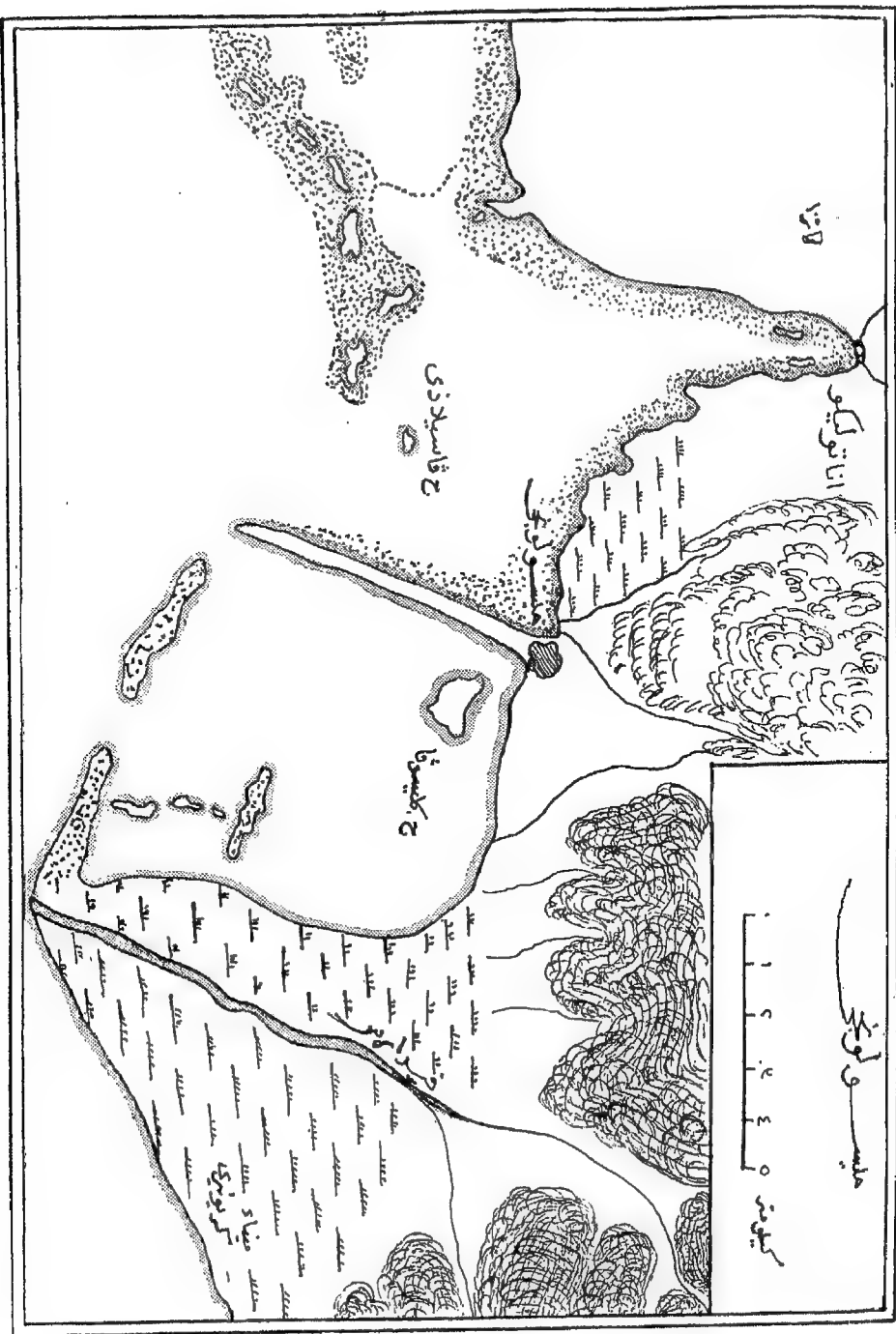
مسارعة إبراهيم باشا لنجدته :

ولقد وصل استنجاد رشيد باشا هذا إلى إبراهيم باشا في الوقت الذي وصلته الإمدادات من محمد علي باشا فعدل مؤقتا عن مهاجمة ” نوبلي “ وسارع لنجدة رشيد باشا لأهمية ” ميسولونجي “ إذ أن مصيرها باعتبار أنها عاصمة اليونان الغربية يؤثر ولا شك تأثيرا قاطعا في مصير شبه الجزيرة كلها ، هذا إلى أن هذا الثغر على مقربة من الفتحة الشمالية لخليج ” ليانت “ وكانت تصل منه إلى أهل ” سولي “ مهمات القتال الضرورية كما أنها كانت تيسر سبل الاتصال بالبحر المشايعة لليونان في أوربا^(٢) .

سار إبراهيم باشا ومعه ١٨ أورطة نظمها من آلاياته الست بلغت قوتها ١٠,٠٠٠ مقاتل و ٥٠٠ فارس إلى ” باتراس “ وعبر الخليج مبحرا إلى ” ميسولونجي “ في فبراير عام ١٨٢٦ بعد أن ترك في المورة باقي قواته في حامياتها المختلفة وأسلم القيادة فيها للكولونيل سيف (سليمان باشا) الذي اتخذ ” تريبوليتسا “ مقرا له واشترك إبراهيم باشا مع رشيد باشا في حصار ” ميسولونجي “ ولكن ذلك لم يفت في عضد الثوار بل هاجموا المحاصرين لهم واصطنعوا الانسحاب أمامهم فسارعت القوات المصرية كدأها لمطاردتهم ولكنهم أوقعوهم في منطقة قد بثوا فيها الألغام الأرضية فكبدتهم خسائر فادحة . ووقعت بعد ذلك معركة أخرى مماثلة لها خسر فيها المصريون ثلثائة مقاتل^(٣) .

(١) كتاب مصر في القرن التاسع عشر لادوارد جوان ص ٦٨٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٨٦ . (٣) نفس المصدر ص ٦٩١ .



خطة إبراهيم باشا للاستيلاء على ميسولونجى :

عند ذلك بدأ إبراهيم باشا يستكشف الموقع بنفسه وبمعاونة السنيور "رومينى" الإيطالى ثم قرر أن خير وسيلة لإلزام "ميسولونجى" على التسليم هى المجاعة فقترر سبل المسالك الموصلة إليها من ناحيتى البر والبحر وهذه المواقع هى : إيتوليكا، فاسيلادس، كايثوفا (أنظر الخريطة رقم ٣) وقد كان القواد الأتراك قد أهملوا احتلال هذه المنافذ فتمكنّت قوات إبراهيم باشا من احتلالها بعد مقاومة شديدة وبذلك شتد الحصار على الميناء .

سقوط ميسولونجى :

ولقد أراد إبراهيم باشا كدأبه دواما فى هذه الحملة أن يتفادى أهوال القتال وسفك الدماء فطلب من المدينة التسليم ولكن أهلها أبوا وأجمعوا أمرهم على المقاومة حتى النهاية مهما كلفهم ذلك من تضحية وأرسلوا إلى القائد اليونانى "كرايسكاكى" وكان على مقربة من المدينة بأنهم قد عزموا على الخروج جميعا فى ليلة ٢٢ إبريل عام ١٨٢٦^(١) وطلبوا إليه أن يهاجم الجيش المصرى من الخلف فى تلك الليلة كي يشغله بهجومه فلا يفتن لخروجهم فلما أقبل "كرايسكاكى" فى ذلك الموعد كان إبراهيم باشا له بالمصايد إذ وضع على قمم الجبال فرقة من جيشه لتحول دون تقدّم المدد المنتظر وصوله لتعزيز الحامية المحصورة ومن جهة أخرى لتصد هذه الحامية إذا خرجت من "ميسولونجى" فلما خرجت هذه الحامية فى الوقت المعلوم فى هدوء وسكون مستترين فى جنح الظلام قابلهم الجيش المصرى بنيران حامية حصدت صفوفهم فارتدوا إلى المدينة فى غير نظام فطاردتهم القوات المصرية حتى دخلت فى أعقابهم ودحرتهم .

ولما ضاقت السبل بالبقية الباقية من المدافعين اجتمعوا فى مستودع الذخائر وكان عددهم نحو ألفين ما بين شيوخ وأطفال ونساء وقد اتفقت كلمتهم على إيثار

(١) كتاب مصر الحديثة لفلوایل ج ٢ ص ٣٥١

الموت على التسليم فوضعوا البارود وأشعل رئيسهم النار فانفجر وخر المكان على من فيه وقتلوا جميعا . ولقد تكبد المصريون في فتح المدينة خسائر جسيمة إذ بلغ عدد قتلاهم في الهجمة الأخيرة فقط نحو ألفي قتيل^(١) .

حصار أثينا :

وبعد فتح "ميسولونجي" انفصل الجيش المصرى عن التركى فعاد إبراهيم باشا إلى المورة وقصد الجيش التركى مدينة أثينا لفتحها ولم يكن بها من القوة ما يكفى لصدد هجماته فبادر القائد اليونانى "كرايسكاكى" والكونيل "فافييه" الفرنسى إلى نجدة المدينة ولكن رشيد باشا أحكم حصارها وما زال يشتد الحصار حتى سلمت في يونيو^(٢) عام ١٨٢٧

التحليل الفنى لمعركة ميسولونجي

إن أهم ما يسترعى الانتباه فى الاستيلاء على "ميسولونجي" هو صمودها لأكثر من عامين أمام القوات التركية ثم انهيارها أمام قوات إبراهيم باشا فى أقل من ثلاثة أشهر ... وليس مرد ذلك إلى ضعف القوات التركية بل هو يرجع فى الحقيقة إلى قوة وصلابة مراس المدافعين عن "ميسولونجي" فلقد رأينا العجب العجيب من إصرارهم على المقاومة بل والانتحار عند التسليم وليس أدل على ذلك مما جاء فى خطاب رشيد باشا إلى إبراهيم باشا عندما استنجد به فقد نعمتهم بأنهم سحرة لا يهزمون . وهنا ينحصر لنا ذلك السؤال المحير كيف تمكن إبراهيم باشا من إخضاعهم فى تلك الفترة القصيرة؟ والإجابة عليه لا شك وأنها واضحة وسهلة وميسورة إنها تتلخص فى عبقرية القائد ونظرتة الفاحصة وتقديره الذى لا يخيب .

(١) . كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢١٢

(٢) نفس المصدر .

(٣) راجع ذلك الخطاب فى كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوارد جوفان ص ١٨٥

لقد خبر إبراهيم باشا بنفسه الموقف أمام "ميسولوجي"، وحاول الاستيلاء عليها بحصارها حسب خطة رشيد باشا، ولكنه سرعان ما أدرك بأن هذه الخطة لن توصله إلى النصر السريع المطلوب، فالحصار الذي كان مضروبا عليها لم يكن بالحصار الحق الذي يجعل هؤلاء المستميتين في الدفاع أن يستسلموا إذ كانت المؤن والعتاد والذخائر تصلهم، وكانت الألغام مبنوثة حول معقلهم، بل إنهم حذقوا دروب الخديعة أيضا، فكانوا يهاجمون الوحدات المحاصرة ويتظاهرون أمامها بالانسحاب والانزهاج، فتندفع وراءهم القوات المصرية التي ديدنها المطاردة السريعة لتظهر بهم، ولكنها سرعان ما تجد نفسها وسط حقول الألغام التي تتمد بالأرض من تحت أقدامهم، وهنا أيقن إبراهيم باشا بأن حل هذا الموقف الشائك في يده هو، فقام بالاستطلاع الدقيق بنفسه، وسرعان ما لمعت الفكرة الصحيحة في ذهنه المتوقد بالذكاء، لقد عرف أن مفتاح الموقف في احتلال "إيتوليكافاسيلادس وكليسوفا"، وهى المسالك البرية والبحرية التي تذهب بالحصار المضروب من البر ومثلها في ذلك مثل جزيرة "سفاختريا" في معركة "نفارين"، فصمم على احتلال هذه المسالك، وبذلك أصبح للحصار المضروب قوة منتجة جعلت القوات المحاصرة في الداخل تسعى إلى الخروج من معقلها للقتال حيث دارت عليهم الدائرة. ولا شك في أن نجاح خطة إبراهيم باشا هذا النجاح السريع يرجع إلى تطبيقه الرائع لبل مبادئ الحرب في هذه المعركة، ولننظر كيف طبق هذه المبادئ.

(١) مبدأ المحافظة على الهدف :

لقد صمم إبراهيم باشا على الاستيلاء على "ميسولوجي"، عندما استنجد به رشيد باشا فعزف عن التقدم إلى "نوبل" كي يجعل له هدفا واحدا فلا يجزئ قواته بين هدفين في آن واحد ولا يعمل في جهتين في نفس الوقت وظل إبراهيم باشا محافظا على هدفه هذا لا تصرفه عنه صلابة المدافعين أو خدعهم الكثيرة أو قوات التخليص بزيادة "كرايسكاكي" حتى ظفر بهدفه في النهاية .

(٢) مبدأ حشد القوى :

لقد حشد إبراهيم باشا "ميسولونجى" جميع القوات اللازمة والمتوفرة لديه في ذلك الوقت وقد بلغت نيف وعشرة آلاف مقاتل وذلك كي يظفر بهدفة في أقرب الأوقات دون أن تلحقه أدنى هزيمة ولقد مكنته هذا الحشد من الصراع الشديد والاستمرار في محاصرة "ميسولونجى" رغم تكبده خسائر كثيرة في ذلك الحصار كما أنه تمكن بفضل هذا الحشد من مواجهة قوات "كرايسكاكى" التي قد أزمعت فك الحصار بمعاونة الثوار المحصورين .

(٣) مبدأ القتال التعرضى :

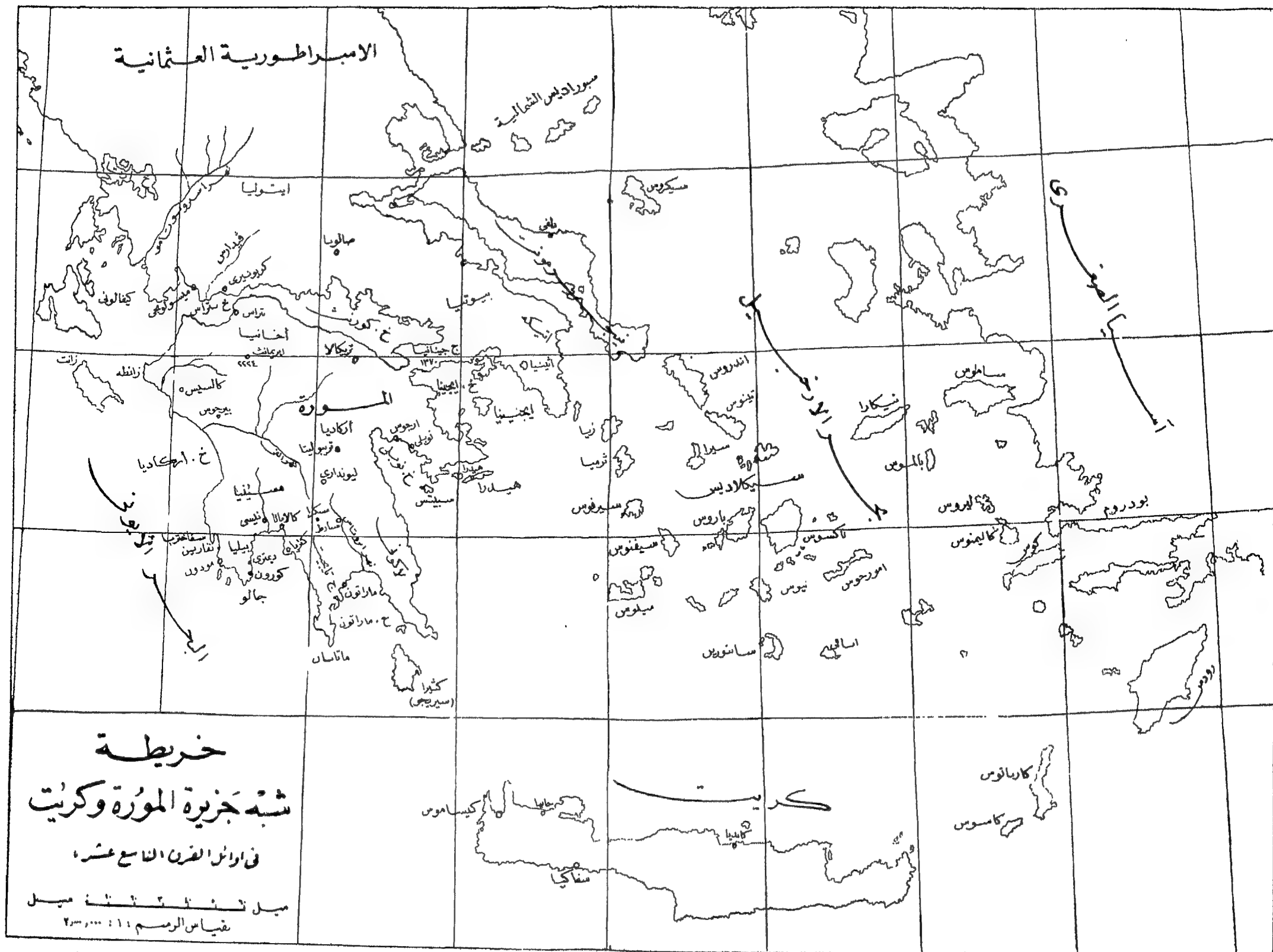
ولم يركن إبراهيم باشا خلال ذلك الحصار المضروب إلى الترام أى خطة سلبية بل كان يعمل دواما على تحقيق مبدأ القتال التعرضى بمهاجمة قوات الثوار ومطاردتهم رغم تكبده الكثير من الخسائر، هذا إلى أنه في مهاجمته للقوات المتحصنة في "ليتوليكافاسيلادس وكليسوفا" واستيلائه عليها أظهر أهمية القتال التعرضى حتى في معارك الحصار الثابتة البطيئة .

(٤) مبدأ المفاجأة :

ولقد فاجأ إبراهيم باشا القوات المحاصرة باستيلائه على المسالك البرية والبحرية فجعلها توقن بقرب هلاكها وأعاد إحكام المفاجأة لها عندما هرعت في الخروج ليلا للتعاون مع قوات "كرايسكاكى" فأذهب بما كانوا يضمرونه من مفاجأة لقواته وطاردتهم حتى ألحق بهم الهزيمة النهائية .

(٥) مبدأ التعاون :

وإن أهم مبدأ حققه إبراهيم باشا في هذه المعركة هو التعاون فبتعاونه التام مع رشيد باشا أمكنه تشديد الحصار على العدو ، وبتعاون بحريته مع قواته الأرضية أمكنه ضرب الحصار برا وبحرا على الثوار في ميسولونجى مما اضطرهم إلى الخروج للقتال ثم الاندحار والتسليم .



الدروس المستفادة من معركة ميسلونجي

وأهم الدروس المستفادة التي تطلعوننا بها معركة "ميسلونجي" هي :

(١) أهمية الخطة والدقة في تنفيذها :

لقد وقف الأتراك أمام "ميسلونجي" ذلك الوقت الطويل لعقم الخطة التي وضعها رشيد باشا إذ لم تكن خطته محكمة حيث أغفل الاستيلاء على مفتاح الموقف وعندما رسم إبراهيم باشا خطته الحصيفة للمحاصر التام تمكن بدقة تنفيذها من جعل الثوار يستسلمون في شهور قلائل وهذا يعدّ أروع مثل لأهمية القائد في المعركة إذ هو العقل المدبر الذي يرسم الخطط التي توصل للنجاح .

(٢) أهمية إحباط نوايا العدو للمفاجأة :

وتطلعوننا هذه المعركة بدرس آخر له قيمته العظمى وهو أهمية توافر المعلومات المستديمة عن العدو والوقوف على نواياه حتى لا تفاجأ قواتنا به وهذا يتضح لنا جليا من يقظة إبراهيم باشا وإحباطه لخطة الثوار عند استنجادهم "بكرايسكاكي" لقد رغبوا في مفاجأة القوات المصرية ولكن إبراهيم باشا فاجأهم بيقظة هذه القوات واستعدادها فأحبط خططهم وجعلهم يستسلمون .

الموقف العام بعد سقوط ميسلونجي وأثينا

لقد كانت حالة الثورة اليونانية بعد سقوط "ميسلونجي" و"أثينا" في منتصف عام ١٨٢٧ تدعو إلى اليأس ، فلم يكن في أيدي الثوار سوى "نوبلي" في بلاد المورة ، وتركزت قوة الثورة في جزيرة "هيدرا واسبتريا" من جزر بحر الأرخبيل ، وقد عاث الثوار في البحر فسادا وازدادت قرصنتهم .

انتهاء المرحلة الثانية من مراحل حرب المورة

وسقوط "ميسلونجي" و"أثينا" انتهت المرحلة الثانية من مراحل حرب المورة ، وهي كما رأينا كانت المرحلة الهامة في تاريخ هذه الحملة حيث وقعت فيها تلك

المعارك الحاسمة التي كادت تقضى على الثورة قضاء مبرما ، لولا ما قد بدأ يتلبد في سماء أحداث العواصم الأوروبية من سحب منذرة بهبوب رياح عامل جديد ، ألا وهو تحرك الرأي العام الأوروبي لمناصرة اليونان ، وهذا هو بدء المرحلة الثالثة من أحداث هذه الحرب .

الفصل السابع

المرحلة الثالثة (يوليو ١٨٢٧ — أكتوبر ١٨٢٨)

معاهدة لوندرة (٦ يوليو ١٨٢٧) :

في غضون المرحلة الثانية من هذه الحرب كانت الدول الأوروبية لا تفتأ تتفاوض لإنقاذ الثورة في اليونان وذلك بفضل أعمال الجمعيات اليونانية المنشئة في بعض العواصم الأوروبية والتي كانت كما أسلفنا تحرك الرأي العام الأوروبي وتستصرخه للأخذ بتناصر اليونان^(١) وكان لسقوط "ميسولونجي" والبسالة التي أظهرها أهلها في الدفاع تأثير كبير في ازدياد عطف الأوروبيين على الثوار فنشطت المفاوضات بين الدول حتى أسفرت عن إبرام معاهدة (لوندرة) التي اتفقت فيها كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا على التدخل بين تركيا واليونان لتقرير مصير المسألة اليونانية .

ولقد كانت هذه المعاهدة إنقاذا للثورة اليونانية لأنها أبرمت في الوقت الذي أشرفت فيه الثورة على الاحتضار وكادت تلفظ النفس الأخير وقد تحاذل زعمائها وسرى اليأس إلى نفوس أنصارها فلما أبرمت هذه المعاهدة ابتهج لها اليونانيون ابتهاجا عظيما عاودهم الأمل في تحقيق مطالبهم بمعونة الدول الأوروبية .

وكان الحلفاء في هذه المعاهدة يعلمون أن تركيا ستصر على رفض طلباتهم الخاصة بوقف القتال تمهيدا للوساطة فاتفقوا على إرسال أساطيلهم إلى مياه اليونان

(١) كتاب عصر محمد علي للرافعي بك ص ٢١٤

للتأييد مطالبهم بالقوة ولمنع السفن المصرية والعثمانية من الوصول إلى شاطئ اليونان وإرسال المدد إلى الجيش المصرى والتركى بها وأسندوا القيادة العامة لأساطيلهم الثلاثة إلى الأميرال الانجليزى "كودرنجتون"^(١).

مقدمات معركة نفارين البحرية :

ووصل إلى إبراهيم باشا المدد الذى كان يعده له محمد على باشا بناء على طلبه وكان مكونا من الآلاى العاشر بقيادة أحمد بك وأسلحته المعاونة وبلغت هذه القوة فى تعدادها ٦٠٠٠ مقاتل مجمله فى أربعين مركب نقل وبرفتها أسطول مصرى بقيادة محترم بك مكونا من ١٨ سفينة حربية مصرية و ١٦ سفينة تركية و ٤ سفن تونسية و ٦ حراقات ، فرست هذه العماره بميناء "نفارين" فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧ وانضمت إلى أسطول تركى آخر جاء من الآستانه بقيادة الأميرال طاهر باشا وعدده ٣٣ سفينة وتولى إبراهيم باشا القيادة العامة لقوات البر والبحر وأخذ يتأهب لجلسة بحرية على جزيرة "هيدرا" وحملة برية ينفذها إلى شمالى المورة^(٢).

وتساء الحلفاء وصول العماره المصرية والتركية إلى "نفارين" وإيوائها إلى مكان حصين فتجركت سفنهم وقصدت إلى تلك الميناء لإملاء شروط الحلفاء على إبراهيم باشا . ولقد قبل إبراهيم باشا مبدئيا قرار الهدنة فأوقف حملاته رغم أنه لم يفتنه سوء نية الحلفاء فى إطلاق يد الثوار ونقل أيدي القوات المصرية وعندما تحقق له انتهاز الثوار لهذه الهدنة وقيامهم بحركات عدائية فى خليج "كورنث" واعتزامهم مهاجمة "باتراس" التى يحتلها الجيش المصرى لفت نظر الأميرال "كودرنجتون" كى يوقف هذه الأعمال المنافية للهدنة ولما لم يلق جوابا مقنعا أبحر إلى "باتراس" فى عماره من بعض السفن الحربية وهنا ثارت ثائرة الحلفاء وعتوا هذا العمل مناقضا للهدنة فلحق الأميرال "كودرنجتون" وأسطول بهامره إبراهيم باشا تجاه رأس (ياباس) واضطرها إلى الرجوع إلى "نفارين" حيث ألترم إبراهيم باشا خطة الدفاع بناء عن أوامر والده التى أرسلها إليه .

معركة نفارين البحرية (٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧)^(١) :

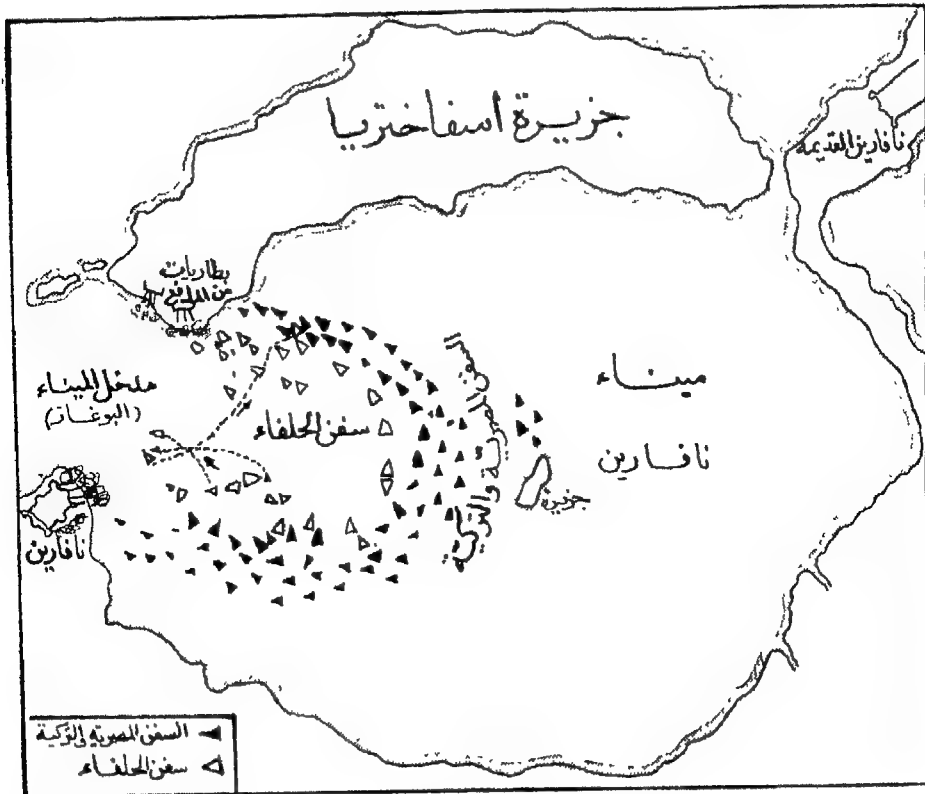
واضطرب إبراهيم باشا إزاء ازدياد حركة الثوار في المورة إلى الزحف بجزء من جيشه داخل المورة لنجدة الحاميات المصرية وأوصى الأميرال محرم بك قائد الأسطول المصري والأميرال طاهر باشا قائد الأسطول التركي ألا يتحزبا بالأساطيل الدولية المتحالفة لأن العلاقات بين الحلفاء وتريا ومصر لم تكن قد قطعت ولا أعلنت الحرب بين الفريقين . وبعد أن بارح "نفارين" أرسل إليه قواد أساطيل الحلفاء إنذارا يبلغونه فيه أنه قد نقض الهدنة علما بأنه لم يفعل ذلك فهو إنما تعهد بعدم مهاجمة جزيرة "هيدرا" ولم يتعهد بالامتناع عن نجدة الحاميات المصرية في المورة كما وأنه كان مفروضا أن يحترم الثوار الهدنة ولكنهم نقضوها ولم يحده رسوهم . في "نفارين" عندما وصلها فعاد بالرسالة إلى الأميرال "كودرنجتون" ولم تكن هذه الرسالة إلا ذريعة لإفناذ الخطة التي اتفق عليها الحلفاء وهي القضاء على أسطول إبراهيم باشا^(٢) .

فتشاور قواد الحلفاء وقزروا فيما بينهم الدخول إلى ميناء نفارين وتدمير الأسطول المصري والتركي كي يضطر إبراهيم باشا للعودة ثانية وفي صبيحة يوم ١٩ أكتوبر جمع الأميرال "كودرنجتون" قباطين الحلفاء على ظهر بارجته آسيا وأصدر إليهم تعليماته فيما يجب عليه عمله عند بدء القتال وأحكم قواد الحلفاء تدابيرهم في الوقت الذي كان الأميرال محرم بك والأميرال طاهر باشا مطمئنين إلى الموقف وموقنين أن ليس ثمة حرب أو قتال .

وفي الساعة العاشرة من صبيحة ٢٠ أكتوبر بدأت سفن الحلفاء تتأهب لدخول الميناء عند أول إشارة تصدر إليها وفي منتصف الساعة الثانية بعد الظهر أصدر "كودرنجتون" أمره إلى أساطيل الحلفاء بالتأهب للقتال وعند تمام الساعة الثانية اقتحمت البوغاز فأرسل الأميرال محرم بك رسولا إلى "كودرنجتون" ينبئه بأن يمنع

(١) كتاب عصر محمد علي للرافعي بك ص ٢٢٠

(٢) سأورد هذه المعركة في إيجاز تام حيث أنه غير مطلوب شرح المارك البحرية بالتطويل .



أساطيل الحلفاء من الرسو في "نفارين" ولكن الأميرال الإنجليزي أجاب في لهجة جافة بأنه لم ييحي ليلتلق الأوامر بل جاء ليلقى أوامره وسرعان ما اصطفت سفن الحلفاء على شكل نصف دائرة تقريبا مواجهة للسفن المصرية والتركية (انظر خريطة رقم ٤) وقد اقتربت منها حتى أصبح واضحاً أنها قد جاءت لتتحدّها للقتال .

وابتدأت المعركة في منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر واستمرت إلى نحو الساعة الخامسة وانتهت بالقضاء على البحرية المصرية والتركية فقد هلك معظمها نسفاً وغرقا وجنحت البقية الباقية على السواحل فأحرق بحارتها أغلبها حتى لا تقع في أيدي الأعداء وبلغ عدد القتلى المصريين والأتراك ٣٠٠٠

وتعدّ معركة "نفارين" من المعارك القليلة التي يتمثل فيها الغدر ونقض العهود والمواثيق فإنها وقعت من غير أن تعلن حرب بين تركيا والدول المتحالفة وأخذ الحلفاء السفن المصرية والتركية غيلة من غير أن تنذرها أو تستعد للقتال وكل ذلك متاف لأبسط قواعد الحروب المتفق عليها بين الدول المتمدينة .

موقف إبراهيم باشا بعد معركة نفارين :

لم يشهد إبراهيم باشا معركة نفارين لأنه كما أسلفنا كان قد تقدّم إلى داخل بلاد المورة لنجدة الحاميات المصرية بها فلما بلغه نبأ تدمير الأسطول المصري عاد إلى "نفارين" وشاهد آثار المعركة فأمر بإعداد بعض السفن التي نجت من الكارثة وتعويم بعض التي غرقت وأنفذها إلى الإسكندرية ثم رأى أن يلزم خطة للدفاع فأخلى معظم مدن المورة وامتنع بمعظم جنوده في مينائي "كورون ومودون" حتى تصله أوامر والده .

اختلاف وجهة نظر تركيا ومصر بعد معركة نفارين :

ولقد اختلفت وجهة نظر تركيا ومصر بعد معركة "نفارين" هذه فيما يختص بحرب المورة فأما تركيا فقد أصرت على رفض مطالب الدول المتحالفة وطالبتها بتعويض عما لحق أسطولها من الدمار ووقفت موقف الصلابة والعناد بإزاء الحلفاء

فأعلنت روسيا الحرب عليها واحتلت "أدرنة" وأرسلت فرنسا إلى بلاد اليونان جيشا مؤلفا من ١٨,٠٠٠ جندي بقيادة الجنرال "ميزون" لإجلاء المصريين والأتراك عنها ولقد انتهت الحرب الروسية التركية بعقد معاهدة أدرنة (١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩) وفيها وافقت تركيا على قرارات الدول في معاهدة لوندرة فاعترفت باستقلال اليونان استقلالاً داخلياً وألا يكون لها عليها سوى حق السيادة الاسمية .

وأما مصر فقد رأى محمد علي باشا بشاقب فكره أنها لن تجنى شيئاً من مواصلة القتال بعد فقدانها لأسطولها في معركة "نفارين" وانقطاع المواصلات البحرية مع جيوشها في المورة واعتقد أنه من الحكمة ألا يجعل سياسة مصر مقيدة بسياسة تركيا وأن يتفق مع الحلفاء .

الاتفاق بين مصر والحلفاء على إخلاء الجيش المصري لبلاد المورة :
ولقد عقد الاتفاق في أغسطس عام ١٨٢٨ على وقف القتال وإجلاء الجيش المصري عن بلاد المورة بالشروط الآتية :

(١) يتعهد محمد علي باشا بإعادة الأسرى اليونانيين وتحرير من بيع منهم في مصر .
(٢) يتعهد الأميرال الانجليزي بإرجاع الأسرى المصريين وإعادة السفن المصرية التي أسرت أثناء القتال .

(٣) أن تخلى الجنود المصرية المورة وينقلهم محمد علي على سفنه .
(٤ ، ٥) تقوم بحراستها ذهاباً وإياباً سفن حربية انجليزية وفرنسية .
(٦) ألا يكره اليونانيون المقيمون بمصر على الرحيل عنها ولا يجبرون على البقاء فيها وكذلك يسمح لمن يشاء منهم أن يصحبوا الجيش المصري في عودته .

(٧) يجوز لإبراهيم باشا أن يترك في المورة عدداً من الجند لا يزيد على ألف ومائتين للحفاظ على "مودون" و "كورون" و "نفارين" و "باتراس" و "كستل توريّة" أما المواقع الأخرى فتخلي فوراً^(١) .

(١) كتاب مصر في القرن التاسع عشر لادوار جوان ص ٧١٥

عودة ابراهيم باشا ورجاله :

وعندما أبلغ ابراهيم باشا وهو في اليونان هذه الشروط سخط كثيرا لرؤيته جهود جيوشه قد ضاعت فضلا عن الخسائر التي تكبدها وخاصة إغراق الأسطول المصري ولكنه اضطر للإذعان فأصدر أوامره بإخلاء المدن اليونانية والسير إلى الموانئ حيث أقفلت بهم السفن إلى مصر في أكتوبر عام ١٨٢٨

انتهاء المرحلة الثالثة :

وبذلك انتهت المرحلة الثالثة من حرب المورة وكرت وقد امتازت هذه المرحلة بالتواء الأهداف السياسية فيها وبعدم قيام حملات برية كثيرة إذ طغت معركة "نفارين" البحرية على كل ما عداها من أحداث. والحق إن هذه المعركة وإن قادها الأسطول البريطاني والفرنسي فإنها كانت فوزا لا أساس له من السياسة القوية والنظر الصادق الحكيم لأنه أفضى بالدولة العثمانية إلى الوقوع بين برائن روسيا بعد أن جردت من أهم الوسائل لديها للذود عن حماها في البحر الأسود وبحر الأرخبيل وبحر سوريا ولشد ما أشف الانجليز لوقوع هذه النكبة التي وصفها بعض رجالهم بالطامة الكبرى وقد وصف أحد كبار رجال الحكومة الفرنسية هذا الانتقام الذي أنزلته الأساطيل الأوروبية الثلاثة بالمصريين والعثمانيين بأنه تهوس وطني انتقادات لعوامله اعتبارا ومن غير روية كل من الدولتين الفرنسية والانجليزية لخدمة المصالح الروسية فقط ولقد أعرب إبراهيم باشا إلى قادة هذه الأساطيل عن سخطه على هذا التصرف فكان جوابهم له أن نشوب المعركة كان نتيجة سوء تفاهم بسيط وأن حالة الحرب لم تكن موجودة بين الفريقين وأن الأوروبيين ما يرجوا أصدقاء أمناء للعثمانيين والمصريين^(١).

الخاتمة

نتائج الحرب اليونانية

خسائر مصر في هذه الحملة :

لقد عاد الجيش المصرى من بلاد المورة في أكتوبر عام ١٨٢٨ وقد أنهكته الحروب والأمراض وتكبدت مصر في هذه الحملة متاعب وضحايا هائلة ونفقات جسيمة وحسبنا أن نعرف أن الجيش الذى جردته في حرب اليونان بلغ اثنين وأربعون ألفا خسرت منه ثلاثين ألفا وبلغت نفقات الحملة ٧٧٥ ألف جنيه وفقدت أسطولها الحربى في واقعة "نفارين" لندرك أن خسائرها في هذه الحملة كانت فادحة وتضحياتها بالغة^(١).

ما كسبته مصر من هذه الحملة :

(١) الكسب المادى :

لم تتل مصر من الحرب اليونانية من الوجهة المادية أى من وجهة التوسع والفتح شيئا سوى ضم جزيرة "كريت" إليها إذ قد عهد السلطان محمود إلى محمد على باشا ولاية تلك الجزيرة مكافأة له على خدماته في حرب المورة .

(ب) الكسب المعنوى :

أما من الوجهة المعنوية فقد كسبت منزلة كبيرة تلخص فيما يلى :

(١) ارتفع شأن مصر في نظر الدول الأوروبية لأن جيشها قد برهن على كفاءته وأثبت أنه يضارع أرقى الجيوش الأوروبية في أول حرب أوروبية خاض غمارها .

(١) كتاب عصر محمد على للرافى بك ص ٢٢٧

(٢) اكتسب الجيش المصرى فى تلك المواقع مرانا على الكفاح وممارسة لفنون الحرب وخططها وأساليبها الحديثة .

(٣) كانت هذه الحرب خيرا لإعلان عن قوة جيش مصر وحسن نظامه وكفاءة قواده وشجاعة جنوده .

(٤) ظهر أن الجيش المصرى أرفع شأننا وأشدّ بأسا من الجيش التركى فكان لهذه الخبرة أثرها فى توطيد دعائم الدولة المصرية الفتية وإعلاء شأنها حيال تركيا .

(٥) اكتسبت مصر مركزا دوليا ممتازا لأن دول أوروبا فاوضت محمد على باشا رأسا دون وساطة تركيا وأرسلت إليه الحكومة الإنجليزية تبديى شديد أسفها على ما لحق الأسطول المصرى فى واقعة ” نفارين “ وتظهر رغبتها فى جعل علاقتها به علاقة ودية بل وفاوضته فى أن تبقى على الحياد إذا نشب القتال بين تركيا ومصر .

استقلال مصر :

ولا شك فى أن أكبر مغنم غنمته مصر من هذه الحرب هو أنها صيرتها دولة مستقلة فعلا عن تركيا وأهم مظهر لذلك هو عقد دول الحلفاء الثلاث اتفاق أغسطس ١٨٢٨ رأسا مع مصر وقد وقع هذا الاتفاق بوغوص بك وزير خارجية مصر وهذه أول وثيقة سياسية أبرمها وزير خارجية مصر مع دولة أجنبية فى عصر محمد على^(١) .

(١) نفس المصدر ص ٢٢٩

المراجع الهامة التي استخدمت في هذا البحث

- ١ — كتاب مؤسس مصر الحديثة دودويل
- ٢ — كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه للجنرال فيجان
- ٣ — كتاب عصر محمد على عبد الرحمن الرافعى بك
- ٤ — كتاب مصر فى القرن التاسع عشر ... ادوار جوان
- ٥ — كتاب إبراهيم مصر كريتس
- ٦ — كتاب إبراهيم باشا لكريتس ترجمة محمد بدران
- ٧ — كتاب الامبراطورية العثمانية ميلر
- ٨ — كتاب التيارات الرئيسية للتاريخ الأوروبى هيرنشو
- ٩ — كتاب نفارين دوين
- ١٠ — كتاب تاريخ مصر فى حكم محمد على ... مانجان
- ١١ — كتاب مصر الحديثة فولابل
- ١٢ — كتاب محمد على كريم ثابت بك
- ١٣ — كتاب الامبراطورية المصرية الدكتور محمد صبرى
- ١٤ — كتاب الهيلىنية ومصر الحديثة اثنازى ج . بولتيس
- ١٥ — كتاب الجيش المصرى فى عهد محمد على ... عبد الرحمن زكى
- ١٦ — كتاب تاريخ اليونان السياسى دريو
- ١٧ — كتاب حملة كريت والمورة دريو
- ١٨ — كتاب سوريا ومصر ج ٢ باركر
- ١٩ — البطل الفاتح إبراهيم باشا لداود بركات
- ٢٠ — أعلام الجيش والبحرية فى مصر أثناء
القرن التاسع عشر عبد الرحمن زكى

- ٢١ — صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي ... سمو الأمير عمر طوسون
- ٢٢ — كتاب تاريخ مصر من الفتح العثماني ... عمر الاسكندري وسليم حسن
- ٢٣ — كتاب مصر من عهد المماليك الى نهاية حكم اسماعيل جورج يانج
- ٢٤ — كتاب تاريخ مصر وحالتها في الوقت الحاضر ١٨٢٤ ياقس
- ٢٥ — كتاب حروب محمد علي سيد فرج
- ٢٦ — مقالات الدكتور محمد بك رفعت مجلة الكتائب المصرية
- ٢٧ — رسائل محمد علي
- ٢٨ — كتاب الاستراتيجية الألمانية نيام
- ٢٩ — كتاب الاستراتيجية البريطانية ف . موريس
- ٣٠ — كتاب تاريخ العالم العسكري ميتشل
- ٣١ — كتاب عمليات النصر جينجاندا
- ٣٢ — كتاب الاستراتيجية كما استخدمت في الحرب العالمية الثانية بورن
- ٣٣ — كتاب ذكريات عن اليونان لوفرنى
- ٣٤ — كتاب فن الحرب على الأرض بورن

حملة الشام الأولى والثانية

(١٨٣١ - ١٨٣٩)

للبيكاشى عبد الرحمن زكى

عضو الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

مقدمة

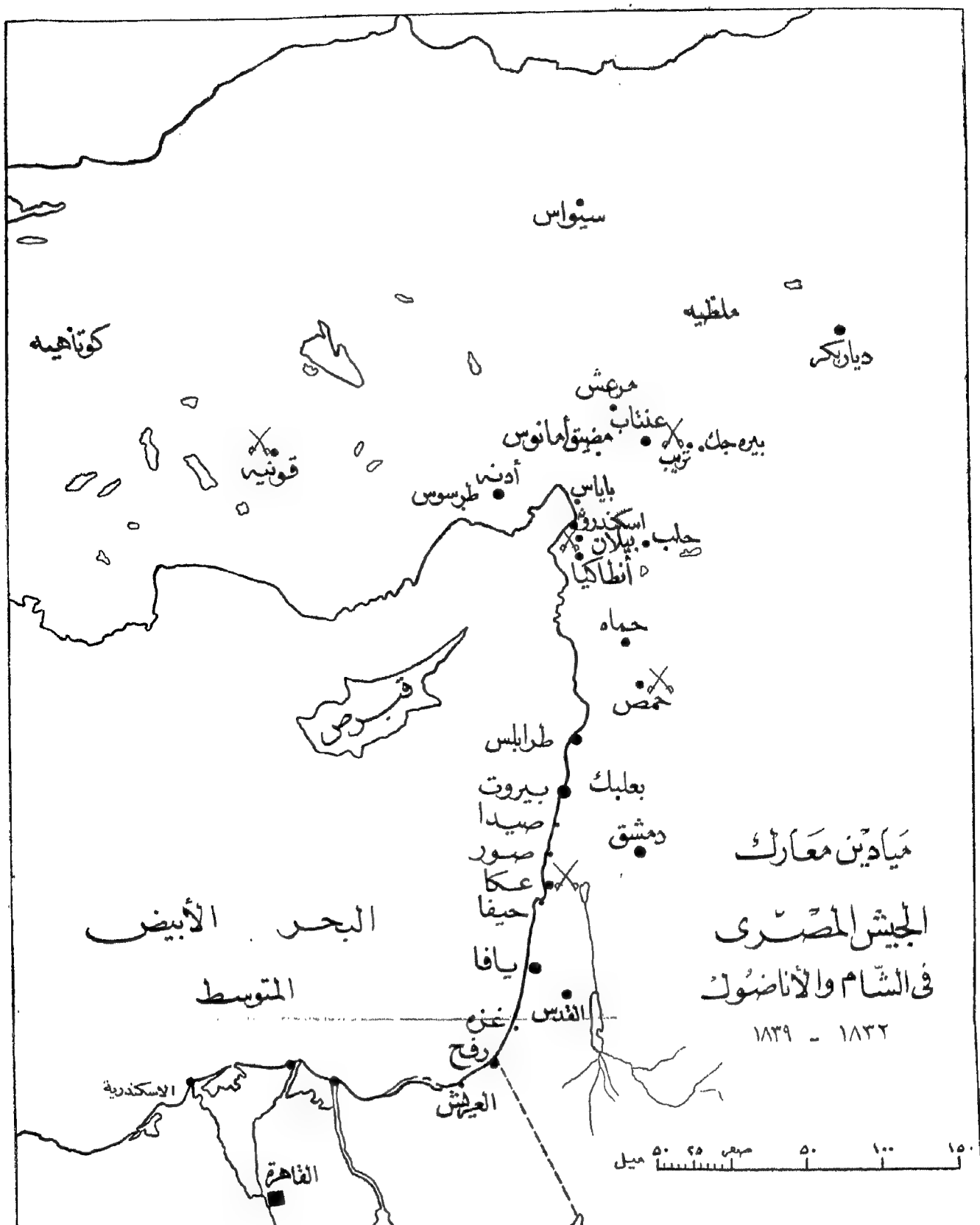
لا يتسع المجال لكاتبه مقدمة فى فضل التاريخ الحربى المصرى على التريسة القومية ، فقد أهملت دراسته إهمالا شائنا ، ولم تنسج فصوله بعد باللغة العربية .

ولولا بضعة أسطر فى كتب التاريخ المصرى العام عن فتوح محمد على فى بلاد المشرق الوسيط ، لما نالت هذه الصفحات النواصع من تاريخنا القومى أية عناية — رغما عن أنها كانت موضوع بحث ودراسة الكثيرين من المؤرخين الأوروبين ، آخرهم الجنرال فيجان الذى وضع كتابين عريضين فى فتوح محمد على البرية والبحرية ، منذ اثنى عشر عاما .

وأخيرا واتت الفرصة الذهبية — وهى الاحتفاء بمرور مائة عام على انقضاء البطل ابراهيم باشا — أب الجيش وصديق رجاله — فكانت أن اهتمت رئاسة الجيش المصرى والجمعية الملكية للدراسات التاريخية ، بتوجيه ضباط الجيش الى الكتابة فى موضوع حروب ابراهيم وبحثها بحثا فنيا عسكريا ، على ضوء ما تعلموه فى معاهد الحرب .

ولقد حاولنا أن نتجنب الطريقة الجافة في كتابة التاريخ الحربى بالاختصار على وصف المعارك ، وسير الجنود ، وذكر أعداد القتلى والجرحى وما إليها ، أو المغالاة في وصف الانتصارات بأسلوب أخاذ ، بعيدين عن روح النقد السليم ، لكننا تناولنا الموضوع في آفاقه الواسعة ، معنيين بالأفق السياسى . أفليست الحرب متممة لأعمال السياسة والسياسيين كما قال كلوسويتز وغيره ، وأوصحننا دوافع محمد على الحقيقية للحرب الشامية ، معتمدين على الوثائق التاريخية أو الخطابات المتبادلة أو التصريحات الرسمية ، وتناولنا المناحى الاقتصادية التى أحاطت بمصر والموارد المالية ، التى بفضلها حافظ محمد على على ملكه وكرامته ، وموارده البشرية من رجال هيأهم قادة الجيش للقتال ، فضلا عن قوة التنظيم والإدارة التى اتصف بها رجالان من طراز محمد على وإبراهيم ، ثم عرجنا على وصف الجيشين المتقاتلين بعدما انتهينا من وصف الأحوال المحيطة بالدولتين ، ولم نهمل وصف طبيعة الأرض التى قامت عليها المعارك ، فالأرض تسيطر على شكل العملية التى يتبعها القائد لاستحواذه على النصر .

وحاولنا — قدر استطاعتنا — أن نزود الموضوع بالخرائط الضرورية التى تبين ملاح المعارك ، كما أثبتنا فى نهايته ثبنا بالمراجع التى أفدنا منها .
ونسأل الله أن نكون موفقين فى بسط هذا الموضوع ، كما نساهم بلبنة متواضعة فى تاريخ مصر الحربى ، وهى أمنية سوف تتحقق بإذن الله بفضل جلالة المليك المعظم — الفاروق — القائد الأعلى حفظه الله .



محتويات البحث

مقدمة عامة :

(١) سياسة محمد علي العسكرية :

آلة الفتح — سياسته الاقتصادية — الهدف — الشرق أم الغرب .

(٢) دوافع الحرب بين مصر وتركيا (١٨٣١ — ١٨٣٢) :

الدوافع الحقيقية لحرب الشام الأولى :

نيات الباب العالي السيئة حيال مصر — استقلال مصر — مصر لا تفي
باحتياجات الدول الناهضة — مصر والشام وحدة طبيعية وجغرافية .

(٣) حملة الشام الأولى (الجولة الأولى) :

الجيش المصرى فى عام ١٨٣١ — الخطة العامة — وصف ميادين الحرب
(الشام وفلسطين) — سير الحملة — الترتيبات الإدارية — معارك حصار
عمكا — معركة الزراعة — أهمية موقع بعلبك — عود الى عمكا — أوضاع
القوات فى الاقتحام .

(٤) معركة حمص (الجولة الثانية) :

ساحة الحركات — معركة حمص — أوضاع الجيش التركى والمصرى —
حركات الجيش المصرى — نقد عمليات الجيشين .

(٥) معركة بيلان (الجولة الرابعة) :

مواقع الجيش التركى الدفاعية — خطة الجيش المصرى — المعركة — بعد
معركة بيلان .

(٦) معركة قونية (الجولة الرابعة) :

الجيش العثمانى — الجيش المصرى — الى قونية — ١٧ نوفمبر — عودة
الى الجيش التركى — المصادمات الأولى — معركة قونية — الجيش المصرى
فى تشكيل القتال — سياسة التردد — الى أين ؟ — القوات المصرية
فى فبراير ١٨٣٣ .

(٧) هدنة مسلحة بين حريين (١٨٣٣ — ١٨٣٩) :

اتفاقية كوتاهية — الإدارة المصرية في الولايات — ثورة فلسطين — ثورة
الدروز في حوران — الدولة العثمانية في ١٨٣٩

(٨) معركة نزيب (الجولة الخامسة) :

الجيش العثماني في عام ١٨٣٩ — الجيش المصري بعد صلح كوتاهية —
الجيش المصري في معركة نزيب — الحوادث الممهدة لمعركة نزيب -- معركة
نزيب — أزمة دقيقة — تحليل معركة نزيب ونقدها .

(٩) خاتمة النصر (الجولة الأخيرة) :

خطة ابراهيم في آسيا الصغرى — موقف الجيش المصري في آخر يوليو —
أوربا ضد محمد علي — اتفاقية لندن في ١٥ يوليو ١٨٤٠ — الاعتداء على
الشام وتهديد الاسكندرية — العودة الى الوطن .

ابراهيم القائد .

مراجع الموضوع .

سياسة محمد على العسكرية

لم تك القوة ، في نهج محمد على ، إلا وسيلة لا غاية . لم تك إلا آلة العيش الكريم ، والحياة الحرة . فقد كان بطبعه وطبيعته كارها لسفك الدماء ، مؤثرا للاعتدال ، لا يضع سيفه حيث يكفيه سوطه ، ولا سوطه حيث يكفيه لسانه .

وفي هذا المعنى يقول رفاعة الطهطاوى عن حروب محمد على إنها "لم تكن من محض العبث ولا من ذميم تعدى الحدود ، إذ كان جل مقصوده تنبيه أعضائه ملة عظيمة تحسبهم أيقاظا وهم رقود" .

كان قبالة محمد على ، بعد ترتيب نظام داره (ملكه) وتنظيم شئون ولايته ، أن يتطاع بأفقه الوسيح إلى الميدان الفسيح الأرجاء المحيط به . رأى البحار العربية وسواحلها أجزاء أساسية من العالم العثماني ، أهمها السلاطين إهمالا مشينا ، وهى شرايين الحياة بين الشرق والغرب ، تصلبت ولا بد أن يجرى فيها الدم الحديد . وخلف تلك السواحل ، فى أفريقية ، أجزاء من دار الإسلام مشتتة ، فطرة الحياة . فسعى فى السنوات الأولى من حكمه لينشئ صلات بينه وبين السلطات البريطانية فى الهند . ثم ساعد الباب العالى على إخماد ثورة الوهابيين ، فى بلاد العرب ، ونجد ، واليمن . ثم فتح السودان ، وضم أوصاله إلى أمه مصر . وعاون العثمانيين ضد اليونانيين فى ثورتهم ، وانتصر ابنه إبراهيم عليهم فى عدة معارك ، وفقد أسطوله فى سبيل مرضاة السلطان . ولولا تدخل الدول لظلت اليونان ولاية عثمانية . وأخضع محمد على جزيرة كريت وما حولها من الجزائر الصغرى ^(١) .

ولقد سجل محمد على هذه الفعال ، بل تلقاه قد اعترف بما يجيش فى صدره من آمال فى حديثه مع الفرنسي بوالكت :

(١) محمد شفيق غربال بك — مجد على الكبير . من سلسلة أعلام الاسلام .

”لقد وضعت يدي على كل شيء، ولكن لكي أجعل كل شيء مثراً، والمسألة مسألة إنتاج، وإذا لم أقم به أنا، فمن يقوم به غيري... أين الذي كان يقدم الأموال اللازمة، ويشير بالخطط التي تنتهج، والمزروعات التي تزرع. أين الذي كان يتهيأ له أن يأخذ الناس بطلب العلوم والمعارف، التي ترتب عليها تفوق أوربا. أعتقد أن أحداً في هذه المملكة خطر له أن يجلب القطن والحريير والتوت. لا أحد. كان لا مناص لي أن أقود هذه البلاد بقيادة الأطفال. وأن تركها لنفسها يسلمها للفوضى التي أخرجتها منها...“.

أنشأ محمد على قوات مصر الدفاعية — ولأجلها نهض بجميع مرافق البلاد : من تعليم وصحة وتجارة وصناعة وزراعة . ولسنا ندعي بأنه وصل بقوات الدفاع، في عام ١٨٣٢ إلى درجة الكمال — كلا، فقد كانت للجيش المحمدي العلوي مزاياه وعيوبه . تترب أفراد في خلال العشرين عاماً، على حروب المورة، وكريت، وبلاد العرب، والسودان . بجاهدوا وناضلوا، واكتسبوا ميزات شتى . وكان قاداته بين بين، أي عاديين، خبروا القيادات الصغرى . أما الجنود فلم يكونوا آلات كما كانوا في حروبهم السابقة، بل أصبحوا — بعد ممارستهم فن القتال في ميادين العراق التي خاضوها — نفورين بما أحرزوه من نصر . ثققتهم بقائدهم أو قاداتهم كبيرة لا حد لها، مبالغين إلى النظام ويخشون الخروج عليه، خوفاً من بطش أيهم وقائدهم إبراهيم — وهذا إبراهيم بطلهم ورمز مجدهم، في يده مقاليد القيادة العليا، رأس عسكرية أثبتت أن صاحبها من طراز القادة الكبار، تزينا الشجاعة والجرأة، وكذلك البطش، فضلاً عن اتصال روحى بأولاده الجند الذين ارتبط بحبهم وتقديرهم كلما أتقنوا واجبه .

وكان سليمان بك، رئيس أركان حرب إبراهيم، نابغة في أمور التكتيك والاستراتيج، يتحلى ببديهة نشطة، وروح وثابة، ونشاط ديناميكي . متفاهم مائة في المائة مع قائده وصديقه وتلميذه إبراهيم . تبادل الاثنان المحبة والاحترام .

أما خير وصف لإبراهيم خال من الغلو أو الإسراف هو قول الماريشال الفرنسي فيجان عنه :

“Vainqueur, L'histoire doit légitimement lui laisser les lauriers de la victoire”.

آلة الفتح :

استعان محمد علي بالقوة للوصول إلى مراميه . فمثله وهو الرأس المفكر ما كان ليغيب عنه هذه العقيدة التي ما زالت إلى اليوم مبتغى القادة في تحقيق أهدافهم ، أو التوصل إلى أطماعهم . فبن يستطيع أن يمارى في أن القوة أهم وسائل السلطان والسيادة .

إن الحديث عن الجيش والأسطول ، في عهد محمد علي ، يتطلب عشرات المجلدات ، وليس بوسعنا ، ونحن نتناول فتوح إبراهيم باشا في الشام ، أن نغفل هذه الناحية ، وهي بمثابة القاعدة ولا سيما ونحن في مناسبة الحديث عن الخطوط الرئيسية لسياسة محمد علي العسكرية .

فعلى الرغم من قلة عدد سكان مصر ، في أوائل القرن التاسع عشر ، وما أورثها حكم الأتراك والمماليك من الفقر والجهل ، وما قاوم به الترك والشراسة مشروعاته لإنشاء جيش ، استطاع محمد علي أن ينشئ جيشا حديثا وأسطولا قويا ، وأن يمتدحهما بكل ما يحتاجان إليه مما يصنع في قلب البلاد ، ولولا ذلك لعجزت البلاد عن القيام بأعباء الكفاح الحربى الطويل ، الذى اضطر إليه محمد علي في البلدان المجاورة ^(١) .

وفي هذا المضمار استعان محمد علي ببعثة عسكرية فرنسية ، استقدم ضباطها من فرنسا ، وآخرين من اسبانيا وإيطاليا . كما عني بإرسال البعوث العسكرية المتباينة إلى المعاهد الحربية .

(١) الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير للبوزباشى عبد الرحمن زكى (١٩٣٩) .

وأنشأ مدارس شتى للتعليم العسكرى، وقسمه إلى أنواع : منها مدرسة للدفعية وللهندسين ومدرسة للفرسان وأخرى لأركان الحرب ومثلها للمشاة وواحدة للموسيقى، فضلا عن المشافى ومدرسة للطب .

ولما كان إنشاء جيش قوى يتطلب أن تكون في البلاد كل حاجاته من السلاح والذخيرة والمؤونة والأدوات والملابس وما إلى ذلك — فقد أقام هذا العاهل مصانع السلاح في مصر، فأنشأ في ترسانة القلعة مصانع لصناعة الأسلحة وصب المدافع من أنواع شتى، كما شاد معامل للبارود في جزيرة الروضة والبدرشين والفيوم... وأنشأ مصانع للغزل والنسيج والبطاطين ليمتد الجيش والشعب بحاجاتهم ومصانع للخيال والطرايش وسبك الحديد وطرق ألواح النحاس ودينج الجلود وشيد الحصون والقلاع ، على ساحل مصر ، لأغراض الدفاع ، وأمدّها بالمدافع والتكتات والورش .

أنشأ محمد على كل هذا، حتى صارت البلاد كلها تعمل للجيش ، في بابى الزراعة والصناعة ، وما يتعين إبرازه — في هذا السياق — إنه استطاع أن ينظم جيوشا كبيرة وأسطولا ضخما محاربا، وأن يقيم جل هذه المصانع والمعاهد، لتدريب الجيش وتحريج رجاله وتغذيته بمطالبه جميعا، وأن يستمر على ذلك زمنا طويلا، ويخوض حروبا عتة ، معتمدا على مرافق البلاد وقدرتها الاقتصادية دون سواها . ومن غير أن يقترض قرشا واحدا من الخارج — وهذه وحدها حسنة تدعو إلى تجميد ذكرى هذا الرجل ، في كل آونة . ولولا ذلك لكانت منشآته الضخمة الواسعة النطاق نكبة على الأمة

ولا نستمرئ الكلام عن تنظيم الجيش ، ومدارسه ، ومصانعه ، وبعثاته إلى الخارج ، وأسلحته وما إليها مما خلقه محمد على في مصر خلقا . فقد كتب في هذا الكثيرون، وسيتبدى من حديثنا عن الحملات الكثير من التفاصيل الفنية التى تكمل استجلاء هذه المناحي

سياسته الاقتصادية :

اعتمد رأس الأسرة العلوية على مبدأ الأرض للحاكم... فحسن طرائق الزراعة، وراقب عمل الفلاح وزوده بالنصائح، بل وأمدّه بآلات، وحفر له الترع والمصارف — كما أدخل المحصولات الجديدة كاللدخان والنيّلة والقطن والحرير وزراعة الأشجار. فضلا عن إدخاله مساحات كبيرة من أراضي الصحراء وأصلحها للزراعة... وبذا استطاع هذا الموفق أن يبيع المحصولات المصرية في الأسواق الأوروبية. فأحرز ربحا وافرا سهل له مواصلة إصلاحاته الكثيرة بدون ضيق أو عناء.

وكما أن محمد علي صار المزارع الوحيد^(١) أضفى التاجر الوحيد، ثم الصانع الوحيد، أى أنه احتكر اقتصاديات البلاد، أو بعبارة حديثة أسسها ليضبط موارد البلاد بيد مدبرة، ولينفق منها ما شاءت إزادته، كما يقتضيه الصالح الوطني.

وكانت الضرائب موردا هاما لزيادة الدخل. وكانت منها ضريبة الأرض (الميرى) وضريبة "فردة الروس" التي فرضها على كل فرد مصرى بلغ سنّ الثانية عشرة، وتفاوت بحسب ثروة الرجل. فكانت تتراوح بين ٥٠٠ قرش و١٥٠ قرشا في السنة — هذا فضلا عن عوائد الجمارك والذبح والسفن.

وتسنى لمحمد علي، بتشجيعه الصناعات، أن يستغنى تدريجا عن الواردات والبضائع الأجنبية، بحمايته تجارته وصناعته، ولولا ذلك لما تمّ لها أن ينهض بقوّة مصر الدفاعية وجعلها تعتمد على موارد البلاد، على قدر الإمكان.

ومما يذكر أنه لم يتوفر المال لمحمد علي، في بداية الأمر، لأن أبواب الإصلاح كانت مفتوحة على مصراعيها، فضلا عن مطالبة السلطان بالنجادات العسكرية

(١) ليس المقصود أن محمدا عليا كان يضع يده على كل محصول الفلاح، بل كانت الحكومة تترك له مكانها من المحصول ليبيعه بحرية.

المستمرة . فلم تنعم مصر بحالة سلم طويلة المدى ، في ظل حكم محمد علي . ولم يكد يقضى الأعوام الخمسة الأولى (١٨٠٥ — ١٠) في التعزف إلى حاجيات مصر وما يستدعيه التنظيم الجديد للدار ، حتى التجأ إليه السلطان يطلب نجدة في حرب الوهابيين (١٨١١ — ١٨١٨) . ثم شغل في حروب السودان ودارفور (١٨١٨ — ١٨٢٠) . وعقب ثلاثة أعوام طالبه السلطان بنجدة في حملة المورة القاسية (١٨٢٢ — ١٨٢٨) فصرف كل دخله بوجه التقريب على إعداد الأسطول والبحيش والعتاد . وفي عام ١٨٣٠ ظهرت بوادر سوء التفاهم بين محمد علي وعبدالله الجزائر ، ونشبت الحرب بينهما سنة ١٨٣١ ثم أعلن السلطان الحرب عليه (١٨٣٢ — ١٨٣٣) .

أما المدة بين ١٨٣٣ و ١٨٣٩ فكانت هدنة مسلحة أعدت نفسه لحرب كبيرة حتى لا يؤخذ على غرة^(١) .

وهكذا استنزفت الحروب معظم ما كان يخبئه محمد علي من موارد الدولة إبان السلم .

الهدف :

والآن ، وقد انتهى محمد علي بأشأ من وضع أسس دولته ، وخط الخطوط الرئيسية لسياسته وأهدافه التي هيأها نصب عينيه ، ننسل إلى توضيح هذه الأهداف ، التي أرغم على تحقيقها مستعينا بالقوة ، وكان ينبغي أن يتوصل إليها بالسياسة .

فعلى أثر انسحاب الجيوش المصرية والتركية من المورة ، عقب معركة نفارين ، بدأ محمد علي يراجع خطته السياسية العامة . فرأى أن الباب العالي لم يكافئه على خدماته وتضحياته حسبا وعده . فقد منحه حكم جزيرة كريت .

A. E. Crouchley; The Economic Development of Modern (١)
Egypt; pp. 41 — 43.

تخندئذ بدأ لا يرحب بطلبات الباب العالي للنجادات العسكرية في حربه ضد روسيا أو في البلقان ، مكتفيا بإرسال إعانة مالية . فما كان من السلطان إلا أن اشتد حنقه على واليه في مصر ، وراح يوقع بين محمد علي وابنه إبراهيم .

ونرى محمدا عليا ، بعد معركة نفاارين ، يعتد نفسه لما عسى أن يحصل في المستقبل . فلما استقر جنود حملة المورة بمصر ، شرع إبراهيم باشا يهيئ عقول الضباط لاستقبال السياسة الجديدة مع الباب العالي . ومثل هذه السياسة تتجلى في الخطبة التالية ، التي ألقاها خلال وليمة للضباط :

” ما ذا استفدنا أنا وأنتم من السلطان . ألسنا في الحقيقة كلنا أولاد محمد علي الذي ربانا وعلمنا . ألم نأكل جميعا من خيره . إن مصر حق لمحمد علي . حق اكتسبه بالسيف ولا نعرف لنا ملكا غيره .^(١)

الشرق أم الغرب :

ولم تكد الجنود المصرية تترد إلى أوطانها بعد معارك الروم حتى يقدم دورقي مندوب فرنسا في مصر إلى محمد علي مشروعا يتعاون فيه الباشا مع فرنسا لفتح الجزائر وتونس وطرابلس ، وإخضاع شمال إفريقيا لهما . وامتدت الأحاديث بين الرجلين شهورا — واشترط محمد علي طائفة من الشروط الهامة في صدرها تقديم سفن حربية ومدفعية ثقيلة وتمويل الحملة وغيرها وقبلت فرنسا غالبية الاقتراحات ولكن محمدا عليا وازن القيم الاستراتيجية لهذا القطاع من شمال إفريقيا وتلك التي للشام والعراق . وتبدت له أيضا ثمرات النصر في الحاليتين .

وأخيرا اعتمد على نفسه ، وعلى جيشه ، وعلى الله أولا ، وأهمل نهائيا مشروع الجزائر . وهل بعد ملك الشام شيئا آخر . إن امتلاكها يحججه ضد عدوان السلطان ،

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) — من قنصل إنجلترا العام ٨ يناير ١٨٣٢ .

ويستر جناحه الأيمن ويمنحه السيادة على بيت المقدس ، حصن الأديان الثلاثة ، ويعطيه دمشق إحدى مدن الثقافة الإسلامية ، وتلبي معظم حاجياته الاقتصادية .

ولم تك رغبة محمد علي في الاستحواذ على فلسطين (فقط) نتيجة لمشروع الجزائر... كلا — فإن محمدا عليا صرّح في عام ١٨١٢ للقنصل الإنجليزي في مصر عن عزيمته لفتح فلسطين عندما تحين الفرصة بيد أنه لم يقدم لأسباب شتى أظهرها عدم انتهائه من تنظيم قواته العسكرية على الأساليب الحديثة . ونجدته للسلطان في حرب الجزيرة العربية . كما أنه خشي الأثر الروحي للسلطان في ولايته . فلما وافته الظروف ، امتشق الحسام ، وكان ما سنتناوله في هذا المقال .

دوافع الحرب بين مصر وتركيا

١٨٣١ — ١٨٣٢

يتفق فريق من المؤرخين على أن النزاع بين محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني لا يرتد لأسباب قومية أو جنسية . والدليل على ذلك تصريحات محمد علي لسكران السياسة أو ما خلفته لنا المحفوظات التاريخية .

فقد قال إبراهيم باشا ، في خلال حملته الأولى في الشام (١٨٣٢ — ١٨٣٣) إن أبي لا يزال العبد الخاضع للسلطان ، والمحامي عن الدين الحنيف^(٢) . ثم أكد محمد علي للكولونيل هودجس (Hodges) في سنة ١٨٤٠ إخلاصه لعرش الآستانة قائلا ما ترجمته : "أما من حيث تأييد العرش التركي فمن أكثر مني حمية في ذلك ؟ . إن الشعب الملتف حولي يشور علي" إذا حاولت أن أقلب ذلك العرش^(٣) . أضف إلى ذلك أن محمدا عليا كان على جانب وفير من الفطنة السياسية ، فعرف أنه

(١) Missett, June 20, 1812 (F. Office. 24 - 4).

(٢) St. John, Egypt and Mohamed Ali. Vol. II, Page. 522.

(٣) Paton, History of the Egyptian Revolution. Vol. II, p. 169.

لا يستطيع التفاوض عن مناهضة الدول الأوروبية الكبرى إذا ابتغى أن يبدل الحالة الراهنة في الآستانة .

إذن لم يك في عزيمة محمد على أن يحل محل السلطان على عرش الآستانة .
فماذا كانت غايته من حروبه ؟ هل كان يرمى إلى إقامة عرش له في وادي النيل
فحسب ؟ نحن نذهب مع أصحاب هذا الرأي ، فلقد ثبت أن محمدا عليا طفق يذكر
الاستقلال في أحاديثه حوالي سنة ١٢٨٥ . وأثبت الجنرال بوييه رئيس البعثة
العسكرية في مصر ما قاله له محمد على حينما تناول أمنية الاستقلال هذه . والعبارة
التالية مقتبسة من رسالة بعث بها الجنرال بيار في الثامن عشر من يوليو عام ١٨٢٥ .
قال فيها ما ترجمته :

” أسهبت إليك في كتاب سابق عما يتعلق بانتصارات ابراهيم باشا في اليونان ،
وأودّ أن أطلعك الآن على حديث سرى دار بيني وبين محمد علي باشا حدثني في خلاله
عن أمانيه . قال محمد علي : أنا أعرف أن السلطنة تسير يوما فيوما إلى الردى ،
وأنة يصعب على أن أنشلها مما هي فيه . فلماذا أحاول المستحيل بوسائل القليلة ؟
على أنى سأقيم على أنقاضها مملكة كبيرة ولدىّ جل الوسائل التي تساعدني على الفور .
إنى أستطيع أن أفتح عكاء ودهشق وبغداد بكلمة واحدة منى وبوساطة مقدرتى
وجيوشى . وابنى المنتصر سيتوجه في أقل من عام ليحقق مقاصدى على ضفاف
دجلة والفرات لأنها حدود ثابتة للدولة التي أسعى في إنشائها ، وستمكّنه شجاعته
العظيمة من الفوز“ .

الدوافع الحقيقية لحرب الشام الأولى

(١) تاقى المحفوظات الملكية المصرية ضوئا ثبتدى خلاله دوافع الحرب
المصرية التركية (الأولى) وفي طليعتها — ولا مرء — نيات الباب العالي السيئة

حيال مصر . وأقول دليل على ذلك ما كتبه ابراهيم باشا في خطاب الى والده يقول له فيه :

”إن سوء النية والخديعة كامنان خلف المفاوضات ، التي تستر من ورائها الضربة القاصمة ، التي تعدّها حكومة الآستانة ضد ابراهيم ووالده“^(١) .

وكان محمد علي قد رفع شكواه الى الأميرال الكبير خليل باشا من المؤامرات التي تحاك حوله في العاصمة التركية . وكان ابراهيم ، على الرغم من انتصاراته في الوقائع الثلاث عكا وحمص وبيلان ، على بيئة من أن هزيمته في الأناضول ستكون سببا لخلاص مصر من أسرة محمد علي^(٢) . وكان القائد لا يأمل في توطيد سلم حقيقى بينا يجلس السلطان محمود على عرش آل عثمان .

ولا يغيب عنا أنه في عام ١٨٠٥ ولى السلطان مكرها ولاية مصر لمحمد علي ، وقد حاول في السنة التالية أن ينقله الى ولاية سالونيك . فعلا وصل الى مصر موسى باشا ، والى سالونيك ، يحمل فرمان سيده . وفي عام (١٨١٣ — ١٨١٤) اجتذبت الآستانة ، الى صفها ، لطيف باشا أحد رجال الحكومة المصرية ، وساحته بفرمان لتقليده ولاية مصر ، إذا كللت مساعيه بالنجاح لقلب حكومة محمد علي ، الذى عرف سر المؤامرة^(٣) . وفي عام ١٨٢٩ شاءت الآستانة أن توغر صدر محمد علي ضد ابنه ، حينما نصبت ابراهيم باشا على مكة ، أظهر المناصب الشريفة في الامبراطورية العثمانية . وفي السنة التالية ، اقترح الباب العالي على الباشا (محمد علي) أن يولى إدارة الثغور المصرية : إسكندرية ، ودمياط ، ورشيد ، الى قبودان باشا ، عدوه القديم ... الخ .

(١) وثيقة رقم ٥٨ محفظة ٢٣٢ بتاريخ ٢٣ رمضان عام ١٢٤٧ هـ من ابراهيم الى محمد علي .

(٢) وثيقة رقم ١٠ — ١١ محفظة ٣ بتاريخ أول ربيع و ٢٥ جمادى الأولى عام ١٢٤٨

(٣) وثيقة رقم ٤٣ محفظة ٢٤١ بتاريخ ١٩ رجب عام ١٢٤٨ من ابراهيم الى محمد علي .

(٤) (1807 - 1814) Driault, Mohammed Ali et Napoleon . pp. 233-239.

ولكى يذهب السلطان بعيدا في الكيد لمحمد على ، فقد منح منصب الصدارة العظمى الى خسرو باشا ، عدوه اللدود القديم .
وجعل القبول أنه منذ تقلد محمد على حكم مصر ، لم تفتقر عزيمة السلطان عن إنتاج كل سبيل ، لعزل والى مصر من منصبه — ولذلك لانهجب مطلقا إذا نهض محمد على بحاربة السلطان ، تستحثه الى ذلك غريزة الدفاع عن النفس . يحارب للحفاظ على جاهه ، ومنصبه ، ومقامه . وأكثر من ذلك ، من المحتمل أنه كان يحارب للحفاظ على حياته أيضا .

٢ — استقلال مصر :

هذه النوايا السيئة ، التى كان يضمورها السلطان لمحمد على ، خلال السنوات ١٨٠٥ — ١٨٣١ أيقظت الحذر بين جوانح محمد على ، الذى كان يتوقع نشوب الحرب فى أى وقت . لذلك وأيناه يعيء موارد دولته ، ويؤمم تجارتها وصناعاتها بل وأرضها ، وينشئ القوات الدفاعية ليجمعى ذمارها ، من العدوان المرتقب . ولكى يعلن الاستقلال فى الوقت الملائم — وان فضاله فى سبيل استقلال مصر أبانت عنه طائفة من الرسائل الرسمية المتبادلة بين الباب العالى وكبار رجاله ، الذين يشغلون المناصب الهامة ، فى حكومة الشام . وكذلك فى الخطابات المتبادلة بين محمد على وأبراهيم .

وكان فى طليعة أعداء محمد على من هؤلاء الموظفين — عبد الله باشا الجزائر والى عكاء ، فكان يكبل التهم جزافا ضد محمد على ، وكان يطلق عليه الثائر والخارج عن طاعة السلطان . وكثيرا ما طالب رعايا السلطان أن يعلنوها حربا شعواء لا هوادة فيها ، لنصرة السلطان على محمد على .

وكان إبراهيم يعبر بصراحة عن الاستقلال ، سواء فى مجالسه الرسمية ، او فى مكاتباته مع والده أو كبار الموظفين . كتب مرة من حلب الى حاكمها التركى

محمود باشا، الذى هزمه فى حمص معبرا عن تصميمه على الاستيلاء على الأراضى العربية، وليقطع نهائيا صلتهم بالحكومة التركية^(١).

وبعد أيام قلائل، صرح ابراهيم باشا للأمير بشير بعزمه على احتلال أدنة، ليغلق الاتصال بالآستانة. وقد ثبت ذلك فى نشرة الجيش بتاريخ ٤ ربيع الأول عام ١٢٤٨ هـ. وفى مكتبة أخرى لإبراهيم نادى أبيه بلفظ يا صاحب الجلالة وذكر كلمة مصر المستقلة^(٢). وفى تقرير سرى آخر من ابراهيم لأبيه أشار الى الجهود المخلصة التى اضطلع بها لتدعيم أسرتهما^(٣).

وعقب انتهاء معركة قونية، وقبل احتلال كوتاهية، وبينما كانت مفاوضات السلم دائرة، كتب ابراهيم باشا الى أبيه الخطاب التالى، يقول له فيه :

”... وطالما يتربع على العرش — السلطان محمد — فسوف لا نصل بقضيتنا الى حل مقبول وأنه بالرغم من الظروف والأحوال التى قد تظهر فى صالحنا، فإنه سيعمل كل ما فى وسعه لتنفيذ مآربه الظالمة، مما يجعل الأمة الاسلامية لا تعيش فى سلام — ولذلك فإن التزاماتنا الدينية والشخصية نحو العالم الاسلامى تتطلب منا أن لا نفكر فى مصالحنا فقط. بل وفى صالح رفاية وسعادة الأمة الاسلامية. وعلى ذلك سنحاول جهد طاقتنا لطرد هذا المخلوق اللعين لى يجلس على العرش العثمانى وريشه حسبما يتفق مع سياستنا السابقة. وبالتخاذنا هذه الخطوات يمكن إنهاض العالم الاسلامى. وإذا طرأ فى ذهن أى أحد أن هذه الإجراءات سوف

(١) نشرة الجيش التى كان يقوم بها وحيد أفندى. وثيقة رقم ١١٩ محفوظة ٢٣٦ عابدين بتاريخ

٢٠ صفر عام ١٢٤٨ هـ.

(٢) من ابراهيم باشا الى محمد على باشا — وثيقة رقم ٧٢ عابدين محفوظة ٢٣٨ بتاريخ ٩ ربيع الثانى

عام ١٢٤٧ هـ.

(٣) من ابراهيم باشا الى محمد على باشا — وثيقة رقم ١٩٠ عابدين محفوظة ٢٤٠ بتاريخ ٢٧ جمادى

الثانى عام ١٢٤٨ هـ.

لا توافق عليها الحكومات الأوروبية . فليس هناك خوف من تدخلهم . وإذا لم يرضوا بإجراء اتنا فلن يستطيعوا معارضتنا والوقوف أمامنا . فإذا أحبطوا علمنا بما تم . نكون قد وضعناهم أمام الأمر الواقع ” .

” إننى فى طريق الى بروكس ومودانيا وسأمرع للوصول اليها . وسوف لا أستطيع القعود فى مكانى مدة أطول وإلا ساءت الأحوال لأن المؤنة فى قونية وما حولها لا تكفى قواتنا ” .

وفى أثناء فترة الهدنة المسلحة ، وقبيل نشوب الحرب الثانية بين الدولتين . كتب ابراهيم لأبيه من كوتاهاية رسالة تفصح عن أهدافه لما علم بوصول خليل باشا مندوب الباب العالى ، والجنرال مورافيف الروسى ، الى محمد على ، لعقد الصلح على صورة مرضية . قال ابراهيم : ” إن أهم ما يلزم البحث فيه معهما هو طلب الاستقلال وطلب إلحاق جزيرة قبرص وألوية انطاكية وعلائية وجزر ايجه الى مصر — ثم ضم تونس وطرابلس الغرب اذا أمكن ” .

وقال له أيضا : ” إننا إذا تهادنا فى طلب الاستقلال يذهب كل عملنا الذى عملناه هباء وسدى . ولا يمكننا فيما بعد أن نخلص أنفسنا من إرهاب تلك الدولة بالتكاليف التى لا تنقطع . وما اليها مما تأتى فى هذه الوثيقة الهامة ” .

ولا ندرى — الى أى مدى — كان الأب متفقا مع الابن ؟ هل شاركه فى سياسته أم كان له نظرة أخرى . ولكن الشئ الذى لا ريب فيه أن محمدا عليا كان يهدف أيضا الى الاستقلال . فقد تحدّث عنه فى بداية عام ١٨٢٥ ، ففى الخطاب الذى صاغه الجنرال بوييه رئيس البعثة العسكرية فى الجيش المصرى الى الجنرال بليار (١٨ يوليو ١٨٢٥) . وقد سبق ذكره .

وبعد خمس أو ست سنوات ، كتب محمد علي لابنه رسالة مصرية ، كانت تم عن رضاه التام بخطة الابن في استقلال مصر التام ، بيد أنه كان حذر للغاية في طريقة تنفيذ الخطة ، أى في نوع التكتيك ، وإن كان هدفهما واحد وهو (استقلال مصر) .

مصر لا تفي بحاجيات الدولة الناهضة (المواد الخام) :
قبالة أمنية محمد علي وإبراهيم للاستقلال بوادى النيل ، ارتأى الاثنان أن يعجلا بوضع أيديهما على الشام ، للاشراف على مقدراتها^(١) .

لقد كانت مصر ، منذ مائة عام ونيف ، بالرغم من خصوبة تربتها لا تفي سكانها . وما كان يزرع فيها من أشجار الحمير والسنط لم يسد حاجة الأسطول والتعمير الى الخشب . فكانت مصر تستورد معظم الوقود والأخشاب التي تدعو اليها حاجتها ، في الحرب والسلم ، في بناء السفن التجارية لنقل الغلال ، عن طريق النيل الى اسكندرية ، وبحرا الى مرفئ الشرق الأدنى . وصنع البوارج والنقلات الحربية ، التي لم يكن هناك مندوحة من إنشائها في حروبه .

نعم ، زادت ثروة مصر من الحاصلات الزراعية ، كالقطن والتبلة ، ومختلف المواد الغذائية . فلم يكن من الصواب في شيء أن تزرع فيها الغابات ليستعاض بأخشابها عن الاستيراد ، كما أنه لم يستفد من خشب السودان بعد أن تم فتحه . فاضطر محمد علي أن يحذو حذو تحتمس الثالث ورمسيس الثاني وابن طولون للبحث عن الخشب ، في سورية وبلاد القرم . وقد عرف رجال محمد علي الانتفاع بحراج الشام والأناضول ، في الفترة بين ١٨٣٣ و ١٨٤٠ ، فأرسلوا الى مصر مئات من جزوع الأشجار ، انتقع بها في بناء البوارج ، وفي معامل الذخيرة والسلاح في مصر .

Asad Rustum : The Royal Archives of Egypt and the Origins (١)
of the Egyptian Expedition to Syria (1830 - 1841)

كذلك كان لبنان غنيا بالمعادن ، من حديد ونحاس وذهب وفضة ووزنك ، وقد كانت لأبحاث بعض المعدنين ، الذين أوفدهم محمد علي للبحث عنها ، من أقوى العوامل على تقرب محمد علي من ولاية سورية ورغبته في ضمها إلى مصر . هذا كان موقف محمد علي من المواد الرئيسية لصناعة الحرب وعنادها . كذلك كانت حاجته إلى المادة البشرية — وهى الرجال — أهم خامات القتال .

لا ريب ان مصر أمدته في كل حروبه بالرجال المكافون . ولكن بعد فشل جهوده لتجنيد السودانيين ، رأى في رجال الشام مادة تعينه . فتطلع اليهم لأنهم كانوا بطبيعة بلادهم شديدي البأس كما أنهم كانوا كثيرى العدد . يعادلون سكان مصر آنذاك^(١) وقد رحل من هؤلاء عدد وفير من أشدائهم الذين لجأوا إلى والى عكا . لذلك لا نعجب إذا ألفينا محمدا عليا يعتمد على أهل الشام في جيوشه . وهو القائل ” من جبال لبنان أجند جنودى . فأدرب منهم جيشا كبيرا ولا أقف به إلا على ضفاف دجلة والفرات^(٢) “ .

والى جانب الرجال أراد المال وهو عصب الجهاد . رأى أن يطبق الاجراءات التى نفذها بنجاح في مصر ودرت عليه المال اللازم للجيش — في الشام أيضا . والقطران يمكن أن تؤلف منهما وحدة اقتصادية واحدة فيجعلهما سوقا واحدة للصادرات والواردات . وكانت أسواق مصر في حاجة إلى الحرير والصابون وزيت الزيتون والتبغ والماشية ، فضلا عن الخشب والمعادن .

اذن كانت الشام وضمها إلى وادى النيل أظهر العوامل في نشوب الحرب لأنها كما يقول المؤرخ أسد رستم :

Supplementd Egypt in a number of its economic necessities and offered an endless number of possibilities for the monopolies of the Pasha.

Guys : Beyrout et Liban. Vol. I, 275 - 276. Vol. II, 209 - 210. (١)

Correspondance des Generaux Beillard et Boyer, p. 79. (٢)

(٤) مصر والشام وحدة طبيعية وجغرافية :

ارتأى محمد على ، مثلما ارتأى أسلافه الأيوبيين والمماليك ، أنه لا يتسنى التوسل بالسلم وحدود بلاده مفتوحة في وجه سلطان آل عثمان . فان صحراء سيناء وحدها لا تعد خطا منيعا للدفاع — والدفاع عن وادى النيل من الشرق يبدأ خطه الأول في جبال طوروس كما لا يخفى . كذلك جبال سوريا الشاهقة وأوديتها العميقة وشعابها الضيقة . هذه وتلك كانت حاجزا طبيعيا دون تقدم جيوش السلطان محمود جنوبا ، إذ لم تك فيها طرق صالحة لسير الجيوش . وهى مقبرة لجيوش الفرنج في العصور الوسيطة ، كما كانت لجيوش المغول والحثيين من قبلهم .

كان على الجيش العثماني ، الذي يقدم على غزو الشام ، أن يجتاز جبال طوروس من طريق واحد أو طريقين . وهذا أمر كان يعوق تقدمه كثيرا . وكان متعينا عليه أن ينقل جل مهماته وحاجياته في طريق وعمر . فاذا أكره على التراجع استهدف لخطر كارثة تحل به في ارتداده على عقبيه لاجتياز جبال طوروس ثانية .

أما محمد على فكان له وراء هذا الخط الأول من خطوط الدفاع خط ثان في لبنان ، حيث كان في وسعه الاعتماد على تأييد الأمير الشهابي واتباعه . كذلك كان له خط ثالث في جبل الكرمل . وخط رابع في صحراء سيناء ، فضلا عن انتفاعه بالشغور على الساحل الممتد من اسكندرونة الى اسكندرية .

والخلاصة أن الشام ومصر كانتا ، منذ مائة عام ، تؤلفان وحدة اقتصادية وجغرافية طبيعية . وقد اعترف محمد على بهذه الحقيقة منذ أوائل عهد ولايته . ورغب بحروبه في أن يجعل الإقليمين وحدة سياسية أيضا . فقد كتب الى وكيله في الآستانة نجيب أفندي يقول " إن الشام لازمة لسلامة مصر " ^(١) .

(١) وثيقة رقم ٨ — عابدين محفظة ٣ بتاريخ ٣ محرم سنة ١٢٤٨ هـ من محمد على باشا الى نجيب أفندي .

(٥) ابراهيم والقومية العربية المصرية :

يقول الأستاذ المؤرخ شفيق غربال بك إن محمدا عليا بدا وعاش وانتهى عثمانيا مساهما، وإن مهمته كما حددها من مستهل الأمر الى آخره كانت إحياء القوة العثمانية في ثوب جديد . ورمى الى أن يجد مكانا لعلمه العثماني الحى ، فى الدنيا الجديدة ، التى خلقها الانقلاب الاقتصادى فوصل بين أجزائها (بلاد العرب والشام ووادى النيل) وصيرها وحدة حقيقية على الرغم من المنافسات القومية^(١) .

وفى مكان آخر من كتابه عن محمد على الكبير يجيب المؤرخ عن السؤال (وما قدر مصر فى تفكيره وغاياته ؟) بالجاب الآتى :

ان قدرها فى عينه عظيم عظم المشروع كله . هى القلب من الجسم الحى الذى يروم أن يرى . وأبناؤها أعوانه فى البناء الكبير . نالت من حبه ونالوا من حبه القدر الأكبر رفض أن يتخذ منها عالما صغيرا ضيقا محدود الآفاق ضعيف الآمال . كما رفض أن يكون معول الهدم فى العالم العثماني حتى ولو كان الهدم اسمه الاستقلال . والباعث المحرك له اسمه العصبيية القومية . وكان خير من يعلم أن انفصام الوحدة العثمانية معناه تشتت قوتها وأجزائها ووقوع الأجزاء جزءا جزءا فى حكم الدول الغربية . لقد أحب محمد على مصر الحب كله . أو لم يقل فى منشوره من تلك المنشورات الممتعة التى يعبرها عن كل ما يحول فى نفسه : ” إن نيلنا لوطن عدم النظر كهذا هو من النعم الجسيمة وعدم القيام بالسعى والاجتهاد فى عمارتها يكون عين الكفران بالنعمة وهذا ما لا تقبله شيم جبلى وتأبى نفسى أن أكون شريكا لكم فى ذلك “ .

وعن ذلك يقول المؤرخ رفاعة رافع الطهطاوى : ” إن منافع مصر العمومية قد تمكنت كل التمكن من الذات المحمدية العلوية وتسلطت على قلبه وأخذت بجامع

(١) الأستاذ محمد شفيق غربال بك — محمد على الكبير — سلسلة كتب أعلام الاسلام .

لله . وإنه عمل تماماً بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : (من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم) ” .

هذه مصر هدف محمد علي . كانت وحدها كل شيء في برنامجي ، فلم يك من عشاق الامبراطوريات كغيره ممن سبقوه . ألم تعرض عليه حكومة فرنسا بوساطة بوليناك وميو وهودار عام ١٨٣٩ معاوتها في فتح طرابلس وتونس والجزائر ليضمها الى مصر فيشملها حكمه ؟ ولكن بعد أن وزن الأمور بميزان حكمته رفض الاقتراح الفرنسي لأنه كان ينطوى على إذلال شعب إسلامي .

أما ابراهيم فقد كان أبعد مرمى من الأب في القضية العربية . فقد كان يرغب باخلاص في إحياء نهضة عربية . فقد حل بالديار المصرية ونشأ في وسط عربي بحث . ثم قرأ تاريخ العرب وثقافتهم مع ما تلقنه من مبادئ العلوم والفنون . وكانت إقامته أعواماً طويلة في بلاد العرب والشام . قد قربه الى فضائل العرب وعيوبهم أيضاً . فعرف محاسن هذا الجيش ومساوئه وهي خالصة قبل صهرها لدى اختلاطهم فحك هذا خياله وأيقظ عطفه . ومن هذا البحث الشخصي كَوَّن ابراهيم خلاصة مشروع الدولة العربية عن عقيدة واقتناع — رأى أن هذه الدولة التي يريد الأب تحقيقها لا تتم ولا تكون كاملة إلا إذا دعمت على أساس متين هو إحياء الشعب العربي وإنهاضه فتكون الدولة شاحخة قوية ، روحاً وبنياً .

ولقد يخيّل الى البعض أن تصريحات ابراهيم عن العروبة ، وإحياء التراث العربي ، لا تخرج عن عبارات الدعاية ، التي يلجأ إليها الساسة والفاثون لتخدير الأعصاب . أعصاب الشعوب المغلوبة على أمرها . ولكن يبطل هذا الرأي أن كل الذين كانوا يعملون معه كانوا يؤمنون بالعقيدة نفسها ؛ فقد صرح مختار بك ياوره في حرب الشام وقد قابل وزير الخارجية الفرنسية في مهمة خاصة الى محمد علي و ابراهيم عام ١٨٣٣ قائلاً : ” لقد قدمنا الى مصر ولم نكد نتجاوز سنّ الطفولة ولذلك لم نعد تركا قط ولم تبقى رابطة تربطنا بذلك الشعب . أننا الآن

فتنسب إلى شعب أنبل، وأكثر تنورا إلى هذا الشعب العربي الذي سبق أوروبا في مضمار الحضارة . وزين تاريخه بأقامة المبدن المزهرة والآثار الفخمة التي غطى بها وجه الأرض من جبال الأندلس إلى وادى النيل إلى حدود إيران .^(١) واتجهت فكرة ابراهيم إلى تحويل الدولة التي أنشأها أبوه إلى دولة عربية صميمة ينسب فيها الحاكمون والمحكومون إلى شعب واحد . وإعطاء الجنس العربي جديته الخاصة وكيانه السياسى كما أن له لغته الخاصة وأدبه الخاص وتاريخه الخاص . ولقد كانت أعمال ابراهيم ورجال حكومته في بلاد العرب والشام خير برهان^(٢) صادق على إخلاصه في عقيدته ، يؤيد ذلك ما قام به من المشروعات في البلدان ، التي خضعت للحكومة المصرية .

ويتفق مؤرخو مصر الحديثة : شفيق غريال ، ومحمد رفعت ، ومحمد صبرى ، وأسد رستم ، فيما كتبوه عن عقيدة ابراهيم العربية . الذى يعتبر بحق المؤسس الأول لمنظمة الجامعة العربية ، التي أعيد التفكير فيها بعد مائة عام من انقضاء الحكم المصرى في البلاد العربية .

لذلك نعتبر ابراهيم باشا المنادى الأول بالوحدة العربية ، فهو — ولا مريه — يستحق مكان الشرف في تاريخ الوحدة القومية في الشرق العربى ، وهو كما قال عنه أسد رستم :

“He is the first Moslem of rank in the Arab World who conceived of an Arab Nationalist Movement and who was determined to make it effectual”.

هذه أهم دوافع النضال التي استثارت الحرب بين محمد على والباب العالى ، وإن كان بعض المؤلفين جروا في كتبهم على إيراد أسباب سلمية أخرى ، تكاد تتفرع عن الأسباب الرئيسية التي بسطناها . يذكرون من بينها :

(١) George Douin: La Mission de Baron de Bois le comte l'Egypte et la Syrie en 1833 - p. 249 - 250.

(٢) الأستاذ محمد كرد على — خطط الشام — ج ٣ ص ٧٥

إن سوء التفاهم الذى ساد بين عبد الله باشا الجزائر والى عنكاه ومحمد على باشا
سرجعه هجرة الفلاحين من مصر الى ولاية الأنحر، وعدم وفاء عبد الله بدين عليه ،
وسوء نيته، وطموح محمد على للتسلط والتملك .

وما أشبه من أسباب أخرى .

حملة الشام الأولى (الجولة الأولى)

الجيش المصرى فى عام ١٨٣١ :

كان عدد الجيش النظامى، حينما أعدت حملة الشام، حوالى ٧٠,٠٠٠ موزعة
بين الأسلحة على الوجه التالى :

١٨ آلاى مشاة .

٨ آلاى خيالة .

١ آلاى مدفعية .

وحدات من المهندسين واللغامين وقوات غير نظامية

أما الوحدات، التى خصصت للحملة بقيادة ابراهيم ورئاسة هيئة أركان حرب
سليمان باشا، فكانت تتألف من :

٥ آلاى مشاة، وهى الآلايات ٨, ١٠, ١٢, ١٣ وآلاى الحرس

٤ آلاى خيالة، وهى الآلايات ٣, ٥, ٦, ٧ المدرعة والرماحة

١ أورطة مدفعية تحتوى على ٤٠ مدفع ميدان و ٢٠ مدفع حصار

و ١٠ هاون (زيدت فيما بعد) .

٤٠٠ جندى من المهندسين .

١٤٠٠ خيالة من البدو .

وكان في كل آلاى خيالة أربعمائة رجل، لنقل المتاع والمياه، كما ألحقت بكل أورطة حملة لنقل حاجياتها وقد أربى تعداد الحملة بأسرها على ٢٥,٠٠٠ جندي ، منها ٣,٠٠٠ خيالة .

الأسطول

وتألف الأسطول المصرى من ٢٣ سفينة حربية ، منها ٧ فرقاطات ، و ٦ قرويته و ٣ أباريق ، و ٧ سفن مدفعية وغيرها من النقلات الصغيرة . ومثل هذه الوحدات البحرية كانت تحت إمارة أمير البحر عثمان نور الدين باشا .

الخططة العامة :

تتفق — الى مدى بعيد — خطة فتح الشام بقيادة ابراهيم ومثيلتها بقيادة نابليون . والفارق الأوحده أنه لم تك لهذه السيادة البحرية التامة في شرق البحر المتوسط نظرا لوجود الأسطول الانجليزى ومنعه من حرية العمل . بينما اعتمد ابراهيم على تعاون قواته البحرية والبرية ، مثلما فعل تحوتمس ورمسيس من قبل فقد كان الاتصال مستمرا عن طريق البحر ، بين مصر وقوات ابراهيم البحرية الشىء الذى افتقده نابليون ، وبعبارة أبين لم يك متيسرا .

قسمت وحدات الحملة الى قسمين كان رأس القسم الأول ابراهيم ، الذى اتخذ البحر طريقا يصل به الى يافا ، وكانت قاعدته نجر العريش . أما القسم الثانى فكان يقاتده ابراهيم يكن وقد تحرك برا من الخانقاه .

وصف ميادين الحرب (الشام وفلسطين) :

قبيل الخوض في الحملات العسكرية ، في فلسطين والشام ، يتعين أن نأتى بوصف موجز لأراضى هذا الإقليم ، التى تتألف منها ميادين المعارك التى يتناولها هذا الموضوع ، لأن الأرض وشكلها — كما لا يخفى — هى التى تملى نوع الحركات

(١) جاء في كتاب تاريخ الحرب الشامية لكادلفين وباروصفا موجزا لأبار المياه ، التى مرت بهد الحملة في طريقها الى يافا وكفايتها .

العسكرية وعملياتها التي ينفذها القائد الكبير إلى الجندى الصغير . ولا تعدوا الحقيقة إذا أورينا بأن الجيش في الميدان أشبه بالماء في الوعاء ، يتشكل به حسبما يشاء ! يتيسر تقسيم سورية إلى أربع مناطق ، تتباين في السعة ، تمتد من الشمال إلى الجنوب بموازاة بعضها تقريبا . وأولى هذه المناطق — الشاطئ — وتتكون من عدة سهول ساحلية تختلف في اتساع رقعتها . وينفصل بعضها عن بعض بالجبال التي تمتد في بعض الجهات إلى ساحل البحر المتوسط ، مثل جبل الكرمل في لبنان ، وجبال أحمر داغ بالقرب من أنطاكية . ومعظم المناطق الساحلية ضيقة ، إلا أنها تتسع في الجنوب لدى سهل شارون . ويبلغ متوسط عرضه هناك حوالي ١٥ ميلا . وكثيرا ما نتجح السهول الساحلية نحو الداخل ، سائرة من مجارى المياه ، ووديان الأنهار ، كسهل اسدراييلون شمال الكرمل ، ووادي العاصي (الأورنت) لصق أنطاكية . غير أنه في الوسط ، حول طرابلس وبيروت ، تضيق المنطقة الساحلية وتشبه شريطا وعرا للغاية .

والمنطقة الثانية تشتمل على الجبال المشرفة على السهل الساحلى ، وهى ثلاث سلاسل جبال الأنصارية في الشمال (كابسوس قديما) ولبنان في الوسط ، وأفرايم ويهوذا في الجنوب . والسلسلة الأولى عبارة عن جبال شاذجة تصل في بعض جهاتها إلى ١١,٠٠٠ قدم فوق سطح البحر . أما الأخيرة فلها سطح فسيح غير منتظم ، وقليل ما يتجاوز ارتفاعها ٣٠٠٠ قدم . وتحتوى ثنايا رقم هذه الجبال على مناطق خصبة أهلة بالسكان .

والمنطقة الثالثة تشمل الأودية العميقة ، التي تسلك فيها الأنهر الثلاثة : العاصي والليتاني والأردن . ويصب الأوليان في البحر مباشرة — الأول في فجوة لدى جبال الأنصارية وجبال أحمر داغ : والثاني في فجوة أضيق لصق صور من الشمال ، أما الأردن ، ومعظم مجراه ينخفض عن سطح البحر ، فإنه يصب في البحر الميت المغلق . ويتميز العاصي والليتاني بنصب وديانها الفسيحة ، أما وادي

الأردن فضيق وغير مملوء بالمستنقعات ولا يتهيأ عبوره إلا في مناطق قليلة، ويمتد وادي الأردن إلى الجنوب : ويتصل بوادي العرابية الذي يصل إلى خليج العقبة . وإلى شرق منطقته الوديان ، تقع الهضبة الشرقية الشاغحة (التي يسميها القدامى جوف سورية) وهي مسطحة في بعض الأماكن ، جبلية في البعض الآخر ، ومتصلة بصحراء قاحلة في كثير من المواضع . ومع ذلك تكثر فيها الأماكن الحصينة الوافرة المياه والثمر ، كالأراضي الواقعة حول حلب وحول دمشق وأرض مؤاب .

وفي الشمال يكون نهر الفرات وروافده حثا فاصلا ، تصلح في حناياه العمليات العسكرية الوسيعة الحركات .

هذا هو وصف جغرافية الشام ، مسرح العمليات الحربية ، بإيجاز . أما من الناحية الإدارية فقد كانت الشام مقسمة إلى خمس ولايات :

ولاية حلب ، وهي القسم الشمالي من البلاد .

ولاية بيروت ، وهي السواحل البحرية وما يليها في داخلية البلاد ، من اللاذقية شمالي حيفا جنوبا .

ولاية الشام (سورية) وقاعدتها مدينة دمشق ، وهي تشمل داخلية البلاد وشرقها .

متصرفية القدس ، وهي تتضمن جميع البلدان الواقعة بين حدود ولاية بيروت وحدود مصر الشرقية .

متصرفية لبنان ، وهي الخامسة ، وكان لها نظام خاص واستقلال إداري ولها وائل تعيينه الدول مع الباب العالي كل عشر سنين ، وموقعها في أواسط بلاد الشام ، بين ولاية سورية وبيروت .

وكانت مقاليد الحكومة بيد والي الأيالة الشامية ، وكان في معظم الأحوال مستبدا ، وكثيرا ما صادر الناس في أموالهم . أما الشؤون العسكرية فكان من جمعتها مشير الجيش العثماني ، ومقره في دمشق .

كان الخراب شاملا البلاد ، والضرائب فادحة ، والظلم فاشيا . وظل الحال مسنين طويلا على هذا النسق ، حتى صارت البلاد على شفا الدمار . إلى أن من الله بالفرج ، بدخول القوات المصرية ، فأمن الناس على أرواحهم وأموالهم^(١) إلى قبيل مبارحتها في عام ١٨٤١ . ولم يزل أهل الشام يتحدثون بإبراهيم باشا وحكومته إلى هذا الحين — وكان محمد باشا شريف واليا على الشام من قبل محمد علي . بغرى على خطة مولاه من الإصلاح والعدل ، مما اعترف به المؤرخون من أهل البلاد وغيرهم وكذلك ما شاهده الرحالة أوجال الحكومات الأجنبية .

مسير الحملة :

حدد ميعاد مسار الحملة في أوائل عام ١٨٣١ ، بيد أنه تأجل من جراء انتشار الكوليرا في مصر ، وقضت على حوالى خمسة آلاف من الجيش فحسب !

وفي يوم ٢٩ أكتوبر عام ١٨٣١ ، تحسّرت الطليعة من معسكر الخانقاه بقيادة اللواء إبراهيم يكن^(٢) ، فتر ببلبيس والصالحية فقاطيه فبئر العبد والعريش ، حيث استراح يوما ، ثم وصل خان يونس فغزة^(٣) ، ومنها اتجه إلى يافا حيث تقابلت القوات مع وحدات القائد إبراهيم باشا الذى بلغها بحرا . فلما رسا الأسطول قبالة نغرها نزل وجهائوها وعرضوا عليه التسليم . وكانت حاميتها ٢٥٠ جنديا فتزل بلوك لاستلامها واستولى على مدافع قلعة يافا وكانت ٤٧ مدفعا بذخائرها^(٤) . وهنا اجتمع قسما الجيش لتنفيذ الخطة الرئيسية .

(١) حصر اللثام عن نكبات الشام — طبع مصر سنة ١٨٩٦ .

(٢) الملقب بالصغير — وهو ابن شقيقة محمد علي باشا — ولد في مصر عام ١٨٠٤ ، وهو شقيق أحمد باشا يكن الذى ولي على الحجاز ثم عين ناظرا للجهادية — ويلاحظ أن معظم قواد الحملة كانوا شبانا . ومنهم إبراهيم باشا الذى لم يتجاوز الثالثة والأربعين بعد — كذلك أحمد المنكلى وسليم الحجازى وعباس حلى .

(٣) كانت لغزة قلعة منيعة تقع على مرتفع خربها الفرنسيون تخريبا تاما ولم يلق المصريون أية مقاومة من رجالها .

(٤) ليافا موقع أهم من غزة لقربها من البحر ، ونغرها يسمح لرسو السفن وكان للدينة سور وأبراج منيعة .

ثم اندفعت كتبية صوب بيت المقدس فاحتلتها ، كما تقدمت وحدات بخفيفة
أخرى يقنادها حسن المناسترى واستولت على صور وصيدا ويروت وطرابلس .
الترتيبات الإدارية :

إن حملة عسكرية كبيرة مثل هذه كان لا بد لها من ترتيبات إدارية منظمة .
ففضلا عما كان يحمله الجنود معهم من التعيين الميداني . فقد كان يرسل القسماط
على سفن من مصر إلى ثغور الشام . وأنشئت التزلات في المدن والموانئ ،
خزنت بها كميات وفيرة من التعيين الجاف ، والذخيرة ، والبارود ، والخرطوش
والأكياس ، والقذائف الحجرية ، وغيرها من الفشنك وعتاد الخيل ومهمات
المدافع . وكان يرسل بانتظام كشوف عن الموجود من مختلف الذخيرة
في مستودعات الجيش ، كلما امتدت خطوط مواصلاته . وقد حفظ لنا التاريخ
اسم مدير أكبر مستودعات التموين وهو نظيف بك ، كما أقيمت مستشفيات الميدان .
وقد عثرنا على وثيقة هامة ، عبارة عن تقرير من المهندس قاسم أغا بتاريخ
٢٤ رمضان ١٢٤٧ هـ (١٨٣٣ م) تحتوي على آراء هامة في هذا الصدد ننقلها لأهميتها^(١) .
بما أن الجيش المصرى أصبح بعيدا عن مصر يحول بينه وبينها الصحراء .
وأن طريق البحر ليس بآمن دائما وأنه ليس هناك ظلال تموين الجيش لسبب ما ،
استحكم في البلاد المفتوحة من القحط والغلاء فاقترح ما يأتي :

أولا — مد خط من مصر وإنشاء شون للغلال على خط مستقيم طول الجهات .
التي تمتد فيها الحركات العسكرية — في الصالحية وقايطية والعريش وغزة ويافا .
وحيفا وصور وصيدا ويروت وطرابلس وما إليها . ويودع في كل هذه الشون .
مقدار واف من وسائل النقل ليتولى إيصال ونقل مؤنة الجيش من مصر إلى محطة .
في محطة حتى المعسكر .

(١) وثيقة رقم ٦٩ / ٢ / محفظة رقم ٢٣٢ عابدين بتاريخ ٢٤ رمضان ١٢٤٧ هـ تقرير مقدم من
المهندس قاسم أغا .

ثانياً — ينشأ في دمياط مستشفى كبير يرسل إليه من الجيش العساكر المرضى والضعايف للعالجة فيه — وتنشأ فيها أيضاً أورطة مؤقتة أو بلوكات تؤلف من الذين يشفون من هؤلاء المرضى ومن العساكر الجدد . فيعين منهم الحراس في الشون كما يسد منهم النقص الذي يحصل في الآليات — وإذا أخذ بهذا النظام فيصان مكان الجيش بحيث يبقى الآليات التي يكون منها كاملة العدد ويحفظ أيضاً الطريق المشترك الذي بين مصر وبر الشام ويقل للغاية عدد الحسائر التي تحدث في الدواب بسبب طول الطريق الممتد من مصر إلى هنا .

معارك حصار عكة :

كانت عكة محصنة بأسوار متينة وتحميها عدة أبراج من الشرق والشمال . أما من جهة البحر فكانت الأسوار أقل متانة من الأسوار القائمة من جهة البر . والمياه المجاورة لها قليلة العمق لا تسمح للسفن الكبيرة بالرسو على مقربة منها . وكانت جميع الحصون في حالة جيدة . وقد وصفت حصون عكة في كثير من الكتب المعاصرة . ومن تناولها بالإفاضة الأستاذ أسد رستم^(١) . وقد رأينا أن نينها في خارطة مرفقة بهذا رغبة في الإيجاز المبني . وكانت حامية المدينة مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل ومعهم مدفعية قوية وكميات وفيرة من المؤن والذخيرة والمياه والطعام . تكفي الحامية لحصار طويل الأمد . وبالإختصار كانت استحکامات عكة غاية في المنعة بعد الإصلاح الذي شملها عقب انسحاب الفرنسيين منها .

وفي يوم ٢٦ نوفمبر (١٨٣١) استهل إبراهيم محاصرة عكة فاستسلمت حاميتها في الدفاع عنها — وقد امتاز العكاويون بروح قتال وبعنوية عالية إلى نهاية القتال —

Notes on AKKA and its Defences under Ibrahim Pasha. 1926. (١)

وانتصرت حامية بعض الأبراج على المصريين ، مما حدا بإبراهيم أن يطلق نيران مدفعيته عليها أياما متوالياً لكن بدون جدوى . وفي هذه الأثناء أرسل محمد على إلى عكا مهندساً قديراً تولى إدارة أعمال الحصار بكل دقة . وقد تمكن المصريون ، بالرغم من شدة مقاومة الحامية ، من فتح ثغرتين في الجهة الشرقية من السور ، وأمطروا المدينة وأبلا من القنابل والرصاص ، برا وبحرا ، فخربت المدينة ومات الكثيرون من رجالها . ومع ذلك استمرت تدافع بكل شجاعة . وصبت المدافع المصرية النيران على أسرارها ونجحت في فتح ثلاث ثغرات ولكن بدون أثر . وفي خلال تبادل النيران أصيبت بعض السفن المصرية بتلف كبير ، الشيء الذى دفع إبراهيم على القيام بهجوم عام . ولكن قبيل شروعه في تنفيذ خطته دعا عبدالله باشا إلى التسليم فأبى .

استعصمت عكا على الجيش المصرى ، وانقضت ثلاثة أشهر بدون معارك تستحق الذكر ، فارتأى إبراهيم الصمود قبالتها بينما تقدمت بعض وحداته — كما قلنا — واستولت على صور وصيدا وبيروت وطرابلس في الشمال . ولما وضع فوز إبراهيم باشا العسكرى ، وتقدمه الخاطف ، واستيلائه على ثغور الشام الأخرى ، وهى مفاتيح ينفذ منها الفاتح إلى داخلية البلاد .

محمد على خارج على الخليفة :

رأى السلطان امام اعتداء محمد على أن يعان عصيانه ونخروجه عليه^(١) . وذلك لى يؤلب عليه العالم الإسلامى . ولما لم يدعن هذا إلى تهديده بادر فى إعداد جيش يهاجم به قوات إبراهيم خلال انشغاله فى حصار عكا . ولكن يحرم خصمه من الانتفاع بالمبادأة ويربك خططه التى وضعها .

(١) فرمان الموجه من السلطان حسين باشا الصادر فى الأستانة فى آخر ذى القعدة عام ١٢٤٧ هـ .

الجيش العثماني النظامي

وهنا يجمل بنا أن نتناول الجيش المقابل ، الذي أعده السلطان محمود الثاني ونظمه بهمة ونشاط ، على الأساليب العسكرية الحديثة ، بعد قضائه على قوات الإنكشارية في مذبحه فظيعة (١٦ يونيو ١٨٢٦) . وقد انتهى من ترتيب ٢٠ ألف جندي في أنحريات العام المذكور كانوا نواة القوة المسلحة المنظمة عند خليفة آل عثمان . ولم يك ليم له هذا الموضع العسكري الجديد في بلاد ارتبط شعبها بالروح الدينية . مما جعل قبوله للنظم الأوروبية المتحدثة أمرا غير مستساخ .

وكان على رأس الجيش العثماني السر عسكر حسين باشا ، الذي تم على أيديه إيادة الإنكشارية . ومثل هذا القائد بدأ حياته حملا بخاسوسا ثم قائد قلعة ثم مهيجا بخلافا ثم باشا الباشوات . قيل عنه أنه كان سيفا ماضيا فيما مضى ولكنه الآن سيف لا يخرج من قرابه . وقبل تقلده الجيش ألبسه السلطان محمود كسوة القيادة العليا ، وهي المعطف القصير المزركش بأسلاك الذهب ، وأهدى إليه سيفا مرصعا بالماس وجوادين عربيين مطهمين ، وقلده رتبة المشيرية ، ولقبه بالمشير الأكرم . وولاه على مصر وكريت والحبشة . ومثل هذا القائد كان نصيبه الفشل في معركة حص و بيلان بعد أن كان واثقا بالنصر فلم تمض ساعتان على نشوب القتال ، حتى بات طريدا شريدا ، فلم يقفوا له على أثر . الى أن كشف أمره . وقد أصيب بالرمد وفقد نظره ، في إحدى مزارع ولاية بروصة .

وكان حسن باشا — بالرغم من مكانته وقوة شخصيته — يمثل الرجعية العسكرية ، لأنه لم يتحول عن تفكيره القديم ، ولم تتطور وجهة نظره ، بالرغم من المستحدثات التي أدخلت على الجيش الذي قدر عليه أن يتولى قيادته . فرأى السلطان أن يدعم الموقف بتعيين قائد آخر معه اسمه محمد باشا ينهض بقيادة جميع الوحدات المنظمة ، فيما عدا قوات الحرس ، وهما دعامتا الجيش المقاتل . وكان

محمد باشا هذا نير التفكير ، ميالا الى التجديد الحديث ؛ لذلك انقسم الجيش الى فريقين : فريق المحافظين وفريق المجددين ومما زاد الطين بلة أن أصيب السردار بعلة مضمية كانت هي الأخرى سبب الكارثة التي تنتظره .

وكان الجيش الذى وضع تحت قيادته يتألف من ٦٠,٠٠٠ جندى منها ٤٥ ألف من وحدات النظام الجديد، من الجنود الذين عني بملبسهم وماكلهم ورواتبهم تجمعهم فضائل القناعة، والشجاعة، والصبر . وكانوا فى الواقع عدّة المعارك، وآلة القتال الحقيقية . ولكن كانت تنقصهم أظهر ميزات النجاح وهو النظام فضلا عن إسرافهم فى الحصول على الغنائم — وكان ضباطهم على شئ من التدريب . أما قادتهم فكانت تعوزهم الكفاءة .

أصدر السلطان أوامره الى القائد حسين باشا ، بعد أن رقاہ الى رتبة المشير (سر عسكر)، بأن ينظم جيشا فى الأناضول، ثم عين عثمان باشا اللبيب حاكما على طرابلس . ومن العجب أن يكون الاثنان خصمين لدودين ! واستطاع عثمان باشا الحصول على معاونة حاكم حلب ، فأمدّه بالرجال والعتاد ثم تقدم على رأس قواته صوب اللاذقية وطرابلس ، ليتولى شئون ولايته الجديدة . وقد نجح فى تأليب سكان الجهات التى مر بها ضد محمد على، الخارج على الدولة والدين ! بالرغم من أن محمدا عليا كان قد اكتسب احترام العالم الاسلامى أجمع ، عقب انتصاره الساحق على الوهابيين .

القوات المصرية

وكانت الحامية المصرية ، الموجودة فى طرابلس لحمايتها ، تبلغ ٣٠٠٠ جندى وكان قوامهم من القوات النظامية (الآلاى المشاة ١٨) تحت قيادة القائم مقام ادريس بك ، ومن قوات الأعراب والدروز بقيادة الأمير خليل ، أحد أبناء الأمير بشير الشهابى .

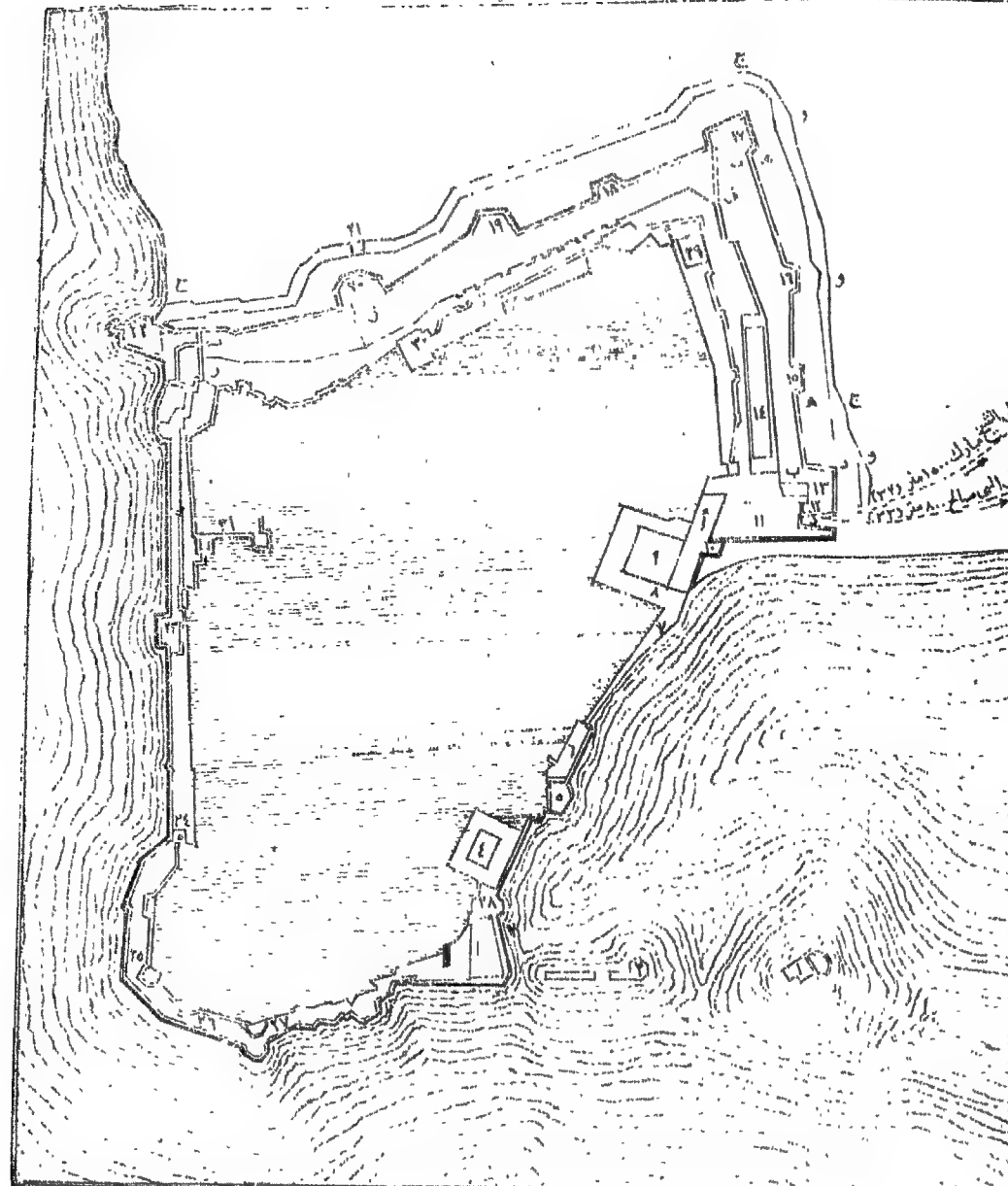
وبالرغم من تفوق قوات عثمان باشا على قوات ادريس بك في الناحية العددية فلم يهاجم المدينة بل انتظر للعمل فيما بعد ، حسبما تملى عليه الظروف . وفعلا صادفه الحظ إذ خرج القائم مقام ادريس بك على أورطة الى السهل المكشوف ، خارج المدينة ، وهاجم قوات عثمان باشا ، التي تفوق قواته عددا وعتادا ... فأبيدت الكتيبة وفر ادريس تاركا خلفه بقية وحداته .

وشجع هذا النصر السريع عثمان باشا على تدعيم معسكره أمام طرابلس . وفي ٣١ مارس هاجم المدينة فخرجت الحامية المصرية بقيادة محافظها الشجاع مصطفى بربر ومعه ٤٠٠ من الدروز الشجعان بقيادة الأمير خليل ، وأصابت المهاجمين نيرانا حامية ، وأبدوا من ضروب الجرأة والشجاعة ، وأنزلوا بالأعداء هزيمة منكرة — وفروا أمامهم الى مينة .

وصلت أخبار معركة طرابلس الى أسماع ابراهيم باشا في عكا ، وبلغه أن طليعة جيش تركي تتجمع في منطقة حماه ، فرأى أن يزايل عكا تاركا إياها للقوات المحاصرة ، وكان ذلك في التاسع والعشرين من شهر مارس ، وتقدم الى صيداء وبيروت رأس قول مؤلف من ١٠,٠٠٠ جندي منها آلاى الحرس والآلاى السابع الخيالة وستة مدافع .

وفي ٤ ابريل وصل الى بادرون على مبعدة ست ساعات من طرابلس . فلما سمع عثمان باشا بهذا التحول السريع ، واقترب ابراهيم منه ، استولى عليه الفزع ، وترك مدفعيته وعتاده ، وولى الأدبار الى منطقة حماه ، حيث عسكرت طلائع الجيش التركي .

(١) نهر ينبع في لبنان بالقرب من بعلبك ويمر بمحس وحماة وأنطاكية ويصب عند السويدية ويعرف باسم نهر العاصي .



خريطة مدينة عكا

عملها أركان حرب الجيش المصري لتسوية
استيلاء هذا الجيش عليها سنة ١٨٣١-١٨٣٢ م

- | | |
|-------------------------|-----------------------|
| ١ - برج القانوس | ١٧ - برج الزاوية |
| ٢ - برج البوطاز | ١٨ - برج حيدش |
| ٣ - محل نزول المسافرين | ١٩ - برج محمد |
| ٤ - خان السكوريدي | ٢٠ - برج الخربة |
| ٥ - برج المحبس | ٢١ - حرس |
| ٦ - حلي برج المحبس | ٢٢ - برج كرم |
| ٧ - برج النسيج | ٢٣ - برج حديد |
| ٨ - برج السلطان | ٢٤ - برج الجرس |
| ٩ - خان الجنين | ٢٥ - برج العلم |
| ١٠ - برج الانكليز | ٢٦ - برج علي أغا |
| ١١ - بطارية المياه | ٢٧ - برج أحمد أغا |
| ١٢ - باب المدينة | ٢٨ - برج الباب الثاني |
| ١٣ - برج الباب | ٢٩ - برج علي |
| ١٤ - ترسانة (دار صناعة) | ٣٠ - برج النجوم |
| ١٥ - برج النبي صالح | ٣١ - إهداء النقرة |
| ١٦ - برج السيل | ٣٢ - الفيض مبارك |
| | ٣٣ - النبي صالح |

أ - السور القديم الذي كان موجودا وقت حصار
الفرنسين وكانوا أحدثوا في برج علي رقم
٢٩ الترة الكبيرة التي دخلوا منها إلى المدينة
ومكنوا فيها وقتا قصيرا
ب - السور الثاني الذي عمده أحمد باشا الخزار
بعد حصار الفرنسيين

ج - طريق مفتاح
د - التورات الأولى التي أحدثها إبراهيم باشا
ه - التورات التي أحدثت فيها بعد ودخلت منها
الجنود المصرية المدينة
و - القوس التي عملت أمام التورات لهدم متحدر
حائط الخندق لسهولة النزول والصعود
ز - باب متخاض ارتفاعه ثلاثة أمتار بطل على
الخندق وتوجد بوه صلبة على بعد ١٦٠
متر من ناحية الجنوب

وفي اليوم التالي دخل ابراهيم طرابلس ظافرا وأمر باعدام بعض الخونة من كبار الموظفين الذين اتصلوا بالعدو . ثم قرر مطاردة عثمان باشا . فتجاوز لبنان ، وأدرك حمص ، وأصبح مشرفا على وادي نهر الأورنت^(١) على مبعدة مرحلتين جنوبي حماة .

معركة الزراعة

قدر ابراهيم موقفه فرأى أنه لا يبعد كثيرا عن عكاء . ولذلك ارتأى أن يترك حمص حيث لا يتوفر العيش والمؤنة لجيشه ، واعتلى وادي الأورنت (العاصي) حتى وصل الى خان قصير ، حيث عسكرت قواته الى الشرق في سهل الزراعة^(١) .

توهم عثمان باشا أن تراجع ابراهيم عن حمص علامة ضعفه ، فجمع إلى قواته حشدا من أهالي المنطقة والأكراد وفرسان العرب بلغ عددهم ١٥,٠٠٠ مقاتل ، وسار بهم لمقاتلة ابراهيم ، وكان هذا قد دبرله الخطة الناجحة وقسم قواته إلى قولين ، وحشد خلف كل منها مدفعيته في أماكن مستورة عن بصر العدو . وخدع خصمه وأوهمه أنه سيلزم الدفاع . فأنخدع القائد العثماني وهجم بكل وحداته على القولين فلبثت هذه صامتة حتى إذا صار الأعداء على مسافة قريبة ارتد المصريون بسرعة عجيبة خلف المدافع وبجرت انتهاء الارتداد طفقت المدافع تصب حممها . فخصدت المهاجمين حصدا ، ووقعت بهم الخسائر ، واختل نظامهم وسأدهم الهرج ، وفي وقت قصير تفرق جمعهم ، وارتدوا خائبين . فطاردتهم الفرسان المصريون حتى دفعوا بهم الى نهر الأورنت ومن نجا منهم مات غرقا .

انتهت معركة الزراعة (١٤ ابريل ١٨٣٢) بهزيمة الجيش التركي ، وارتد عثمان باشا الى حماة ، وبقي فيها يرتقب وصول الامداد .

(١) قرية جنوبي حمص .

وعاد ابراهيم الى بعلبك ليستعد لجولة أخرى . وفيها التقى بابن أخيه عباس باشا ،
الذى استدعاه من عكا على رأس الآلاى الثانى عشر المشاة والآلاى الخيالة الثالث
وثلاث بطاريات .

أهمية موقع بعلبك :

تقع مدينة بعلبك ، ذات الشهرة التاريخية ، فى وادى نهر اللينانى الذى يربط
قسمى لبنان (الخارجى والداخلى) ويصل بين وادى نهر الأردن والأورنت —
وفى هذه المنطقة تخرج الأنهر الثلاثة الأردن ، واللينانى ، والأورنت وتعمل معا
أخدودا طويلا يكاد يكون موازيا للبحر المتوسط — وقد مرت ببعلبك أكثر
الحملات العسكرية فى التاريخ ، سواء القادمة من الشمال أو الشرق أو الجنوب .
فلها موقع استراتيجى هام يسيطر على إقليم الشام . وهى على مسافة متساوية من دمشق
وبيروت وطرابلس — وقد ارتأى ابراهيم أن يسيطر على ما حولها ليحول دون
وصول إمدادات الى الأتراك تلك ويمنع قدوم أية قوة لمعاونة عبد الله الخزار لفك
الحصار عنه . وكان قد أمن على أجناب جيشه بعد اطمئنانه لمسلك اللبنانيين نحوه .
لذلك رأى الاحتفاظ بأى جهد على بعلبك وما حولها ويحرم العثمانيين من
الاستيلاء عليها . ولضمان هذا لم يتردد فى إمداد عباس باشا بالآلاى الثامن عشر من
طرابلس ، وبالآلاى الحادى عشر الذى وصل حديثا ، والآى الحرس ، والآلاى
السابع الخيالة ، الذى كان تحت قيادته .

وللأهمية نورد فى هذا السياق بيانا للقوات المصرية التى أصبحت مرابطة
فى بعلبك — وهى بمثابة طليعة الجيش المصرى ، التى ستقابل الصدمة الأولى
فى القتال المقبل :

٤ آلايات مشاة — ١١ و ١٢ و ١٨ والحرس .

٢ آلايات خيالة — ٣ و ٧ .

مدفعية كافية ووحدات مساعدة .

قوات غير نظامية .

والآن وقد نظم ابراهيم وأركان حربه سليمان بك (الفرنسي) الأوضاع الجديدة لتوزيع قواته في شمال سورية ووسطها ، واطمأنت نفسه للوقف العسكى العام ، عاد الى عكا العتيقة ، التى لم تلن صخرتها بعد . وعزم على الخلاص نهائيا من إخضاعها وفتحها ، لأنها لم تزل شوكة في جنب قواته الأيسر . هذا علاوة على ما وصل إليه من أن جيش المشير حسين باشا قد اجتاز البوسفور (١٢ أبريل) وتقدمت طلائعه في خطوات حثيثة .

عود الى عكا

لم يكن الاستيلاء على عكا بالأمر اليسير، فهى التى وقفت صامدة أمام عبقرية نابليون وعزيمته ، وهى التى يدافع عنها الآن عبد الله وهو رجل صارم القلب ثابت الجنان . فقد مرت أشهر أمام شجاعان ابراهيم ولم تسقط في أيديهم . ولم تكن منعتهما هى الصعوبة التى قاومت قائدنا فحسب بل كانت للخطة التى انتهجها الباب العالى مانعا . فقد كان السلطان يصب على ابراهيم اللعنات ، ويسلط عليه سيلا من فتاوى شيخ الاسلام . فن ذلك أنه أصدر خطأ شريفا يرمى فيه مصر بالمروق ثم تبعه في مايو ١٨٣٢ بفرمان شاهانى بتجريد محمد على و ابراهيم وإباحة دماءهما . وهذا — ولا مريية — له أثره على الروح المعنوية للدفاعيين . وكان السلطان قد أعلن الحرب رسميا على محمد على في ٢٣ أبريل .

عاد ابراهيم بعد أن اطمأن للوقف العسكى في الشمال الى عكا في ٢٧ مايو ١٨٣٢ ، وحمل عليها حملة صادقة أشرف عليها بنفسه — وكان إذا حمى وطيس القتال في مكان طالعته فيه يخوض غماره . وكان يتطلب من ضباطه أن يكونوا مثله صناديد لا يرهسون الموت . وطالت المعركة واشتد سعيها . فلما أذنت

الشمس بالمغيب ، حمل ابراهيم على المدينة حملته الأخيرة . ولكن أبدى المهاجمون لدى مغيب الشمس من ضروب الجسارة والإقدام مثلما أبدوه في أول النهار ، ودافع عيسد الله دفاع الأبطال . بيد أن شجاعته لم تغن عنه شيئاً ، وسقط هذا الحصن المنيع بينما كان الليل يرنى سدوله على جدران المدينة وأسوارها .

أوضاع القوّات في الاقتحام :

وقد وصف مستر سنت جون^(١) استيلاء ابراهيم باشا على عكاء وصفاً مسهباً نلخصه فيما يلي :

في صباح يوم ٢٦ مايو عام ١٨٣٢ ، دعا ابراهيم باشا الى خيمته كبار ضباط القوّات المهاجمة ، من قادة وأميرالايات وقادة كتائب ، وأصدر إليهم أوامره تتضمن الآتى :

اللواء أحمد المنكلي يتوجه بلوائه ومعه الكتائب الأولى من الآلاى الثانى المشاه للهجوم على برج (قبو برجى — قلعة الباب) .

الكتيبة الثانية المشاه تهاجم الثغرة المقابلة للنبي صالح .

الكتيبة الثالثة المشاه بقيادة عمر بك تهاجم الثغرة المعروفة بالزاويه . وعينت قوّة احتياطية من الكتيبة الرابعة (الآلاى الثانى) تحت الثغرة الأولى لمساعدة إحدى القوّات السابقة المهاجمة عند الحاجة .

وصدر الأمر الى كتيبة من الآلاى العاشر بقيادة أميرالاي للوقوف تحت الثغرة الثالثة للغرض المتقدم .

وصدر الأمر الى كتيبة أخرى بنقل السلام ، قبيل الساعة الأولى بعد منتصف الليل الى الخندق الواقع بجانب قبو — برجى ، وبأن تكون هناك على استعداد للهجوم . وزوّد القائد العام — فيما عدا ذلك — كل قائد بالتعليمات الخاصة به .

(١) St John - Egypt under Mohammed Ali. Vol. II, pp. 492-496.

• من تحصيل الحاصل القول بأن استيلاء إبراهيم على عكا قد وضع حدا نهائيا
لغلبة الناشبة بين محمد على وعبد الله . كما أثار موجة من الاغتياب في وادى النيل ،
حيث أقيمت الزينات ثلاثة أيام متواليات ^(١) .

• اشتغل المهندسون العسكريون بحفر الخنادق المتعرجة وإقامة متاريس قريبة
من الأسوار ونصب المدافع ، وأتموا جل هذه الأعمال في غمار الظلام ، بينما كانت
المدفعية تنصب باستمرار على المدينة .

وفي فجر ٢٧ مايو ، عقب شروق الشمس ، صدر أمر القائد العام بالهجوم ،
بشعر القتال كما ذكرنا طيلة اليوم . وفي المساء سقطت عكا في قبضة المصريين .
ومن ثم جاء أعيان عكا يلتمسون الرحمة — ولما كان دائما من شمية الشجاع تعظيم
شجعتان — فرأى إبراهيم في فلول الجيش المنهزم أعداء له يفخر بحاربتهم — فلم يسعه
أن يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وبلغ منه أن سمح لهم بأن يحتفظوا بأسلحتهم .
أما عبد الله نفسه فلم يعد بأكثر من تأمينه على حياته ، لكنه تلقاه بما هو
ينبغي بمقامه كوزير من وزراء الدولة من الحفاوة .

• كان طبيعيا أن يعمل الجند النهب في عكا ، مثلما يفعل زملاؤهم في الشرق
الغريب ، قديما وحديثا ، رغم ما أصدره إبراهيم من الأوامر . انطلق الجنود
من المدينة ينهبون محتوياتها ، بيد أن النظام لم يلبث أن أعيد في صباح اليوم التالي .
• القائد الكبير كل ما في وسعه ليكفر عن خروج الجند عن النظام ، وكان
عمله أن أذاع بين الناس أن كل من فقد متاعه سيرد إليه إذا وجد ، وأمر جنوده
أن يبيدوا كل ما كان في حوزتهم من الأسلاب .

(١) التقارير الرسمية لحصار عكا ، من البداية الى سقوطها ، كثيرة في مجموعة المحفوظات التاريخية
• • • نذكر من أهمها .

النشرة الثالثة للجيش المصري في الشام ، في المحرم سنة ١٢٤٨ (٦ يونيو ١٨٣٢) .

تقرير القائد العام سمو إبراهيم باشا عن الهجوم على عكا والاستيلاء عليها .

تقرير إبراهيم يكن باشا بتاريخ أول المحرم ١٢٤٨ هـ (٣٠ مايو ١٨٤٢) .

أما خسائر المصريين في معارك حصار عكا فهي :

| القتلى | الجرحى |
|--------------|--------------|
| قائم مقام ١ | قائم مقام ١ |
| | بكباشى ١ |
| قائد أورطة ٢ | قائد أورطة ٢ |
| صاغ ٢ | صاغ ٣ |
| يوزباشى ٣ | يوزباشى ٨ |
| ضابط ١٥ | ضابط ٤٧ |
| جندى ٤٨٩ | جندى ١٣٦٨ |
| المجموع ٥١٢ | المجموع ١٤٣٠ |

الجولة الثانية

معركة حمص

في ساحة الحركات :

في أوائل مايو عام ١٨٣٢ ، كان معظم الجيش العثمانى قد تجمع في قونية ، على السفح الذى يقع شمالى طوروس ، واحتلت أدنة بعض الوحدات فيما يلى الجبال المذكورة من الجنوب .

وفي ١٤ مايو كان حسين باشا يقيم مع جيشه في قونية ، لا يبدى حراكا وكأنه لا يتأهب لمعارك أو حروب ، تاركا الحبل على الغارب للجنود : لا تدريب أو مناورة ولا استعداد ولا نصائح للضباط أو توجيه . فعاثوا فسادا ، ونسوا جيادهم فلا عناية بأمرها ولا علائف تقدم لها . وعينما ما حاوله الضباط الأوروبيون في هيئة أركان حرب القائد ، بل قل ضاعت جهودهم هباء منثورا .

وعلى نقيض ذلك ، كانت الحال في صفوف الجيش المصرى . نشاط موفور ملحوظ بين الجند وضباطهم ، معنوية عالية نتيجة لانتصاراتهم في ستة أشهر ، تدريب متوافر وتطعيم لروح الحرب بين أفراد وحدات الامدادات ؛ تصلهم بين الفينة والفينة أنباء زملائهم في الميادين الجنوبية .

كان محمد على يلاحق ابنه بالآليات المدربة أولا بأول . فوصلته الآليات المشاة ٥ و ١٨ و ٢٠ والآلى الثامن الخيالة و ٣٠٠٠ بدوى لسد خسائر الوحدات ، وملئ المراكز الشاغرة ، تسمى مرتبات الحرب كاملة وسفن العتاد تواصل الليل والنهار في موانئ الشام التي باتت كلها خاضعة للقوات المصرية . وأسرع إبراهيم في إصلاح نفري عكا وحيفا بمعاونة الكولونيل المهندس (Romei) الفرنسى لتكونا قاعدتين ساندتين للحملة المصرية وساعده في ذلك ٤٠٠ من جنود المهندسين و ٢٠٠٠ من العمال . وكان الآلى العاشر المشاة وقليل من الخيالة تتولى حراسة خطوط مواصلات القاعدة .

وهنا كان على إبراهيم أن يعمل فورا ، دون مضبعة للوقت ، واقتناصا للفرصة السانحة . فما كان بوسعه أن يبتدئ الوقت في السرور والحفلات . وعلى عاتقه أهداف أخرى ينبغي أن يصلها ببعضها وإلا تلاشت الظروف المهيأة ، وباغته جيش السردار حسين باشا ، الذى انتهى من حشده في الأناضول .

لقد أراح جنده ، وتمتعوا بنوم هادئ بعض الليالى ، تحت قبة السماء الصافية . وانتهى من ترتيب الشؤون العسكرية في عكا ، وتقدم برأسه المفكر ينظم الخطوط الرئيسية ، في الجولة الثانية إلى دمشق .

زایل عكا في يوم ٩ يونيو (١٨٣٢) في جيش مؤلف من ١٨ ألف جندى ، نصفهم من الوحدات النظامية ، قاصدا دمشق ، تلبية أو إذعانا لأمر محمد على . لأن الاستيلاء عليها وعلى حلب وعكا وطرابلس معناه الاستيلاء على الشام كلها . ولما كان الوالد يعتقد كما أدرك نابليون من قبل أن النصر يجب التقدم الذى تؤازره

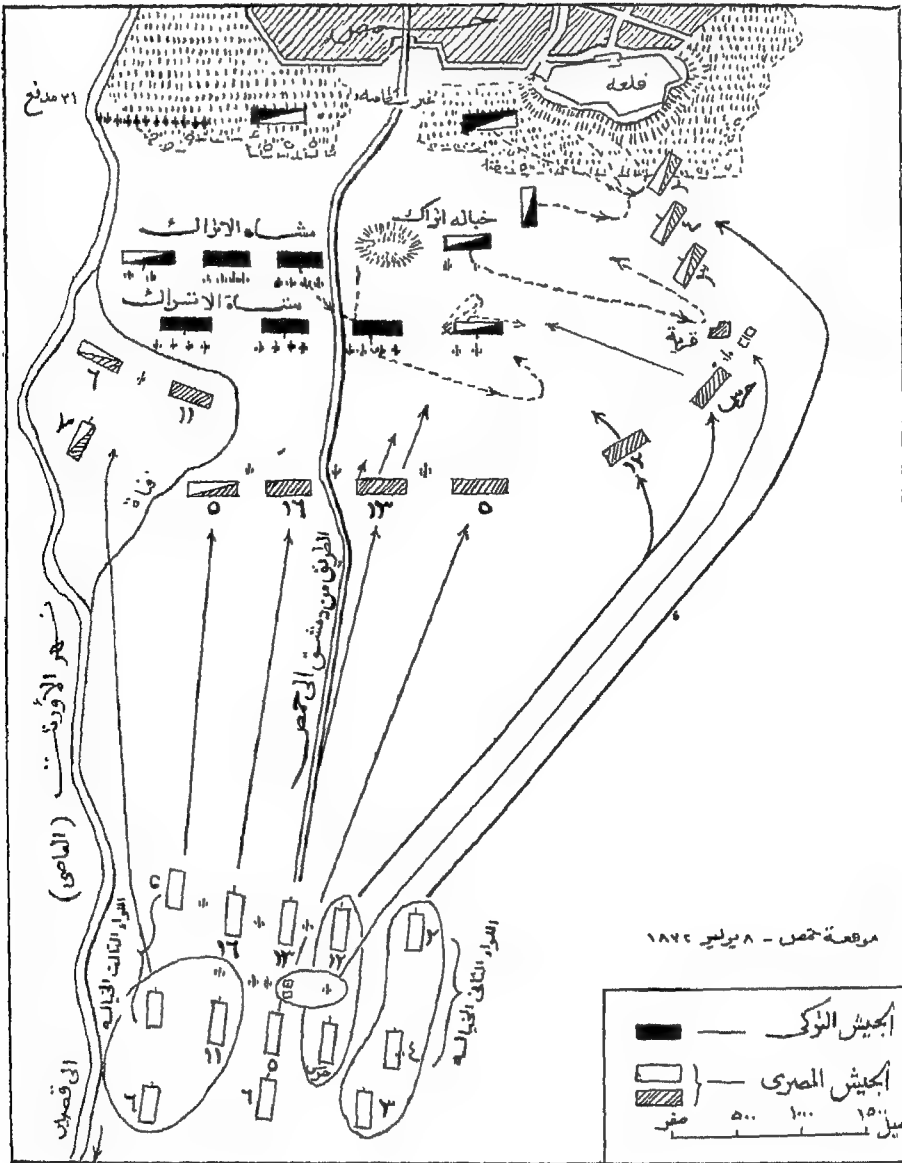
الكاتب المجبة "La victoire aime à marcher des gros bataillons." لذلك نشاهده يمد ابنه القائد بالوحدات والعتاد التي يتطلبها الموقف العسكرى أولا بأول . وفي ١٤ يونيو ، وصل ابراهيم الظافر ضواحي دمشق ، برفقة الأمير الشهابي ، على رأس ١٨٠٠٠ من المقاتلين (١٠٠٠ من الجنود النظامية) بعد مصادمة غير عنيفة بالأتراك الذين ولوا أمامه هارين . ودخل دمشق في ١٦ يونيو ، فقابله الأهالي بفرح واغتنباط . وجعلها مقر الحكومة المصرية في الشام . ورتب الإدارة فيها على نسق جديد ، وعين عليها ابراهيم يكن باشا حاكما ، وأقام لها حامية من الآلاى الثانى المشاة وأورطة من الآلاى الخامس والآلاى الخيالة الثامن .

معركة حصص

اضطر ابراهيم أن يمضى أسبوعين في دمشق لإزاء الأنباء التي جاءت به بانتشار الكليرا في حصص حرصا على سلامة جيشه ، ولم يبدد هذه الأيام هباء ، إذ راح يعد العدة لأسباب التقدم ، ويدرب جنده . أما حسين باشا فإنه — قبالة ضغط ضباطه الأوروبيين — قد تخلى عن مراكزه حول أدنه ، وتقدم الى انطاكية ثم أنفذ محمد باشا ، وإلى حلب ، على قيادة مقدمة الجيش وأمره بأن يحصن نفسه في حصص . والمسافة بين أنطاكية وحماه لا يستهان بها . ولا ندرى كيف أمر السردار أكرم قائد مقدمته بأن يبعد عن الجيش ... هل ياترى نسي تعليمات المقدمة في قانون الحرب ؟

فلما علم ابراهيم بالخطأ الذي اقترفه حسين باشا ، عزم على الاتصال بمقدمة الجيش التركي وسحقها ، ثم مهاجمة باقى الجيش بعد ذلك . فزایل دمشق زاحفا على حصص^(١) التي كان القائد التركي محمد باشا قد وصل اليها ، واستدعى من بعلبك وطرابلس بعض وحداته التي كانت تحت قيادة عباس حلمي باشا وحسن المناسترلى .

(١) تقع مدينة حصص على الشاطئ الأيمن من نهر العاصي (أورنت) وموقعها غاية الأهمية لأنها ملتقى عدة طرق . فهي على طريق بعلبك ودمشق جنوبا — وطريق أنطاكية وحلب شمالا .



فصارت القوة ، التي تجمت تحت قيادة إبراهيم لدى وصوله إلى مشارف حمص في الجنوب ، حوالى ثلاثين ألف مقاتل (مانجيان ج ٣ ص ٤٢) ورأى أمامه المعسكر العثماني إلى جنوبي حمص ذات القلعة المهدامة وتحت أسوارها .

أوضاع الجيش التركي والمصرى :

كان محمد باشا يثق بالانتصار على خصمه ”إبراهيم وفلاحيه“ بل أوهمه اعتقاده أن سيفوز وحده في معركة حمص وينال المجد بمفرده وبدون سرداره .

وفي صبيحة يوم ٧ يوليو وصل حمص وكانت أسوارها في حالة طيبة ، تحيط بها الحدائق والقنوات التي يتسنى إعدادها لوسائل الدفاع . أما جنوده فقد أنهكها التعب ، وأسقمها السير الطويل فخطوا بأسلوبهم شمال المدينة ، على شاطئ الأورنت . بينما اقتنع القائد أنه في مأمن من جنود إبراهيم — فأجل الى الغد وضع خططه وتدابيره وبدأ يستعد لتشريف الحفلة الأنيقة التي أعدها له ولضباطه — الباشا والى حلب — تكريما لشخصه .

وبينما كان يتنعم بما لذ وطاب مما تشتهيه النفس من أضراب الطعام العثماني ، وألوان الشراب السوري ، كان جنده غادروا مخيمهم يتضورون جوعا في أسواق المدينة يخطفون الخبز وشرائح اللحم ، وكلما وصلت إليه أيديهم .

وفي مساء يوم ٧ يوليو (أيضا) كانت وحدات الجيش المصرى قد اجتازت مسافة طويلة وصارت على مسيرة خمس ساعات من حمص . فعلم قائدها الكبير بوصول الجيش التركي إليها .

وكانت الوحدات المصرية تتألف من ثمانية آلايات مشاة وستة خيالة و ٣٨ قطعة مدفعية ، ومجموع القوة حوالى ٣٠.٠٠٠ مقاتل يضاف إليها البدو غير النظاميين . وقد أفاده هؤلاء — وهم مهرة في أعمال الاستكشاف — بوجود الجيش العثماني .

وتناقل المعسكران المعلومات بوساطة عيونهما ، فأدرك محمد باشا ، وسط ضجيج الحفل والمرح ، تخرج الموقف ، فجمع كبار ضباطه لتقرير المصير . وهنا ارتأى البعض أن الأصوب التقهقر المنظم إلى موقع آخر بينما فضل آخرون خطة التحرك والقضاء على الجيش المصرى .

ولا مرية أنه كان من الأصوب فى مثل هذا الموقف ، الذى كان فيه الباشا وجيشه ، التقهقر تجاه حلب ، للاتصال بقيادته العليا فى أنطاكية وبآلاف الأهالى الموالين للأتراك ، واستواء إبراهيم إليهم حيث يسهل عليها إدارة المعركة حسب مشيئتها . ولكن هل يتفق هذا رأى وحبه للجد وهو قاب قوسين أو أدنى منه . إذن ليتقبل المعركة ، ويتحدى إبراهيم ، فى سبيل شهوه المجد .

وقادته فطنته بأن يلترم خطة الدفاع ، ويشبك نفسه بمحص ، متخذاً منها تكأة لحمايته ، ومن القنوات والمباني المهتمة والأشجار موانع يقاتل جنده خلفها .

كان هذا حسن لو استبسل رجاله فى الدفاع والتشبث بمواقعهم . وبذا يعرقل تقدم جيش إبراهيم ويؤخره أياما ، فيعطى الفرصة للشير حسين باشا باتخاذ الخطة الصالحة فى الوقت والمكان المناسبين له وفى الصباح المبكر من يوم ٨ يوليو ، أزال محمد باشا معسكره ، ونسرحل قواته قبالة جنوبى المدينة أمام مزارعها الغناء .

وزع جيشه فى صفوف ثلاثة . وضع فى الصف الأول أربعة آليات مشاة نظامية عبر الطريق الموصل من حمص إلى دمشق لتكئ ميمته على الزاوية الكبرى للقناة المتصلة بنهر الأورنت . وميسرته فى فضاء الصحراء . وخلف الصف الأول الصف الثانى ، وضع فيه آلايين وآلاى خيالة عبر الطريق بين الأورنت ودمشق ويدعم بها قلب وميمنة الصف الأول . وإلى شرق الطريق المذكور ، عند أسكة وضع آلايا آخر من الخيالة لتسند ميسرة الصف الأول .

وفي الصف الثالث ، الذى امتد بين الأورنت وضبعة مخربة ، تبعد حوالى ١,٨٠٠ متر عن جنوب شرق حمص ، وضع قواته غير النظامية وآلايا من الخيالة النظامية لحماية ميسرته .

وهكذا وزع مشاته وخيالته ، أما توزيع مدفيعته فتم على الوجه الآتى :
وزع مدافعه بين صفوف وحداته الآتفة الذكر بمعدل مدفع فى كل أورطة مشاة ومدفعين فى كل آلاى خيالة . وصف ٢١ مدفعا فى مواقع مختارة خلف مينة قواته .

حركات الجيش المصرى :

وبلما كان الجيش التركى يتخذ أوضاعه المذكورة ، فى أحوال سادها الهرج والمرج ، كان الجيش المصرى ، الذى قضى ليلته على مقربة من طاحونة قديمة بالقرب من قصير ، قد طفق مسيره فى فجر يوم ٨ يولييه متجها صوب حمص .
وكان ترتيب سير القوات كالتالى :

فى المقدمة " الآلايات المشاة " ١٢ و ١٣ و ١٨ يتبعها آلاى الحرس .
والآلايان الخامس والحادى عشر (المشاة) واتخذت كل أورطة فى تشكيل قول مزدوج مفتوح (غير كامل الانتشار) أما الآلاى الثامن فكان فى الاحتياط ،
خلف منتصف القوة .

أما المدفعية فكانت ثلاث بطاريات منها فى الصف (الخط) الأول ، وأربع بطاريات وأوسين بين الصف الأول والثانى^(١) .

وكان توزيع الخيالة على النسق التالى :

ثلاثة آلايات على كلا جانبي التشكيل كله — فى مينته كما فى ميسرته ، وتحرس القوات غير النظامية من البدو أطراف الأجانب للقوات الاحتياطية .

(١) الصف هنا يطلق على الخط بأسره

وقد كان يسمح هذا التوزيع أو التشكيل لقائد الجيش — ابراهيم باشا بأن يقوم بالمناورة بحرية واسعة، حسبما تمليه عليه طبيعة الأرض التي سيتقدم عليها، وحسبما تصله المعلومات عن حركات العدو، إذا غير خطته في اللحظة الأخيرة الى هجوم مضاد . وكانت الأرض الى شرق الضيعة المخربة تسمح لابراهيم بمناورة يقوم بها بحركة التفاف واسعة حول ميسرة الأتراك، وهى أضعف نقط في خط دفاعهم، والتي لم تتركز على موانع قوية تكسر من حدة الهجوم المصرى إن لم نقض عليه .

وأخيرا اتخذ ابراهيم قراره النهائى :

” يقوم قلب الجيش المصرى بالهجوم على واجهة الجيش التركى بكل قوته ، يطغى بمشاته وخيالاته ومدفعيته نحو ميسرة الأتراك فى حركة التفاف واسعة ، بينما تقوم بعض مشاته بهجوم خادع بموازاة نهر الأورنت لشغل ميمنة الأتراك فى خطيه الأول والثانى، وبذلك يربك عملهم نهائيا .

” يتجه لواء الخيالة الثانى (الآلايان ٢ و ٤) والالاي الثالث الرماحة المدربين نحو الضيعة المهتمة، وعند وصولها لأنسب المواقع تفتح تشكيلها بين الضيعة المذكورة والمزارع (جنوبى حمص) وتلف حول ميسرة المؤخرة التركية .

” آلاى الحرس والآلاى المشاة ١٨ تدعم القوة السابقة وتفتح تشكيلها عند وصولها الى غرب وجنوب غربى الضيعة المهتمة .

” بطارية مدفعية وأبوسان تتخذ مواقعها المناسبة حيال الضيعة .

بينما تجرى هذه الحركات تأخذ الآلايات ١٣ و ١٨ مواقعها فى الأمام ويأخذ الآلاى الخامس مكانه بدلا عن الآلاى الثانى عشر وتفتح وحداتها على طريق دمشق الكبير أمام قوات الأتراك فى الصف الأول .

” فى الوقت نفسه تقوم قوة منفصلة مكونة من الآلاى الحادى عشر المشاة والآلاى السادس والسابع الخيالة و بطارية مدفعية بالتقدم نحو الأرض الواقعة بين

نهر الأورنت والقناة (وتشبه الجزيرة أو الدلتا) لمهاجمة مينة الأتراك وكاحتياطي لها الآلاى السابع المدرع فى الصف الثانى — ولدى ظهورها تولى الرعب قلوب الأتراك ، وتحطمت أعصابهم ، فاضطر القائد الى إصدار أوامره الى أورطنين فى اليمين لتغيير مواجهتها لصدد العدو المفاجئ ، ولكن كان الطرح قد عم الميدان . لقد بلغ القتال عنفوانه — المعركة فى الساعة الخامسة مساء والمدفعية المصرية تقذف نيرانها الشديدة على صفوف الأتراك ، فتسدد إصاباتا بكل دقة وإحكام ، وترد عليها مدفعية الأتراك بدون خطة محددة ، وتتبعثر طلائعها هنا وهناك . بينما وهنت روح مشاتهم فى المينة فانضموا الى زملائهم فى القلب .

والآن تصل المعركة الى لحظاتها الفاصلة . ورأى ابراهيم باشا أن يستهل الهجوم الساحق ، فأمر آلايات الفرسان ٢ و٣ و٤ ومكانها على مينة صفوفه بالزحف شرقا (كالخطة الموضوعة) لتقوم بحركة الالتفاف حول ميسرة الترك وتولى بنفسه قيادة هذه المعركة لأن على نجاحها يتوقت مصير المعركة .

تحرك الفرسان الشجعان واجتازوا الضيعة المهدمة بنحو ألفين الى ثلاثة آلاف ياردة وتقدموا لمهاجمة الخيالة الترك غير النظاميين الذين كانوا على مقربة من الضيعة وكان الهجوم شديدا ومحكما . فتراجع الترك وتفزقوا . واحتل المصريون الأرض الواقعة بين الضيعة وحدائق حمص ، ولما رأى الفرسان الترك النظاميون ما حل بزملائهم غير النظاميين تقدموا لصدمة هجمة المصريين وقد نجحوا — فأمد إبراهيم باشا فرسانه بقوة من جنود الحرس والمشاة (١٢ آلاى) والمدفعية فأوقعوا بهم وفزقوهم ، ثم هجم معهم المشاة المصريون من القلب فارتبكت ميسرة الأتراك بعد مقاومة عنيدة ثم تقهقرت الى الورا وبذلك هزم الجناح الأيسر التركى برمته وتخلى عن مواقعه .

أما قلب الجيش التركى وقد اصطدم بنيران المصريين المحكمة . وفى الوقت الذى لم تمتد مدفعيته بمعاونة كافية من النيران ، فبدأ ينثنى . وقام محمد باشا بوزن

وتقدير الموقف الذى أصبح حرجا بعد أن أصبحت ميمته ووسطه فى حالة سيئة تهدد بالانهيار السريع . وكان ينبغي عليه استدعاء قواته الاحتياطية ليعزز بها المراكز التى ضعفت ويقوم بهجوم مضاد فى ناحية الضيعة . لكن لم يفعل — ووجد حلا يأسا يخرج من الورطة فأمر آلاى خيالة فى ميسرة صفه الثانى بالهجوم على مدفعية المصريين الذين وصلوا الى الضيعة كما أمر آلاى مشاة فى قلب الصف الأمامى (وكان هذا الآلاى يتركز على آلاى الميسرة فى الصف الثانى للقيام بالهجوم بالسونكى لاختحام الآلاى المصرى الثانى عشر . وأسرع آلاى خيالاته بتنفيذ الهجوم ولكنه كان متعبا فكان هجومه غير منظم وقابلته مدفعية الحرس بنيرانها المحكمة — فدار وولى الأدبار — أما آلاى المشاة (التركى) فتقدم من القلب كالأمر الذى صدر اليه ولكن أوقفته نيران الآلاى الخامس المصرى ثم هاجمه من الجنب الآلاى ١٢ المصرى فى تشكيل مدرج من الميمنة . ولم يفعل شيئا لمقاومة الهجوم المصرى .

ويسدل الليل ستاره . وتحت ظلام الليل يمتطى محمد باشا جواده قاصدا مدينة حمص ، وبدأ كل قائد يبحث عن وسيلة لينقذ نفسه ، واقتدى الضباط بقادتهم ، ثم بدت الفوضى والهزيمة والذعر ، حين تأتى دور الجند فى ترك صفوفهم وولوا الأدبار مدحورين .

ولقد خال المصريون أن الأتراك — بعد لم شعتهم فى الليل — سيعاودون القتال ، إذ كانت قلعة حمص تحمى ظهورهم . ومرت لحظات توقع المصريون أن يعاود الترك الكرة ويستأنفوا القتال ، ولكن شيئا من هذا لم يقع ! ولم يفكر الترك فى معاودة القتال . فتقدم ابراهيم باشا بحذر على رأس جيشه الظافر مختلا المواقع التى أخلاها الترك . وأعاد تنظيم قواتها وصفها على شكل مربع ووضع المدافع زواياه الأربع . فازداد مركزه منعة بينما كان الأتراك يمعنون فى الانسحاب مكسورين . وبادر ابراهيم باشا فأرسل الى أبيه ينبئه بهذا النصر الكبير الذى عرف عند المصريين بيوم هزيمة الباشوات .

وكانت خسائر الترك في معركة حمص جد جسيمة — ٢٠٠٠ قتلى و ٢٥٠٠ أسرى واستولى المصريون على عشرين من مدافعه علاوة على ذخائره وعتاده . أما خسائر المصريين فلم تزيد عن ١٠٢ من القتلى و ١٦٢ من الجرحى .
وفي اليوم التالي دخل المصريون حمص (٩ يوليو) بينما كان الترك يعدون صوب حلب وأنطاكية . وغلب خيالهم النظامية على أمرهم فاستولى غير النظاميين على جيادهم يمتطونها ! .

نقد عمليات الجيشين

يجد المعلق الناقد لحركات الجيش التركي مادة مستفيضة من الأخطاء التي اجتاحتها القيادة . فبعد أن قررت الخروج من حمص لقبول المعركة صفت قواتها في خطوط متقاربة بدون عمق كاف . فضلا عن عدم تفكيرها بوضع احتياط ينتفع به في الوقت المناسب للقيام بهجوم مضاد . فقد كان صفه الثالث هنريلا (راجع الأوضاع السابقة) وكان تشكيل أوضاعه خطيا (formation lineaire) فلم يك قادرا على القيام بحركة مناورة لها تأثير ناجح على سير المعركة ، ولم تنتفع بطبيعة الأرض إلا من ناحية الميمنة (نهر الأوزنت والقناة) ومع ذلك فقد كرم محمد باشا في هذه الجهة معظم قواته ، وترك ميسرة جيشه في الهـواء لا تعتمد على قوات أو موانع . كما أنه لم ينتفع بالحدائق أو التخوم التي تحيط بجنوب حمص وتركها والضبعة المهتمة لعدوه الذي انتفع بها تماما .

ولم يعرف كيف يوجه مدفعيته في نيران متجمعة على وحدات المصريين ، بل تركزت على أهداف كثيرة .

وبالاختصار كانت أوضاع الأتراك وتوزيع قواتهم لا يسمح بأي نجاح سواء في حالة الدفاع أو في حالة الهجوم المضاد . فقد أهملوا المبادئ الرئيسية للقتال الناجح .

أما فيما يختص بحركات المعركة من الجانب المصرى فقد كانت كل دقائق الخطة محبوكة من الطرفين واتسمت كل حركة بالنشاط والبراعة فى تنفيذها . فقلنا نظر ابراهيم جليا الى نوع المناورة التى يعملها مهتديا بطبيعة الأرض وتوزيع قوات خصمه وموقفه — فكانت الأوضاع التى اتخذها فى توزيع قواته متفقة كل الاتفاق مع التكتيك المثالى وطاقته التى يستطيع بها تنفيذ الحركة من تقدم أو هجوم جانبي أو جبهى أو تقهقر (وهذا لم يفكر فيه أبدا) وكانت وحداته موزعة فى عمق كاف يسمح له بالسيطرة على تنفيذ الحركات وفقا لما يبتغى . وأحسن تعبير لبراعة مناورة ابراهيم نجده فى عبارة المارشال فيجان فى كتابه المعروف .

“La manœuvre etait en germe dans le dispositif initial de son armée”.

وكانت حركة الالتفاف حول جنب القوات التركية رائعة كما أسلفنا محبوكة فى تفاصيلها ومجموعها . كذلك كان هجومه على ميسرة الترك . وكان استخدام المدفعية يسير حسب خطة موضوعة لا هباء ولا ارتجالا ، وهى قواعد المدرسة الحربية الحديثة التى وضع أسسها نابليون ، وفهمها سليمان بك ، وضمها لبراهيم ، فعرف كيف ينتفع بها . هى الأسس التى أهمها مرونة الخطة ، والقدرة على تنفيذها والسرعة فى إنجازها ، وأثر المفاجأة الذى ستحدثه على العدو .

ففى معركة حمص تقابل وجهها لوجه للزاة الأولى جيشين شرقيين ، أسلحتهما واحدة ، وأسلوب حربهما متقنة . فكان النصر من نصيب الجانب الذى تفوق فى تنظيمه ونظامه فى القتال وروح قيادته العليا ، وفى هذه المعركة هدم الجمود أمام الحركة والسرعة .

أجل . فى معركة حمص بانت روح القيادة المنظمة التى تسود الجيش المصرى ومضى الجنود المصريون هزيمتهم ، أو بعبارة أوضح هزيمة أسلافهم التى لحقت بهم فى عام ١٥١٧ (معركة مرج دابق) حينما اعتدى السلطان سليم على استقلال مصر وهزم سلطانها الغورى .

وفي التقرير الذي رفعه ابراهيم لأبيه عن المعركة ، قال عن العدو :

”لم أرفى حياتي هزيمة كهزيمة العدو . فاني لا أعالى إذا قلت انه لو زحف على مئتا ألف أو ثلاثمائة ألف من عساكره لما نبض لي بسببهم نبض أو اكثرته بهم ، ونحن بمشيئة الله ظافرون بأولئك العساكر أينما وجدوا . وقد أرسلنا الأسرى الى عكا وأمرنا ديوان أفندي بأن يقبل في التقاعد كل من يريد تسجيل اسمه فيه ويرسل من يرغب في العودة الى وطنه اليه في مصر أو غيرها . وقد بلغ عدد القتلى منا ١٠٢ والجرحى ١٦٢ وخسرنا ١٧٢ جوادا .

معركة بيلان

الجولة الثالثة

قضى ابراهيم وجنوده ليلتهم في المواقع التي كانت تحتلها بالأمس جنود الترك ، وفي تاسع يوليو دخل حمص على رأس شجاعانه ، وقصد بهم إلى حلب . فبلغ حماه في عاشره وكان رجاله يلتقطون الأسرى وقد ارتضى معظمهم الاندماج تحت رايته . هذا فضلا عن المدافع والعتاد . وفي حماه عثر على خيرات الطعام الوفيرة التي كدستها القيادة العثمانية ، لأنهم رأوا جعل حماه قاعدة لعملياتهم ، وقد سارع ابراهيم في مطاردته العدو ليحرمه من التجمع وإعادة ترتيب صفوفه ، فكان يسير بقواته في الساعات الأولى من النهار ومن ثم يمنحهم الراحة . وقد تقدموا سراعا فاحتلوا ماهنيكه يوم ١١ ومعار ونعمان في يوم ١٢ وتل سلطان يوم ١٣ وزيتان يوم ١٥

وهنا يحسن أن نعرض أعمال السردار حسين باشا منذ تركه بعد إصدار أوامره لقائده محمد باشا . فإنه تقدم على رأس قسم من الجيش بين اسكندرونه وإنطاكية . كان من بينه ٨٠٠ خيال و ٧٠٠ جمل تحمل الذخيرة ميمما صوب حمص . وكان يظن أنه سيسبق ابراهيم ويملي عليه المعركة فالتقى في طريقه بفلول جيش محمد على باشا وعرف نبأ هزيمة حمص . وعلى ذلك أرتد إلى حلب ليتخذها قاعدة حربية .

وطالب حسين من أعيانها أن يمدّوه بالمؤونة والرجال ولكن كان أهلها قد بغضوا الحكم التركي وأشفقوا على مدينتهم أن يحل بها الخراب ، فأبوا أن يدخل أحد من جنوده إلى مدينتهم ، ولم يسمحوا إلا للجنود الجرحى والمرضى بالدخول ، ثم أغلقوا أبوابها ...

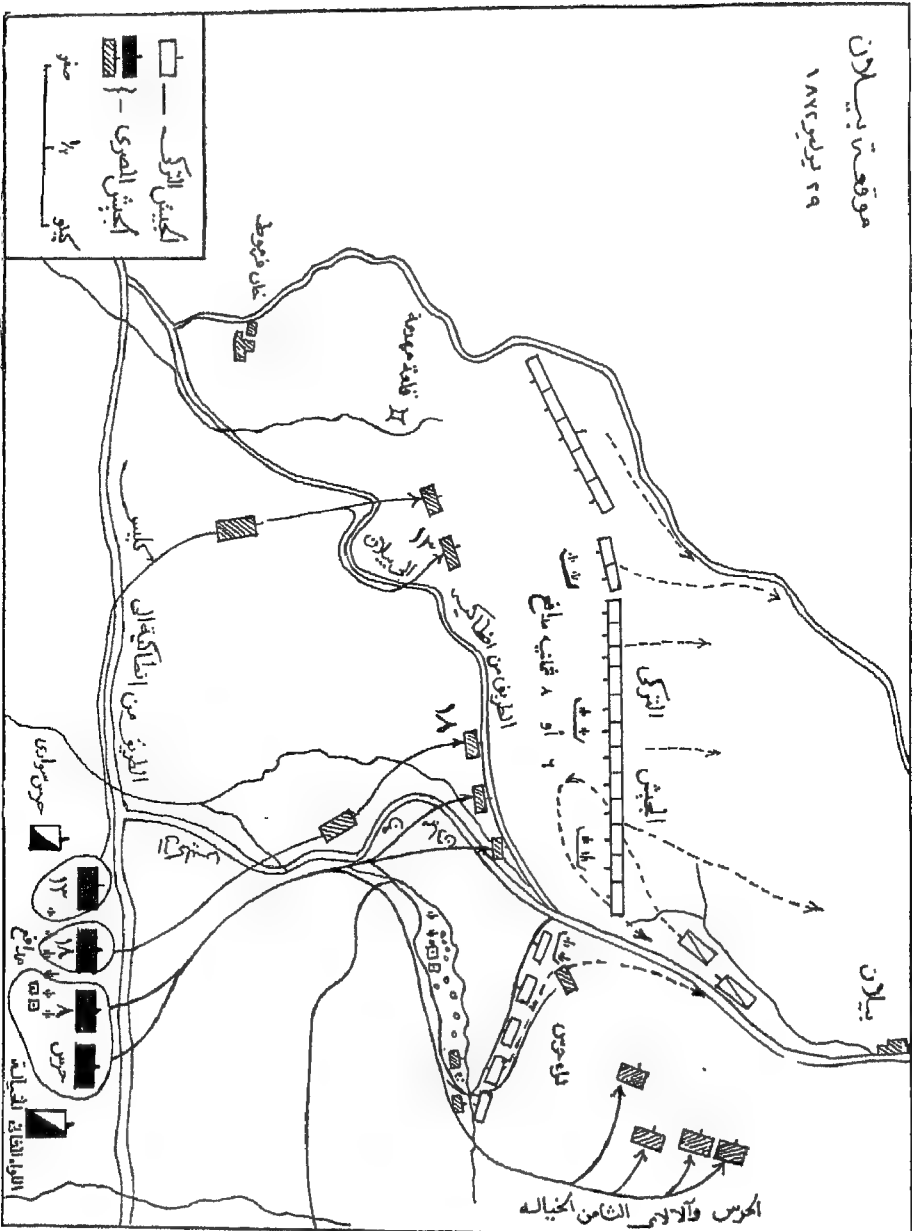
أحتفظ حسين باشا بالهدوء وقال مداعبا الذين حوله . إن جوادى لا أستطيع إرغامه على شرب الماء . فقد صمم على أن يرتوى من ماء النيل ...

وقبالة عناد الحليين اضطرب السزدار إلى مبارحة مدينتهم يوم ١٤ يوليو فاصدا اسكندرونة حيث كان يرسو الأسطول العثماني ، فأصبح تحت عاملين ، هل يعود إلى بيلان (جنوبي اسكندرونة) أم ينطلق نحو الشمال ويحصن نفسه بالقرب من مضيق طوروس المفتاح الشمالى . وأخيرا قرّر قراره على اتخاذ مكان حصين لدى مضيق بيلان^(١) وساعدته طبيعة الأرض على الامتناع بها .

أما إبراهيم فقد وصل حاب يوم ١٧ واضطر للإقامة فيها عدة أيام لتستريح جنوده ، وينفضوا عن أنفسهم متاعب القتال والوباء ، الذى تفشى فى بعض صفوفهم ، نتيجة لما خلفه الأتراك وراءهم . وقد أفاد من بقائه هناك ، بعد أن أوضح للأهالى من جميع الملل أهداف أبيه من قتال الباب العالى . فانضموا إليه بعد أن تبدت نواياه ، وسمعوا خطباء المساجد يخطبون باسم خليفة المسلمين . وفى أثناء إقامته جاءت وفود من أورفا وديار بكر تعلن خضوع المدينتين لحكم محمد على .

(١) تقع مدينة بيلان جنوبي الاسكندرونة وشمال المضيق والجبل المعروفين باسمها . ويصل إليها طريقان طريق من كليس وطريق من أنطاكية . ويقرب الطريقان فى سفح الجبل بحيث يفصل بينهما نحو ٣٠٠ متر ثم يلتقيان فى المضيق جنوبي بيلان — فيصبحان طريقا واحدا يصل إلى المدينة (الحركة القومية — للرافعى ج ٣ ص ٢٥٣) .

موقع بيلان
٢٩ يوليوز ١٨١٢



وفي ٢٥ يوليو زابل حلب مبتغيا أنطاكية ، وقسم قواته إلى شعبتين : أحدهما تؤلف من غير النظاميين اتخذوا طريقهم إلى أنطاكية مباشرة وثانيتهما قواته النظامية عبروا مضيق كليس للالتفاف شمال أنطاكية والاستيلاء عليها من الخلف .
وفي يوم ٢٨ وصل إلى قبالة أنطاكية ، وحدثت عدة مناوشات بين البدو وبضع مئين من الترك ، ثم دخل المدينة وكان حسين باشا قد أعلن أنه سيدافع عنها لكنه لم يفعل .

وقف إبراهيم أمام جبل أمانوس ، وهو من شعاب جبال طوروس أو امتداد لها شاق العلو ، يرتفع نحو ١,٨٠٠ متر ، يجتازه مضيق بيلان الذي يصل بين سهلي أنطاكية وخليج اسكندرونة ، أو يفصل بين سوريا وكيكيا ، وهو المنز الذي اجتازه جميع من قادة العالم العسكريين لفتح الشرق ، من مصريين وآشوريين وفرس وأغريق ورومان وعرب وفرنج وترك وسواهم . واليوم يدنو منه قائدنا إبراهيم ليجتازه وليس عليه ذلك بعسير . هذا اليوم هو صباح ٢٩ يولييه .

مواقع الجيش التركي الدفاعية :

كان الجيش التركي مؤلفا من نحو ٤٥٠٠٠ من المقاتلين ، من جميع الأسلحة ، و ١٦٠ مدفعا بقيادة حسين باشا ، يربط في مواقع منيعة — اتخذ مواقعه على قمم جبال بيلان . فاحتشد المشاة وتؤلف من خمس أوط فوق هضبة ، يصل طرفه الأيمن (ممينة الجيش) إلى طريق وعمر يخترق جبال أمانوس آتيا من خان قرموط إلى بيلان ، وطرفه الأيسر (حيث القلب) إلى الطريق الوسط الواصل في أنطاكية إلى بيلان وتؤلف من ١٤ أوط مشاة . أما ميسرة الجيش (٥ أوط) فكانت ترابط على امتداد ذلك الخط فيما يلي هذا الطريق ، تعاونها بعض المدافع الموضوعة على أكمة قريب من الطريق . وأقام الترك أمام صفوف المشاة بعض الموانع والبلائقات وزعوا خلالها المدافع . وفي واد ضيق يقطع الطريق جنوبى بيلان كان آلايان من خيالهم .

وكانت مؤخرة الترك المؤلفة معظمها من المشاة موزعة في خط واحد على قمة أمانوس ، وهكذا ترى من أول نظرة أن حسين باشا لم يك موفقا في وضع خطة دفاعه . فقد اتبع الأسلوب الخطي في توزيع قواته وأهمل العمق ، الذي يسهل عليه القيام بالمتاوره ، على مقياس كبير .

خطة الجيش المصرى :

عسكر الجيش المصرى فى السهل المنبسط ، تحت مضيق بيلان ، غربى الطريق المواصل من كليس وأنطاكية ، واتخذ المشاة مواقعهم فى الصفوف الأمامية ، وخلفهم الخيالة والمدفعية فى الوسط ، وخلف هذه الصفوف مهمات الجيش وعتاده .

كشف إبراهيم باشا مواقع الترك على جبل بيلان ، فوجدها منيعة ، يصعب على قواته أن تتل منها فوزا . وفى مساء يوم ٢٨ جمع مجلسا من ضباطه لوضع قرارهم النهائى فى الخطة التى ستنفذ . فرأى بعضهم تأجيل الهجوم على المضيق إلى بعد الغد ، ورأى الآخرون القيام بهجومهم يوم الغد ليحرموا العدو من تعزيز مرأى كره أو وصول إمدادات إليه من اسكندرونة .

ومن محاسن الصدف ، أن يقع المستشار الفنى لحسين باشا فى قبضة إبراهيم ، وهو الكابتن الفونسى (Thévenin) بعد الاستيلاء على حلب ، فحرم الأتراك من معاونته . وينتهى قرار المجلس إلى الأخذ بخطة الهجوم ، فى اليوم التالى (صباح يوم ٢٩ يوليو) ، والقيام بحركة التفاف حول ميسرة الترك من الجانب ، تمهيدا للإحاطة بها ، تم احتلال بعض المرتفعات المتسلطة على القلب . ويجعل مشاة الأتراك هدفا لنييران المدافع المصرية ، وفى الوقت نفسه يرسل جزءا من قواته للإحاطة بيمينه الأتراك — وكانت خطته صورة لما اتبعه فى معركة حمص — وكانت خطة الالتفاف تتطلب القوات الآتية :

٤ آلايات مشاة

٣ آلايات خيالة

٤ بطاريات مدفعية ميدان (وفي مصدر آخر ٢)

٢ مدفع أبوس

وأخذ ابراهيم باشا على كاهله قيادة هذه الوحدات ، لأهمية دورها المطلوب تنفيذ هذه .

وأمر أمير الآلاى حسن بك المناستلى بالاستعداد للهجوم المباشر على قلب ومدينة الأتراك والتقدم عن طريق بيلان أنطاكية ، على رأس الآلاى ١٣ وبطارية مدفعية — فتقدم إلى الطريق واحتل الموقع المطلوب بينما تبعه الآلاى الخيالة الخامس كقوة احتياطية له فى هجومه على مدينة الجيش التركى .

أما اللواء الثانى الخيالة ، والآلاى السادس الرماحين المدفعين ، فطلب منهم العمل بين القوتين الأتفتين ، ومساعدة إحداهما لدى الضرورة ، بينما يكون الآلاى ١٨ المشاة وبطارية ميدان فى الاحتياط .

المعركة :

ولما شاهدت القيادة التركية تقدم الشعبتين (القولين) المصريتين حتى أمرت بفتح النيران الشديدة على طريق تقدمهما فغمرتهما القذائف بعنف . وفى الحال ردت عليهما مدفعية البطاريات المصرية التى فى القول اليمين بنيران محكمة الغاية وشديدة التأثير — وفتحت فصيلتان من القناصة تشكيلها بسرعة (من الحرس) واخترقت غابة صغيرة وأحمت الجهة برصاصها السريع . وبعد قليل التحق بالفصيلتين أورطة من الحرس ومعهما أبوسين واستمروا فى هجومهم الموفق ونجحوا فى إسكات الميسرة التركية ، واستمروا ببقية آلاى حرس بسرعة مع أفراد الآلاى السابق فى أمواج تدريجية متتالية . وفى نفس الوقت كان الهجوم الجبهى بقيادة المناستلى

سائرا على ما يرام ونجحت البطارية التي تحت قيادته في إزال الخسائر الجسيمة بالأتراك . وهنا انحرف الآلاى ١٣ المشاة إلى غرب الطريق (انطاكية) وهاجم مينة العدو . وأخذ الآلاى ١٨ مكانه في الهجوم الخفيف ضد قوات القلب .

وفي اللحظة التي انتهى فيها آلاى الحرس من تحقيق أهدافه الأولى ، تهيأ للالتفاف بميسرة العدو فلم ينتظر حسين باشا اللطمة التي كانت مستدة نحوه — وعمل على التفهقر السريع نحو بيلان . وابتز الفرصة بالقناصة المصريين فهجم على بطارية تركية (٦ مدافع) كانت قد تركت وحدها بدون المشاة تحرسها وصعد جنودهما اليها على أكمة تطل عليها وأسكتوها . وحاولت آليات الخيالة التركية القيام بحركة تقسّم إلى الأمام فصنّتها نيران الحرس ، الشيء الذي جعلها تسرع نحو بيلان بغير نظام وقد تبددت جموعهم .

وهكذا أخلى الطريق إلى بيلان من قوات الأعداء ...

وبعد أن ارتدت ميسرة الترك ، وصل المصريون في تقدّمهم إلى طريق بيلان نفسه ، وتخرج مركز قلب الجيش التركي ، وأدركت قيادته أن خط الرجعة إلى بيلان أصبح مقطوعا بوصول المصريين إلى الطريق . فلاذ العدو بالفرار ، وتخلّى عما بقى له من المواقع ، وتشتت وحداته في الجبال .

وكان الآلاى الثالث عشر قد قام بمهمته خير قيام ضد مينة الترك ، ووصل رماتهم ومعهم مدفيعتهم إلى أكمة قريبة من أقصى المينة . ولما رأى العدو ما حل بالميسرة ، تخلّوا أيضا عن مراكزهم وتقهقروا نحو الجبال .

وباستيلاء المصريين على مواقع الأتراك انتهت معركة بيلان بهزيمة تامة ، بعد قتال عنيف دام نحو ثلاث ساعات ، قتل فيه ٢٥٠٠ تركى وجرح وأسر منهم نحو ألفين ، وغنم المصريون حوالى ٢٥ مدفعا وكثيرا من الذخيرة والعتاد . ولم تتجاوز خسائر المصريين ٢٠ قتيل .

وهكذا فاز ابراهيم بالنصر، لأن تنفيذه للخطة كان دقيقا ورائعا . وأعاد حسين
باشا السردار أمام بيلان موقف سلفه القائد محمد باشا قبالة حمص .
وكان نشاط ابراهيم في المعركة ، التي قام بأظهر دور فيها ، باديا في كل حركة
من حركات الجند والضباط ، فاستحق ثناء والده وإعجاب مواطنيه .

*
*
*

قضى الجيش المصرى ليلة ٢٩ يوليو في مواقع الأتراك ماعدا أورطين أمرتا
بدخول بيلان وانفصل منهما بلوكان وفصيلة خيالة مدزعة لاستكشاف الطريق
إلى اسكندرونة .

وفي يوم ٣٠ يوليو احتل ابراهيم باشا بيلان . أما الخيالة فقد سلكت طريق
اسكندرونة بقيادة عباس باشا حلمي . حيث عثروا على كميات مكسدة من الغنائم
و ١٤ مدفعا وأصناف التعيين التي تكفى الجنود أربعة أشهر .

وقد تردد حسين باشا في تدميرها . وكان وصول فلولة إلى اسكندرونة ،
بعد قيام سفن الأسطول العثماني بدقائق .

احتل ابراهيم ميناء اسكندرونة ، واندفعت الخيالة الى باباس أسرة نحو ١٤٠٠
تركي وسلمت له انطاكية واللاذقية والسويدية . أما حسين فقد أسرع نحو ادنه
بعد اجتياز مضيق طوروس على رأس شرازم لا يفخر أى قائد في الدنيا أن يكونوا
جنوده .

وعقب راحة قصيرة الأجل ، احتل جنود ابراهيم ادنه وطوروس ، وكانت
الأولى مفتاح الزحف على الأناضول . وبعد أيام كان العلم المصرى يخفق على أورفا
وعيلتاب ومرعش وقيصرية .

وبعد هذا النصر، فأى الطرق السياسية يسلكها محمد علي ؟ !

من الواضح أنه كان قبائله طريقتان : فإما أن يعلن الاستقلال ويأمر ابنه أن يستمر في الزحف للقضاء على جيوش السلطان الهاربة فيضطر الخصم إلى التسليم والاعتراف بالأمر الواقع ، أو أن يأمر ابنه بالوقوف أملا أن ينال هدنة عن طريق تدخل الدول . ولم يخل أحد الطريقتين من أخطار .

وستبين لنا مسيرة الحوادث ما سيكون بعد معركة بيلان .

احتل إبراهيم باشا طورسوس ، ثم دخل أدنة في ٣١ يوليو سنة ١٨٣٢ ، وفيها تلقى القائد من والده أمرا بالوقوف ، فقد بلغ الغاية التي كان يسعى إليها ، أي الوصول آخر حدود البلدان العربية . ولكنه أرسل آلايين إلى أورفة وقوة من فرسان العرب لمراقبة الطريق من أرضروم وسيواس وديار بكر فاحتلت القوة مرعش كما أرسل قوة إلى نهر الفرات لحماية جناحه الأيمن وبقى إبراهيم في خطة الدفاع متظرا أوامر أبيه إلى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢

موقف إنجلترا من نجاح إبراهيم :

وإلى هنا كانت السياسة الإنجليزية أمام النجاح المصري غامضة . أمامها سبيلان أولهما أن تدع محمد على يؤسس دولة عربية قوية لصمد التيار السلافي الروسي ، والسبيل الثاني أن تحتفظ بتركيا وتقويها لتظل هي الحاجز بيننا تهدم الامبراطورية المصرية الناشئة ، لأنها إذا عاشت أصبحت حاجزا قويا على طريق الهند .

فأى السبيلين تتجه إليه سياسة الإنجليز ؟ لقد فضلوا الوقوف في منتصف الطريق فلا تقاوم محمدا عليا ولا تظاهر السلطان خوفا من روسيا . أما سياسة إبراهيم فهي أخذ الأمور بالقوة وإيقاف الدول أمام الأمر الواقع .

لذلك كان يستأذن والده بالزحف على قونية ، ثم الآستانة ، ويرجوه في أن يحمل خطباء المساجد على إلقاء الخطبة باسمه . فكتب محمد علي إلى ابنه في الثامن من شهر سبتمبر يقول :

” تقول لى فى كتابك أنك تريد أن تسك المعدن وهو حام . وإنك تريد أن يخطب باسمى فى جميع المساجد والمعابد — فاعلم يا ولدى أنا لم نصعل إلى مركزنا الذى نشغله الآن إلا بقوة الوداعة وخفض الجانب فإنه يكفى أن أحمل اسم (محمد على) خالصا من كل رتبة وزينة فهو أكبر لى من جميع ألقاب السلطنة والملك لأن هذا الاسم وحده هو الذى خولنى الشرف الذى يحللى الآن . فكيف أستطيع يا ولدى أن أتركه إلى سواء — لا يا ولدى إني أحفظ اسمى (محمد على) وأنت يا ابنى تحفظ اسمك (إبراهيم) وكفى وعليك رحمة الله وبركاته “ .

أما فرنسا فقد أبلغت الباب العالى أن إصراره على القتال لا يوصله إلى نتيجة لضعف قوته دون قوة محمد على التى تترايد بحرا وبراً .

معركة قونية

الجولة الرابعة

الجيش العثماني :

أين قادة الترك ؟ لقد دحرم إبراهيم الواحد تلو الآخر . ولم يتبق لدى السلطان محمود إلا القائد رشيد باشا . رمى إبراهيم في حرب المورة ، وزعيم حرب الحصابات ... ولكن أين الجيش الذي سيوليه قيادته ، بعد أن افتقد جنوده في فيافي الأناضول !

نادى السلطان وزيره الكبير رشيد باشا ، بطل ميسولونجي وأميننا ، وقاهر ثورة أشقودرة ، فلبى القائد النداء . ومضى إلى الآستانة ليضع حياته في خدمة السلطان . وليعدّ التداير لجيشه الجديد . وفي أخريات أكتوبر انتظم الجيش الثاني في أربعة أقسام : أولها مؤلف من ٢٠,٠٠٠ من النظاميين والألبانيين يحتشد في أشقودرة حيث كانت الرئاسة العليا للجيش ومقرّ الوزير ، والقسم الثاني مكوّن من ٢٠,٠٠٠ في أرضروم واحتشدوا بين سيواس وقيصريّة بقيادة عثمان باشا وإلى طرابزون ومعه عثمان آخر ، والقسم الثالث بقيادة سليمان باشا تعدادده حوالى ١٠,٠٠٠ يعدّ حشده في منطقة طوروس على ميسرة إبراهيم باشا لستر "صاناليا" ، أما القسم الرابع من الجيش التركي فقد تألف من أنقاض جيش حسين باشا وعدده يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ ألف يتجمع لدى قونية بقيادة رءوف باشا .

بلغ الجيش العثماني في مجموعة ٨٠,٠٠٠ أى ثلاثة أمثال جيش إبراهيم ، ولكن هذا التفوق العددي لم يك كل شيء ، فكانت تنقصه قوّة الالتحام ، وكان كل قسم منه يختلف عن الآخر في الكفاءة والتدريب والنظام والقيادة والتنظيم العسكري أيضا . أما السلطان فلم يدّخر وسعا لبث الحماسة في جنوده الذين يتوقف عليهم كيان دولته . وتوسل إلى ذلك بشى السبل ، من طواير العرض إلى مقابلة الضباط والتوسع في إقامة الولائم للجنود وتوزيع النياشين على الضباط إلى منح الرتب

المتعددة وكسوات التشريفة والخلع الثمينة والسيوف . وكان يداوم على حضور الصلوات مع أفراد جيشه .

ولما ودّع السلطان جيشه قال لرشيد باشا — وقد منحه ولاية مصر والحجاز وكريت وحلب وما إليها — ” انقذ الدولة فإن شكركى لك ولعسا كرك إذا أنت فعلت لا يكون له حدّ “ .

الجيش المصرى :

وكان عدد الجيش المصرى فى الشام بعد وصول الإمدادات إليه من مصر — والأسرى الذين بدأ ينظمهم مع السوريين المجندين يتألف من :

١٠ آلايات مشاة .

١٢ آلايات فرسان .

مدفعية .

٥٠٠٠ وحدات مساعدة .

٢٠٠٠ بدو .

وصل مجموعها إلى ٥٠,٠٠٠ مقاتل تقريبا .

مثل هذا الجيش ، كان من الناحية الإدارية ، أفضل تنسيقا ، من الجيش الآخر . ولا غرو فقد كان أرقى الجيوش كلها ، التى أنشأها محمد على . وفى الواقع ، كان هذا الجيش موضع فخار مصر ، واعتزاز محمد على وإبراهيم وسليمان بك ، بل ومحل عنايتهم الأولى .

ومن بين الوحدات المذكورة قوات كبيرة تعمل على خطوط المواصلات ، أو موزعة فى الحاميات الرئيسية وتبلغ هذه حوالى النصف . ولذلك يتسنى القول بأن ٢٧,٠٠٠ مقاتل فحسب ، هى التى تحت قيادة إبراهيم باشا ، فى عمليات الميدان . يقابلها ٨٠,٠٠٠ تحت قيادة رشيد باشا^(١) هم خليط من أجناس الامبراطورية العثمانية .

(١) فى إحصاء كادلفين ٥٣,٠٠٠ مقاتل — ص ٢٩٥ .

وبناء على المعلومات التي كانت تصل إلى إبراهيم عن تجمعات الجيش التركي . طلب إلى أبيه أن يوافقه على اجتياز طوروس ، ليقضى على تجمعات الأتراك أولاً بأول ، قبل تكامل استعدادها . ولأنه كان يخشى حلول زمهرير شتاء هضاب الأناضول . وتمز الأيام والمراسلات متصلة بين قائد الجيش ورئيس الدولة (محمد علي) أولهما يتكلم بلهجة الجندى ، وثانيهما بلهجة السياسي ، وتعارض آراؤهما . ويجهز إبراهيم على اتهاج خطة الدفاع ، بينما تجمعت قواته في منطقة أدنة — طوروس بين خليج إسكندرونة وكليكا . ثم تصل إبراهيم أنباء وثيقة بأن الفصائل التركية قد استحوذت على مضيق طوروس ، وهو الممر الذي يصل بين أدنة وقونية ، وأن هذه الفصائل بدأت تناوش نقطه الأمامية ، مما دعا إبراهيم إلى التصميم للاستيلاء على المضيق بدون انتظار أوامر عالية ، ليتحكم في نقطه الأمامية ومخافره القوية . وكان لابد له أن يستولى على هرقله (اركلي) وقد دخلها في يوم ١٥ أكتوبر . وكان هناك طريقان يفضيان من أدنة إلى اركلي عبر طوروس ، أحدهما عن سبيل منارة خان وشفيت خان وأولان كيشلي وشابان ، والآخر عن سبيل طورسوس ونمرود وشاكال وزانيبا .

وأصدر إبراهيم أمره إلى قواته غير النظامية والبدو باتباع الطريق الأيمن ، للهجوم على شفت خان ، بينما يقناده نفسه قوة مختلطة مؤلفة من آلاى خيالة وآلاى مشاة وبطارية مدفعية ويتبع الطريق الأيسر ليهاجم نمرود .

وفي ١٨ أكتوبر ، وصل إلى نمرود بدون قتال ، وفي اليوم التالى بلغ قول اليمين طوروس ، ثم اجتازت مقدمته مضيق كولك بوغاز . ولما عبر وادى شفت خان اعترض التقدم المصرى قوة تركية فتصد الطريق فى وجههم واستولت أخرى على بعض المرتفعات الهامة . وقبالة هذه الحركة الناجحة أمر القائد المصرى سليم بك المجازى بفتح نيران شديدة كما أمر خيالاته باقتحام صفوف الترك فتبعثرها وتقتل منهم ٢٠٠ وتأسر ٣٠٠ ويستمر سليم بك فى المطاردة ، لكن تصله المعلومات بمقاومة

منظمة يبيديها الأتراك فيزِيلها بعد قتال شاق ويواصل المطاردة عبر طريق اركلي (هرقله) . ويقضى الجنود ليلتهم في أولان كيشلى وقد أنهكتهم أعمال القتال خلال اليوم .

وفي يوم ٢٣ أكتوبر ، بعدما وصلت أنباء القتال بالتفصيل إلى إبراهيم ، بارح نمروء وتقدم إلى الأمام لعبور طوروس ويصل إلى زانيب .

وفي ٢٥ أكتوبر احتل اركلي ، التي أخلاها الترك لدى اقتراب المصريين ، وقد ابتهج السكان لمقدمهم . ثم استراح في هذه المدينة ثلاثة أسابيع ، في انتظار موافقة أبيه على التقدّم في قلب الأناضول . ومثل هذه الفترة لم يبتدها سدى ، فقد حشد قواته التي كان معظمها يستجم في جنوب طوروس .

وفي ١١ نوفمبر كان الحشد قد تم .

في ذلك الوقت ، كانت الاتصالات السياسية مستمرة بين الدول الأوروبية والباب العالي من ناحية ، وبينها وبين محمد على من ناحية أخرى . وفي خلال ذلك كان إبراهيم يتبادل الرأي مع أبيه بوساطة الرسل أو عن طريق المكاتبات . وقد رأى القائد أن يتقدّم إلى قونية تمهيدا لوثبة أخرى يهتد بها السلطان . أما الأب السياسي فكان يرى أن يعود من قونية بعد دخولها ويترك النتائج للرأى العام في الآستانة لعله يؤثر في موقف السلطان . وفي الرسالة التالية موقف الرجلين ، حيث ردّ إبراهيم على أبيه في الثالث من نوفمبر يقول :

”يجب علينا حسب أوامرك أن نتقهقر إلى الوراء بعد الاستيلاء على قونية . فالشائع أن الصدر الأعظم يزحف علينا بقوة كبيرة فإذا نحن تقهقرنا عزوا ذلك إلى الجبن والخوف وعلى عجونا عن مقابلته وفوق هذا كله فإن الصدر الأعظم يغم الفرصة للزحف على قونية . وقد يتجاوزها للحاق بنا مديعا خبر تقهقرنا ومن يدري ما يكون من وراء ذلك فقد ينضم إليه الشعب . وقد تنور سورية والأناضول علينا ويظل الغرض من تقهقرنا خفيا لا يفهم . وبناء على ما تقدّم لا ينبغي لنا أن ندع الفرصة

تفوتنا فنحن نذهب إلى قونية ونشتت العدو . وننتظر فيها وصول الصدر الأعظم لنقهره إذا أراد مهاجمتنا لذلك أطلب منه يا والدى أن ترسل آلايين من المدد في الحال .

ثم تلقى إبراهيم من والده في الثالث عشر من نوفمبر الأمر ألا يتجاوز قونية ، نظرا لأن التقدم إلى ما ورائها ، في الظروف الراهنة ، لا تنظر إليه الدول بعين الرضا . وفي ١٦ نوفمبر ، أجاب محمد على على كتاب إبراهيم الذي كان قد أرسله إليه في الثالث من نوفمبر فأقره على رأيه . بيد أنه نبه عليه ألا يتجاوز قونية ، لأنه لا يعرف بوجه قاطع رأى الدول .

الى قونية

كان قبالة إبراهيم باشا طريقان يفضيان إلى قونية من اركلي ، أحدهما في اليمين يمر بالمدن : كيجيد — وكارابونار — وكاتانية — وايزميل — وقارخان ، وثانيهما في اليسار يمر بكارامان — وكاسابا — وشوميرة . وقد أمرت القوات النظامية باتهاج الطريق الأول ، والقوات غير النظامية الطريق الثاني .

وفيا إلى أمر التحرك الذي أصدره إبراهيم لقواته النظامية :
يتحرك الجيش بالنظام التالي :
تسير المشاة في قولين :

قول اليمين مؤلف من الحرس والآلاى ١٤
وقول اليسار من الآلاى ١٣ و ١٨

على أن لا يتبعد القولان عن بعضهما إلا بمقدار ما يسمح به تشكيل القنتح في صفين :

الحرس والآلاى ٣ في الصف الأول .
والآلاى ١٤ و ١٨ في الصف الثاني .



والمدفعية في تشكيل القطار أو بالأصناف كما يسمح الطريق .
توضع مدفعية في رأس القول على مسيرة الآلايين ١٤ و ١٨
يسير اللواء الخيالة الثانى فى المقدمة على قولين — الآلاى الثانى فى طليعة
الحرس والآلاى الرابع فى طليعته الآلاى ١٣ المشاة .
أما المهمات فتكون خلف المدفعية بثلاثمائة ياردة بالترتيب الآتى :
مهمات القائد العام ورئيس أركان حربيه — مناع المدفعية — فالخيالة فالمشاة
ويعمل الترتيب اللازم للمحافظة على المواصلات بين الوحدات .

١٧ نوفمبر :

تحرك الجيش بنظام كامل ، وبدون صعوبة أو مقاومة ، وفى ١٧ نوفمبر غادر
قول اليمين كارخان متجها الى شوميرة ليلتقى بقول اليسار . وفى هذا اليوم علم ابراهيم
أن العدو أدخل قونية فى الليلة السابقة . فلم يبدؤقتا ، ونهض على رأس بعض
قواته السريعة والمدفعية قاصدا قونية . فدخلها ليلة ١٧ وفى الصباح اتجه نحو
آق شهر فصيلة المطاردة مؤلفة من الخيالة المنظمة والآلاى الرابع الخيالة وبطاريتين
مدفعية . وتلحق هذه القوة حرس المؤخرة التركى فى ضواحي ايلجون وتنزل به خسائر
فادحة وتعود بسرعة الى قونية لتلحق بقوات ابراهيم .

يلقى ابراهيم نفسه على مبعدة ٢٢٠ كيلو مترا من حدود بلاده — وهى مسافة
طويلة واستطالت خطوط مواصلاته ولا بد أن يحتاط لحماية جناحى جيشه —
ولذلك أشار فى الحال لأحد قواده محمود بك باحتلال أورفا حيث تؤدى الطرق
الى سيواس وأرزروم — مستعينا بالبدو . كما يأمر بحقوق ابراهيم (يكن) فى السير
على رأس الآلاى المشاة وبطاريتين وخيالة غير نظامية من حلب الى مرعش عن
طريق عينتلب — ثم يأمر قائده محمد بك أن يذهب على رأس بعض الأورط
وبطارية قيصرية (وكان فى هرقله) . كل هذه العمليات كان الغرض منها مائة

خطوط عملياته ضد جيش عثمان باشا الذى طفق فى الاحتشاد فى أوائل ديسمبر حول منطقة سيواس ثم يأمر عباس باشا حامى بمغادرة أدنة لرقابة قوات سليمان باشا التركية فى إيطاليا .

واتخذ ابراهيم باشا ضواحي قونية قاعدة عسكرية وأخذ يعدد قواته لقتال الأتراك ويدرب جنوده على التمرينات فى المواقع ، التى توقع نشوب المعارك فيها . ولئن كان جيشه الذى أصبح تحت يده الآن (بعد التوزيعات المذكورة وحماية خطوط المواصلات) لا يتجاوز عدده ١٨,٠٠٠ مقاتل ، منهم ألف من البدو ، إلا أنه كان يمتاز بحسن النظام ، وكفاية القيادة والتدريب على القتال ، وسمو المعنويات .

كانت وحدات ابراهيم فى موقفه الأخير ، تؤلف على الوجه التالى :

٢٠ أورطة مشاة و ٢٤ بلوك خيالة و ٤٨ مدفعا .

ومما يثير العجب حقا ، أن عدد الجيش المصرى كان ثلث الجيش التركى .

عودة للجيش التركى :

وصل رشيد باشا الى آق شهر ، ونزل فى قديم خان ، على مبعدة تسع ساعات من شمال غربى قونية ، على رأس جيش عدده ٥٤,٠٠٠ موزعين كالاتى :

٥٤ أورطة مشاة .

٢٨ بلوك خيالة .

١٠٠ مدفع .

٢٠٠٠٠ من غير النظاميين .

كان رشيد يتسنى له الافادة من طبيعة الأناضول القاسية ، لاستهواء ابراهيم الى عدة معارك ، تنهك قواته ، وتؤثر عليه تأثيرا مرهقا ، لكنه كانت تحركة تعليمات الصدر الأعظم خسرو باشا . رجل الدولة فى ذلك العهد . وهو الذى أشار اليه مرارا بالإسراع لمهاجمة قوات ابراهيم والقضاء عليها . ولما طلب أن يرسل اليه

الفين من جنوده في الاحتياط رفض السلطان رجاء فائده وأبان له أنه يريد الاحتفاظ بهم لحماية الآستانة .
ولم يك على رشيد إلا تلبية أوامر الباب العالي ، فزایل آق شهرمیا صوب قونية .

١٨ و ١٩ ديسمبر

المصادمات الأولى

وفي يوم ١٨ ديسمبر ، يتعثر قول تركي في قرية سيلة المنبعة^(١) وكان يحتلها ألفا مصري . فيمدهم ابراهيم بسرعة بآلاى مشاة وأورطة من (الآلاى ١٩) والآلاى الثالث الخيالة وخمسة فارس غير نظاميين وبطارية . وكانت النتيجة أن ردت الجنود التركية على أعقابها مدحورة بعد أن أسر منها ٥٠٠ أسير وتركت ثمانية بيارق وخمسة مدافع وكية وفيرة من العتاد .

وفي اليوم التالى ، هاجم المصريون حامية تركية كانت تحتل دوكر لوخان ، التى تبعد ثلاث ساعات من قونية ، على الطريق المؤدى الى لاديك . وقد كان المهاجمون من الحرس والخيالة (٣ آلايات) وثلاث بطاريات . فلم يضع الأتراك وقتهم وبادروا فى التسليم وانضموا الى زملائهم أسرى اليوم السابق فى قيصرية . وقد أفادوا بمقدمهم قوات محمد بك .

وفي مساء ٢٠ ديسمبر ، علم ابراهيم باشا أن رشيد غادر لاديك على رأس قواته فى اتجاه قونية لبدء القتال ، بعد أن وزع على جنوده تعيين بقسمات لأربعة أيام ، وشعير لمدة يومين .

وكان رشيد باشا قد أرسل كتابا الى ابراهيم ، يطلب منه الانسحاب من وجه جيوش السلطان ، فرد عليه بخطاب جاء فيه : ” استأنح . أنت وأنا مسئولين عن الدماء التى تراق ، ولكن التبعة تقع على الذين أسرونا به ولا سبيل الى مخالفة ما أمروا “ .

(١) تقع على بعد ثمانية كيلومترات شمال غربى قونية .

معركة قونية

٢١ ديسمبر ١٨٣٢

كان صباح يوم الجمعة ، والضباب يخيم على ميدان القتال ، ونزلت درجة البرد الى ١١ سنتجراد ، وحال الطقس دون اكتشاف كل من القائلين مواقع جيش خصمه ، على أن ابراهيم امتاز على "رشيد" بأنه درس أرض المنطقة التي ستدور فيها المعركة دراسة دقيقة ، ودرّب جنوده عدّة مرات على مناورات القتال مدّة كافية .

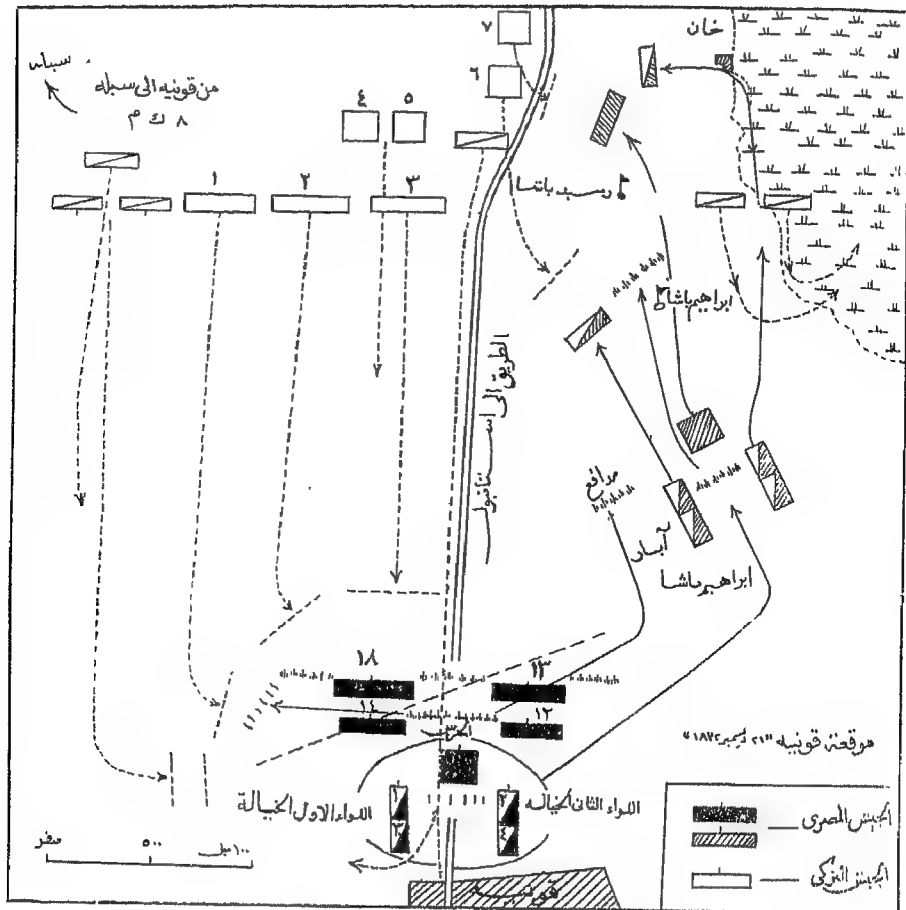
وقبل وصف توزيع قوّات الجيش ، يتعين علينا أن نرسم صورة للموقع الذي سيدور فيه القتال :

تقع قونية في ملتقى طرق الأناضول ، وتستند على شعاب جبال طوروس ، وقد بلغ عدد سكانها (١٨٣٢) حوالى عشرين ألف نفس ، يحيط بمعظم أحيائها سور قديم لكنه منيع ، وقد امتد جزء من المدينة الى خارج هذا السور .

وكانت الأراضي التي سيدور عليها القتال تقع أمام المدينة ، في الاتجاه الشمالى الغربى ، حيث امتدت هضبة خصبة يقطعها في أماكن عدّة وديان عميقة ، وقد اتكأ الميدان في الغرب على ميول تلال سيلة ، وتحدها من الشرق طائفة من المستنقعات ، وكان الطريق الموصل بين لاديك والآستانة يمرّ بمتصف ميسدان المعركة تماماً .

وقد دبر ابراهيم خطته كما فعل في المعركتين السالفتين ، على المعلومات التي وقف عليها عن جيش العدو ، ومعرفته التامة بأخلاق قائده منذ تعاونوا في المورة ، فضلاً على معرفته بطبيعة الأرض .

توقع ابراهيم أن "رشيد" سيلجأ الى توزيع جيشه الضخم على امتداد الهضبة الفسيحة بين جبال سيلة ومنطقة المستنقعات ، وأنه سيسدّ مرماه نحو قونية ، بالالتفاف حول ميسرة الجيش المصرى .



استعرض ابراهيم ، بمساعدة سليمان بك ، الموقف . وجالت في رأس الباشا
بطتان : رأى إن هو هجم على مينة الأتراك فلن تكون النتيجة محودة ، ذلك لأنها
إبطت على سفح الجبل في مواقع حصينة ، بعكس الميسرة التي كانت تستند الى
ستنقعات مكشوفة .

ورأى الباشا أن يفاجئ خصمه ، قبل فتح قواته في تشكيل القتال ، وبدأت
خطته لتبلور ، وقرر ألا يبدأ فتح نيران مدفعيته ، حتى تصبح قوات رشيد باشا
في داخل المرمى ، فيوجهها الى قلبه ، وبذا يستطيع استخدام جناحه الأيمن على
خير وجه . وكانت هذه الخطة السليمة خير ما اهتدى اليها ونتيجة لتفكيره المتواتر ،
لذى بنى عليه تدريب الجند ومناوراتهم ، خلال مقامه في قونية .

ويستدل من عدة شواهد على أن رشيد باشا لم يك واثقا ١٠٠٪ بالنصر .
ومن الأدلة أنه سلم خاتم الدولة الى وكيله أحمد فوزى باشا ، في الليلة السابقة للعركة .

الجيش المصرى في تشكيل القتال

وزع ابراهيم باشا قواته في ثلاثة صفوف ، يرتكز وسطها على طريق لاديك :
الصف الأول بقيادة سليم بك المناسترلى يؤلف الآلايين المشاة ١٣ و ١٨ .
الصف الثانى بقيادة سليمان بك (سيف) يؤلف الآلايين المشاة ١٢ و ١٤ ،
وعلى بعد خمسمائة خطوة من الصف الأول في تشكيل قول مزدوج .

والاحتياط بقيادة سليم بك ، وهو آلاى الحرس ، على بعد ثلاثمائة خطوة من
الصف الثانى ، في تشكيل قول مزدوج ومعه اللواءان الخيالة ١ و ٢

والى الطرف الأيمن في المؤخرة قوات الدلاة والبدو .

أما المدفعية — ٣ بطاريات في الصف الأول موزعة في اليمين والقلب واليسار :

بطاريتان في وسط الصف الثانى .

بطارية في الاحتياط خلف الحرس .

وكاحتياط ضد حركة تطويق قد يهتد بها العدو، أمر ابراهيم كل آلاى مشاة في الصف الثانى أن يعين أورطة في تشكيل مربع على كلا الجانبين ، على مسيرة ١٥٠ مترا من الآلاى .

الجيش التركى فى تشكيل القتال

أما رشيد باشا فقسد وزع قواته فى صفوف أربعة : الصف الأول منها فى تشكيل مفتوح ، أما الثلاثة الأخرى فكانت فى تشكيل منضم بالأورط ، وقد تألف الصف الأول من آلاى الحرس و ٢ آلاى خيالة نظامية .

والصف الثانى ٢ آلاى مشاة و ٢ آلاى خيالة .

والصف الثالث والرابع كل منهما آلاى مشاة .

وفى المؤخرة ، الى اليمين وإلى الشمال ، قوات غير نظامية ، وألبانيين ، ورجال البوسنة مشاة وخيالة .

أما المدفعية فموزعة بطارياتها بين الصفوف بمعدل مدفعين فى كل أورطة مشاة ، وأربعة مدافع فى آلاى خيالة .

وتولى رشيد قيادة الميسرة ، وهى أضعف نقطة ، وتولى قيادة قوات القلب سعد الله باشا ، والميمنة خير الدين باشا .

وقد وجدت وحدات العدو صعوبة شديدة فى اتخاذ مواقعها من جراء الضباب ولكن مرت لحظة خفت فيها كثافته ، فاستطاع ابراهيم أن يلمح توزيع الجيش العثمانى ، وكان يبعد عنه حوالى ٣,٠٠٠ متر .

ثم تقدمت صفوف الأتراك حتى صارت على مسيرة نحو ستمائة متر من مواقع القوات المصرية ، وفى الظهر أخذت المدافع التركية تطلق القنابل على المصريين ، فلم يردوا عليها بالضرب ، الى أن تعزف ابراهيم باشا على صوت إطلاق النار مواقع الترك ، وتقدم الصف الثانى المصرى حتى اقترب من الصف الأول ليتفادى فتك الشظايا التى كانت تنصب عليه .

ثم استملت المدفعية المصرية عملها في كل الجبهة — نيران شديدة متواصلة من الجانيين ، وإحكام بالغ في التسديد ، حتى لقد زلزلت الأرض في كل الجهات . وفي أثناء المعركة ، كان ينتقل ابراهيم بين الجند مشجعا ، ويشير لهم قائلا :
” عفارم — عفارم — أيوه يا ولد — ماشاء الله — عفارم “ .

وصدفة اتجه الى بترقع على يمين الصف الثاني من قواته . وفي خلال لحظة انكشف فيها الضباب إذ زاد علما بمواقع الترك ، وتبين نقطة الضعف التي يصيب منها الهدف — ذلك أن قوة الخيالة كانت تؤلف ميسرة الجيش التركي وقد أخطأت القيادة التركية في أنها لم تحكم الصلة بين الفرسان والمشاة خلال التقدم . وحدثت بينهما ثغرة ، يبلغ طولها نحو ألف خطوة ، جعلت الميسرة في شبه عزلة عن بقية الجيش .

فاتهنز ابراهيم باشا هذه الفرصة ، واعتزم الهجوم بقوات الحرس والفرسان ، خلال هذه الثغرة ، ليخترق صفوف الترك . وبادر فعلا فأصدر تعليماته بتحريك هذه القوات ، وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة . فزحفت قوة الحرس يتبعها الفرسان ، واجتازت البئر بقليل ، ثم انعطفت نحو الشمال حيث ميسرة الترك وهاجمتها هجوما عنيفا ، وشدت المدفعية أزرها . فصبت قنابلها على الترك ، واكتسحتهم من الجنب . وكان الهجوم شديدا ، والضرب محكما . فاهتزت مراكر الترك هزا عنيفا لقسوة الهجوم ، واضطروا للتقهقر شمالا من غير نظام ، في المستنقعات . وبذا هزمت ميسرة الجيش التركي .

ومن سوء الحظ ، لم يظاهروا التوفيق لمعرفة أسماء الوحدات المصرية ، التي اضطلعت بهذا الهجوم وإن كانت لتتفق جميع المصادر على ذكر « الحرس » واللواء الرابع الخيالة بقيادة أحمد المنكلي والمدفعية والآلاى الثاني الخيالة .

دبرت هذه الهجمة على أفضل تدبير ، وبينما كان يستعد الحرس للمسير الى خان قديم لمح ابراهيم الى اليسار آلاى من مشاة الترك (اتضح فيما بعد أنه

الآلاى ١٧) يتقدم فى تشكيل منظم وكان رشيد باشا قد أمر قائده لمعاونة الخيالة فى الإطباق على الميمنة المصرية — فأمر ابراهيم الحرس بتغيير مواجته وأن تنضم إليه فى الحال الآلايين الخيالة ١ و ٢ وبطارية مدفعية للقيام بهجوم ضد الجنب التركى (الآلاى ١٧) الذى انهالت عليه النيران الشديدة من ثلاثة مصادر، وأحاط به المصريون، وأوقعوا برجاله حتى سلموا سلاحهم .

ولما أدرك رشيد باشا أن ميسرته قد وقع فيها الاضطراب والفشل، أراد أن يلم شعثها، ويثبت الحمية فى نفوس رجاله — فقصد مواقع الجند، بيد أنه لم يفلح بطائل . وضل الطريق فى الضباب الكثيف . وبينما يمضى فى طريقه وقع فى أيدي العرب المصريين ، فأحاطوا به ، وجردوه من سلاحه ، واقتادوه أسيرا الى ابن محمد على الكبير .

ثم أمر ابراهيم قواته الاحتياطية ، بعد تركها وحدة من المدفعية وأورطة مشاة ، للتقدم مع الحرس فى طريق مواز لطريق لاديك للقضاء على الاحتياطى العثمانى ، وانضم إليها نصف بطارية والآلاى الخيالة الثانى وكان منتظرا أن ينضم إليها اللواء الأول ، ولكنه لم يستطع السير فى الضباب ، وقام بمنورة فيما بعد على مقربة من الخان والمستنقعات ، ثم ساعد الجناح المصرى الأيمن أمام قونية .

أما الآلاى الرابع فكان أكثر توفيقا فى مناورته . فقد تابع مطاردته الخيالة الأتراك فى المستنقعات ، ووصل الى الخان ولحق آلاى الحرس فى الوقت الذى كان يهاجم فيه الآلاى ١٩ المشاة الأتراك ، الذى كان فى الصف الرابع العثمانى . وقد وصل الآن الى موقعه فى الصف الثانى . وكانت نيران الشرنجية المصرية تنصب كالمطر بإحكام ، تساعد قذائف المدفعية ، على أجناب ومؤخرة هذا الآلاى (١٩) . وكانت إحدى كتائبه تشكلت فى هيئة مربع وباشرت العمل بهمة ، عندما أقدم الآلاى الرابع الخيالة . فاندثرت المقاومة بعد وقت قصير ،

وعم الفزع في قلب القوات التركية ، وفتر الجند غير النظامي الى تلال سيلة ، عن طريق لاديك . وكادت تخرج القوات التركية من دائرة النضال .

ولكن كان هناك بصيص من الأمل لدى القائد العثماني ، الذي تسلم القيادة بعد انهيار ميسرته وقلبه . ورأى أنه إذا نجح في مناورته ، مستعينا بقوات الميمنة ، استطاع الصمود وتحويل نتائج المعركة ، ولكن كانت حركة المناورة البارة التي نفذها ابراهيم في الحال ، أخرت ، بل قضت على خطة خصمه .

الساعة الآن الخامسة مساء ... والقتال مازال مستمرا ، وأصبح موقف الأتراك يعتمد كل الاعتماد على الآليات المشاة الثلاثة التي في الصف التركي الأول وخياله تكون منها خطأ منكسرا للإحاطة بالميسرة المصرية ، التي كان قوامها آلايين مشاة وآلاي خيالة الصف الثاني — وكان الطريق الرئيسي الى الآستانة يسير الى غربها .

وقد واجه المصريون هذا الخط ، الذي هتدهم برياطة جأش وثاب . وفي الحال أجريت العمليات الآتية — أسرع بطارية مدفعية الصف الثاني لمعاونة بطارية الميسرة في الصف الأول . ثم صبت المدفعية سواء منها في القلب أو في الميسرة نيرانها صوب الأعداء — فحصد صفوفهم حصدا . واستبسلت الميسرة في الضرب والقتال ، إذ كان على دفاعها يتوقف مصير معركة اليوم . واستمرت الملحمة ثلاثة أرباع ساعة ثم أسفرت عن كسر هجمة الأتراك بل وهزيمتهم وتشيت وحداتهم في السهل وفي قونية .

ثم أراد العثمانيون أن يبذلوا جهدا آخر عليهم يكسبون ظفرا — فتحركت قوة من خيالتهم ووصلت تجاه الصف الأول من قواتنا . فلم يحفل بها أبناء النيل ، لأنها كانت صائرة نحو الفشل . فتقدمت الى ما وراء صفوف الجيش وهناك تشنت شملها .

انتهت وقعة قونية بهزيمة قوات الامبراطورية العثمانية ، بعد أن استطال القتال فيها سبع ساعات . إذ بدأت في الظهر وانقضت بعد غروب الشمس بساعتين . وكانت خسائر الترك كالاتي :

٥٠٠٠ — ٦٠٠٠ أسير وقائد الجيوش وبينهم عدد موفور من الضباط .

٣٠٠٠ قتيلا .

٤٦ مدفعا وعدد كثير من الأعلام العسكرية .

أما ضحايا المصريين فكانت ٢٦٢ قتيلا و ٥٣٠ جريحا .

وفي الساعة الثامنة والنصف مساء . عاد ابراهيم باشا الى قونية ، ليلقي تهنئة ضباطه ورجاله .

وقد قال ادوار جوان (Gouin) عن معركة قونية : ” إن قوة الأتراك كانت ثلاثة أضعاف المصريين ، إلا أنهم كانوا أقل تدريبا وبسالة وخفة “ .

نتائج المعركة :

رأينا المعركة تنتهي بظفر رائع لا مثيل له . وأصبحت الأبواب التي تفضي الى عاصمة الخلافة مفتوحة على مصراعها ، تستقبل جيوش مصر الغازية . وقد فقد السلطان جيوشه التي اعتمد عليها ، للقضاء على خصمه . يلتفت يمينه ويسرة فلا يجد نصيرا سوى حلفائه الروس ، الذين يكرههم العثمانيون لأنهم أعداء ملتهم ، وخصوم شعبهم ، منذ استولوا على استانبول . وكان جديرا بالقائد العظيم ابراهيم أن لا يعبأ بالمفاوضات والارتباكات السياسية ، ويواصل انتصاراته ، حتى يدخل على رأس جيوشه المظفرة الآستانة ، ويخضع السلطان محمود ويملي عليه إرادته ، بينما يقتحم الأسطول المصرى المياه اليونانية ويعبر الدردنيل ، وينزل قواته في الثغور العثمانية وما وراءها . ولكن ارتبط ابراهيم بعجلة والده السياسية ، فلم يقدم على

التقدم الى العاصمة الفتانة، ليصل إليها قبل قدوم القوّات الروسية، التي جاءت^(١)ها في ١٣ فبراير سنة ١٨٣٣ .

ولم تكد تمضي أيام ، حتى يتبوأ محمد علي عرش آل عثمان ، مكان السلطان الذي كانت رعيته تنظر إليه كخليف للروس، بينما كانت في صميمها ترنو حاكم قوى ينتشلهم من الهاوية التي أوقعها السلطان فيها ولنسأل أنفسنا سؤالاً — وماذا يكون موقف المسلمين من محمد علي ... وهو في نظر بعضهم ذلك التأثير الذي اعتدى على الخليفة ، وأنزله بقوة السيف ، ونزع السلطة منه .

والجواب على ذلك نراه فيما اعتاد عليه البشر — مسلمون وغير مسلمين — وهو الملك لمن يستحق الملك والحق للقوى وليس للضعيف . وما كان محمد علي إلا عبقرى من طراز الرجال المصلحين . بدأ إصلاح ولاية مصر ثم أراد إصلاح السلطنة كلها . وكان جديراً بالقيام بهذه المهمة ، وكاد يصل الى هدفه لولا تدخل الدول ، التي كان هدفها العمل على إضعاف الدولة العثمانية لكي يرثوها بعد القضاء عليها . وقد تحققت أهدافهم بعد نصف قرن من الزمان ، وذهبت الامبراطورية العثمانية في عداد التاريخ .

سياسة التردد بين محمد علي وإبراهيم

أقام إبراهيم باشا شهراً في قونية، يعيد تنظيم قواته، عقب انتصاره الرائع، ولم يستطع مواصلة فلول جيش رشيد قبل وصول أوامر والده إليه . وقد كتب لأبيه خطاباً في ٢٨ ديسمبر يقول له فيه :

” أستطيع أن أصل إلى الآستانة ومعى محمد رشيد باشا ، وأستطيع خلع السلطان حالا، وبدون صعوبة ولكنى مضطر أن أعرف هل تسمح لى بتنفيذ هذه الخطة حتى أتمكن باتخاذ الوسائل اللازمة لأن مسألتنا لا تسوى إلا

(١) انتهت معركة قونية في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٣٢ .

في استانبول فالواجب أن نذهب الى استانبول حيث نملئ إرادتنا وأنى مضطراً أن
أكررعلى مسامعك أن الدعاوة لاتوصلنا إلى أغراضنا وإذا أنت رميت من الاشاعات.
التي تذيعها الى غرض سياسى بأننا نهسد استانبول لتقبل شروطنا كان من العيىث
أن نقف فى قونية فلا نتقدم منها الى الأمام . فإن قونية بعيدة عن رجال الآستانة.
فهم لا يقبلون عقد الصلح معنا إلا إذا دخلنا عليهم فى العاصمة كذلك هم فعلوا مع
الروس فإنهم لم يقبلوا إبرام الصلح معهم إلا بعد وصولهم إلى جلمجة بضاحية
إستامبول . فالواجب اذن أن نواصل الزحف حتى بورصة على الأقل مع احتلال
المدن الواقعة على بحر مرمره وجعل هذه المدن مراكز تموين لجيشنا فى البحر
حينئذ فقط نستطيع أن نذيع الأخبار التي قد تقضى الى عزل السلطان . وإذا
نحن لم نفلح فى إسقاط السلطان توصلنا على الأقل الى إبرام صلح يحقق أمانتنا وأنتنا
لولا الأمران الأخيران اللذان تلقيتهما منك لكنت الآن على أبواب استامبول .
وإنى لأسأل نفسى ما هو الداعى الذى دما إلى اصدار تلك الأوامر الى ؟

أهو الخوف من أوربا أم هو شىء آخر لا أعرفه ...

ألتبس منك أن تنيرنى فى هذه المسألة قبل انفلات الفرصة من أيدينا . نعم
إنى التمس إبلاغى أمركم القاطع بهذا الصدد ...

وصل هذا الكتاب الى محمد على ، فسلم برأى إبراهيم وأذنه بالتقدم ، وفى التو
قام القائد على رأس جيشه فى ٢٠ يناير وقد قسمه الى شطرين . فوصل الى كوتاهية
فى ٢ فبراير ، وتحمل الجنود زمهرير الشتاء القارص ، وصار على مبعده ٥٠ كيلومترا
من الآستانة .

وكان ابراهيم عندما زحف من قونية الى كوتاهية قد كتب الى أبيه الخطاب
التالى :

” اليوم (٢٠ يناير سنة ١٨٣٣) بدأ الجيش بالزحف على قونية تتقدمه شراذم
صغيرة لشدة البرد ولقلة عدد الجبال للنقل ولا توجد فى طريقنا أية مقاومة حتى.

استامبول ليست فيها حركة استعداد للقاومة وهذا يدل على أنهم قد وضعوا جميع
آمالهم بالصلح . ولأجل هذا الصلح أرسل إليك خليل رفعت باشا ولكنى أرى
جهد ما يصل إليه على الضعيف أنه ما دام السلطان محمود المشئوم على العرش
لا يمكن أن يكون هناك صالح صحيح ولا نهاية للازمة لأنه سيكون عرضة للظروف
ينتهزها للانتقام ويعمل لها . كما كان فى الماضى ولجور على هذه الأمة الاسلامية
التعسة وظلمها . فبحق حبنا لهذه الأمة وبحق غيرتنا الدينية أرى من الواجب
المحتم علينا لا العمل لمصلحتنا فقط ولكن العمل فوق كل شىء وقبل كل شىء
لمصلحة هذه الأمة كلها ومن أجل ذلك يجب علينا أن نرجع الى القرار الأقول أى خلع
هذا السلطان المشئوم ووضع ابنه ولى العهد على العرش حتى يكون ذلك بمثابة محرك
يحرك هذه الأمة من سباتها العميق .

فإذا اعترضت علىّ بأن أوروبا تعترضنا قلت لك أننا لا ندع لها الوقت للتدخل
وبذلك نتقى الخطر من ذلك الجانب لأن مشروعنا ينفذ قبل أن يعرف وبذلك
نضع أوروبا أمام الأمر الواقع — وإذا كانت أوروبا تغتنم الفرصة لإشباع مطامعها
من هذه الدولة فأية تبعه تقع علينا . وهل باستطاعتنا أن نمنعها عن تحقيق خطة
تسعى لتحقيقها منذ ٨٤ سنة .

... .. ومع الاستعانة بالله لتحقيق ذلك عزمت على التقدم الى بورصة
ومودانيا فلا وقت لإذن لتلقى شىء منك أو من استانبول يحرم على التقدم .

أما أنا فإذا بقيت هنا فانى لا أجد أقل وسيلة لتكوين الجيش لفقر البلاد فلم يبق
لى إلا الذهاب إلى بروصة ومن هناك أرسل إليك رسولا بما يكون قد قرره
تبعاً للظروف “ ...

وكان إبراهيم على أبواب كوتاهية حينما تلقى خطابا من محمد على يأمره بالوقوف
عن الزحف حيث يدركه خطابه هو يعلم أنه ليس للسلطان جنسدى واحد

في طريقه إلى عاصمة الخلافة . وذكر له أن السلطان أرسل خليل رفعت باشا إليه (محمد علي) ليتفق معه .

وقبل أن يصل إلى بروصة كما اعتزم ، تلقى الأمر من والده بأن يقف ، وكان هذا الأمر بعد وصول الجنرال مورافيف مبعوث قيصر روسيا إلى اسكندرية ، ثم وصول خليل رفعت باشا مندوب الباب العالي . يحمل إلى محمد علي عفو السلطان عنه وولايته عكا وماحققتها ، ولكن لصداقة محمد علي له ، اتفق معه على شروط للاتفاق أهمها أن يعطى محمد علي ولاية سورية وأدنة ، وأن تبرم بينه وبين خسرو باشا محالفة تعاون تضع حدا لتزاعهما .

ووصل إلى إبراهيم باشا ثلاثة رسل من الآستانة ، الأول رسول الباب العالي ليلبغهم أنهم أرسلوا إلى والده رسولا للاتفاق ، والثاني رسول الجنرال مورافيف ، والثالث رسول سفير فرنسا . وكان إبراهيم يعتقد أن الاتفاق بين خليل رفعت باشا وبين أبيه أمر ممكن ، ولكنه كان يرى أن الصلح الذي يبرم مع السلطان محمود هو صلح غير دائم ، بل يكون بمثابة هدنة ، حتى يتمكن السلطان من العودة إلى القتال . ويتضح رأيه بما كتبه لأبيه^(١) ، في الثالث من فبراير :

”أرى أن يكون الاستقلال مقدما على كل شيء في المناقشات التي تدور بينك وبين الرسولين مورافيف و خليل باشا — فمسألة الاستقلال مسألة حيوية تقدم على كل شيء وبعد الاعتراف بالاستقلال يجب أن تطلب اضااليا وأدنة وجزيرة قبرص وأن يضم إلى مصر — إن كان ذلك في الإمكان — تونس و طرابلس . ذلك أقل ما يجب أن نطلبه ولا نتساءل عن أى شيء كان مهما كان الأمر لأن مصالحتنا تقضى به . أما إصرارنا على الاستقلال فلنكى توطد مركزنا وتحوطه بالضمانات فإذا لم نل الاستقلال ذهبت جميع مجهوداتنا ضياعا ومكثنا تحت يدهذه الحكومة

(١) كتبه في كوتاهاية بتاريخ ١٣ رمضان سنة ١٢٤٨ - ترجم بتصرف في الأملوب .

الخبيثة التي توقونا بمطالبها الدائمة وبطلب المال . فمن الآن يجب أن نتخلص من الأعباء البهظة ولا نجد خلاصا إلا بالاستقلال . أما السبب الذي يدعونا لطلب أضيالها وأذنة فهو شدة حاجتنا الى الخشب ، لأن مستقبل أسطولنا معلق على ذلك ما دامت بلادنا محرومة من الخشب وأنت تذكر أن إنجلترا منعت ورود الخشب إلينا فاضطررنا أن نلجأ الى النمسا التي أزعجتنا رفضها لإزعاجا لا نستطيع نسيانه . وهل من حاجة بي لأبين شدة حاجتنا الى الخشب . فأنت أنت ذاتك قلت لى فى الأمر الذى أصدرته حديثا كما أنه يجب عليك أن لا تهمل وسيلة من الوسائل لصيد الجيش التركي كذلك يجب أن تعمل كل ما باستطاعتك عمله للحصول على الخشب .

أما ضم قبرص الى مصر فهو أيضا لا مندوحة عنه . لسببين : الأول للنفعة الكبيرة لأسطولنا والثانى لمنع الباب العالى من أن يكون له طريق الى أملاكنا وإذا شئت أن تطلب بغداد فلا مانع من طرح هذه المسألة على بساط البحث على أن تتنازل عنها فى المستقبل لأن هذه الولاية لا تنفع شيئا وهى كستارة بعيدة جدا عن مصر وتتطلب نفقات باهظة .

هذا ما أعرضه على مسامعك وأوجه إليك مع منتهى الاحترام انظارك .

وفى ٣٠ يناير كان خبر تقدم إبراهيم من قونية الى كوتاهية وقره حصار قد وصل الى الآستانة فاستشاط السلطان غضبا ورجأ الى أصدقائه الروس يستنجدهم . ومن حسن حظهم أنه كان قد وصل لآبراهيم أمر أبيه بوقف التقدم . وكان إبراهيم هدد بروسه كما استولى أربعة من جنوده وضابط على أزمير .

وهنا تبدأ الدول تعدل موقفها السياسى من ظفر جيوش إبراهيم . ويرفض محمد على اقتراحاتها المشينة . وتبدأ إنجلترا تكشف عن سياستها نحو نجاح محمد على وقد خشيت أن تقف مصر شوكة فى طريقها الى الهند .

وتتضح سياسة إنجلترا هذه من الرسالة التي كتبها بالمرستون إلى ويليام كامبل السفير الانجليزي في كابل ، وذلك بعدما أذيعت شروط الاتفاق الأولى بين تركيا ومصر .

”إن الشروط المعروضة على محمد علي باشا حسنة جدا ما دامت هذه الشروط تحرمه من دمشق وحلب وهما الطريق إلى العراق — وفوق هذا يجب أن يثبت كل سنة فيما أعطى له وإن كان تثبيته في ولاية مصر دائما — وقد كان قصده تأليف مملكة عربية لجميع بلاد العرب والمشروع جليل الشأن في ذاته لولا أنه يقضى بتقسيم تركيا فلا يمكننا أن نسلم به .

أضف الى ما تقدم أن تركيا أفضل دولة تملك طريق الهند، فهي أفضل من أى ملك عربى، يقوم على هذه البلاد، نزوعا للعمل كثير الحركة .

فالواجب علينا أن نساعد السلطان على أن يعيد تنظيم جيشه وأسطوله ومالته فإذا استطاع أن يعيد النظام الى تلك الولايات الثلاث استطاع البقاء .

وظلت المناورات السياسية تديرها الدول الكبرى ، بيد أنها ضعفت عندما رأت جيشا روسيا مؤلفا من ١٢٠٠٠ مقاتل وأسطولا كبيرا يحميان السلطنة ، بناء على رغبة السلطان . فأقلق بال فرنسا وإنجلترا واستمرت الدسائس الدولية تعمل في الخفاء ضد محمد على للحد من مطالبه وإجباره على سحب قواته ، وإذا بالبواب العالمى يرضخ لمطالب الوالى العظيم !

فأثرت هذه المفاجأة على خصومه . وأخيرا أبرم بين الطرفين اتفاق كوتاهية (١٤ مايو ١٨٣٣) فوضع حدا مؤقتا للنزاع بين الدولتين . وبهذا الصلح ولى محمد على مصر والحجاز وكريت وجعل ابراهيم باشا واليا على سورية وعكا ودمشق وطرابلس وحلب ومحصلا لولاية أدنة ، ورُفِر العلم المصرى على جل هذه الأقاليم .

وبذا انتهى — ولو مؤقتا النزاع بين الدولتين رغم أنف الدول ، التي كانت تهوى الصيد في المساء العكر . وكسب محمد على ثمرات النصر الحلوة . وبرهن للآء أنه رجل

صریح لا يعتمد على الحرب بل يرغب السلام . وصرح للسندوب الفرنسى قائلا :

”لانى رجل سلام لا أهدف إلا لشيء واحد هو أن أقف أيامى الباقية لاسعاد البلدان التى أحكمها ويسألوننى أن أقدم الدليل على سلوكى هذا — فأجيب بأننى أتوسل لأوروبا أن تقنع تركيا بأننى لن أهاجمها كما تضمن تركيا فلا تهاجمنى“ .

وقد قضى احتلال الشام عسكريا بتوزيع حاميات الجيش المصرى داخل البلاد الآتية :

(٢)
القوات المصرية فى فبراير ١٨٣٣

| الوحدات | مصر | بلاد العرب | السودان | كرت | سورية | المجموع |
|---------------------------------|-------|------------|---------|------|-------|---------|
| ٢٢ آلاى مشاة | ١٧٣٥٢ | ٩٠١٧ | ٥١٥٧ | ٥٠٠٤ | ٣٥٥٧٧ | ٧٠٣٣٧ |
| ٣ آلاى مدفعية | ٤١٠٢ | — | — | — | ٢٢٥٥ | ٦٣٥٧ |
| فيلق مهندسين | ٢٩٨٩ | ١٠١ | — | — | ٨٥٢ | ٣٩٤٢ |
| ١٣ آلاى خيالة نظامية | ٢٦٧٠ | — | — | — | ٥٢٩٢ | ٧٩٦٢ |
| خيالة غير نظامية ^(٣) | ٧٠٠ | ٧٠٠ | ٤٨٤ | — | ١٥٥١ | ٣٤٣٥ |
| بدو | — | ٦٦٨ | ٦٠٤ | — | ٤٠٩٨ | ٥٣٧٠ |
| المجموع | ٢٧٩١٣ | ٨٥١٦ | ٦٢٤٥ | ٥٠٠٤ | ٤٩٦٢٥ | ٩٧٣٠٣ |

(١) مراسلات مستر كامبل قنصل بريطانيا فى مصر الى وزارة الخارجية فى ١٣ مايو سنة ١٨٣٣

(٢) من خطاب كتبه البارون بواليكوث ممثل فرنسا فى مصر الى الدوق (Broglie) وزير الخارجية

الفرنسى فى ٢ يوليو سنة ١٨٣٣ .

(٣) فى مرجع آخر وجدنا هذا الرقم ١٩٨٠٠

وإلى جانب هذه القوات المحاربة ، كانت توجد الوحدات التالية :

طلبة المدارس الحربية ٣٤٨٨

قوادر البوليس المحلية ٦٧٩٩٨

جنود البحرية ودور الصنعة ٢٥١٤٣

صناع وعمال في خدمة الجيش ١٩٣٩٣١

وقد كانت معظم الوحدات موزعة في حاميات الشام ، وقد بلغ عدد أفرادها من القوات النظامية في عام ١٨٣٣ — ٧١ و٦٣١ ، أما غير النظامية فقد كان ١١٩ و ٧١ ، أكثرها موزعا في أذنه وأورفا وحلب وعكا وعينتاب .

هدنة مسلحة بين حريين

١٨٣٣ — ١٨٣٩

كانت إتفاقية كوتاهية بين الدولتين هدنة لمدة سنين قلائل ، استعد الطرفان في خلالها لاستئناف القتال . وكانت حكومة الباب العالي لا تنفك تنفث الدسائس بواسطة أعوانها بشق الوسائل . فلما ضاق محمد علي ذرعا ، وآيس من إصلاح ذات البين ، اعترم على إعلان استقلال مصر ، واستدعى وكلاء الدول الأجنبية ، وحادثهم بعزمه ، كما سيأتي :

الإدارة المصرية في الشام :

وكانت للحكومات المعينة من قبل مصر في ولاياتها بالشام والبلاد العربية وكريت ... إدارات منظمة ، تعنى برفاهية سكانها ، عادلة في أحكامها ، فوثبت في الشام مجلسا للشورى على النظم الحديثة ، ونظمت الشؤون المالية . بل هيا إبراهيم نظاما لحباية الخراج ، ومعاملة الرعايا بالعدل والمساواة ، بغض النظر عن تفاوت الطبقات الدنيوية ، وتباين المذاهب الدينية ، مثل هذا التعديل في أسلوب الحكم ، جعل الأمراء والمشايخ وأرباب النفوذ يستقبلون الإدارة المصرية ، ويتبنون

عودة البلاد إلى أحضان الدولة العثمانية . نظرا لأنهم لم يستطيعوا العيش وليس لهم
جاء أو سطوة . بعد أن توطد الأمن في ربوع أوطانهم ، وأحييت الزراعة والتجارة
والصناعة على النظم المنتهجة في مصر ، وعمت تربية دودة الحرير ، واستخرجت
بعض المعادن ، ودكت بعض القلاع التي كان يلوذ بها الثائرون وقطاع الطرق .
وأكثر من ذلك قرب إبراهيم العلماء والأدباء ، كما رخص للدول الأجنبية في إرسال
معلميهم إلى دمشق وكانوا يمتنعون من دخولها قبله ^(١) .

ثورة فلسطين (١٨٣٤) ^(٢):

وسوف نتمسرا على أهم الأحداث التي مرت بفلسطين ، لعلاقتها بواجبات
الحمايات العسكرية ، التي لم يعرف رجالها الراحة ، منذ عام ١٨٣٤ ولم يمض عام
ونصف العام على معارك الحملة الشامية المظفرة . وبعبارة أخرى الدوافع التي بثت
فيها بذور الثورة ، وأشاعت بها مظاهر التمرد .

(١) الدعايات السيئة التي اضطلع بها بنجاح رجال تركيا وجواسيسهم ، ووكلاء
الدول الأوروبية ، وقد كانت لها نتائج وخيمة في مقاومة الحكم المصري والعمل
على تقويضه ، ولا سيما في نابلس وبيت المقدس ثم في دمشق وحلب — وكان
الدروز ، إلى حد ما ، اللبنانيون من أوفى أصدقاء إبراهيم . كما لعب الدين دورا
كبيرا في مناهضة باشا مصر . ويتبدى أن الشاميين كـ بعض المصريين — في صورة
عامة — لم يروا أعمال محمد علي في صورتها الحقيقية إلا بعد وفاته وانقضاء زمن
طويل . وليس هناك أدنى ريب في أن الأب وابنهما كانا متقدمين على جيلهما
بعشرات السنين .

(١) الأستاذ محمد كرد علي — الحكومة المصرية في الشام ص ٢٢ — ٢٤ .

(٢) الأمير عمر طوسون — تمرد فلسطين واستخدام الجنود النظامية في قمعا — مجلة الجيش

تفشى التذمر وعدم الرضى بين الزعماء والمشايخ وأتباع عبد الله الحزارة ، ممن حرموا المناصب والوظائف الكبرى التى كانوا يأمّلونها ، أو فقدوا الجاه والمال بعدما نظمت أحوال البلاد — بخرت عدة وقائع بين المصريين والعكاريين والصافيين وأهل نابلس (الشيخ قاسم الأحمد) ثم حدثت معارك فى حلب ومثلها فى بيروت — وفد نكل بالكثيرين من زعماء البلاد ولا سيما آل طوقان وأعيان الأتراك .

وعلاوة على ذلك فقد توفرت الأسباب المادية لثورة الشام وفلسطين وأهمها الضرائب الفادحة التى فرضها إبراهيم على الأراضى بعد إصلاحها والجمارك وماجره نظام الاحتكار فى أثره ، والتدخل فى إلزام بعض أصحاب الحرف والصناعات اليدوية بالعمل فيها طبقا لسياسة اقتصادية عليا ، تكفل توطيد الأساليب فى مصر والشام .

وأظهر مسببات التذمر نفرة الناس من الجندية الإلزامية التى فرضها محمد على . فقد كره الشاميون الخدمة العسكرية بعد مرور مئات السنين وهم يفلحون الأرض أو يحترفون الصناعات الدنيا . وأضحوا يعدّون التجنيد من باب إلقاء النفس فى التهلكة — وقد زال من أفكارهم معنى الدفاع عن الوطن بعد أن حكمهم الغرباء قرونا بالسوط — وقد أفضى نظام التجنيد ، الذى ثاروا ضده ، إلى هجرة عدد كبير من أهل الشام ، إلى آسيا الصغرى والعراق والبادية والجبال .

وبالاختصار أفضت هذه الأسباب منفردة أو مجتمعة إلى :

(أ) عصيان بيت المقدس (ابريل ١٨٣٤) وقعه وكان زعيمه الشيخ قاسم الأحمد وأبو غوشى — وقد اشتدت الثورة فترة مما جعل محمد على يسافر بنفسه على رأس إمداد كبير .

(ب) عصيان صفد وقد أنعمه الأمير بشير الشهابى .

(ج) فتنة دمشق وطرابلس (١٨٣٤) وعكار وصفيتا وحاب وأنطاكية
وبعلبك وبيروت .

(د) ثورة النصيرية شرق اللاذقية (١٨٣٤ — ١٨٣٥) .

ولا مزية في أن هذه المعارك أنهكت قوى الجنود بحالة مستمرة . وقد أبدى
إبراهيم في قمعه كثيرا من الشدة ، بيد أنه استحوذ على إعجاب الثائرين أنفسهم ،
بتعريض نفسه للخطر بجرأة لا يتصورها عاقل . وعلى هذا قيل عنه أن أبا خليل —
وهذه هي الكنية التي يكتنيها الشعب — محجب بحجاب ضد الجروح فعله
محقق ، وأنه بعد كل واقعة كان ينفذ ردائه فيتساقط منه الرصاص .

وقيل آخر العام ، تمت عملية التجنيد في سورية ، وتم النقص في جميع
الآليات العسكرية فيها .

ثورة الدروز في حوران (١٨٣٦ — ١٨٣٨) .

ولم يستتب الأمر بعد هدوء الأحوال في الشام ، حتى شبت ثورة الدروز
في حوران ، وكان إبراهيم باشا أعفاهم من التجنيد ، ثم ارتأى تطبيق قانونه عليهم
لحاجته إلى زيادة جيشه ، استعدادا لملاقاة العثمانيين . فشبت ثورتهم في حوران
(نوفمبر ١٨٣٧) ولقد شرحت معارك هذه الثورة بحملاتها الثلاث التي قاد واحدة
منها إبراهيم بنفسه في مقال طيب نشره المغفور له الأمير عمر طوسون في مجلة
الجيش ونوجز أهم حملات هذه الثورات الثلاثة فيما يلي :^(١)

(١) حملة على أغا البصلي ، رئيس الهوارة ، مؤلفة من ٤٥٠ من فرسان .
وقد فاز في مستهل الأمر ضد الثوار في بصرى ، ثم استدرجوه إلى الجبال وانقضوا
على رجاله وأبادوهم جميعا .

(١) مجلة الجيش — المجلد الخامس — العدد ٤ — ص ١ — ١٣

(٢) توجد معارك أخرى صغيرة لا نعدّها بين الحملات الثلاث الكبرى .

(٢) حملة الفريق أحمد باشا المنكلى ، ناظر الحربية ، وكانت مؤلفة من ١٤,٠٥٠ مقاتل من المشاة والفرسان والمدفعية — قام على رأسهم في ١٢ فبراير ١٨٣٨ وقد ناضلوا في عدة معارك ، خرجوا من بعضها فائزين ، ولكن كانت نتيجتها مشئومة ، فقد هزمت قبالة الثوار ، وفقد المضربون أكثر من أربعة آلاف جندي وستة آلاف بندقية ومدفعين وخمسين جملًا محملة بأزواد وكل متاع الضباط ، واستشهد قائد اللوائين والى بك وراعى بك .

(٣) قبالة انتصارات الثوار، نظم إبراهيم باشا حملة ثالثة من عشرين ألف مقاتل وتولى قيادتها . وتسنى له الإطباق على ثوار حوران ووادى التيم . فسلم التيميون ومن بعدهم بقية الثوار في منطقة الجأه (أغسطس ١٨٣٨) .
قضى إبراهيم على ثورة حوران عقب امتدادها تسعة أشهر ، بعد أن تكبد خسائر باهظة .

خرج الجيش المصرى من فوزه الختامى ، فى تلك المعارك ، باكتسابه مزايا لاحصر لها ، فى التدريب والقيادة . فقد كانت هذه حروبا مع عدو عنيد مسلح . يكافح لطرده المصريين من بلاده .

ولإن انشغال المصريين فى هذه الحرب ، كان الباب العالى يعمل ما فى وسعه لتخليص سوريه وأقليم أدنة من محمد على ، بينما حاول هذا اكتساب ود السلطان وفعلا أوفد فى عام ١٨٢٧ مندوبه صارم ليفاوض محمد على لتسوية الخلاف بطريقة ودية ، ولكن أخفقت المحادثات ، ولم يتفق الطرفان على شروطهما .

حيال عناد الحكومة العثمانية ، اعتزم محمد على — كما سبق أن أورينا — إعلان استقلال مصر ، واستدعى وكلاء الدول فى مصر وحدثهم بعزمه هذا فى مايو عام ١٨٣٨ معتمدا على حق مصر^(١) .

(١) كادلفين وبارو — سنان من تاريخ الشرق — ج ١ ص ٢٢ و ٤٦

وتدخلت الدول لحل الخلاف بين البلدين ، فباعت مساعيها بالفشل ، لأن إنجلترا كانت من وراء تركيا تحرضها على قتال محمد علي ، واسترداد مصر أيضا من حوزته . ومن المؤكد أن إعلان استقلال مصر تأتى متأخرا ، بالرغم من أن إبراهيم عقب انتصاره فى معركة قونية كثيرا ما ألح على أبيه فى كتاباته أن يعلن هذا الاستقلال . والكتب التى أورد فيها هذا الإلحاح جد كثيرة — كذلك تناولت تصريحاته لرجال الحكومات الأوروبية الشىء الكثير من هذه الرغبة . وفى السابع من المحرم علم ١٢٥١ هـ (١٨٣٥) ، أى بعد أربع سنوات تصرمت على اتفاقية كوتاهية ، كتب إبراهيم إلى أبيه رسالة كانت على قصرها تنم عن الحسرة والألم ، لأن أباه لم يأخذ برأيه لما طلب إليه إعلان الاستقلال ... قال :

”لا بد أنك تذكر حين وقفت بجنودى فى قونية وكتبت أطلب إليك بالإلحاح وفى خضوع وتواضع أن ننتهز الفرصة ونعلن استقلالنا فكتبت إلى تقول إنك قانع أن تكون ”محمد على“ وكفى . مع أننا كنا متصرين . وكانت الفرصة سانحة ولكنك لم تشأ . والآن وقد مضى وقت طويل على تسوية النزاع وتعيين الحدود تطلب الاستقلال“ .

وقد كان إبراهيم على حق . لأن الاستقلال يؤخذ ولا يطلب .

الدولة العثمانية فى ١٨٣٩

شاهد القرن التاسع عشر انحلال الدولة العثمانية ، بعدما قطعت شوطا من المجد الفسيح ، فى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد جاهد بعض سلاطينها كيما ينشلوها من تفادى هذه الخاتمة ولكن ذهبت محاولتهم سدى بعدما دب الفساد فى جسمها . فالشعب كره الإصلاح ، لأنه لم يفهمه على وجهه . وغمره جهل الغرور وأحلام السيادة ، ووجد فى قبول الإصلاح مسببة له وعارا ، فأصر على العناد . وكانت الدول الأوروبية تعمل مخالصة على مساعدة الشعوب المسيحية الخاضعة للعثمانيين ، لتملص نهائيا من سيادة الإمبراطورية الهرمة .

حاول السلطان سليم الثالث (١٧٨٨ — ١٨٠٨) تنظيم جيوشه ، بيد أنه شغل بحاربة روسيا . ثم خسر الحرب ، ونهض في وجهه أنصار الرجعية ، وقتلوا رجاله الذين اعتمد عليهم في تنظيم قواته ، ثم أرغموه على اعتزال عرشه وتخلصوا منه . وقد حاول خلفه السلطان مصطفى الرابع أن ينهض بالجيش . فكان نصيبه الاغتيال — ولم يأس السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩) . فقد استطاع بمعاونة بعض وزرائه تنظيم الجيش . وبدأ بادخال التدريب الحديث إلى صفوف الانكشارية . بعدما فهم زعمائهم ما جرته تقاليدهم البالية على البلاد من الفساد والفوضى . وبالرغم من أخذهم باللين لم يستطع التخلص منهم إلا باغتيالهم في مذبحه كبرى . فارتاحت الدولة من شروهم . ومن ثم بدأ السلطان يكثر من الجنود النظاميين ، ويعتدل القوانين ، التي لم تعد صالحة للعصر ، كما طفق يحدد في أنظمة الحكومة .

ولكنه شغل بالفتن والحروب الكثيرة التي لم تكد تنتهى واحدة فيها حتى تبدأ أخرى بتشجيع دول أوروبا التي هدفت إلى القضاء على آل عثمان ، أو على الأقل إلى بقائها دولة هزيلة لا حول لها ولا قوة .

كانت الحروب المتتالية التي شنتها روسيا ، أو الدويلات الخاضعة للعثمانيين ، أظهر عوامل القضاء على مكانة تركيا كدولة عظمى ذات بأس وسطوة ، التي كانت تقترب يوما بعد يوم من مقبرتها . ومع هذا الانحلال التدريجي لم يعرف رجال تركيا الانتفاع من كفاءة بعض حكامها ورجالها في الولايات العثمانية وفي طليعتهم محمد علي باشا في مصر وعلى باشا والى يانيا .

كانت هذه حال تركيا ، حينما بدأ سوء التفاهم بينها وبين محمد علي . بلاد أنهكتها الحروب المتتالية ، وأضعفتها ملازمة شعبها إلى عدم التحول عن القديم البالى ، وغباء رجالها الذين اتقادوا في سياستهم العمياء لنصائح بعض سياسى الدول الأجنبية . ففعلوا بدمارها — وجيش جديد بدى أخيرا في إعادة تدريبه وتسليحه بعد انقضاء فترة قصيرة على التخلص من الانكشارية .

معركة نسيب

الجولة الخامسة

الجيش العثماني في عام ١٨٣٩ :

تألف الجيش العثماني من حوالي ٨٠ ألف مقاتل و ٢٠٠ مدفع حشد معظمها في منطقة ملطية بشرق الأناضول . وكان هذا الجيش أنظم وأقوى الجيوش العثمانية منذ أن تخلصت تركيا من الجيوش النظامية ، وتوفر عتاده الحربي وأعدت منه الشيء الكثير في ملطية وديار بكر . ووضع تحت قيادة حافظ باشا سرعسكر باشا الجيش في آسيا ، بعد وفاة رشيد باشا في عام ١٨٣٦ ، يعاونه هيئة من ضباط أركان الحرب الألمان برئاسة فون مولتك الذي حظى بالشهرة فيما بعد .

وكان قائد الجيش ، الذي وضعت فيه الدولة ثقها للقضاء المبرم على الجيش المصري ، قد منح رتبة السرعسكر السامية عقب انتصاره على ثورة الأكراد . ولد في عام ١٧٩٦ من أسرة قوقازية عريقة ، وعنى بتربيته وتعليمه منذ الصغر ، فتلقي اللغات التركية والعربية والفارسية ، وحفظ القرآن وهو في السابعة عشر من عمره ثم التحق بخدمة السلطان في فرقة الـ (Habigi) حيث ارتقى سريعا . وما أن شكل الجيش النظامي حتى تقدم للخدمة فيه كجندي بسيط في الخيالة ، وبلحده حاله التوفيق فوصل إلى رتبة بمباشي في خلال الحرب الروسية التركية ، إلا أنه أصيب فيها بجرح شفى منه . وحدث أن أنعم عليه برتبة قائد اللواء والفرقة عقب أعوام قلائل . وقاد الحملة العسكرية التي وجهتها تركيا لإنحاد الثورة في ألبانيا . وعلى أثر إتمام مهمته ، عينه السلطان حاكما على إقليم سيواس بالأناضول . وفي غضون اضطلاحه بمنصبه أسره الباب العالي بإنحاد ثورة كردستان ، فأورى في ظل معاركها نبوغا ونظاما وشجاعة ودراية تامة بإدارة الحرب ، وتم له إخضاع الكرد . وكان من جراء نصره الكبير أن أنعم عليه السلطان بـنشان الافتخار وترقيته إلى رتبة سيرعسكر الجيش في آسيا .

وإلى جانب مزايا هذا القائد العسكرية ، كان واسع الأفق في تفكيره ، بعيد النظر في تدبيره . لم يك جامدا شأن الكثيرين من قادة العثمانيين في القرن الثامن عشر وأكثر من ذلك كبير القلب ، نبيل الشعور ، يمقت إراقة الدماء بدون داع . أضف إلى ذلك أنه كان محبوبا عند الأهالي والجنود ، عفوفا عن الدسيسة ، مهيب الطلعة ، كريم الخلق والطباع ، محترا للغاية . أما بيته فقد كان مفتوحا على مصراعيه يتناول الطعام على موائده ثمانمائة شخص . دينا لدرجة يقال أنه طلب إلى جنوده الصلاة قبيل الانخراط في القتال .

وكان كثيرون من ضباط أركان حرب الباشا ممن تلقوا علومهم في المدارس الحديثة الحربية في أوروبا ، وفي طليعتهم محمد رشيد بك الذي صار فيما بعد قائدا ومديرا عاما للدفعية التركية وكان من المقترين إلى خسرو باشا ناظر النظار — وقد عين رئيسا لهيئة أركان حرب حافظ باشا فحسده الكثيرون من ضباط الجيش العظام ، الذين أفلحوا في السكيد له عند السرعسكر — لذلك لم ينتفع بمواهبه ظنا منه أن عين عليه لينقل أخبار الجيش إلى رئيسه .

فلما زایل الجيش التركي قاعدته في ملطية ، أمره القائد بأن يشرف على أعمال الإسعاف الطبي ، والمستشفيات العسكرية !

ويظهر أن التجارب والمحن التي مرت بأحوال الجيش العثماني ، وهزاعه المتتالية ، في معارك ١٨٣٢ ، لم يفد الباب العالي منها شيئا كثيرا ، ولا سيما من ناحية تدخله في الأمور الفنية الخاصة .

وإلى جانب الجيش العثماني النظامي ، كانت هناك وحدات من الاحتياطي غير المدربة تدريبا كاملا فضلا عن أن معنوياتها لم تك في مستوى معنويات الوحدات المنظمة .

وفيا إلى توزيع وحدات الجيش العثماني^(١) :

| | | | |
|----------------------|----------------------|--------|------------------|
| قيادة عزت محمد باشا | أنقرة | ١٢,٠٠٠ | ٤ بطاريات مدفعية |
| » على باشا ومعه فيشر | قونية | ٢٠,٠٠٠ | » » ١٠ |
| » حافظ باشا | ملطية | ٤٢,٠٠٠ | » » ٢٤ |
| » عثمان باشا | قيصرية | ٥,٦٠٠ | » » ٢ |
| » على بك | (موزعة في مناطق شتى) | ٧,٥٠٠ | » » ١٢ |

٨٧,١٠٠ جندي ٥٢ بطارية

الجيش المصرى بعد صلح كوتاهية

وعلى تقيض حال الدولة التركية ، استمرت مصر ، بزعامة مصالحة الكبير ، في نشاطها الصناعى والعلمى والعسكرى ، بالرغم من الثورات والفتن ، التى شبت في مناحى الشام وفلسطين وبلاد العرب ، والتى أنهكت الجيش نحسة أعوام طوال ، وأن طموح الباشا ، ورغبته في المحافظة على مركز دولته (ولايته) موطدا ومدعم الأركان وطبيعة ممتلكاته ، جعلت محتما عليه أن يعتمد على قوة كبيرة ، استطاع بفضلها المحافظة عليها ، والسير بسفيتها وسط عواصف دعاية الحكومة التركية والبريطانية في كل مكان تدين بالولاء للباشا ، وفضلا عن ذلك كان يرى محمد على استعداد الباب العالى للقتال ، والعمل على زيادة قواته الدفاعية ، ولم يحف المداد الذى كتبت به اتفاقية كوتاهية ، فوضع نصب عينيه عقيدة ” إذا أردت السلم فاستعد للحرب “ (Si Vis Pacem par Bellum) .

فليس هناك ما يخلق الحرب أكثر من وجود ضعيف وقوى ، وليس هناك أيضا ما يخفف من ويلات الحرب ويطيّل أمد السلم أكثر من تكافؤ القوى ،

(١) ذكرت ” الجورنال دى ديبا ” بتاريخ الاثنين ٣ يونيو سنة ١٨٣٩ نقلا عن ” جازنت دوجسبورج “ أن قوات الجيش التركى ٦٥ ألف مقاتل ومعهم مائة مدفع ميدان .

فالسلم لا يمكن أن يوجد إلا إذا كان مسلحا، تحميهِ الأسلحة وقلوب المحاربين المتأهبين للذود عنه .

ونظرا لكثرة الفتن والثورات التي عمت في داخلية الشام وفلسطين، اضطرت ابراهيم الى توزيع قواته من البحر الميت الى طوروس، ومن الساحل الى الفرات . ثم التمس من أبيه أن ينجده بامداد قوى . فأرسل اليه ناظر حربيته على رأس جيش مؤلف من ستين ألفا نظاميا وثمانية آلاف غير نظامي معظمهم من الفرسان و٢٥٠٠٠ من البدو وقد ألحق بهم ١٦٠٠٠ ماروني .

وعلى العموم، كان الجيش المصرى مركبا من وحدات مارست الحروب والمتاورات، منذ عشرين عاما، في نظام وتدريب كاملين .

وكانت معنويات المصريين عالية للغاية، ولا دهشة في ذلك، فقد حاربوا وخرجوا ظافرين من جميع المعارك الكبرى التي قاتلوا فيها — وكان عتادهم وذخيرتهم وأسلحتهم وفيرة في أيديهم، أو خلفهم في مستودعات ونزلات، الى جانب مخازن الجيش في اسكندرونة ويافا — وكان ينقل أكوام التعيين والمهمات ١٥٠٠٠ جمل بين الدلتا والعريش ثم ينقلها عرب عنيزة الى المعسكرات .

الجيش المصرى فى معركة نزيب :

١) المشاة :

فرقة الحرس — ٣ آلايات (١ و ٢ و ٣) بقيادة الفريق عثمان باشا ٨٦١٧
اللواء الأول — آلايان (٢ و ٢٢) بقيادة أمير اللواء سليم بك ٤٧٣١
اللواء الثانى — آلايان (٤ و ١٢) بقيادة أمير اللواء ابراهيم بك ٥٢١٦
اللواء الثالث — آلايان (٦ و ١٨) بقيادة أمير اللواء حمزة بك ٧٣٩٣
اللواء الرابع — آلايان (٩ و ١٤) بقيادة أمير اللواء عمر بك ٤٥٥١
اللواء الخامس — ٣ آلايات (١٠ و ١١ و ١٢) بقيادة أمير اللواء فرحات بك ٧١٦٥
مجموع المشاة ٣٧٦٧٣

(ب) الخيالة :

| | |
|------|--|
| ١٧٣٨ | لسواء الحرس — آلايان بقيادة الفريق أحمد المنكلي باشا |
| ١٦٧٩ | اللواء الأول الخيالة — آلايان (١١ و ٢) بقيادة أمير اللواء رستم |
| ١٧٢٨ | اللواء الثاني الخيالة — آلايان (١ و ١٣) بقيادة الجوخدار |
| ١٦٣٠ | اللواء الثالث الخيالة — آلايان (٦ و ١٠) بقيادة ابراهيم بك |
| ٦٧٧٥ | مجموع الخيالة |

(ج) المدفعية : بقيادة أمير اللواء جعفر صادق بك

| | |
|------|--|
| ١٠٦٦ | مدفعية الحرس : بقيادة أمير الآلاى خالد بك |
| ٢٠٦٦ | الآلاى المدفعية الثانى المشاة : بقيادة أمير الآلاى محمد العنتيلى |
| ١٠٤٠ | آلاى المدفعية الأول الخيالة : بقيادة أمير الآلاى حازق بك |
| ١٠٦٧ | آلاى المدفعية الثانى الخيالة : بقيادة أمير الآلاى زكى بك |
| ٥٦٢٥ | مجموع المدفعية |

المجموع الكلى للجيش ٥٠,٠٧٣ ضابطا وجنديا بصحبته ١٢٢ مدفعا .

الحوادث المهمة لمعركة نزيب

(سنة ١٨٣٩)

لكى نقدم صورة واضحة للمعركة، مستكملة المعالم، يتعين أن نقفواثر الأحداث التى أفضت الى القتال الحاسم .

- (١) حصنت القيادة المصرية مضيق كوك، أحد مضائق طوروس، وهو منفذ الزحف من الأناضول الى سورية، وزاد عدد الحاميات فى ولاية أدنة .
- (٢) لما علم القائد حافظ باشا بأعمال المصريين، رام تلاقى الزحف من هذا المضيق . والقيام به من منطقة أورفا وديار بكر، حيث لا تواجهه مضائق أو مسالك وعرة أو جبال .

(٣) اتصل ذلك بالقيادة المصرية ، فقول ابراهيم باشا وحدات كثيرة من جيوشه الى حلب ، ولتستمر في مراقبة طلائع الجيش التركي في عينتاب وكليس القريبة من الحدود التركية^(١) .

(٤) عهد القائد حافظ باشا الى أحد قائديه عبور نهر الفرات ، فانتقل هذا الى الشاطئ الأيمن يوم ٢١ أبريل سنة ١٨٣٩ وفي الحال نهض ابراهيم باشا ببعض التحركات الهامة لتحاشي الخطر .

(٥) في منتصف ابريل : بدلت وحدات الجيش التركي مراكزها ، واتجهت صوب ساموساته ؛ وتجمع لواء اسماعيل باشا في بيره جك (٢١ أبريل) . وبعد أيام وصل هذه المدينة حافظ باشا ، وفيها تسلم كتابا من السلطان يأمره فيه بالتقدم ، فاستولى على ساموساته ، ثم قصد إلى بيره جك (على الشاطئ الأيسر للفرات) .

(١) ليس المقصود بكلمة كلز المدينة ذاتها وإنما المنطقة الخارجية المحصورة بين أقصى الانحناء الشرقى المسائل في نهر الفرات وخليج اسكندرونة ، وهى تعرف بنسواحى بيره جك . ويتسنى الوصول من هذا الموضع الى خمسة مواضع مهمة تقع في البلاد التركية :

(أ) يتسنى الوصول منه بالطريق المار من عنتاب ومرعش والمنتهى الى الشمال حتى شمل الأناضول (الطريق الملكى قديما) .

(ب) وبطريق آخر يجبه صوب الغرب ، مارا بكليكا وموانثا ، حتى غرب الأناضول .

(جـ) يتيسر الوصول من طريق حلب — الأردن — فلسطين الى مصر ، ويعرف هذا الطريق الهند التجارى أو طريق الحرير .

(د) ويصل الطريق الذى يمر باستقامة نهري دجلة و فرات والمتممة نحو الجنوب الشرق الى العراق فايران والصين وما إليها .

(هـ) وبواسطة ديار بكر يتبأ الوصول الى القوقاز وأذربيجان .

من هنا تتجلى أهمية بيره جك العسكرية ومضيق كلز ، الذى تخيره حافظ باشا ، ليضرب ضربته ضد ابراهيم .

وفي ذلك الوقت ، اعتدت قوة كردية على حيوانات كانت ترعى للصريين ، ولكي يجتنب ابراهيم الصدام وتقهقر إلى حماه ، وأرسل إلى والده يسأله ماذا يكون موقفه إذا هاجمه الأتراك ! وبالرغم من الضغط السياسي على الباشا : ارتأى أن يستعد ، وسارع في إرسال الإمدادات بقيادة ناظر الحربية ، فوصل هذا إلى حلب والحرب وشيكة الوقوع .

(٦) في الثاني والعشرين من شهر مايو ، عبرت طلائع الجيش التركي الفرات ووصلت إلى نزيب^(١) داخل الحدود السورية . واحتلت العداوة التي بين نهر الفرات وأحد أفرعه الصغرى المسمى ساجور وتقدمت القوات التركية فاحتلت قرية تل باشر^(٢) واقتربت فيها القضاة .

(٧) وفي مساء اليوم التالي ، أوفد ابراهيم — بعد علمه بتقدم الترك — ٤ زسولا إلى مختلف مراكزه يحملون فيها الحشد العام في حلب . وفي صباح الرابع والعشرين جمع أعيان المدينة وأنباهم بما اقترفته قوات السلطان وطلب معونتهم . وفي اليوم التالي أرسل إلى أهـرول خمسمائة من عرب الهنادى بقيادة الأميرالاي معجون بك للوقوف على حركات طلائع الترك أولاً بأول . وحشد ابراهيم معظم وحدات الجيش في معسكر بأورطة ، على مبعدة ثمانية كيلومترات شمالي حلب ، بقيادة مساعده الفريق سليمان باشا الفرنساوى . وكانت تحت إمرته ١٨ الآى مشاة و ١٦٠ مدفعا .

أما الأتراك فاستمروا في تقدمهم نحو مزار داخل الأراضي السورية ، واضطر عرب الهنادى إلى القهقرة في اتجاه توباش كالأواصر التي صدرت إليهم ، وغار الأتراك على ١٤ قرية تابعة لعينتاب ونهبوها .

(١) تقع نزيب على الطريق الموصل بين بيرة جك واسكندرونة وموقعا غربي بيرة جك .

(٢) يقع نهر ساجور بالقرب من عينتاب ويمر بها ويصب إلى الفرات ، وهو الحد الفاصل بين

أ. ملاك مصر وتريا في ذلك الحين ، والمرسوم في اتفاقية كوتاهية .

(٨) لم يستطع إبراهيم قبالة هذه الاعتداءات أن يقف مكتوف اليدين .
ففى ٢٩ (التاسع والعشرين) مايو بارح حلب على رأس سبعة الآى خيالة و ١١ بطارية
مدفعية خفيفة ، واتفق مع سليمان باشا أن يكون على أهبة التحرك على رأس المشاة .
وبينما كان إبراهيم فى الطريق ، أخلى الأتراك تل باشرة ، التى احتلوها منذ أيام ، ثم
استحوذ الترك على عينتاب ، بعد اخلائها من القوات المصرية . ولما فاق تحرش
الأتراك بالأراضى المصريه فسوق ما كان مرتقبا . أرسل إبراهيم الى أبيه يصف
تطور الموقف .

(٩) بعد ٤٨ ساعة وصل الى ثغر الإسكندرونه كابتن كاييه الذى بعثه
المارشال صولت رئيس مجلس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها برسالة الى محمد على باشا
يقول له فيها أنه بالرغم من الحوادث التى وقعت فإن مصالحه ستظل محترمة . وبعد
أن قدم (١٤ يونيو) كاييه رسالته أسرع فى السفر (٢٠ يونيو) الى مركز قيادة
إبراهيم ، لمراقبة الحوادث ولا تمام مهمته التى يأتى لأجلها من باريز . كذلك حمل
الضابط فولتر رسالة أخرى للسرعسكر حافظ باشا . وصل كاييه الى طرابلس الشام
وفى ٢٤ أخذ طريقة الى حلب يوم ٢٦ ، عقب انتهاء المعركة الكبرى وهزيمة
العثمانيين فى نزيب .

(١٠) دفع إبراهيم طلائعه الخيالة ، التى أزالته مقاومة الأتراك بسهولة ،
واستخلصت طريق حلب وأمتسه ، فى ٣ يونيو بدأ إبراهيم فى مراقبة الطريقين
المؤدبين الى عينتاب ونزيب . حيث كانت منطقة الحشد التركية .

(١١) فى الخامس من يونيو ، استدعى إبراهيم حامية عينتاب ، ولم يترك
بها سوى كتيبة واحدة ، لحماية قلعتها . وبعد أيام استسلمت هذه القوة لسليمان باشا
القائد العثمانى الثانى . وفى ٦ يونيو حدثت مصادمة بين قوات معجون بك الهنادى
وسليمان باشا . وكانت خسائر الفريقين متعادلة . ثم اتجه معجون بك الى توزيل .

وفي يوم ٧ يونيو ، قام حافظ باشا على رأس قوة ، للاستكشاف ، مؤلفة من خمسة آليات خيالة و ٣٠٠٠ خيالة غير نظامية ، تؤيدها المدفعية . فقابلته الخيالة المصرية وعبرت ساجور الصغير واتجهت نحو العدو في قولين . وتبادل الطرفان النيران ، واشتبكت قواتهما غير النظامية ثم عاد حافظ باشا أدراجه ، ولم يلحق به إبراهيم عملا بتوصيات أبيه ، التي كان في انتظارها بالرغم من تحرك حافظ باشا .

(١٢) وعملا بتعليمات الأب ، أرسل إبراهيم في يوم ٨ يونيو إلى حافظ باشا كتابا جاء فيه :

إذا كنتم يا صاحب السعادة تلقىتم الأمر بإعلان الحرب فإفادة الاسترسال في بث الدسائس وتحريك الفتن . وإذا كنتم تودون القتال فهاجموا إلى ميدانه بصراحة وإقدام وأمل ألا يفوتكم في هذه الحالة أن تعرفوا أنكم تقتاتلون أبطالا لا يعرف الخوف سبيلا إلى قلوبهم — أما الدسائس التي تملكون في تديرها فانها ليست مما يطابق احتماله طويلا .

فرد حافظ باشا على هذا الكتاب بعبارة منمقة ، ولكنه حاذر أن يبدى رأيا صريحا .

وفي رسالة لمحمد علي (في ٩ يونيو عام ١٨٣٩) لإبراهيم قال :

إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول . وإذا ما صبرنا عليه بعد ذلك عز علينا أن نوقفه لأنه يبذر بذور الفتن ذات اليمين وذات الشمال — وكلما صبرنا عليه رغبة منا في عدم معارضه رغبات الدول الكبرى زاد عدونا توغلا في بلادنا وزادت الأمور تحرجا وتلك حال ترغنا على العمل — فعلينا أن نرد هجومه بهجوم مثله . ولما كان العدو هو المعتدى فإن الدول لن تاتى علينا التبعة — فنصيحتي اليك أن تبادر عند وصول رسالتى الى يديك بالهجوم على جنود العدو

الذين دخلوا أرضنا وأن لا تكتفى بإخراجهم منها — بل عليك أن تزحف على جيش العدو الأكبر وتقاتله — وبعون الله إذا وفقت النصر فاستمر في تقدمك الى مالطيه ونحربوط وأورفا وديار بكر .

وهذا أمر صريح للهجوم ؛

(١٣) وفي يوم ١٨ يونيو زایل الجيش ، تحت امره سليمان باشا ، معسكر با أورطة ، ووصل في اليوم التالي الى توزل ، حيث عبرت معظم وحدات الجيش نهـر ساجور الكبير . وفي يوم ٢٠ سارت الى قرية مزار^(١) في خمسة قولات مشاة وقولين خيالة ، فوصلتها في الساعة العاشرة صباحا . وألفت فيها طليعة تركية مؤلفة من : آلايين مشاة وخمسة مدافع وخمسمائة جندي غير نظامي — ففوجئت وأسرع البدو المصريون ، طلائع القوة ، بالانتقال الى المقدمة التركية غير النظامية وتبادلوا إطلاق النيران . وبعد قليل أخذت القوات النظامية في الانسحاب الى نزيب .

وما كاد الجيش المصري يبرز على المرتفعات (جنوبي مزار) حتى كانت جميع طليعة الجيش التركي قد انسحبت الى نزيب تاركة خيامها وعنادها ؛ فغنمتها الجنود المصرية ، ودخل ابراهيم مزار في الساعة السادسة مساء يوم ٢٠ وقد أصبح على مسيرة ساعتين مشيا من خصومه ولا بد من استكشاف الأراضي ، فلم تك هناك خارطات تفصيلية كما هو الحال في هذه الأيام .

وحالما استقر المعسكر ، حاول سليمان باشا الفرنسي أن يستكشف الأراضي وقوة معسكر الأتراك بيد أنه استحال عليه أن يعرف بالدقة نوع الاستحكامات وتقدير حقيقة قوة العدو .

وكان ابراهيم باشا ينتظر بفروغ صبر عودة سليمان باشا ، إذ كان قد قرر القيام بهجوم في الغد ، وكان سليمان لا يوافق . وصلى ذلك ، فعند عودته ، اتفق كلاهما

(١) تقع مزار في الطريق الموصل الى قرية نزيب .

على القيام في الصباح المبكر بالاستكشاف بينما يرسل سليمان باشا في الوقت ذاته اثنين من ياورانه وهما (F. Perrier) وأراجو وراحا ليرتادا الأراضي على ضفة نهر مزار اليمنى، لكشف طريق يسمع بعمل حركة التفاف حول الجناح الأيسر للجيش التركي وتحويل مواجهته الى الخلف، إذا لم يتسن مهاجمته من الأمام .

(١٤) وفي يوم ٢١ يونيو، عبر الياوران كبرى^(١) مزار، وتبعها مجرى النهر في اتجاه كوبرى كرسين — فلاحظا أن الطريق كثيرا من العقبات يتبأ تذليلها بسمير المدفعية . وبعد انقضاء ساعة واحدة من قيام الياورين امتطى ابراهيم باشا جواده وسار مع ١٥٠٠ بدوى الى المعسكر التركي لاستكشافه وما لبث أن لحقه سليمان باشا وفي قيادته أربعة آليات خيالة وبطارتين من المدفعية الراكبة . وتصدت لهم قوة تركية ، وتبادلوا الزيران فترة ، ولم يفز ابراهيم ، فعادوا الى مزار . وفيها عرض سليمان باشا على ابراهيم أن يدير الجناح الأيسر للجيش التركي بوساطة السيرجنبا ، والتقدم الى خلف الصفوف التركية ، وبذلك يكرهونها على الدوران ، وترك الموقع المحصن ، والقتال في الأرض المكشوفة .

(١٥) وفي الصباح المبكر من ٢٢ يونيو، انتقل الجيش المصرى من معسكر مزار الى الجنوب واجتازت في الحال بعض وحدات المشاة قنطرة مزار، ورابطت فوق التلال المطلة على مزار للراقبة . ولبثت الخيالة في مكانها مكونة ستارا لتخفى — على قدر الإمكان — عن العدو منظر الحركة وشرعت المدفعية في عبور قنطرة مزار، واستغرق هذا الانسحاب ساعات كاملات . وبعد اجتياز المضيق انتظمت القوة بلا توان استعدادا للسير في ترتيب القتال . ومن ثم أخذ ٢٠٠٠ بدوى مكانهم وابتدأ الزحف .

(١) كان معهما آلاى خيالة .

ولم يتخذ الجيش في بداية الأمر خط سيره الحقيقي ، بل انحرف كأنه ينبغي حلب وكان سليمان باشا يشرف على سير القولات حتى لا تحدث تغيرات طويلة بين بعضها البعض ، يستطيع العدو أن يستفيد منها بتوجيه قوات كثيفة تربك هذه الحركة ولذلك استنفذ هذا السير مدة عشر ساعات لقطع المسافة بين مزار وكرسين .

بعد وقفة للاستراحة في قرية كورديكالا عاود الجيش السير ، فظهرت وحدات تركية على اليسار ، على مدى ٣٠٠ متر من جانبه الأيسر . وفي الحال أخذ سليمان باشا ثلاث كتائب مشاة وست من الخيالة وتوجه أمام هذه الوحدات ليهدد سيرها . وفي الوقت ذاته أمر باحتلال بعض التلال الصغيرة وأكمة تقوم على يمين القولات فأ سرعت بطاريتان في احتلال الأكمة وأخذت ثمانى كتائب موقفها تنتظر أية حركة يضطلع بها الترك . علاوة على حماية مسير الجماعات الأخرى ، التي كانت تفد تباعا .

ولاح أن غرض الوحدات التركية لم يك سوى الاستكشاف والوقوف على قوة الجيش واتجاه مسيره ، وفي هذه اللحظة كانت المسافة بين كوبرى كرسين والجيش المصرى فرسخين تقريبا ، وكانت خطة القيادة المصرية قد ابتدأت تظهر لعيني كل جندي : وهى ادارة مواجهة الجيش التركى وإكراهه على تغييرها بترك مواقعه المنيعه التى أعدها . ولا تدرى لماذا أغفل القائد العام العثمانى مهاجمة الجيش المصرى من جنبه أثناء حركة التفافه أو على الأقل حراسة كوبرى (هرجون) كرسين والدفاع عنه ولمنع الجيش المصرى من عبوره بأى ثمن لأنه مفتاح موقعهم وقد ألح الضابطان البروسيان مولباخ وفون مولتكه على القائد أن يهاجم المصريين فلم يعبا بنصيحتهما فعرضا عليه أن يتراجع الجيش التركى الى معسكره الأسمى فى بيره جك فلم يعمل برأيهما . وكانت الوحدات التركية التى هددت أجناب الجيش المصرى تراجعت بسبب انتهاء واجبها .

(١٦) وكان الليل قد أقبل حينما بلغت القولات المصرية المتقدمة كوبرى كرسين (هرجون) واستعدت لاجتيازه . وعادت قوات البدو وأخبروا القيادة

بأنه ليس للعدو أثر في هذه الجهة كما أفادوا بخلو الكوبرى من قوات للدفاع عنه فابتهج إبراهيم لدى سماعه هذه الأنباء السارة وفي الحال أسرع على رأس خيالاته ووصل الى الكوبرى وجلس على حجر، وأمر باحضار شبكه وأخذ يشجع الضباط والجنود كلما مرت أمامه وحدة من الجند .

أما سليمان باشا فقد كان يراقب حركة مرور الوحدات عند مدخل المضيق الذى يقضى الى الكوبرى خوفا من الضغط والازدحام وكان الطريق الذى يسبق الكوبرى بمسافة حوالى ٩٠٠ مترا يبدأ فى الانحدار بشدة ويأخذ فى الضيق باستمرار الى أن يصل الى الكوبرى - وعرضه يسع فى أضيق نقطة مرور ثمانية جنود - وكانت مياه نهر كرسين فى هذا الشهر (يونيو) شحيحة مما سمح لجند السوارى بعبوره بسهولة وكانت ضفته غير مرتفعين .

وبالرغم من الاحتياطات ، حدث ضغط شديد بين الوحدات ، واختل النظام وكان فى استطاعة الأتراك أن يمحطروا نيرانهم على الكوبرى والمضيق ويقلبوا الخطة الجريئة رأسا على عقب بيد أنهم لم يفعلوا شيئا سوى أنهم بدءوا فى تحويل مواقع جنودهم .

واستمر توالى مرور الجند على الكوبرى ساعات طويلة . اجتازته الخيالة والمشاة والمدفعية إلى الساعة الثانية صباحا . وقد أفادت القيادة من التحركات الليلية التى لم يكشف حقيقتها العدو . وبجزد انتهاء وصول الوحدات ، على الضفة الأمامية ، أخذ سليمان باشا يرتب نظامها على شكل مروحة يمينها ويسارها يتركزان على النهر ، ووضع جزءا من المدفعية على منحدر المرتفعات الأمامية فى تشكيل بطريات فى كافة الاتجاهات ، وخلفها ثلاثة صفوف مشاة ثم الخيالة والعتاد ، ثم ما تبقى من المدفعية خلف الصف الثالث .

(١٧) وفى ٢٣ نشط الجيش المصرى فى الاستعداد للمعركة ، واجتمع الضباط بالقائد إبراهيم فى خيمته ، حيث أثنى على ما أبدوه خلال اليومين السابقين . وطلب

إليهم أن يحققوا النصر ، ويرفعوا اسم مصر ، مثلما رفعوه من قبل . ثم اتجهوا إلى خيمة رئيس هيئة أركان الحرب ، سليمان باشا ، الذى ألقى عليهم أوامره وختمها بالعبارة :

” غدا نلتق الظهر فى خيمة حافظ باشا ، حيث نخشى القهوة ... “ .

وانتهى المزيج الأول من الليل بدون أية حركة فى المعسكرين ، سوى أنه لوحظ أن الأتراك يعملون بجد ونشاط فى إقامة استحكامات سريعة وقتية ، لستر مواجعتهم الجديدة ، على قدر المستطاع .

وحوالى منتصف الليل ، انقطع بقية السكون الذى ساد المعسكر بطلقات المدفعية ، وطير العدو خيمتى إبراهيم وسليمان .

واستهل الترشق بالمدافع ، وسط الخيول والجنود ، واختل النظام فى المعسكر ، ولادت الخيول بالفرار — وكان إبراهيم باشا يجول فى مناحى المعسكر ، حاثا الجنود على الصمت ورباطة الجاش ، وملازمة النظام .

أما سليمان باشا فقد أتحه إلى مدافع الصفوف الأمامية وأمر بتوجيه نيرانها صوب وميض مدفعية الترك ونشر نيران مدفيعته فى كافة الصفوف ، وبعد قليل نحدث مدفعية العدو .

وكانت خسائر هذه الاغارة الليلية طفيفة . ولما هدأت الحال أمر القائد العام بالتفتيش ، فظهر أن ما يقرب من مائة جندى وأورطتين من الآلى الثالث الحرس المشاة وجميعهم من السوريين المجندين غير موجودين ، فأمر إبراهيم ضباطه بتعقبهم والبحث عنهم : فوجدوهم متجهين صوب معسكر العدو ، فأرجعوهم وأدعوا أنهم ضلوا الطريق ، فخلدوا وغيروا ضباطهم ...

(١٨) فى ٢٤ يونيو لما طفق نور الفجر يلوح فى السماء ، كان قد تم تشكيل الجيش المصرى فى ترتيب السير الآتى مستلا من كوبرى كرسين :

أولا — ٣ خطوط من المشاة موازية لبعضها ، الخط الأول مؤلف من ٢٠ كتيبة والخط الثاني على يمين الأول مؤلف من ٢٠ كتيبة مثلها ، والثالث على يمين الثاني مكون من ثمانية كتائب ، وجميع كتائب الثلاثة الخطوط بعضها خلف بعض .

ثانيا — على يسار خط المشاة الأول وعلى بعد ١٥٠ مترا منه تسع بطاريات (٥٤ مدفعا) على خط واحد في موازاة خط المشاة المذكورة .

ثالثا — على يمين خط المشاة الثالث وعلى مبعدة ١٠٠ متر منه ١٠ بطاريات (٦٠ مدفعا) على خط واحد في موازاة خط المشاة المذكور .

رابعا — أربع بطاريات (٢٤ مدفعا) خلف خطوط المشاة الثلاثة .

خامسا — أربع بطاريات (٢٤ مدفعا) أمام الثلاثة الخطوط المشاة لمسند الستة الآليات الخيالة التي أمامهم عند الزوم .

سادسا — الستة آليات الخيالة أمام الأربع بطاريات الأخيرة في موازاة خط المشاة الثالث .

سابعا — فرقة الحرس المؤلفة من ١٢ كتيبة خلف الأربع بطاريات التي وراء خطوط المشاة الثلاثة بصفة احتياطية .

ثامنا — لواء خيالة الحرس مؤلف من الآليين أحدهما من لابسى الدروع والآخر من حاملى الرماح خلف الجميع كحرس مؤخرة .

وفي أثناء السير ارتد آليان من الخيالة إلى الخلف من الجهة اليسرى لحراسة مؤخرة الجيش . وفي بداءة المسير للقيام بحركة الالتفاف ، انحرفت القوات قليلا نحو الشمال الشرقى ، في اتجاه يره جك وبعد أن تقدمت القوة حوالى كيلومتر ، في ذات الاتجاه ، ولاحظت القيادة أن الجيش التركى لم يتحرك من مواقعه الدفاعية ، أمرت بالالتفاف نصف لفة إلى اليسار . وبذلك صارت خطوط تقدم الجيش

المصرى موازية تقريبا لخطوط الجيش التركى . ثم كررت نصف لفة أخرى ، واتجه الجيش المصرى إلى ربوتين صغيرتين قبالة الجناح الأيسر التركى ولم يحتلها . فأمر فى الحال سليمان باشا باحتلال العليا منهما (تل سليمان باشا) ووضع بطارية من عيار كبير فوقها كما أمر بوضع أربعة الآيات خيالة خلف الربوة الثانية والآيين من المشاة لسندهم .

أوضاع الجيش التركى :

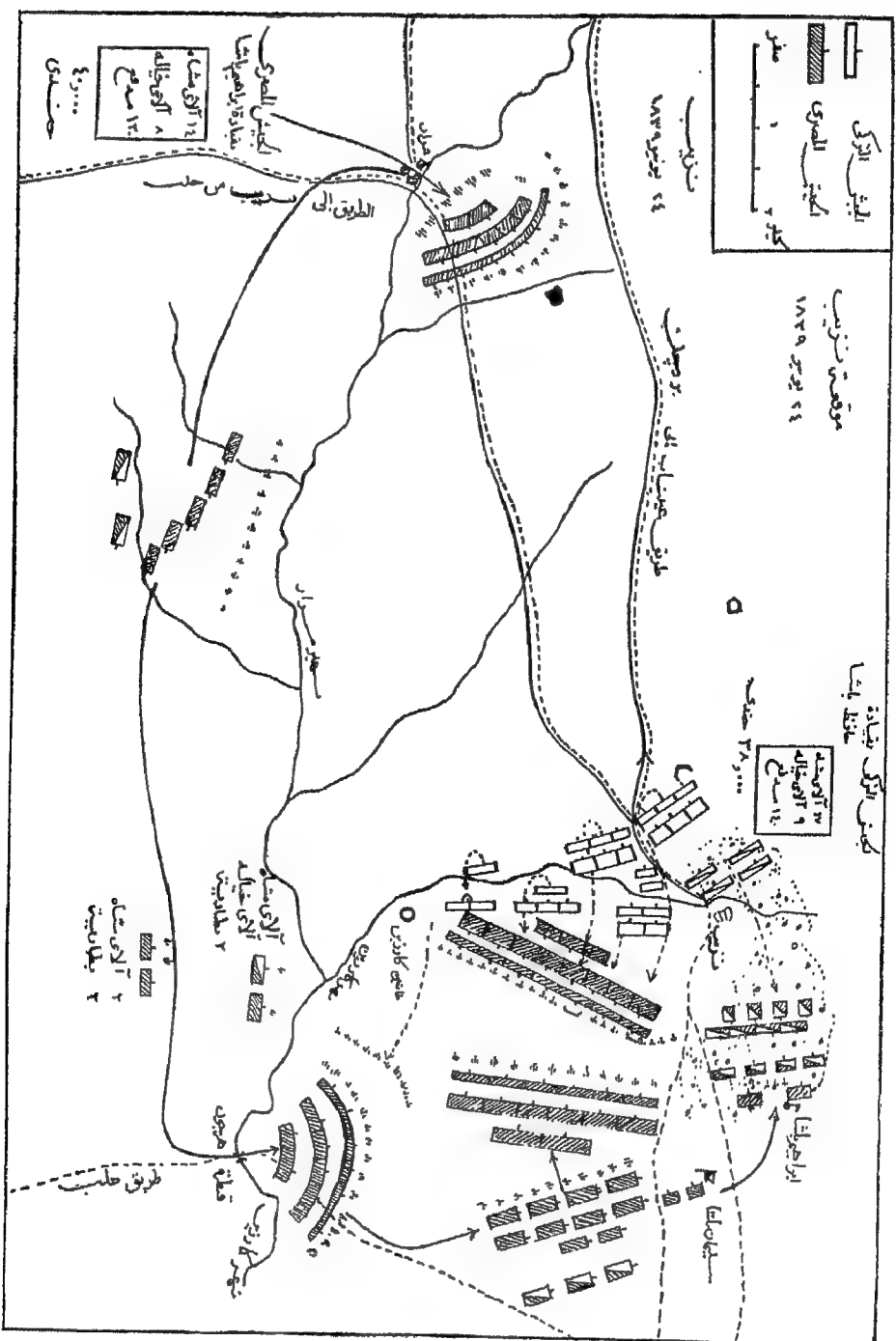
وكان الجيش التركى ، فى موقفه الدفاعى ، موزعا على النمط التالى : تتألف قوة الميمنة من الحرس — والقلب والميسرة من ثلاثة لواءات مشاة — وفى امتداد الميسرة القوات غير النظامية . وفى الخط الأول ١٤ كتيبة و ٩٢ مدفعا وفى الخط الثانى ١٣ كتيبة ، والاحتياطى أربعة لواءات رديف و ٩ آليات خيالة و ١٣ مدفعا . وكانت كتائب الخط فى تشكيل مفتوح وكتائب الاحتياطى فى تشكيل قولات .

والآن يتسنى لنا القول بأن معركة نزيب ابتدأت بالفعل وقد انتهت بالمهدات...

معركة نزيب

بعد أن احتل الجيش المصرى الأكتين ، فطن حافظ باشا الى غلطته فى عدم احتلالها من قبل ، ولكى يحاول إصلاح الخطأ ، بدأ بإطلاق النار على الجيش المصرى ، بينما أمر سليمان بالالتفاف الى اليسار كما يكون جناح المصريين الأيمن أقرب للجيش التركى من وسطه وميسرته — وأمد ميممته بأربعة آليات خيالة وآلى مشاة من الحرس والآلى ١٤ المشاة — وكانت هذه الميمنة بقيادة سليمان باشا ، والقلب بقيادة الفريق أحمد المنكى ، والميسرة بقيادة الفريق عثمان باشا .

فلما شهد حافظ باشا هذه الحركة ، وعلم أن ميسرته هى التى ستتحمل عبء الهجوم نقل إليها بعض كتائب الميمنة ، بل وقرب الى الميمنة بعض الاحتياطى من الخيالة والمدفعية .



وبدأت المدفعية المصرية بالضرب المبرح، فردت عليها المدفعية التركية، واستمر تبادل النيران ما ينوف على ساعتين ، وكانت نيران المصريين منصبة على المدفعية التركية ، بينما مدفعية الأتراك انصبحت على صفوف المشاة المصريين ، فكانت الخسائر أقل ، وقد أسكتت البطارية التي وضعها سليمان باشا فوق تل سليمان عدة مدافع تركية .

ولما لاحظ سليمان باشا أن الميسرة التركية لم تتأثر، أمر بزيادة إطلاق مدفعية الهاون وبدون انقطاع على الصفوف التركية ، وبعد قليل بدأت الميسرة التركية في التراجع ، وفربعض الجنود ، وقد تعرضت معنويتهم ، ولا سيما بعد حدوث انفجارين في عربات جبخانة للجيش التركي ، بتأثير نيران المدفعية المصرية ، ثم تزايد الارتباك في صفوف العدو بعد أن أطلق قائد المدفعية المصرية الأيرالاي جعفر بك صادق بعض الصواريخ على المشاة والمدفعية التركية .

أزمة دقيقة :

لما تبين سليمان حرج موقف الأتراك ، أمر قسما من الصف الأول لميمته أن يتقدم مسنودا من قسم الصف الثاني ، وأمر أيضا بطارية عيار كبير أن تنزل من الأكمة وتتبعهم لتسندهم ، فاتجهت الجنود صوب خطوط العدو ، ولدى اقترابهم منها ، قوبلوا بنيران حامية من مدافعه ومن مدافع أخرى كانت مخفية ، فتهقروا بدون انتظام ، بل مما زاد الطين بلة أن لاذت بعض الوحدات بالفرار ، ومن حسن الحظ أن قلب الجيش وميسرته لم يشعروا بما حصل لليمنة لانخفاضات الأرض وارتفاعاتها ، التي أخفت عنهم حرج الموقف ، وحدث أيضا ، في ذات الوقت ، أن ذخيرة المدفعية المصرية أوشكت على النفاد فاندفعت مع المشاة الى الخلف ، فأسرع سليمان باشا لعلاج الموقف السيئ ، وأمر المدفعية القريبة منه باحتلال الأكمة مرة أخرى ، وأن تفتح نيرانها بشدة على الأعداء وعلى المنسحبين ،

ومما خفف بعض الأثروصول ستة آلايات خيالة وبطاريتين راكبة وآلاى حرس مشاة وآلاى آخر من القوات المصرية الى شرق نزيب ، وكان قد صدر الأمر اليها للقيام بحركة التفاف واسعة حول الميسرة التركية لشدة أزر قوات المشاة التي سبق ذكرها ، وشرعت في تطويق ميسرة العدو والهجوم عليه ، وقد بدأ الهجوم اللواء الأول الخيالة (بقيادة رستم بك) فردّه الأتراك ، وكاد ينتهى الموقف بمأساة ، لولا أن تداركه اللواء الثانى بقيادة الأميرالاي ابراهيم بك الجوخدار .

فى هذه الساعة الحرجة ، كاد الجيش المصرى يغلب على أمره ، لولا وصول الذخيرة الى بطارياتها وفتح النيران الشديدة على ميسرة الترك ، التي كادت تصل لها الإمدادات بصفة مستمرة ، وكذلك القلب . وقد سبب نشاط المدفعية المصرية الكبيرة العيار رفع معنوية قوات سليمان باشا بعد أن كاد أمل النجاح يتبدد ، واستأنفوا الهجوم على الأتراك ، ثم الاقتحام بالسونكى ، وفى هذه اللحظة وصل ابراهيم باشا على رأس آلايين من الخيالة الحرس ، جاء تحت قيادة المنكلى باشا لمعاونة الميمنة المصرية ، وسار الى خلفهما اللواء الثانى الخيالة المؤلف من الآلايين (١ و ١٣) فأكلا المعركة . وهنا بادرت خيالة العدو بالفرار ، وعجلا الآلايان فى سيرهما الى المعسكر التركى فاستوليا على القسم الأيسر منه ، مكتسحين شرادم العدو المتفرقة فى الطريق .

وللسرعة التى وصل بها ابراهيم فضل إنقاذ الميمنة المصرية مما أصابها من التفكك ، وقد كانت على وشك الانهيار والهزيمة ، وبدأت كفة المعركة تميل إلى المصريين ، مما جعل سليمان يستغل الموقف .

وكان القتال عم الجبهة بأسرها ، من الشمال إلى الجنوب ، وانتقل إلى القلب والميمنة التركية حيث قاومه الفريق خالد باشا بكل شدة ، إلى أن أصيب برصاصة قاتلة ، ومن ثم لم تحدث أية مقاومة . بل فتر جنوده بغد إلقاء أسلحتهم . وكانت وحدات الفريق المصرى عثمان باشا تكتسح الأتراك بعدما أدوا واجبهم فى القتال .

ولما لم يطق العدو تلقى هجمات المصريين المتتابعة ، انسحب بقاياها إلى معسكره القديم ، فاقتفى القائد أثرها بمدفعية الخطين الأول والثانى من المشاة ، بينما اتخذ الثالث الاحتياطى للشاة والمدفعية مراكزها على الربوات والقمم المتوجة لموقع المعسكر العثمانى .

وبالاختصار أصبحت هزيمة الترك عامة ^(١) .

أما إبراهيم القائد الملهم فقد اتجه إلى خيمة القائد حافظ باشا فى المعسكر ، ليكتب رسالته إلى أبيه ، وقد جاء فيها :

”أكتب هذه الأسطر تحت خيمة حافظ باشا، التى لم ينقل العدو شيئا مما كانت تحتويه ، وقد استولينا على الأمتعة والمهمات والمدافع والخزائن ، وأسرا عددا عظيما من الجنود . وإنى أودّ أن أقضى أثر الأعداء ولكنى لا أجدر منهم أحدا — وكان تفرق الجيش العثمانى أشتاتا وفراره بسرعة لم نستطع معها إدراكه بعد معركة دامت ساعتين فقط . كان هجومنا عليه من جميع النقط معا . وكان أحمد باشا المنكلى على قيادة ميمتنا وسليمان باشا على قيادة الميسرة . أما القلب فكنت أتولى قيادته ^(٢) وكانت نيران مدفعينا حامية جدا . وقد أعاد هذا الفوز السريع إلى ما كنت عليه فى سنّ العشرين من النشاط والانشراح والقوة . وسنوافيكم بالتفصيل قريبا“ .

انتهى الأمر ، وحلت الهزيمة بجيش السلطان ، واستولى جند إبراهيم على نحو ٢٠,٠٠٠ بندقية و ١٤٠ مدفعا بذخائرها ، كما استولى فى اليوم التالى على ٣٥ مدفعا فى حصن ييره جك . وبلغت خسائر الترك نحو ٤٥٠٠ قتيل وجريح ، وأسروهم بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ رجل . وترك حافظ باشا خزينته وتحتوى على آلاف الجنهات وأوراقه وخططه ورساماته ... وذابت قوات الترك فى الحاميات العسكرية فى الأناضول .

(١) من تقرير سليمان باشا الفرنساوى عن المعركة .

(٢) تم هذا فى الدور الختامى من معركة نزيب .

أما خسائر المصريين فبلغت نحو ٣٠٠٠ بين قتيل وجريح ...

وأصبح إبراهيم باشا ، بعد معركة نزيب : سيد الأناضول على الإطلاق ، وصار الطريق قبالة مفتوحا إلى إستانبول .

وقبلما يبلغ خبر هزيمة الجيش العثماني مسامع السلطان محمود كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة ، وصعدت روحه إلى الرفيق الأعلى .

* * *

لم يقف إبراهيم مكتوف اليدين بعد أن أباد جيش حافظ باشا وبعد أن عثر على خطة العدو الحربية ، فقرأ في فقرتها السابعة أن الاستيلاء على مصر ينبغي أن يكون الغرض الثاني من غرض الأتراك ، وتضمنت توليته واليا على مصر بدل والده . فلما أيقن أن السلطان كان ينتوى أن يجعل هذه الحرب ساحقة ، زال ما عسى أن يكون لديه من أثر التردد في مواصلة الزحف ، وكان في مستهل أعماله أن استرد عيتاب ، وأعد العدة لموالة الزحف على مرعش وملطية وديار بكر .

تحليل معركة نزيب ونقدها

إذا حكمنا بالتأني ، ظهرت لنا معركة نزيب في صورتها الختامية كأبجد صفحة في تاريخ الجيوش المصرية . يضعها بعض المؤرخين في مستوى معركة أوسترلتر التي قضى فيها نابليون على زهرة الجيوش النمساوية . غير أننا إذا تطالعنا إلى سير المعركة ، وتطور أدوارها ، لألفينا أن أخطاء فنية عديدة قد اكتشفناها من جانبي القيادة المصرية والتركية^(١) .

(١) كان المارشال فيجان آخر المؤلفين العسكريين الذين تناولوا نقد معركة نزيب في كتابه المعروف عن حملات الجيش في عهد محمد علي وأحفاده . وقد اقتبس المارشال معظم الآراء التي تضمنها نقده مما كتبه مورييه وكادلفين وبارو وفردنان برييه واورسليان باشا . وهذا القائد نفسه وقد رجعنا إليها في نقدنا بعد اطلاعنا على تقارير إبراهيم باشا ونشرات الجيش المنشورة في الوقائع المصرية .

ولعل القارئ يذكر أنه في ٣٠ يونيو تقدم إبراهيم باشا إلى مزار ، ثم نزيب ، لملاقاة العدو ، ولم تك لديه أية معلومات دقيقة عن مواقع الجيش العثماني أو تفاصيل عن طبيعة الأرض ، التي ستنشب عليها المعركة . وليس هناك أدنى شك في أن القيادة ارتكبت هذا الخطأ نتيجة لعدم المبالاة والاستهتار بالعدو وكادت تقترب خطأ لهجوم عليه بالمواجهة ، لولا تغييرها للخط في اللحظة الأخيرة أو ارتجال خطة الالتفاف والسير الطويل المرهق على مرأى من العدو . كل هذا مخالف للقوانين الأولية لفن الحرب . وصحيح أن إبراهيم ترك بعض قواته في مزار ولكن قام كل الجيش بحركته التي وصفناها من غير أن يفكر في حجز قوة كبيرة من جيشه كاحتياطي له إذا لم تنجح خطته التي اعتمد عليها في تحطيم شوكة العدو نهائيا وكانت نقطة سليمان باشا وإشرافه الدقيق على تنظيم الوحدات ، في خلال سيرها ، وتحمل الجنود أعباء السير المرهق ، بدون توقف ، وتحت حرارة تتفاوت بين ٣٥° و ٤٠° عملا رائعا يستحق الثناء والمدح .

ويا ليت هذه المحنة القاسية قد انتهت لدى هذا الحد ، فإن الجيش ما كاد يصل إلى قنطر هرجون حتى أراد إبراهيم أن يهجم على العثمانيين ويقتل منهم ، في ظلام الليل البهيم ، ويعبر نهر كرسين وهدفه الوصول بقواته إلى الضفة الشمالية من النهر ، وهذه جرأة تدهش أى قائد سوى إبراهيم . فقد اعتاد على أن يأتي بالمعجزات ، ضاربا صفح الحائط بقوانين الميدان ، وأحيانا بنفسية الرجال . وهو خير ما يتصف به إبراهيم ، البطل الجبار .

وخطأ آخر ارتكبه قائدنا المظفر ، فانه في اليوم السابق للمعركة ويوم المعركة لم يؤمن على قواته . وكان يقذف بها كلها بدون حيلة أو حذر . ولولا أن السرعسكر كان أكثر جرأة ، وتناول الموقف بشيء من الصبر لدار رحى القتال دورة أخرى . وعندما ارتجت صفوف الميمنة المصرية ، وكادت تفقد العنان ، لولا تدخل المدفعية الكبيرة العيار ، التي صبت نيرانها الحامية فوق الأكتين ، على مسيرة الترك

والقلب . وفي هذه اللحظة أثبت السرعسكر أنه أضعف من خصمه ابراهيم ولم يفعل شيئا حيال ثبات رجال المدفعية المصرية ، وراحت من يديه فرصتان : الأولى في بداية نزول القوات المصرية في مزار، والأخرى في أثناء تحركها الطويل الى هرجون .

وكان حافظ يؤمن بعقيدة الدفاع كما أمنت بعده بمائة عام (١٩٣٩) رئاسة هيئة أركان حرب الجمهورية الفرنسية بخطط الدفاع في خط ماجينو . ولو أنه قام بعمل مناورة صغيرة فيها شيء من المجازفة لارتد بجيشه الى يبره وقضى على خطة ابراهيم المرجحة — وكان جيش مصر لا يحمل معه إلا مؤونة يومين ! . ولكنها جرأة ابراهيم وبطولته ألقذاته وقاداته الى الظفر الحلو . وكان في مكنة حافظ باشا الرجوع الى وراء الفرات والامتناع به كحاجز مانع ضد عدوه بيد أنه لم يفعل شيئا من هذا قبالة المفاجأة المصرية .

أليست المفاجأة من أهم مبادئ الحرب الخالدة ، التي اكسبت كثيرا من القادة شهرة الذائعة في التاريخ ؟

لم يحفل حافظ باشا بنصائح ضباطه البروسيين ، وفضل أيسر الخطط ، التي تدور في رأس أى قائد — هذه الخطة هي التي رأيناها قد نفذها ، وهي ادارة صفوف الجنود من الغرب الى الشرق ، وعمل استحكامات خفيفة لم تنف شيئا قبالة الطوفان المصرى .

ويا ليت له لم ينس وضع بعض قواته الخفيفة لدى رأس قنطرة هرجون لكي تقاوم الطلائع المصرية بعض الوقت ، ولكي يفيد في خلاله بعمل شيء هام — لم يفعل شيئا من هذا أيضا بيد أنه قنع بالركود في مواقعه الحديدية وانتظار المكتوب في القسدر ، عملا بمواعظ رجاله المولوية والبكاشية حملة القماقم ولا بسى الطراطين والقفاطين ! !

لنطالع ما ارتكبه ابراهيم مرة أخرى من مخالفة لقوانين الميدان المقدسة لدى الجند ! — قبل ابراهيم المعركة متجها بقواته نحو الغرب والى ميسرته نهر كرسين والى خلفه الفرات الكبير . وفي هذا الوضع الحرج لم تك له خطوط تقهقر يرتد عليها عند اللزوم . وقد يردّ على هذا النقد معجب بابراهيم قائلا ومتى عرف ابراهيم القهقرى ؟ إن هذه الكلمة لا وجود لها في عقريته الشائخة ولكننا — ونحن من المحافظين — نرى أنه ينبغي ألا يحمل القائد التفكير فيما سيحدث أو لا يحدث بيد أننا نحمد العاقبة — بعد أن رأينا خصمه يقف موقفا سليما — ولولا هذه السلبية مرة أخرى لما توج النصر هامة أبطال تزيب .

والراهن أن اعتماد ابراهيم اعتمادا كلياً على ميئته جعل خطته هشة ، سريعة الكسر ، لو لم يك حافظ باشا قبالة . ولكنها المدفعية مرة أخرى هي التي انتشلت الموقف . فقد كان المدفعيون هم رجالات تزيب ، الذين نجح ذكراهم ، ونجى لهم رؤوسنا ، ولا ننسى معهم نشاط سليمان وحسنه في سرعة إدارة المعركة وتوجيهها .

لقد وقع عبء القتال برمته على الميمنة ومدفعية المصريين . أما القلب والميسرة فكان نصيبها في المعركة عادي للغاية ، ولا نستطيع أن نقول بأن قواتهما اشتركا في اللحظة الحرجة .

ولم يفسد حافظ باشا من أخطاء خصمه ابراهيم ، ولو مرة واحدة ، حتى في أسهل المواقف عندما ابتدأت ميسرة المصريين في الفتح ومعاونة الميمنة — كانت أمام حافظ باشا فرصة أضاعها بسليته وفقد روح القتال . ولولا ذلك لتسنى له بميمنة القضاء على ميسرة المصريين . لكنه لم يفعل شيئا ولم يفكر فيما يعرف بإصلاح الهجوم المضاد ، نظرا لأن المفاجأة والجرأة والمبادأة أيضا ، وهي من عناصر نجاح ابراهيم ، غلبت على أمره ، وقضت على جيش السلطان .

ونلخص موقف حافظ باشا في العبارة التي وصفه بها المارشال فيجان وهي :

“Il a maintenu son armée dans une immobilité passive, il a soumis ses Jeunes recrues a l'épreuve la plus rude que puissent supporter des troupes non aguerries, se faire tuer sur place. Dans ces conditions le dénoyement était fatal”.

والخلاصة ، فبالرغم عن النصر وعن نتائج نزيب في السياسة الدولية ، فانها لا تعدّ ظفرا عسكريا فنيا لإبراهيم من طراز معارك حمص وقونية ، حتى فيما يعود على المشاة . لأن الفضل في النجاح يعود — ولا مرأى — إلى المدفعية — والمدفعيون من وراء مدافعهم الثقيلة . فكأن المشاة قد اعتمدوا على ما جنوه من شهرة مضت . حينما أدوا واجبهم في سلاح المشاة ، ملكة الأسلحة في معركتي حمص وقونية .

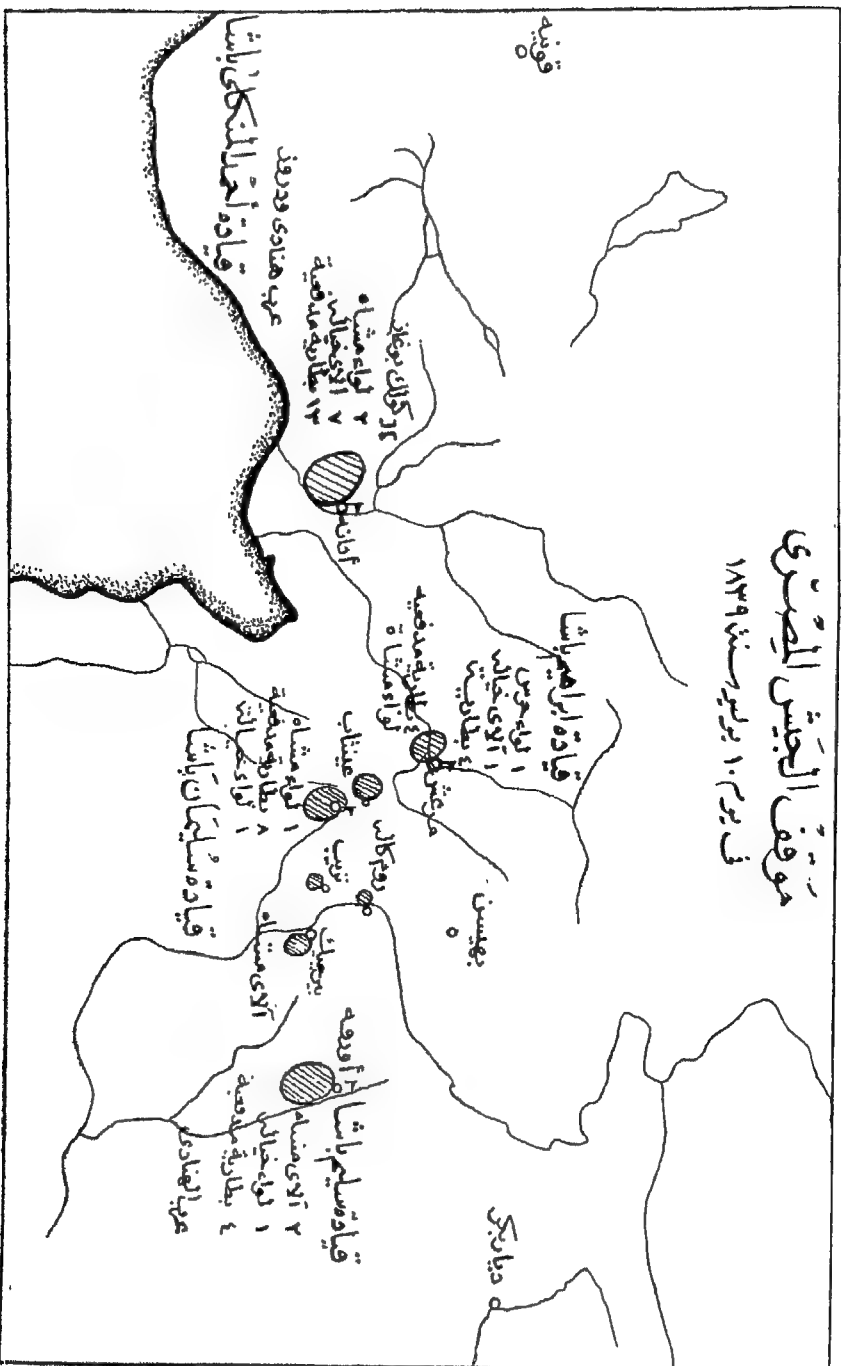
وليس معنى هذا النقد انتقاص من قدر القائد إبراهيم . كلا ، فان أعمال إبراهيم في ميادين الحروب والإدارة قد سجلها التاريخ بمداد الفخار والإطراء . والنقد فن ليس هناك أيسر منه . أما قيادة الجند والظفر بهم في ساحات القتال ففقد لا يحمده إلا طراز فريد من الرجال ، بل أقرب إلى الرمل والقادة والمصلحين ، الذين تبخل بهم الدنيا ولعلها يظهرون على مسارح العالم إلا نادرا .

خاتمة النص

في مساء يوم نزيب ، يمت فلول الأتراك المحطمة الى مرعش ، وفز بعضها نحو الجبال شمال بيره جك ، ومضى حافظ باشا في طريقه الى روم كاله وبهينة ، لعله يجمع أشتات قواته في مالطية .

وكان الجيش المصرى قد أنهكه القتال ، فسمح إبراهيم لجنده بالراحة يوما . وفي السادس والعشرين من يونيو غادر قائدنا نزيب تصحبه ثلاثة آلايات من المشاة وبطارياتان وعرب الهنادى ، وقصد بيره جك التي كان يحميها آلاى من

ف ۱۰ یوس ۱۸۳۹



مشاة الترك ، فولى هؤلاء الأدبار مذعورين حينما اقترب منهم المصريون ، وغنم الآخرون ٣٥ مدفعا من العيار الكبير . ولم يمكث ابراهيم كثيرا حتى سلم قيادة القوة إلى القاتمقام معجون بك ، قائد الهنادى ، وأمره بالاستيلاء على مستودعات التعيين والعتاد فى أورفة (شرق بيره جك) وارتد هو وبعض الخيالة الى نزيب .

وفى مساء السابع والعشرين ، قام ابراهيم على رأس أربعة آليات مشاة وستة خيالة وست بطاريات فى اتجاه مرعش ، التى مرت بها فلول العثمانيين ، وفى صباح ٢٨ دخل عينتاب . وحين أقبل مساء ٢٩ عسكر فى اينجاسويو ، شمال غربى عينتاب ، وكانت خطة ابراهيم فى القضاء على العثمانيين أن يتجه سليمان باشا إلى مالطية وأورفة فى الشرق ، بينما يتجه هو بقواته من أدنة إلى قونية ، عن طريق مضيق طوروس .

وبينا يرتب ابراهيم خطته فى اينجاسويو ، وصل كابتن كاييه ، رسول الحكومة الفرنسية . يحمل خطاب محمد على المؤرخ فى ١٦ يونيو لابنه ، الذى يقول له فيه ما معناه ، ” إلزم مكانك ولا تتقدم “ .

العودة إلى كابتن كاييه رسول فرنسا :

ذكرنا ضمن الحوادث الممهدة لمعركة نزيب وصول هذا الضابط الى مصر ومقابلته لمحمد على ثم سفره على التو لملاقاة ابراهيم فى الميدان ، فوصل الى معسكره بعد أن تصرمت معركة نزيب .

وعقب أن رحب به ابراهيم ، قال الكابتن إنه قد سافر ليلا ونهارا لى يكون أول مهنئيه ! ! ثم أمسك عن الحديث برهة ، الى أن قال :

” إننى أحمل اليك خطابا من أبىك “ .

فسر ابراهيم حين أصغى الى هذا النبأ ، وفض خاتم الرسالة من فوره . وما كان أشد أسفه إذ تلا فيها أمرا من أبيه بوقف تقدم الجنود . ومن ثم لم يتمالك نفسه وصاح غاضبا :

”هذا محال، لقد كتب هذا الخطاب قبل أن ننال النصر في نزيب، إن هذه الموقعة وما سبقها من تحرش بنا يبطلان هذه الأوامر — ولذلك لن أعمل بها، وسأتحمل تبعة عصيانها“ .

لقد حزن إبراهيم . وحاول كاييه أن يجادله ليقنعه ... فراح يؤكد له معارضة أوروبا في قيام الحرب وأشار إلى أوامر محمد علي ، وإلى تدخل الدول الكبرى . بيد أن القائد أبى أن ينصت إلى هذه الحجج وأجابه بقوله :

لقد درست التاريخ أليس كذلك ؟ فهل سمعت مرة أن قائدا منتصرا وقف عن مواصلة زحفه ، إن كنت قد سمعت بذلك فأنا لم أسمع به .

وحاول هذا الرسول الملحف أن يؤثر على إبراهيم ، ولكن عبثا جاهد، فقد ضاعت خمس ساعات في هذه المقابلة دون أن تحدث المعجزة . وفي فجر اليوم التالي ، وقف كاييه على الأرض وأطلق للسانه العنان بينما كان يستعد إبراهيم للخروج من خيمته ، فاضطر آخر الأمر إلى القول : ”لست أريد أن أدعوك إلى الخروج ولكنني أقول لك إنك إذا ظلمت تتحدث إلى عشر سنين طويلة فلن تستطيع أن تحولني عن رأيي“ .

ويقول كرايتس كاتب سيرة إبراهيم^(١) — وهنا قدر إبراهيم فأخطأ التقدير، لأنه بقوله هذا كان يحكم على المستقبل .

ولم يك كاييه يجهل فهم عقلية إبراهيم — إذ اعترف في حديثه هذه المرة أن تكون رغبات محمد علي هي المحور الذي يدور عليه كل حديثه — وأن لا يذكر شيئا عن الدول إلا النذر اليسير .

ولم يك في مكتة إبراهيم أن يتغلب على هذه الخطة ، لأن حبه لأبيه لم يك حبا عاديا . وإنما كان شغفا بل تيمنا بل ديننا . ولم يك يستطيع أن يسلك سبيلا قد

(١) الترجمة العربية ص ٢٤٨ — محمد بدران .

لا يرضى عنها محمد على . وما كان هذا لخوف منه بل لحب فيه — ولهذا انحلت عرى مقاومته وهو واقف على قدميه وجواده المحبوب يبحث الأرض بحافره على قيد بضع خطوات منه . وعندئذ أجاب كاييه الى ما طلب ، ورضى أن لا يعبر جبال طوروس ، وأن تقتصر أعماله الحربية على احتلال مرعش وأورقة . وهما نقطتان لا غنى عنهما لضمان تموين جيشه . ولم يتحرك من مكانه ، حتى أمر أن يوفد رسولا ليلحق طلائع جنوده ، ويحول دون زحفهم ^(١) . فعل ذلك إبراهيم وهو أسف جل الأسف على ما فعل ... فعله في ساعة النصر ، لأنه لم يشأ أن يثير المتاعب لأبيه . وكان رضاه وموافقته بداءة نكوص محمد على قبالة تهديدات الدول الأوروبية ، التي لا تبغى للشرق سوى الخمول والمتاعب .

* * *

وكانت أهم مراكز الجيش العثماني آنذاك في قونية ومالطية : كان في الأولى ٢٥,٠٠٠ جندي وحوالي ٤٠ مدفعا ، وكان في الثانية حوالي ٢٠,٠٠٠ جندي و ٢٠ مدفعا .

أما موقف الجيش المصري في أول يوليو ، فكان كالآتي :

(١) في أورفة : ثلاثة آلايات مشاة (٢٦,١٤٩) بقيادة سليم باشا ، وقد انفصل آلاي منها لحراسة بيره جك ، ولواء خيالة (الآلايان ٢ و ٨) و ٤ بطاريات مشاة وعرب الهنادي وكتيبة احتلت نزيب وأخرى في روم كاله (قلعة) .

(٢) في عنتاب : قيادة سليمان باشا بعد عودته من أورفة وتحت قيادته — لواءان من المشاة (آلاي الحرس والآلايات ٦ و ١٧ و ٣٤) وأربع بطاريات من الحرس ومثلها بطارية مشاة .

(٣) في مرعش — قيادة إبراهيم باشا ومعه الآلايان ٢ و ٣ من الحرس والآلاي ١١ الرماحين — ٤ بطاريات خيالة (آلاي مدفعية الحرس) .

(١) كادلفين وبارو — تاريخ الحرب بين محمد على والباب العالي .

ولحماية خطوط المواصلات في إنجاسويو — بين مرعش وعينتاب — قلم لواء المشاة (الآلاى ١١ و ١٢) ومعه بطاريتان بتلك المهمة والحراسة ممرألماداج .
(٤) وفي أدنة — تجمعت تحت قيادة أحمد المنكلى باشا قوة كبرى لمراقبة مداخل مضيق طوروس في اتجاه أركلى وقونية — وكانت تتألف من :
لواءان مشاة (الآلايات ٥ و ١٤ و ٣٠ و ٣١) و ٧ آلايات خيالة (رماحة الحرس والآلايات ١ و ٤ و ٦ و ٧ و ١٠ و ١٣) و ١٣ بطارية وقوة من الهندادى والدروز .

وعلى ذلك يلاحظ أن معظم الوحدات المصرية كانت متجمعة بين عينتاب وأدنة — وكان مركز ثقلها في مرعش — وكانت جبهة أورفا — ملطية ثانوية ، ولاشتراك في ملطية حوالى عشرة آلاف .

وكانت قوات الجيش المصرى في الشام ٣ آلايات مشاة (الآلاى ١٨ في بعلبك و ٢٥ في دمشق و ٣٥ في عكا) وآلاى خيالة (١٢ رماحين) في بعلبك . ولا يخفى أن هذه الوحدات لم تكن مرتباتها الحربية كاملة ، فقد نقصت كثيرا . وعلى ذلك لم يتجاوز جيش ابراهيم الرقم ٤٦٠٠٠

بينما كان يجرى هذا في الأناضول وقع حادث هام للغاية — ففى ١٤ يوليو سلم أمير البحر أحمد فوزى باشا ، قائد الأسطول العثمانى ، وعدو خسرو باشا ، جميع سفنه الى محمد على باشا في الميناء الغربى بالإسكندرية . وكان هذا الأسطول يتألف من ٢٠ بارجة تحمل ٢١٠٠٠ بحار و ١٦٠٠٠ من الجنود .

ومن هذا يتبدى أن السلطنة فقدت في أيام ، جيشها وأسطولها وسلطانها !
فياله من موقف حزين عصيب .

* * *

كان يتعين ، بعد إيقاف ابراهيم عن التقدم ، إقرار مصر في حدودها التى استحوذ عليها بمقتضى اتفاق كوتاهية ، أى أن تشمل سورية وبلاد العرب وأدنة

وكريت . ولكن أوروبا لم تعامل مصر بمثل العطف الذى عاملت به اليونان فى ثورتها على تركيا . وكان انتصار مصر فى معركة نزيب سببا فى تقلقل التوازن الأوروبى والمسألة الشرقية ، فوقفت الدول الكبرى مواقف متباينة ، تبعا لأطماعها ونزعاتها ، بل لقد جاهررت علنا إنجلترا بعدائها لمصر وأعلنت وجهة نظرها فى وجهب المحافظة على كيان السلطنة العثمانية .

هذا وبينما رجال الباب العالى يعملون لإصدار فرمان لتحقيق اتفاقية كوتاهية اجتمع ممثلو الدول الخمس فى الآستانة (بروسيا وفرنسا وإنجلترا والنمسا وروسيا) وأرسلوا مذكرة الى الباب العالى أعلنوا فيها أن الاتفاق بين الدول الخمس الكبرى أصبح أمرا واقعا ، وأنها تدعو الباب العالى ألا يبرم اتفاقا من دون أخذ رأى الدول .

واتفقت إنجلترا وروسيا على تحطيم قوة مصر الخارجية وانتزاع الشام من محمد على وحرمانه من فتوحاته التى أنفقت مصر فيها أموالها ودماء أبنائها تسع سنوات .

وعجل بالمرستون بالاتفاق مع مندوبى روسيا والنمسا وبروسيا (ما عدا فرنسا) على الوقوف فى وجه محمد على — وأمضوا معا فى لندن معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ وأهم شروطها تلخص فى أنه إذا خضع محمد على " فى خلال عشرة أيام " ورد كريت والأماكن المقدسة ببلاد العرب وأدنة والشام أعطته الدولة ولاية مصر وراثية وولاية عكا مدة حياته ، وإلا أخضعت الدولة بالقوة ، ونظرت فى أمره من جديد .

رفض محمد على هذه الشروط ، وطفقت الصحافة الفرنسية تندد بالسياسة الانجليزية ، وكادت تشتعل الحرب من جراء المسألة المصرية .

وذهبت فى أنشاء ذلك أساطيل الحلفاء وحاصرت سواحل الشام ثم استولت عليها ، وانتشرت الفتن فى الشام ولبنان ، بفضل رجال المخابرات الانجليزية — فاضطر محمد على أن يرسل لابنه أمرا بالانسحاب من الشام .

أصدر إبراهيم أوامره الى جيشه فى التاسع والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٤٠ بالجلاء ، وقد كان يؤلف من ٥٥٠٠٠ جندى بصحبته ١٥٠ مدفعا ، وكان يتبع ذلك الجيش نحو سبعة آلاف من الأسرات والأتباع . بدأ الحشد فى حلب ، وبعد ستة أيام من خروج إبراهيم باشا من دمشق ، أعيد حكم السلطان .

وفى المزريب (شرق بحيرة طبرية) ارتاح الجيش ثلاثة أيام ، ولكن مما يذكر أن البرد كان شديدا . وقد قسم إبراهيم جيشه الى خمسة أقسام : أحدها بقيادة أحمد باشا الدرعه ملى والثالث بقيادة أحمد باشا المنكلى ، والرابع بقيادة سليمان الفرنساوى ، والخامس بقيادته . وعين للقسم الأول طريق شرق الأردن الى غزة والعريش ، والثانى طريق الحج ومعان فالعقبة ومنها الى نخسل والسويس ، أما هو وكان قسمه مؤلفا من الحرس وعرب الهنادى والباشبوزق بفعل وجهته غزة ليركب منها البحر الى مصر ، وتمكن إبراهيم بحسن خطته ، ودقة نظام جيشه ، ونشاط ضباطه ، من أن يلعب بقواد الخلفاء الذين كانوا يتربصون له فى الطريق ، وأن يفلت من بين أيديهم ، حتى قالوا فى وصف ارتداده ورجوعه سالما ، أنه ربح أكبر معركة سلمية بالارتداد ، وقد تحمل جيش ابراهيم متاعب جد كبيرة لايحتملها جيش آخر لأنه كان يسير فى الصحراء القليلة الماء والزاد ، حتى اضطر الجنود الى التهام حوم الخيل ، وأن يعيشوا أياما على عشب برية ، وكانوا قبل وصولهم الى السواحل فى غزة أو العقبة يكافحون الجوع والعطش وقطاع الطرق .

وفى الخامس والعشرين من يناير ، وصل القسم الأول من جيش ابراهيم الى غزة أما جيش سليمان فانه سار على طريق الحج وكان يحسب أنهم سيرسلون اليه من مصر ، بطريق صحراء السويس ، الزاد والماء ، ولكن خاب أمله .

وصل إبراهيم الى غزة فى الحادى والثلاثين من يناير ، وأرسل الى والده يسأله بعض حاجيات الجيش فبعث بها اليه ، ثم غادر آخر جندى غزة فى ١٩ فبراير عام ١٨٤١ .

ومن المحزن أن الجيش — في خلال انسحابه من الشام — فقد ما لا يقل عن ثلاثين ألفاً. وهكذا عاد جيش مصر بعد أن حظى بالمجد والظفر في أربع معارك كبرى . ولو شاء وشاءت السياسة لجعل لمصر حقها الواسع في الحياة .

عاد الجيش الى وطنه — وكان جيشا لم تعرف صفوفه الهزيمة مرة واحدة — على رأسه قائد شاركه في جل أطواره ، لم تنقصه القرينة العسكرية . وكفى محمد علي من ذكرى خالدة أنه استطاع في اثني عشر عاما فحسب أن يضع تحت إمرة ابنة جيشا مصرية مؤلفا من مائتي ألف جندي في دولة ناشئة لم يتجاوز عدد سكانها الأربعة ملايين .

والراهن أن عمله كان شديدا بمعجزة من المعجزات !

ابراهيم القائد

الآن وقد انتهينا من كتابة هذه السطور . نرى لزما علينا أن نستوفي البحث في عدة أسطر، عن إبراهيم القائد، تقديرا بل وفاء لهذا الجندي الباسل ، الذي كان المنفذ الفريد لسياسة أبيه ، في إقامة دولته العتيقة .

ولعلنا قد وقفنا على النجاح الذي أصابه إبراهيم في جل المعارك ، التي حاربها ضد قادة جيوش الترك ، واختمر في رؤوسنا أنه قائد من طراز نادر . لقد أكمل مشروعات أبيه في خلال حياته وليس كاسكندر الأكبر عقب انقضاء فيليب . وفضلا عن ذلك ، فإن سجايا الجندي الكاملة قد تأصلت في إبراهيم كما رأينا .

كانت لإبراهيم قدوة عجيبة على "فلوذة" جنوده — نعم يعملهم كالفلولاذ في الصلابة والصمود قبالة أعدائهم ، فلا يلبثون له ، أو يهزمون أمام إرادته . وقد كان لقوة تأثيره عليهم ، وضربه المثل لهم أكبر ضمان للظفر الذي كلال همتهم ، في كل معركة قاتلوا بشجاعة فيها . لا يرضى أن يعمل أحقر رجل في جيشه ما لا تطاق نفسه هو على عمله . يطيعه الجميع ، ويخشونه أكثر من سواه ، لأن في يده العقاب ، ومع ذلك التفت حوله قلوب الجنود . كنت تراه في حروبه دائم اليقظة

كالصقر لا يغفل عن الرقابة ، يدهش الأفراد بسرعة تنقله بين الصفوف ، دون أن يشعر به أحد . لا يحيط به في حله وارتحاله سوى أربعة أو خمسة من رجاله — وكثيرا ما ينام على الثلج في العراء ليضرب بذلك القدوة لغيره — وهو حذب على جنوده يعطف عليهم ويحادثهم ويشجعهم ، ويصنئ الى قصصهم ، ويثبت في قلوبهم الشجاعة ، ويشاركهم في شعورهم ، ويجلس معهم في مضاربهم . ولكنه لا ينسى قط مقامه . وكان يثني — دوماً — على الأمة التي أنجبتهم ، حتى صاروا يحسبونه درعا يحمون به من بعض ضباطهم الترك وبلغ من أمرهم أنهم كانوا أحيانا يرفضون تنفيذ أوامره ويقولون أنهم سيرفعون أمرهم الى ابراهيم .

ولما كان ابراهيم يعرف أنه بطبعه حاد المزاج ، سريع الغضب ، فانك تراه أحيانا إذا استثير يمشي ذهابا وجيئة ، ويشتم السعوط ويطلب ” الشبك ” كأنه يهدئ بهما أعصابه ، قبل أن يصدر أوامره .

ترى ابراهيم ، في ميدان القتال ، رابط الجأش لا يفارقه هدوءه إذا دنت ساعة الخطر في الميدان .

لم يسلم خير القادة وأعقلمهم من الخطأ ، وقد لامه الكثيرون من الكتاب الأوروبيين أو الحاسدون . ونقول أن ابراهيم لم يك معصوما من الخطأ ، فان له أغلاطه ، ولكنه لم يك بالرجل الخلف ولا الهمجي الجاهل المتلهف على المعالي . وكان يحظى بكل المزايا المرغوبة لقيادة الجند في الشرق .

وصفة القول أن الصفات التي تميز ابراهيم بها تتجمع في الشجاعة النادرة ، وفي القوة البدنية الهائلة ، وفي النشاط الجسمي والحظ والتوفيق ، وسط الأخطار المحدقة ، والحيلة الواسعة ، والهدوء ، وضبط النفس في أخرج الأوقات وأشد الأخطار ، والقدرة الهائلة على كتم عواطفه ومشاعره .

وطبيعى أن بعض هذه السجايا كانت تنقلب في بعض الأحيان الى نقائصها : فكان في بعض الفترات جريئا مخاطرا في البداية — وهو الذي عرف بشدة الحذر .

وكان قاسيا ولا سيما حين لم تك السياسة تملى عليه الحلم والعفو، وحين كان لا يخشى
الرأى العام الأوروبي . وكان إبراهيم — فضلا عن ذلك — وثيق الاعتداد بنفسه ،
لا يلقى الى النصيحة أذنا صاغية ، ولا يحفل بأراء الآخرين ، اللهم إلا إذا وجد
في مأزق صعب وأزمة خطيرة . كما أنه في بعض الأحيان يسرف في الوعود إبان
الأزمات التي كانت تمر به ، ثم ينسى هذه الوعود بعد ذلك ضاحكا من بساطة
الذين خدعهم بها . وهكذا نرى إبراهيم يجمع بين طرفي النقيض . وكان من رجال
المتناقضات ، والحق أن سمته كانت تشهد بالهدوء والطيبة في أوقات سروره ،
بيد أنه إذا ما قطب جبينه تبدى على وجهه طابع القسوة والشدة والاستهانة بكل
شئ . وكان أقل الأسباب كافيا لإحداث هذا التغير في سمته من الطيبة الى الشدة
وكان ذلك يبعث الرعب فيمن حوله — وكان صوته قاصفا لا رنين له ويلوح
في بعض اللحظات كزئير الأسد . ولم يك يستطيع أن يقرب منه دون وجل
إلا القليل من أقاربه ، وكان الكل يخضعون لنفوذه . وكانت شخصيته وحدها
خليقة ببعث هذا الاحترام . ولم يك الباعث عليه رتبته ونفوذه وحسب . وكان
يعرف كيف يستغل الرجال فكان يداعبهم ويقربهم إليه إذا اقتضى الأمر .
وكان يعرف كيف يشجع جنوده ويحملهم على مجابهة أشد الأخطار بشجاعة مثلى .
وكان وجوده شديد التأثير في قدرتهم على القتال .

وكان يستطيع أكثر من أى شخص آخر أن يستغل في القتال الموارد القليلة
الموجودة في البلاد . وإذا كان في بعض الظروف يلجأ الى التخريب — كما حدث
في معارك المورة — فإن ذلك كان في الضرورة القصوى — وكان إبراهيم في ذلك
الميدان أكثر اعتدالا من غيره من القادة .

ففى البلد الذى لم تدله أى أداة إدارية ، ولم يك فيه أى فرع من فروع الإدارة
الحكومية المنظمة ، استطاع إبراهيم أن يخلق كل شئ وأن يعمل كل شئ بنفسه .
وكانت الثقة تحل أينما ظهر .

قاد إبراهيم الحملات العسكرية التي تمت في عهد أبيه ، وقد شهدناكم من القادة الأتراك ولآهم السلطان قيادة جيوشه ، بيد أنهم لم يفوزوا من إبراهيم بطائل — ذلك لأنه كان من « عيار » ممتاز نادر .

امتاز بالكفاية والمقدرة والخبرة بأساليب حروب العصابات والحروب المنظمة ، بالرغم عن عدم تمسكه بقوانين القتال المسدونة في كتب عصره . بل قل كان يشور عليها ولا يتبعها ، لأن في طبيعته الشيء الكثير مما يضمن النصر ، ويحقق أغراض الحرب .

كان يفكر في الأمر ، ثم يعزم عليه ، ثم يعمل ، واضعا نصب عينيه مواطن الضعف من عدوه ، ويجيشه من تلك الناحية ، فيوجه إليه الطعنة القاتلة . كان يعرف إبراهيم — دواما — مقدرة خصمه ، سواء أكانوا من سكان البوادي أو الأناضول أو أوروبا أو بلاد الأغر يق ، ولذلك أحرز النجاح في أشات مشروعاته .

كان لا يقدم على قتال عدوه إلا إذا أكل حشد الجنود ووضع ترتيباته الادارية وشرح لهم خطته ثم ينزل عليه بضربته القاصمة ، بينما يشرف أثناء القتال على أن كل وحدة تنهض بتنفيذ نصيبها في المعركة على أكل وجهه — فإذا شاهدها تخيب رجاءه — بادر باصلاح الموقف بما يتطلبه من نقل جنود أو معاونة بالمدفعية أو احتلال موقع دفاعي مؤقت لستر خطة الهجوم المضاد في الوقت المناسب . ولذلك كان يفضل دائما أن يكون في طليعة جيشه ليشرف بنفسه على المعركة ، ويرقب مواطن الضعف من عدوه ، ويوجه إليها ضربته القاضية .

هذه هي صورة لقيادة إبراهيم الكبير ، ولعلنا قد وقفنا في وصف الجانب الهام منها فنكون قد أدينا بعض الواجب في مناسبة مرور مائة عام على وفاته ، رحم الله البطل ، وطيب ثراه ، وأسكنه فسيح جناته ...

المراجع

ليت كان الوقت متسعا للاستعانة في كتابة هذا الموضوع — بالوثائق المودعة ضمن المحفوظات التاريخية في قصر عابدين العاصر — ولقد كان معجم الأستاذ أسد رستم لوثائق الشام (٤ أجزاء) خير مساعد لنا للوقوف على أهم الوثائق التاريخية التي تتعلق بحروب الشام — فرجعنا لها مع اعداد الوقائع المصرية .

وكانت أمنيته أن ننشر في ملاحق هذا الموضوع صور أهم الوثائق ولا سيما التي تتصل بمنشورات الجيش وتقارير المعارك . . الخ ولكن المجال لم يكن فسيحا فانتفعنا بها في متن الموضوع كما يتضح للقارئ .

وفيا لي ثبت بأهم المراجع العربية التي أفدنا منها — ولأصحابها الشكر الجزيل :

(١) أسد رستم .

الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ٥ مجلدات
بيانات بوثائق الشام وما يساعد على فهم مقاصد محمد علي باشا الكبير .

(٢) أمين سامي باشا .

(٣) ادوار جوان وترجمة محمد مسعود .

مصر في القرن التاسع عشر .

(٤) الفريق اسماعيل سرهنتك .

حقائق الأخبار عن دول البحار ٣ أجزاء .

(٥) الخوري بوليس قرالى .

فتوحات ابراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسوريا .

(٦) داود بركات .

البطل الفاتح ابراهيم باشا .

- (٧) عبد الرحمن الجبرتي .
عجائب الآثار في تراجم الأخبار .
(٨) يوزباشى عبد الرحمن زكى .
الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير .
(٩) عبد الرحمن الرافعى .
الحركة القومية ج ٢
(١٠) الأمير عمر طوسون .
صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على .
مقالات هامة فى مجلة الجيش المصرى .
نرائط ومصوِّرات
(١١) كلوت بك وترجمة محمد مسعود .
لمحة عامة فى تاريخ مصر ج ١ و ٢
(١٢) كرايبتس وترجمة محمد بدران .
إبراهيم باشا .
(١٣) كريم ثابت .
محمد على .
(١٤) ميخائيل مشاقة .
مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان .
(١٥) محمد رفعت .
تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة .
(١٦) محمد قاسم وحسين حسنى .
تاريخ القرن التاسع عشر .
(١٧) محمد شفيق غربال .
محمد على — سلسلة أعلام الإسلام .

المراجع الأفرنجية :

- (1) **Cadalvene et Berrault** : Histoire de la guerre de Mehemet Ali Pasha contre la Porte Ottomane en Syrie et en Asie Mineure.
- (2) **Cadalvene et Berrault** : L'Égypte et la Turquie de 1829 - 1836 2 Vols.
- (3) **Guemard, G.** : Les Reformes en Égypte 1760 - 1848.
- (4) **Hamont, P. N.** : L'Égypte sous Mohammed Ali, 1845.
- (5) **Mengin, F.** : Histoire de L'Égypte sous le Gouvernement de Mohammed Ali. 2 Vols. 1823.
- (6) **Moltke, Helmuth Von** : Briefe über Zustands und Begebenheiten in der Turkie aus dem Jahren 1835.
- (7) **Mouriez, P.** : Histoire de Mehmet Ali. 1857. 4 Vols.
- (8) **Paton, A. A.** : A History of the Egyptian Revolution. 1863. 2 Vols.
- (9) **Phillips, W. A.** : Mehmet Ali; "The Cambridge Modern History Vol. X, Chapter 17."
- (10) **Planat, J.** : Histoire de la Régénération de L'Égypte.
- (11) **Puckler-Muskau, Prince** : Egypt under Mohammed Ali, 1845, 2 Vols.
- (12) **Rustum A. J.** : The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria (1830 - 1841).
- (13) **Sabri, M.** : L'Empire Égyptien sous Mohammed Ali.
- (14) **Shafic Ghorbal** : The Beginning of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali, 1928.
- (15) **St. John, J. A.** : Egypt and Mohammed Ali, 1834, 2 Vols.
- (16) **De Vaulabelle, A.** : Histoire Moderne de l'Égypte, 1801-1834.
- (17) **Vingtrinier, A.** : Soliman Pacha, Coll. Sèves., 1860.
- (18) **Weygand** : Histoire Militaire de Mohammed Ali et ses Fils, 1936, 2 Vols.



كَمَل طبع كتاب "ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا" بمطبعة
دار الكتب المصرية في يوم الخميس ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣٦٧
(٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٨) م

محمد نديم
مدير المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٢٣/١٩٤٨/٣٠٠٠)

